الدكتور محمد طه الحاجري

دراسات وصور

من تاريخ الحياة الأدبيّة في المغرب العربي

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

دراسات وصور

من تاريخ الحياة الأدبيّة في المغرب العربي

الدكتور
محمّد طه الحاجري

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

القسم الأول :

القسم الثاني :

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في مثل هذه الأيام من خمسة وعشرين عاما مضت كنا جماعة من اساتذة الجامعات المصرية واهل العلم والخبرة في مصر نجلس في احدى قاعات قصر المنار في بنغازي ، وهو القصر الذي وقع الاختيار عليه ليكون مقر الجامعة الليبية الناشئة ، اول جامعة وطنية ، اذ ذاك ، في المغرب العربي ، نناقش ما ينبغي ان يكون عليه نظام هذه الجامعة ، ولم تكن في ذلك العام غير كلية الآداب ، وننظر في مناهج الدراسة في شتى اقسامها . على أساس أن تكون لها شخصيتها التي تتميز بها ، وملامحها الخاصة التي تنفرد بها عن غيرها .

وكان من اول ما اقترح ، بالقياس الى قسم اللغة العربية ، ان يعني - الى جانب ما جرى العرف به من درس تاريخ الأدب العربي عامة - بدرس الحياة الأدبية في الشمال الافريقي خاصة ، واخذت على عاتقي ان أقوم بهذه الدراسة التي تجعل الجامعة الليبية رائدة فيها .

وقد كان من اول ما جعل يجول بخاطري ، منذ وطئت قدماي أرض ليبيا ، ان اتعرف الى هذه البلاد تعرفا يؤدي الى صورة واضحة دقيقة لها ، أتبين بها ألوان الحياة فيها في حواضرها وبواديها . ثم كان من تمام ذلك ان تأخذ الجامعة الليبية بنصيبها الاكاديمي في درس تاريخها وتاريخها الادبي خاصة ، بل درس التاريخ الأدبي للشمال الافريقي كله .

وما اكثر ما كان يلفت نظري ويثير تساؤلي ان يكون تاريخ الادب العربي مقصورا على المشرق العربي ، فاذا تجاوزه فانما يتجاوزه الى مصر ، وقد اصبحت جزءا منه . فاذا اقتضت بعـض الاسباب ان يطمح الى ما وراء ذلك فليس الا الاندلس ، يقفز اليها قفزة بعيدة المدى ، ويدع وراءه الشمال الافريقي كله ، بأقاليمه الاربعة . وكأن لا نسب يربطه بالعالم العربي ، ولا صلة تصل الأدب فيه بالأدب العربي .

وربما كان هذا ، في تلك الظروف التي اخضعته للاستعمار الاوروبي ، امرا مفهوم الاسباب حتى ليبدو طبيعيا . فقد كان من اول ما يحرص هذا الاستعمار عليه ان يقطع ما بينه وبين العالم العربي من اواصر ،وأن يعزله قدر ما يستطيع عن ماضيه ، وماضيه الأدبي خاصة ، بكل ما يحفل به هذا الماضي من أمجاد ومآثر ، وبكل ما يعبر عنه من شخصية قوية ، وبذلك يعيش حياته الحاضرة مقصورا ، ولا يكون له من الحياة العقلية إلا ما يريد الاستعمار له .

اما وقد تحرر اول اقاليم المغرب العربي ، ونشأت في ذلك الافق جامعة عربية ، فلم يكن بد من ان يحاول وصل ما قطعه الاستعمار ، فيتدارك ما فاته ، ويؤدي عن المغرب كله هذه التبعة ، وان يتكفل استاذ الادب العربي بذلك . وهو يعلم - حق العلم - مبلغ ما يكتنفه في هذه الارض البكـر من عقبات ، وما يعترض سبيله فيها من صعوبات . ولكن ما كان يتقد في صدره من حماسة ، وما كان يشوقه من ذلك العالم الذي يتألق في خياله ، وما كان يستقبله به اصحابه من الليبيين خاصة من حفز لهمته واستبشار بما هو مقدم عليه ، قوى عزيمته وضاعف جهده ، واقبل به على الدرس نشيطا مهزوزا ، يلتمس - قدر ما يستطيع - مصادره ومراجعه ، ويتوسل اليه بأسبابه ، فاذا هو منه في عالم جديد ، يهيج بطرافته كل يوم اشواقه ، كما يثير اعجابه بل انبهاره ، بما يتكشف له فيه من صور ، وما يمثل له من مثل وقيم .

كان ذلك اول امري في الاتجاه الى درس الحياة الادبية في المغرب العربي .

ولم يزل حنيني الى ذلك العالم يجتذبني اليه ، على الرغم مما جعلت ، بعد ، حياتي العلمية تأخذني به وتصرفني اليه . ولكنني ظللت مشغولا به ، اتلقف كل ما يقع لي من مصادره ومراجعه ، واقبل في لهفة على كل دراسة تتاح لي عنه . وانا في لك كله اود لو تدع لي شواغلي وملابسات حياتي وقتا افرغ فيه للكتابة عنه . وقد كنت من قبل مصروفا عن الكتابة - الى حد غير قليل - بما كان يغمرني من فتنة به ، ومن تطلع دائم الى أن اقع على جديد يزيدني معرفة بجوانبه .

ثم لم اجد بدا ، وقد رأيت الايام تمضي بي مسرعة ، من ان اجمع الى عزمي ، وادافع كل ما قد يثبطني . فكانت هذه الفصول التي حاولت ان أؤرخ بها للحياة الادبية في المغرب العربي ، في القرون الثلاثة الاولى ، الى جانب ما وجدت نفسي مشغولا به ، من دراسات تتناوله فيما وراء هذه القرون الثلاثة ، منها ما اتيح له ان ينشر ،ككتابي عن (ابن خلدون ، بين حياة العلم ودنيا السياسة)[1] ، ومنها ما لم يجد بعد سبيله الى النشر ، كالذي كتبته عن (مرحلة التشيع في المغرب العربي ، وأثرها في الحياة الأدبية فيه) ، وما كتبته عن ابن شرف القيرواني . وربما جلا هذان البحثان بعض ملامح الحياة الأدبية والاجتماعية في المغرب ، في القرنين الرابع والخامس .

* * *

فهذه هي قصة القسم الاول من هذا الكتاب ، وليس القسم الثاني ببعيد عنها ، فقد بدأت قصته معها ، منذ قدمت الى ليبيا ، باب المغرب العربي من ناحية الشرق ، وبي - كما قدمت - رغبة شديدة الى ان احيط علما بكل شيء فيها . فكان لي من اصدقائي بها من سدد خطاي وبذل لي كل ما يستطيع بذله من عون وهداية .

ثم لم تلبث هذه الرغبة التي كانت مقصورة اول الامر عليها ان امتد

(١) نشرته دار النهضة العربية للطباعة والنشر ببيروت ، سنة ١٩٨٠ .

مداها واتسع نطاقها ، فشمل المغرب العربي كله ، وذلك بما كان يتردد فيها من اصدائه ، وتتجاوب مجالسها بأنبائه ، وخاصة حين مضيت صيف ذلك العام الى تونس ، فقوى احساسي به ، وارتباطي العاطفي بصور الحياة فيه . وقد اتاح لي ما وجدت فيها ـ كما وجدت في ليبيا من قبلها ـ من روح الود الصادق ، ومظاهر الحفاوة الكريمة ، ان تنعقد صلتي بالكثير من ادبائها واهل الفكر فيها ، اجلس اليهم في ندواتهم ، وازورهم في دورهم ، واجول معهم هنا وهنا انعم بطيب احاديثهم .

وعن هذه المعايشة التي تغلغلت في اعماق الروح كان اكثر فصول القسم الثاني من هذا الكتاب ، وعن ذكرياتي التي ما زالت روح الحنين تبتعثها من اعماق قلبي ، واوراقي التي دونت فيها بعض ما اتيح لي ، جعلت اراجع الفترة التي امضيتها في ليبيا ، فتمثل لي بجوانبها المختلفة ، صدورمعظم ما كتبته عنها ، وما اردت به تصوير الحياة الادبية فيها . ومن ذلك صورة شاعرها ، بل اصدق من عبر من شعرائها عنها ، احمد رفيق المهدوي ، التي مثلت لي ، كما جعلت احاديث اصحابه عنه ، من رجال جمعية عمر المختار ، تتردد في نفسي ، تنفح بعبير الحب ، وتتألق في هالة من الاجلال ، فاذا بي اكتب ما كتبت عن حياته ، واتناول المراحل الاولى في نشأته . وكأني كنت ارجو ان امضي معه ، واسايره مرحلة مرحلة ، لولا انني وجدتني ، في غمرة هذه الاحداث التي المت بنا ، فقطعت اواصر ما بيننا ، منقطعا عن مصادر المعرفة .

ويحملني الحنين الى تونس ، فتمثل لي من بين من سعدت بهم من أدبائها وعلمائها ، صورة ذلك الرجل الذي عرفته في احدى ندواتها ، فرأيت فيه صورة من البساطة التي لا تشوبها شائبة تكلف ، والايمان الذي لا ينال منه شيء ، والوطنية الصريحة التي لا تعبأ بما تواضع عليه الناس في معاملة بعضهم لبعض ، والمزاج العقلي الذي تألف من اخلاق البادية ، وثقافة الاسلام ، وروح العروبة . وما زالت هذه الصورة ، صورة الاستاذ محمد المرزوقي ، تتخايل لي ، وتستل مشاعري ، أود لو استطعت ان

اجلس اليه . ولكن هيهات ! فلا أملك الا ان اضع بين يدي ما لدي من دواوين شعره ومجموعات قصصه ، فأقبل عليها واتنسم رياها واعيش في جوها ، واتمثله فيها ، فاذا هذا الفصل الذي كتبته عنه .

كما تعرض لي تونس،وانا اعرض في خاطري حياة بيرم التونسي ومراحلها . فاذا احدى هذه المراحل التي لا يكاد كتاب سيرته هنا يلتفتون نحوها ، واذا بي منصرف اليها ، مقبل على تمثله فيها ، فاذا هي مرحلةحافلة بصور نشاطه التي جعلت التمسها فيما بين يدي ، وان غاب معظمها في مصادر لا سبيل لي اليوم اليها . فكان هذا الفصل الذي كتبته عنه ، وأنا اود من صميم قلبي لو اتيح لبعض اصحابه في هذه المرحلة، كالاستاذ الهادي العبيدي ، محرر جريدة الصباح، والاستاذ المرزوقي ، ان يكملوا هذه الصورة ويجلوا جوانبها .

وما احسب ان الفصلين اللذين كتبتهما عن شنقيط ببعيدين عن هذه القصة ، وان لم يتح لي ان اتجاوز تونس من بلاد المغرب ، فلولا ما كان يشغلفكري ويجتذب اليه مشاعري من امره ، وما كنت مصروفا اليه من كتابة بعض الفصول عن اعلام الادب والفكر فيه ، لما كتبت الفصل الاول منهما ، ولولا ما ظفرت به بعد ذلك في احدى مكتبات تونس ، من ذلك الكتاب الذي كتبه صاحبه عن شعراء موريتانيا ، لما كتبت الفصل الثاني .

وبعد ، فأنا ارجو بهذا الكتاب ان اؤدي جزءا مما يقتضينا اداءه ايماننا بالعروبة ، بمحاولة العودة الى الاصول التي قامت عليها ونمت بها منذ قامت ، من الدين واللغةوالفكر والادب ، فهي الاصول الثابتة الراسخة التي لا قوام لها بغيرها ، والتي تستطيع وحدها ان تقوي اوصالها وتدعم بنيانها ، وتحميها من كل ما يتربص بها ، او يتهدد كيانها .

سدد الله خطانا ، وهيأ لنا من امرنا رشدا

يناير سنة ١٩٨١

محمد طه الحاجري

القسم الأول

المغرب العربي في القرون الثلاثة الأولى

أثار الفصل الذي نشرته الثقافة [1] عن فترة السنوات الخمس التي أمضاها بيرم التونسي في تونس ، مشاركا في حياته الأدبية وبعض وجوه نشاطها السياسي ، كثيرا من التساؤل عن اغفال هذه الفترة فيما كتبه مؤرخو حياته ودارسو أدبه بيننا .

وكأن الأمر في ذلك يرجع الى تلك الفجوةالتي ما زالت ـ فيما يبدو ـ تفصل بيننا وبين المغرب العربي ، وكأن الحاجز الحديدي الذي أقامه الاستعمار بين جناحي العروبة ما يزال قائما في أوهامنا ، وكأن ظله الكثيف الداكن الذي غشى أبصارنا آمادا متطاولة ما يزال يفرض نفسه عليها ، وينشر غشاءه دونها ، فما زالت آثاره ماثلة في حياتنا الثقافية والأدبية .

واذا كانت مصر قد حاولت ، منذ أكثر من ربع قرن ، ان تفتح في هذا السد ثغرة يتاح من خلالها الاتصال الفكري الدائم المنظم بين مشرق العروبة ومغربها ، باقتراح انشاء معهد للدراسات الاسلامية والعربية في الرباط ، فأبى الاستعمار عليها ذلك ، فقد كان ينبغي ، وقد انهار ذلك السد الذي بناه الاستعمار ، ان نضاعف الجهد الدائب المنظم المتعدد الوجوه في ازالة آثاره ورفع انقاضه ، وشق الطرق وتعبيدها ومدها بكل

---

(١) مجلة الثقافة في عدديها : ٢٩ ، ٣٠ (فبراير / مارس ١٩٧٦) . وهو من هذا الكتاب أول فصول القسم الثاني فيه .

وسائل الاتصال ، وأن نعود أبصارنا على التخلص مما ران عليها منه ، في مجال الصلات الفكرية والثقافية ، ولكنا لم نبذل لذلك من الجهد الا قليلا ، بالقياس الى ما تفرضه علينا تلك العزلة الطويلة ، وما تركت من آثار بطيئة الزوال .

ومنذ أكثر من ثلاثة اعوام اقترح على جامعة الاسكندرية ـ باعتبار الاسكندرية حلقة الاتصال على مدى التاريخ بين المغرب والمشرق ـ انشاء مركز لدراسات المغرب العربي فيها ، يستطيع ان يسهم اسهاما علميا بصيرا منظما في ازالة هذه الغاشية ، وفي تعبيد الطرق بينناوبينه،وبث روح الحياة فيها ، ويشارك مشاركة ثابتة مطردة في جلاء معالم الحياة العقلية والادبية ، حاضرها وغابرها ، في ذلك الأفق من آفاق العروبة ، ولكن يبدو ان المسؤولين رأوا في مثل ذلك المشروع لونا من ألوان الترف لا يتفق مع ما نعانيه من ضيق واعسار ، فلم يأذنوا له ان يأخذ مكانه .

وقد كان جديرا بمثل هذا المركز ان ينظم الصلات الفكرية بيننا وبين المغرب ويوثقها ، ويقضي على الركود الذي يخيم عليها ، ويفتح الطرق ، واسعة معبدة تنبض بالحياة ، بين الحياة الأدبية هنا وهنا ، ويؤدي للعروبة دينا واجب الاداء ، حال الاستعمار دون ادائه ، كما يشارك في رفع الظلم الذي حاق بالحياة الادبية في ذلك الأفق .

وأنا احسب ان اقليما من اقاليم العروبة لم يظلم تاريخه الأدبي ، ولم تجتمع الأسباب لاهتضامه ، كما ظلم هذا التاريخ في الشمال الافريقي واهتضم جانبه . فمنذ وضع الاستعمار اقدامه في الجزائر سنة ١٨٣٠ ، ثم أخذيمد ذراعيه يمينا وشمالا ، وينشب أظافره هنا وهنا ، وهو يعلم ان لا قرار له ، ولا نفاذ لما رسمه وقدره ، الا ان تقتطع هذه البلاد من اصولها ، وتجتث من جذورها الممتدة في اعماق التاريخ العربي . على ذلك بنى سياسته في هذه البلاد ، ودبر وجوه كيده ، ليتم له الأمر فيها كما قدر .

وهذا هو الأصل في أن بدا الشمال الافريقي ـ بادىء بدء ، وقيل

زوال الاستعمار عنه ـ وكان ليس له في تاريخ الأدب العربي نصيب يذكر ، وكأن هذا التاريخ قد انتهى الى مصر ، فوقف عندها ، ثم وثب وثبةبعيدة تجاوزت به هذا الأفق العربي كله ، ثم وقعت به على الأندلس . فأما ما بينهما فقد بقي فراغا او شبه فراغ ، لا ذكر له في تاريخ الأدب العربي ، الا اذا وقع اديب من ادبائه الى المشرق كابن خلدون ، فيذكر بذكره ، أما ما هو مكانه من الحياة الادبية في المغرب العربي ، حيث كانت نشأته ، وحيث تكونت ملكاته ، وبرزت ملامح شخصيته ، فلا شيء غير الصمت المطبق ، او ترديد بعض ما كان المغرب يضطرب به من أمور السياسة .

فالأدب خاصة هو الصلة الوثيقة التي تتغلغل في أعماق النفس ، فتبعث المشاعر العربية ، وتحقق النسب العربي حبا نابضا ، وتاريخ الادب هو تاريخ الروح العربية الساريةخلال العصور . فلتطمس اذن معالم هذا الأدب ، وليبق هذا التاريخ سجين مخطوطاته ورهين خزائنه ، حتى يكون في ذلك ما يحقق بعض اهداف الاستعمار .

وكما ان الأدب هو الروح التي تمثل امجاد الماضي ، وتثير في النفوس الاعتزاز بها ، كذلك هو الوشيجة التي تربط ما بين ابناء الأمة الواحدة واللغة الواحدة ، وتوثق علاقة بعضهم ببعض . واذن فليفصم الاستعمار هذه الوشيجة ، وليصطنع لاهدار اثرها واحباطها كل ما يملك من وسائل ، وليمعن في اتخاذ كل ما يمكن ان يطبع شعوب المغرب العربي بطابعه ، ويطمس فيها كل مظاهر الشخصية الاسلامية العربية ، فيحول بينها وبين كل ما يمكن ان يبل العروق التي يعمل على ذبولها ، وكل ما يتيح للجذور التي حاول ان يجتثها ان تمتد الى اصولها ، وليفتن في تشييد ذلك الحاجز الحديدي بينها وبين شعوب المشرق العربي وفي دعمه وترميمه ، يصدها عنها ، ويصرفها الى الوجهة التي يريدها بقدر ما يعمل على عزلها عن ماضيها العربي الاسلامي ، بما يفرض عليها من ثقافة معينة ، وما يرسم فيها من حدود عقلية خاصة ، وما يأخذها به من تربية نفسية تجتذبها اليه ، وتفتنها بما يتخايل لها من قبله .

وفي هذا الوقت الذي كان الاستعمار يفرض فيه حصاره ويحكمه على هذه الصورة ، كانت الشعوب العربية في المشرق قد اخذت تدرك نفسها ، وتتلمس حقيقتها ، وتتعرف الى شخصيتها ، وتتلفت الى ماضيها تحاول ان تتبين فيه مقومات هذه الشخصية، كما تحاول ان تتعرف الى آثارها الأدبية التي هي في حقيقة الأمر اصدق تعبير عنها ، تحييها وتتناولها بالتحقيق والدراسة الدائبة ، وتضعها في مكانها من تاريخ الادب العربي في مواطنه المختلفة .

وكان طبيعيا ، لما أسلفنا ، ولما فرضه الاستعمار على الشعب العربي في المغرب من كفاح مرير متصل ، الا يشارك في حركات النهضة الأدبية هذه . كما كان لتلك العزلة الصارمة التي فرضها الاستعمار عليه ، والتي قطعت ما بينه وبين المشرق ، اثر قوي في انصراف هذه الحركات عن الاتجاه اليه .

وبذلك بدا الأدب العربي في المغرب رسوما بالية واطلالا عافية ، اذ لم يظفر بما كان جديرا ان يبذل له من جهد ، في بعثه وجلائه ، وفي تحقيق نصوصه ودرس مادته ،وفي تنسيق ما بينه، ووضع كل موضعه ، وفي استبطانه ودرسه ، حتى تكتمل منه صورة للحياة الأدبية في شتى عصورها ومختلف بيئاتها .

وان في روح النهضة المنبعثة في المغرب ، وفي جامعاته خاصة ، والتي تحفزها الى مداركة ما فات ، ما يملؤنا أملا في بعث ما اندثر من تلك الحياة ، وفي تجديد ما انطمس منها ، وفي ان يأخذ تاريخ المغرب الأدبي مكانه الصحيح ، ممثلا لما كان يزدهر به هذا الأفق من حياة ادبية خصبة متعددة الجوانب ، كثيرة الألوان والفنون ، ممتدة خلال التاريخ الاسلامي ، بليغة التعبير عن الروح المغربية ، وعن المشاعر العربية الإسلامية ، بارعة التصوير لما تعرضت له هذه البلاد من احداث ، وما مرت به من اطوار .

ولا ريب عندنا في ان الأدب العربي في المغرب استطاع ان يبلغ

هذه المنزلة التي نستشفها من خلال ما اتيح لنا ان نقرأ منه ، بالرغم من المحن التي امتحن بها، واستطاع ان يصمد لها ويتغلب عليها ، بقدر ما فيه من قوة ذاتية .

ولعل أول ذلك وقوعه بين المشرق من ناحية والاندلس من ناحية اخرى ، وهما قطبا الحياة الأدبية في العالم الاسلامي . واذا كانت الاندلس لم تستطع ، بالرغم من المنزلةالادبية الرفيعة التي بلغتها ، ومن اجتماع اسباب السلطان القوي فيها ، ومن روح الاعتزاز الحائمة عليها ، ان تستعصم من فتنة المشرق ، وذلك حين نرى رجلا مثل ابن حزم يقول :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي ان مطلعي الغرب
ولو انني من جانب الشرق طالع لجد علي ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو اكناف العراق صبابة ولا غرو ان يستوحش الكلف الصب

فما بالنا بالشمال الافريقي وهو يرى كلا من هذين اللذين يكتنفانه قد بلغا من السلطان ومن الأدب مبلغا لا يسامي ، فهو دائم الشخوص اليهما ؟ لا جرم كان ذلك مما جعل الحياة الأدبية فيه قلقة مستوفزة ، لا تكاد تستقر .

ولعلنا نستطيع ان نتبين هذه الظاهرة ونتمثل صورة لها في رجل مثل ابن هانىء الاندلسي ، في القرن الرابع الهجري ، اذا عرفنا انه أفريقي الاصل ـ فقد كان ابوه هانىء من قريةمن قرى المهدية ـ وكان ـ كما يقول ابن خلكان ـ شاعرا اديبا ، فحمله طموحه الى ان يلتمس لشعره وادبه مجالا ارحب ، وميدانا اوسع ، وسوقا أنفق ، فترك افريقية الى الاندلس ، واتجه الى اشبيلية واقام بها . وبها ولد ابنه محمد ، وفيها نشأ ، وفي حلقاتها ومجالسها تعلم وتأدب . حتى اذا انس من نفسه البراعة في قول الشعر اتصل بصاحبها . ثم لم يلبث ان توثقت به صلته ، فكان رفيقه المقرب وصاحب مجلسه الأثير عنده . الا ان هذه الصلة الوثيقة التي تسامع الناس بها وتبادلوا حكايةاخبارها كانت هي التي قضت عليه ان يترك

الاندلس إلى عدوة المغرب. فقد كان مستهترا في حياته العقلية وحياته الخاصة ، استهوته بعض الآراء والمذاهب الفلسفية المتطرفة التي لا تساير ما يدين الناس به ، ولا تتفق مع الآراء السائدة في الاندلس ، فانصرف اليها يرددها ولا يتحاشى في ترديدها ، كما انصرف في حياته الخاصة الى ملذاته وشهواته ، منهمكا فيها مستهترا بها ، دون ان يأخذ في ذلك بشيء من التجمل او التحفظ ، ودون ان يعبأ بما يمكن ان تقذفه به الألسنة ، وما يناله من القالات السيئة . ولم يلبث ان اصبح هدفا لهذه المقالات ، ولم تلبث هذه المقالات ان تجاوزته الى صاحبه امير اشبيلية ، حتى خشى الامير ان تثير في البلد فتنة لا يعلم الا الله عقباها ، وليس من الحكمة أن يغضى عن بواعثها . فأشار على ابن هانىءان يدع المدينة . وان يهاجر الى عدوة المغرب ، ريثما تهدأ الثائرة ، وتسكت الالسنة الغاضبة .

وهكذا رحل ابن هانىء الى افريقية ، وعاد الى منبت اسرته وموطن ابيه .

وكما لبث الادب الذي كان يمثله ابوه قلقا مستوفزا يتحين الفرصة ليغادر افريقية الى الاندلس ، فان هذا الادب الذي يمثله الابن محمد بن هانىء ، ظل في افريقية قلقا مستوفزا يتحين الفرصة ليغادر افريقية ايضا ، ولعله كان يرنو نحو المشرق . وقد عرضت له هذه الفرصة ، وان تعرضت الأقدار دونها ، فقد كانت الدولة الفاطمية قد اجمعت امرها على ان تتحول الى المشرق ، وتتخذ من مصر مقرا لها . وكان ابن هانىء قد عقد صلته بجوهر قائد المعز ، ثم عقد هذه الصلة بالمعز نفسه . وقد وجد فيه المعز شاعرا فحلا يستطيع ان ينافس به شعراء المشرق .كما كان في تلك النوازع الفلسفية الغالبة عليه ، والآراء الباطنية الشاردة التي اخرجته من اشبيلية ، ما يجعله اقرب الى التعبير في شعره عما كانت هذه الدولة قد اخذت نفسها بنشره واذاعته بين العامة من مذاهب غريبة وعقائد شاذة .

وكادت تتم لابن هانىء الرحلة التي بدأها ، وينتقل هذا الادب مرة اخرى من افريقية الى المشرق ، لولا الاقدار التي اعترضته كما قلنا ، اذ

عاجلت ابن هانىء ، فاذا هو صريع في احدى سواني برقة ، في طريقه الى مصر .

فها نحن اولاء من ابن هانىء ازاء صورة من الحياة الادبية القلقة المستوفزة في شمال افريقية ، فهي مرة مفتونة بالاندلس طامحة البصر اليها ، متجهة نحوها ، ومرة اخرى مولية وجهها نحو المشرق ، كما فعلت الدولة حين اتجهت اليه ، وارادت ان تتخذ من مصر مركزها فيه .

وقد اعقبت هذه الفترةالتي كانت الحياة الادبية فيها نهبا للقلق وتحير البصر والتطلع الى الرحيل ، في عهد الأغالبة وعهد الشيعة ، فترة استقرار نسبي وهدوء وطمأنينة ، وذلك في عهد الدولة الصنهاجية ، وخاصة في ايام المعز بن باديس ، في القرن الخامس .

ذلك ان الدولة كانت قد بلغت، في عهد هذا الامير منزلة رفيعة من القوة والسلطان ، كما اخذت افريقية تستكمل شخصيتها المستقلة ، وتتضح ملامحها الذاتية في مظاهر الحياة المختلفة ، مما هو جدير ان يقضي على أسباب القلق ، او على كثير منها ، وكذلك استطاع هذا الامير في مدى حكمه الطويل ان يحقق في بلاطه كثيرا مما كان الناس يتسامعونه عن بلاط بغداد وبلاط قرطبة من ترف مادي ومعنوي ، ويجتذب اليه بذلك طائفة من الادباء والعملاء يعمرونه ويزينونه . وكان في ذلك ـ ولا ريب ـ ما اتاح للحياة الادبية في افريقية فترة استقرار .

ولكن هذه الفترة لم تطل ، فلم تلبث السياسة التي انتهجها الأمير المعز بن باديس ، واراد ان يحقق بها لأفريقية شخصيتها المستقلة ، والموقف الذي وقفه من الدول الفاطمية في مصر ليكون مظهرا من مظاهر هذه الشخصية وتوكيدا لها ، اذ اعلن انفصاله عنها وخروجه على مذهبها ، لم يلبث ذلك ان اثار عليه غضب هذه الدولة وهاج حفيظتها ، ثم لم يلبث هذا الغضب ان اتخذ صورة الكيد له والانتقام منه ، فوجهت الى افريقية جماعات من الاعراب كانت تضيق بعيشهم وتود ان تتخلص منهم . فما ان انتهوا اليها حتى سقطوا على القيروان وما حولها سقوط الجراد ، فخربوها ونشروا الذعر فيها . وبذلك انتهت هذه الفترة التي احست فيها الحياة

الأدبية بافريقية مشاعر الطمأنينة وذاقت طعم الاستقرار . وعادت هذه الحياة مرة اخرى الى القلق الذي كانت تعانيه من قبل ، فاذا هي مولية وجهها نحو المشرق تارة ، واخرى نحوصقلية ، وثالثة نحو الاندلس ، وتشتت الادب الافريقي بين هذه الاقاليم .

واكبر الظن ان هذا القلق هو المسؤول الاول عن ظاهرة اخرى في الحياة الأدبية الافريقية ، وهي ندرة الصادر التي يلتمسها الباحث في هذه الحياة ، ليتمثل صورها ويتعرف الوانها ، ويستطيع أن يطمئن إليها ويثلج صدره بها ، لانها صادرة عن هذه الحياة نفسها في موطنها . فكأنما كان هذا القلق يحول دون التوفر على استقصاء صور هذه الحياة بالترجمة لادبائها وتدوين اثارهم .

وكان من اثر ذلك ، بالقياس الى المؤرخ الادبي ، ان يجد نفسه مضطرا الى الاكتفاء بما بقي من تلك الاثار في مصادر أندلسية او مشرقية ، اوما عرضت له منها في ثناياها بعض الكتب التي كتبها الافارقة في طبقات النساك والزهاد والعباد ، او في تاريخ الدول والحوادث ، على ما فيه من اضطراب واقتضاب ، وعلى ما يشوبه في كثير من الأحيان من اعتبارات تضعف الثقة به .

فأما المصادر الاندلسية والمشرقية ، كذخيرة ابن بسام ويتيمة الثعالبي وخريدة العماد الاصبهاني ووفيات ابن خلكان وفوات ابن شاكر ، فانها ، مهما بلغ بها طموح اصحابها وبعد همتهم وشدة تحريهم ،تظل موسومة بمثل ما قاله المقري في تعليقه على شيءاورده ابن خلكان عن القاضي عياض ، وهو قوله : « على ان ابن خلكان وغيره من المشارقة ، بما يقع لهم الغلط في تاريخ اهل المغرب لبعد الديار ،ولغير ذلك، مما لا يخفي على من مارس علم التاريخ . كما أن كثيرا من المغاربة لا يحررون تاريخ المشارقة ، لما ذكرناه » .

واذا كان هذا مبدأ من مبادىء (علم التاريخ) ، فأجدر به ان يكون كذلك مبدأ من مبادىء التاريخ الادبي ، وان يلتزمه الباحثون قدر الامكان .

وقد تأذن بعض عهود الاستقرار للحياة الادبية ان ينبري بعض رجالها

الى تسجيل صور هذه الحياة وتدوين اخبارها وآثارها ، ويتوفر على ذلك ، كما فعل الحسن بن رشيق في عهد المعز ابن باديس ، بكتابه الذي سماه (انموذج الزمان في شعراء القيروان) . وقد كان جديرا بهذا الكتاب ان يكون مصدراً أصيلاً من مصادر تلك الحياة . الا أنه ضاع فيما ضاع من ذخائر تراثنا الأدبي . وربما كان هذا الضياع أثراً من آثار ما مني به عهد المعز في آخره من اضطراب وقلق .

على انه قد بقيت منه بقايا في بعض كتب الأدب والتاريخ والبلدان ، ككتابي ياقوت : معجم الادباء ومعجم البلدان ، وكتاب ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار ، وكتاب القفطي : الانباه على انباه النحاة ، وكتاب ابن شاكر الكتبي : قوات الوفيات ، وكتاب السيوطي : بغية الوعاة ، ورحلةالتجاني ، ومعالم الإيمان للدباغ وابن ناجي . وليت احد المعنيين بالحياةالادبية في المغرب العربي ، ينتدب لتتبع هذه البقايا وتقصيها وجمعها وتحقيقها ونشرها ، فيؤدي بذلك لهذه الحياة منه كبرى .

واذا كان قد بقي لنا مما كتب ابن رشيق كتابان ، هما : قراضة الذهب في نقد اشعار العرب ، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه ، فان اولهما يتناول موضوعا خاصا هو ـ كما يقول محققه العالم الجليل الدكتور الشاذلي بو يحيى ـ « تتبع المعاني الشعرية ووجوه البديع في شعر الشعراء منذ ان اخترعها مخترعها ، فتناولها من جاء بعده ، فزاد عليه وحسن ، او قصر عنه فأخفق . كل ذلك بداية من العصر الجاهلي الى عصر ابن رشيق » . ومثل هذا الموضوع الخاص ، في مسألة صغيرة ، لا يأذن لصور الحياة الادبية في افريقية ان تداخله ، الا في الفرط والندرة ، كان يستشهد في سياق كلامه بشيء من شعره أو شعر بعض الأفارقة ، كأبي علي الإيادي التونسي .

اما العمدة فكتاب مبسوط ، تناول فيه فنون الشعر باستفاضة . وقد كان من الممكن ـ بهذا ـ ان يكون مرجعا خصبا ومصدرا أصيلا لتصوير الحياة الادبية في افريقية ، في سياق ما يعرض له من فنون الشعر والتمثيل

لها ،وحكاية ما يدور حولها ويتصل بها ، اذا هواتجه الى من حوله من الشعراء ، ولكنه قلما كان يفعل ، فقد اعرض عنهم ، حتى لا نكاد نجد في كتابه هذا شعرا لشاعر افريقي الا ان يكون شعره هو ، او شعر ابي الحسن علي بن ابي الرجال . صاحب ديوان المعز ابن باديس ، والذي قدم اليه كتابه . وان كان ـ مع هذا ـ يعتبر مرجعا اصيلا لعلم الشعر في افريقية كما كان يمثله شيوخه ،كأبي محمد ابن عبد الكريم ابراهيم النهشلي ، وابي عبد الله محمد بن جعفر القزاز ، اما الشعر نفسه هنالك فقد تجنبه متعمدا .

وقد عبر عن نفسه في هذا ، ذات مرة ، تعبيرا صريحا . في سياق كلامه عن المعاني المحدثة التي افتن فيها الشعراء المحدثون ، بفضل ما واتتهم الحياة من صور جديدة ، فهم بذلك يفضلون القدماء ، وان كان من المحدثين « الجاهل المتعاطي ، والمتحامل الجافي ، الذي اذا اعطى حقه ، تعاطى فوقه ، وادعى على الناس الحسد ، وقال : أنا ولا احد . والى كم اعيش لكم ؟ واي علم بين جنبي لو وجدت مستودعا . فاذا عورض في شعره بسؤال عن معنى فاسد او مبهم ، او طولب بحجة في لحنه او شاذ ، او نوظر في كلمة من الفاظ العرب مصحفة او نادرة ، قال : هكذا اعرف . وكأنما اعطى جوامع الكلم . حاش لله واستغفر الله ! بل هو العمى الاكبر والموت الأصغر » . ولا ريب انه بهذا يعرض ببعض مواطنيه من الشعراء . ثم لا يلبث حتى ينتقل من التعريض الى التصريح بقوله : « وكم في بلدنا هذا من الحفاث قد صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين . ان البغاث بأرضنا يستنسر » . ويصل هذا بقوله ، مقررا انه تعمد اغفاله ، مفسرا موقفه هذا منهم : « ولولا ان يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم في هذا الكتاب ، ويدخلوا في جملة من يعد خطله ويحصى زلله ، لذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيفه وفساد معانيه وركاكة لفظه وما يدلك على مرتبته من هذه الصناعة التي ادعوها باطلا ، وانتسبوا اليها انتحالا » .

فقد كان ابن رشيق اذن سيء الرأي في مواطنيه من الشعراء ، ومن

اجل هذا ، كما يقول ، اعرض عنهم ، وتعمد اغفالهم ، وبذلك جاء كتابه مصطبغا صبغة مشرقية غالبة .

على انا نستطيع ان نضيف الى هذا السبب في غلبة الصبغة المشرقية على كتابه العمدة سببا اخر ، وهو ان المشرق كان ما يزال ، حتى ذلك الوقت، يبهر أنظار أهل المغرب ، ويلفتهم إليه لفتاً قوياً ، وإن كل ما كان يمت الى هذا المشرق من علم أو ادب كان ما يزال يتعاظمهم وينزل من نفوسهم منزلة كبرى يتطامن لديها كل ما عداه . ومن هذا ـ الى جانب ما ذكره ـ كان اعتداد ابن رشيق في كتابه بأدب المشارقة دون ادب المغاربة .

وبعد ، فهذا بعض ما تعرض له المغرب العربي في حاضره القريب وماضيه البعيد . وهذه بعض المحن التي امتحن بها ، فصمد لها وتغلب عليها ، وتعرض تاريخه الادبي للظلم والهضيمة بسببها . واذا كان علماؤه وادباؤه جادين في رفع آثار هذا الظلم منذ اصبح امره الى ابنائه ، فان من حق الوشائج التي تربطنا به ، وهي وشائج الجوار ، والقومية العربية بمختلف مظاهرها ومقوماتها ، ان نحمل نصيبنا من هذا العبء ، وان نشارك مشاركة جادة في درس الحياة الادبية فيه .

المغرب العربي وبعض عوامل تعريبه

ما يزال المغرب العربي يتخايل لي ، يجتذبني إلى مشاهده التاريخية ، ارددها واجول بينها ، وإلى صور حياته الأدبية ، اتأملها واتذوقها واستمتع بها ، واود لو اشرك قراء الثقافة فيما يتاح لي منها ولكني لا اكاد اهم بذلك حتى يتعاظمني الأمر . فأنكص عنه ، ثم لا البث حتى احس دبيب الرغبة التي قمعتها يدب في صدري ، ويحاول أن يردني إلى ما نكصت دونه . وما يزال بي يمثل لي درس هذه الحياة على انه احدى تبعات الصفة التي انتحلها . وهي صفة المؤرخ الادبي ، والعقيدة التي اعتقدها ، عقيدة القومية العربية التي تربط بين شعوبها في المشرق والمغرب ، والتي جهد الاستعمار زمانا في فصم عراها وتوهين قواها ، وانه ما ينبغي لي ، والأمر بهذه المسابه ، أن يصدني عن الاستجابة له احساس بقصور وسائلي ، او تراجع قوتي ، وانما حسبي في ذلك ما يبلغه وسعي ويتسع له ذرعي .

وهكذا جعل الأمر يدور في نفسي بين الإحجام والإقدام ، حتى لم اجد بدا من أن اخرج من هذا التردد بكتابة هذا الفصل الذي ارجو أن ابدأ به ما اود أن اقدمه من بعض الدراسات الخاصة بالحياة الأدبية في المغرب العربي . والله ولي التوفيق والسداد .

لم يكد المسلمون يفرغون من امر اسكندرية التي انتهى باستسلامها ، سنة ٢١ للهجرة ، فتح مصر ، حتى أخذوا يمدون ابصارهم إلى ما وراءها من بلاد برقة والمغرب . فقد كان ايمانهم بالمثل الأعلى الذي يطمحون اليه ، والهدف الاسمى الذي خرجوا لتحقيقه ، وهو بسط سلطان هذا الدين واعلاء كلمته ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، يملأ قلوبهم ، ويسيطر على جميع نوازعهم ، ويدفع بهم دائما إلى الامام : لا ينبغي أن يقف دون ذلك شيء ، أو يركنوا إلى شيء من الدعة من دونه . وكما انهم لم يكادوا يفرغون من امر العراق في المشرق ، حتى مضوا إلى ما وراءه من ارض فارس وخراسان ، ينشرون هذا الدين ويمكنون له ، كذلك كان شأنهم هنا . وقد يمكن القول بأن صنيعهم ذلك انما كان تأميناً لأنفسهم ، حتى لا تتهددهم هنا او هنا دولة الفرس او دولة الروم . وليس في ذلك ما يدفع القول بان هدفهم الأول هو نشر الإسلام وتحقيق كلمة الله . فقد كانوا يرون من تمام ذلك أن يؤمنوا هذا الدين ، ويمكنوا له ، ويستوثقوا له مما عسى أن يتهدده .

بهذا الإيمان الذي كان يغمر قلوب المسلمين اخذوا يتجهون إلى المغرب . وقد كان من الممكن لو أن الغاية هي مجرد الفتح والسيادة أو ارضاء شهوة الاستغلال المادي أن يقفوا عند مصر ، اكتفاء بها ، فحسبهم هذه البلاد الغنية المترعة بالخيرات ، ففيم يتجاوزونها ، ولم يستقر السلطان لهم فيها بعد . ولكن الأمر في هذه الفتوح التي نظمها المسلمون والتزموا القيام بها ، لم يكن امر سلطان او استغلال او رغبة في الغزو ، او استجابة لغزيرة السلب والنهب ، كما يروق لبعض المؤرخين أن يرددوه ، وانما كان امر هذا الدين الذي آمنوا به اخلص الإيمان واقواه ، فحملوا رسالته اصدق ما تحمله الرسالة ، وقد علموا أنه فرض عليهم أن يدعوا له وينشروا مبادئه في مشارق الأرض ومغاربها .

وربما كانت هنالك نوازع اخرى جعلت تخالط بعض النفوس وتداخل بذلك هذه النزعة الكبرى ، فذلك امر طبيعي . ولكن وجود مثل

هذه النوازع لا ينفي أن الغرض الأول من هذه الفتوح كان اداء هذه الرسالة ، وأن العامل الأكبر في نجاحها وبلوغها غايتها انما كان قوة الايمان التي كانت تغمر الجماعة الاسلامية الاولى وتوجهها .

وكذلك مضى المسلمون إلى هذه البلاد النائية المترامية الاطراف ، يتحدون كل عقبة تقف في سبيلهم ، وكل صعوبة تعترضهم . وما اكثر ما اعترضهم من ذلك في هذه البلاد بل لعلهم لم يعانوا في فتح من الفتوح ما عانوه في شمال افريقية . فقد كان فتح هذه البلاد فريدا في بابه ، اذا نحن قارنا بينه وبين سائر الفتوح الاسلامية في الشام والعراق وخراسان ومصر ، بما اقترن به من صعوبات ومباغتات ومخذلات . ومع ذلك لم يهن المسلمون ولم ييأسوا ولم يتخاذلوا ولم يتراجعوا . وانما مضوا إلى غاياتهم السنين الطوال ، حتى كاد القرن الاول يشرف على النهاية ، وهم يعانون في خلال ذلك الوانا من تقلبات الاحوال ، من هجوم وانسحاب ، ومن كر وفر ، ومن انتصار وهزيمة ، ومن بعد مواصلاتهم بعدا ساحقا ، حتى استقر الامر اخيرا لهم ، واستطاعوا أن يطمئنوا إلى أنهم بلغوا ما كانوا قد قاموا له وما خرجوا من اجله ، وانهم بسطوا سلطان هذا الدين على هذه الآفاق الواسعة ، حتى البحر المحيط ، أو بحر الظلمات .

وكانت هذه البلاد تتكون من اقسام ثلاثة ، هي التي كان الرومان يطلقون عليها اسم افريقية ونوميديا وموريتانيا ، وقابلها المسلمون بتسميتها : افريقية (ايضا) ، والمغرب الاوسط ، والمغرب الاقصى . ومن بين هذه الاقسام الثلاثة كانت افريقية اكثرها تطورا ، اذ كانت اكثرها تحضرا ، وابعدها عن البداوة التي كانت غالبة على القسمين الآخرين ، فقد استطاعت ، منذ ايام الفينيقيين ، أن تصبح بلادا تعتمد في حياتها على الزراعة والتجارة ، وتنشىء المدن التي تضطرب بألوان النشاط التجاري والصناعي .

وكان شعب هذه البلاد يتألف عند الفتح الاسلامي من عناصر رئيسية ثلاثة وهي : البربر ، والروم ، والافارقة .

اما البربر الذين سماهم اليعقوبي ، بعد الفتح بقرنين من الزمان او نحو ذلك ، « عجم البلاد » فهم اهل البلاد الاصليون الذين يتكلمون لغتهم الخاصة بهم ، ولا ريب أن هذه اللغة كانت اول ما يميزهم ، ومن ذلك كانت تسمية اليعقوبي اياهم بعجم البلاد ، وكان منهم بدو رحل ، اسلوب حياتهم اشبه باسلوب بدو الجزيرة العربية ، كقبائل لواته ونفوسه وزناته ، ومنهم مستقرون ارتبطت حياتهم بالارض التي يزرعونها ، او بالتجارة التي يصطنعونها ، أو نحو ذلك من صور الحياة المتحضرة . وبين هؤلاء واولئك من الخصومة ما يفرضه هذا الخلاف الاجتماعي بين البدو والحضر . وقد سمى الاولون بالبتر ، والاخرون بالبرانس . ويفترض العلامة مارسيه (كما نراه منقولاً عنه في كتاب اندريه جوليان) أن هذه التسمية انما اطلقها العرب عليهم باعتبار زيهم . فالمتحضرون كانوا يلبسون البرانس ، فسموا بها ، والبدو كانت ثيابهم قصيرة لا برانس لها ، فهي بتراء ، فسموا بترا(١) .

واما الروم فانما كان يقصد بهذا الاسم ما كان يعنيه في المشرق ، فكان يطلق على البيزنطيين ، وهم الجماعة التي اتخذت هذه البلاد مقاما لها خلال الحكم البيزنطي ، من الجند والموظفين ومن اليهم . وكان امرا طبيعيا انهم ، بعد سقوط قرطاجنة وزوال الحكم البيزنطي ، لم يعودوا جميعاً إلى بلادهم . فقد بقي جماعة منهم ، آثروا او اضطروا أن يظلوا في هذه البلاد . وقد لاحظ اليعقوبي في القرن الثالث وجودهم ، متميزين عن غيرهم .

واما الأفارقة . فيقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه (فتح العرب للمغرب) ان المراد بهم اخلاط من الناس كانوا يسكنون النواحي الساحلية العامرة المحيطة بالمدائن البيزنطية والاجزاء المزروعة الاخرى الداخلة في الرباطات البيزنطية . وهؤلاء خليط من المستعمرين اللاتين وبقايا الشعب القرطاجني القديم ، ومزارعي البيزنطيين وصناعهم ونفر من البربر ممن

---

(١) Ch. André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, vol.II, p.23.

استقر ودخل في طاعة البيزنطيين ، وتتضح التفرقة بينهم وبين البربر من قول جوتييه : (وعلى أي الأحوال يسمى الاهالي الثائرون باسماء قبائلهم أو يسمون الماء ور أو البربر جملة ، ولكنهم لا يسمون الافارقة اصلا . إن هذه التسمية قصر على خصومهم حماة النظام ، وهم اهل قرطاجنة أو رعاياها) . وهذا يدل على أن العرب اخذوا هذه التسمية عن المؤلفين اللاتين » .

ومهما يكن من امر هذا الفرض الذي يذهب اليه جوتييه وحسين مؤنس فانه لا يضع حدودا واضحة بين الافارقة وغيرهم ، ولا يبين الصفات البارزة التي تفرق بينهم وبين الروم والبربر ، بالقياس إلى العرب ، فلا بد أنه كانت هنالك خصائص جلية يسهل ادراكها ، تميز بين هؤلاء واولئك . ومن اجل ذلك يذهب مارسيه مذهباً مخالفاً ، اذ يرى إن اظهر ما ينبغي أن يكون المميز للافارقة هو اللغة التي يتكلمونها ، فلا بد انها كانت شيئاً آخر بائناً بنفسه غير اللغة البربرية التي يتكلمها اهل البلاد الاصليون ، وغير اللغة اليونانية التي يتكلمها الروم . فما هي هذه اللغة الثالثة ؟ انه يفترض انها اللاتينية الافريقية التي لاحظ بعض المؤرخين المسلمين ، كاليعقوبي والادريسي ، وجود طائفة في بعض الجهات ، كبعض مدن الجريد يتكلمون بها . واذن فالافارقة عنده هم ابناء الرومان اللاتينيين الذين استقروا في افريقية منذ العهد الروماني فتأثرت بها حياتهم ولغتهم ، او ابناء البربر الذين اتصلوا بهؤلاء اللاتين واندمجوا فيهم واصطنعوا لغتهم واتخذوا عاداتهم ، وظلوا متميزين بذلك .

هذه هي العناصر الرئيسية لشعب شمال افريقية ابان الفتح الإسلامي .

وبين البربر ، وهم الجمهرة العظمى واهل البلاد الاصليون ، اخذت الدعوة الاسلامية التي وجهت هذا الفتح تنتشر في سرعة واطراد . فلم يكد ينتهي القرن الأول حتى كان الاسلام قد وطد اقدامه في شمال افريقية ، وحتى اخذت المسيحية في الانسحاب والتضاؤل والتلاشي امامه ، على

الرغم من المكانة الظاهرة التي كانت تحتلها في هذه البلاد منذ اوائل التاريخ المسيحي ، ومن الانتشار الواسع الذي ظفرت به بين البربر ، في كل مكان ، في داخل البلاد وظاهرها ، كما يمكن أن نرى ذلك فيما يذكره اندريه جوليان في كتابه الذي اشرنا إليه منذ قليل ، في الجزء الأول منه ، وهو تاريخ شمال افريقية من مبادئه إلى الفتح العربي ، من أن مجمع قرطاجنة وهو المجمع الكنسي الافريقي الاول الذي يذكره التاريخ ، والذي انعقد في اوائل القرن الثالث ، كان يضم سبعين اسقفا في أفريقية ونوميديه . كما أن آثار الكنائس الباقية تشهد بمبلغ ما اصابته المسيحية في هذه البلاد من ذيوع وانتشار . ومع ذلك فما اسرع ما تراجعت وتقلص نفوذها امام هذا الدين الجديد .

وليس من شأننا في هذا الفصل أن نتقصى الاسباب التي ادت إلى ذلك التحول السريع المطرد ، ونناقش العوامل التي مكنت للاسلام في هذه الفترة القصيرة ، على الرغم من اضطراب الامر في البلاد معظم القرن الاول ، حتى لنرى أن احد كبار الفاتحين المسلمين في اواخر هذا القرن ، وهو طارق بن زياد ، كان من البربر ، فلذلك البحث موطن آخر هو اخص به . وانما الذي يعنينا هنا في هذه الدراسة هو تعرب شمال افريقية الذي كان ، بطبيعة الحال ، مبدأ الحياة الادبية في هذه البلاد ، ونحن نعرف مدى العلاقة الوثيقة بين الاسلام والتعرب في تاريخ الفتوح الاسلامية عامة .

والأصل في ذلك هو أن الاسلام ليس دينا فحسب ، ولكنه دين وثقافة وحضارة معا . والحضارة الاسلامية هي في صميمها حضارة ادبية لغوية ، بمعنى أن الادب ، وهو التعبير الدقيق الجميل عن النفس الانسانية في شتى حالاتها ومختلف خوالجها ، هو ابرز ظواهرها . كما كان شأن الحضارة العربية قبل الاسلام . واذا كان القرآن كتاباً دينياً ، فانه في الوقت نفسه كتاب العربية الاول الذي يمثل المثل الأعلى من بلاغتها ، والذي قامت عليه حضارتها .

وحين دخل الاسلام هذه البلاد كانت اللغات الموجودة فيه ، على نسب متفاوتة ، هي اللغة البربرية ، واللغة اللاتينية ، واللغة اليونانية .

اما اللغة اليونانية فهي لغة الدولة الحاكمة التي كانت تحكم البلاد ، عقب حكم الوندال ، منذ سنة ٥٣٤ ، وهي الدولة البيزنطية . وقد كانت هذه الدولة تعاني ، في ابان الفتح الاسلامي . الوانا من الاضطراب والانحلال والتفكك في جميع اجزاء امبراطوريتها ، وفي هذه البلاد خاصة . ولم يكن الحكم البيزنطي قد استقر فيها مدة كافية تتيح لهذه اللغة أن تبسط سلطانها وتمكن له ، كما كانت هذه الفترة القصيرة ـ من سنة ٥٣٤ إلى سقوط قرطاجنة في يد المسلمين سنة ٦٩٨ ـ مغمورة بالفتن والثورات والاضطرابات ، مما لم يكن من اليسير معه أن تتغلغل هذه اللغة إلى أوساط الشعب . بل ظلت ، إلى أن جاء الفتح الاسلامي ، مقصورة أو تكاد على الجند البيزنطي وموظفي الدولة وعمالها . ولم تكد قرطاجنة تسقط ويزول بسقوطها الحكم البيزنطي حتى رحل اكثرهم عن البلاد ، ولم يبق بها منهم الا قلة قليلة لا خطر لها .

واما اللغة اللاتينية فالأمر فيها مختلف . كان شأنها ايام الحكم الروماني غير شأن اللغة اليونانية ايام الحكم البيزنطي ، ذلك أن روما كانت حريصة اشد الحرص على أن تفرض لغتها على الشعوب التي تحكمها ، متخذة لذلك شتى الوسائل ، فقد كان ذلك جزءا من سياستها في حكم هذه الشعوب والسيطرة عليها . وفوق ذلك استمر الحكم الروماني نحو ستة قرون ، من سنة ١٤٦ قبل الميلاد إلى سنة ٤٣٠ بعده . وبذلك استطاعت اللغة اللاتينية خلال هذه الفترة الطويلة وفي ظل تلك السياسة التي اصطنعتها الدولة ، أن تفرض سلطانها ، وتتغلغل في البيئات المختلفة ، حتى كان لها بين البربر كتابها وخطباؤها وادباؤها الذين بلغوا مرتبة عالية مذكورة في تاريخها الأدبي . ثم كان اعتناق الدولة الرومانية للديانة المسيحية ، ودخول هذه الديانة شمال افريقية ، وانتشارها على النحو الذي أشرنا اليه ، عاملا جديدا في انتشار هذه اللغة وازدياد سلطانها ، اذ لم تعد

بذلك لغة الدولة وحسب بل اصبحت لغة الكنيسة ايضا .

ولكن الامر بالقياس إلى هذه اللغة لم يلبث أن تغير بتغير الاحوال ، وتحول حكم البلاد من الرومان إلى الوندال ، فأخذ سلطانها يتقلص ، وما زال كذلك حتى اقتصر امرها على أن صارت لغة الكنيسة ، ولغة الطبقة المثقفة ثقافة رفيعة لاتينية . وكذلك كان وضعها عند الفتح الاسلامي . فكان من الطبيعي أن تتراجع وتترك مكانها للغة العربية ، التي هي لغة الاسلام ، بمجرد أن اصبح الاسلام هو الدين السائد في هذه البلاد، كما انها لغة الثقافة الاسلامية الجديدة التي نسخت الثقافة اللاتينية ، فلم يعد لها بعد محل معها . وبذلك زالت اللغة اللاتينية وإن بقيت اللاتينية الافريقية متداولة بين بعض الجماعات في بعض الجهات النائية ، كبلاد الجريد . وانما كان ذلك في محيط ضيق ما زال يضيق حتى انتهى ، وانتهت اللاتينية عامة .

وأما اللغة البربرية فقد كانت دائماً لغة الحياة اليومية والمعاملات الشعبية ، لم تتجاوز هذه المنزلة في العهد الروماني ولا في العهد البيزنطي ، لتصبح لغة الدين او لغة الثقافة ، وجاء الفتح الإسلامي وهي بهذه المنزلة ، فلم يحدث بينها وبين اللغة العربية صراع الا في هذه الدائرة ، دائرة المعاملات العادية ، وقد استطاعت أن تستبقي هذا المجال ، وبقيت اللغة التي يتفاهم بها البربر في حياتهم اليومية ، وإن شاركتها اللغة العربية فيه بطبيعة الحال . اذ اصبحت لغة الدين الذي دان به البربر ، ولغة هذه الثقافة الجديدة التي تستمد من هذا الدين كيانها ، والتي كان من الطبيعي أن يقبل البربر عليها ، ويأخذوا بأسبابها .

وبذلك استطاعت اللغة العربية أن تسود الحياة العقلية في هذه البلاد ، وأن تشارك إلى حد ما في الحياة اليومية . وبذلك استطاعت أن تحول هذه البلاد إلى بلاد عربية ، فذلك في حقيقة الامر ، على ما نرى ، هو الاصل في تعريب شمال افريقية ، كما كان الاصل في تعريب البلاد المصرية مثلا ، لا ما يذهب إليه الكثيرون من أن الاصل في ذلك التعريب

هو نزوح الهلاليين في القرن الخامس للهجرة . فالعريب في حقيقته تحول عقلي ثقافي ، قبل أن يكون تحولا جنسيا عرقيا ، والأصل في الاول هو اللغة ، فمنذ اخذت هذه اللغة مكانها في المجتمع الافريقي ، واصبحت اداة تحول عقلي فيه ، اخذ هذا المجتمع يتعرب ، وقد صار مجتمعا عربيا قبل الهلاليين بزمن غير قصير .

والاصل في هذا التعرب اللغوي هو الاصل الذي حمل المسلمين على هذه الفتوح جميعا ، وهو الاسلام . فمنذ استطاع الاسلام أن يغزو قلوب اهل شمال افريقية ويظفر بجمهرة كبيرة منهم ، اخذت اللغة العربية تحتل مكانها في السنتهم ، وفي عقولهم وقلوبهم . وذلك حين جعل يتكون في هذه البلاد مجتمع جديد يتألف من البربر الذين دخلوا الاسلام ، ومن العرب الذين اخذوا يتوافدون عليها ، في افواج متوالية ، في الغزوات التي كانت تتجه اليها ، منذ سنة ٢٢ للهجرة. ويستطيع المؤرخ أن يعد من هذه الغزوات عشرا على الأقل ، في كل غزوة منها عدد يتراوح بين عشرة الاف واربعين الفا ، كما تذكر كتب التاريخ في فتح افريقية ، من الغزوة التي قام بها عمرو بن العاص إلى الغزوة التي قادها حسان بن النعمان. وقد جعل الاسلام يقرب بين هؤلاء واولئك ويربط بينهم ، فهم يعيشون معا ويحاربون معا . اجتمعوا معا على حرب الروم ، على النحو الذي نراه في عهد زهير بن قيس البلوي في حربه كسيلة ، فيما يقرره المالكي اذ يقول : « ونقض الروم العهد وخرجوا من حصونهم . . . فاعتد زهير من معه ستة آلاف : الفين من البربر واربعة آلاف من العرب »، وفي عهد حسان بن النعمان ، كما نرى صورة منه فيما يحكيه ابن عذارى ، اذ يقول : « وكان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا اليه ، فلم يقبل امانهم الا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر الفا يجاهدون مع العرب ، فأجابوه ، واسلموا على يديه . فعقد لولدي الكاهنة ، لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس ، واخرجهم مع العرب ، يجولون في المغرب ، يقاتلون الروم ومن كفر من البربر » ، وفي عهد موسي بن نصير ، وقد استعمل مولاه طارقا البربري

النفزي على طنجة وما والاها » في سبعة عشر الفا من العرب ، واثني عشر الفاً من البربر »، كما يقول ابن عذارى في كتابه (البيان المغرب) . ثم يقول في عقب ذلك : « وامر العرب أن يعلموا البربر القرآن ، وان يفقهوهم في الدين » .

ومن هذا نرى بعض صور العلاقة التي جعلت تربط بين العرب والبربر ، وتسود هذا المجتمع الجديد . وترجع في جملتها ـ كما رأينا ـ إلى هذا الدين الذي جاء به العرب الفاتحون ، فاعتنقه البربر ، واجتمعوا عليه : يعلمونه ويتعلمونه ، ويعملون معا على نشره وتحقيق مبادئه . وجدير بمثل هذه العلاقة أن تكون وثيقة ، اذ كان مردها إلى هذا الدين الذي يراه الجميع غايتهم العليا ، وطبيعي أنها جعلت تشرك بينهم في وجوه الحياة وصور النشاط المختلفة .

وفي هذا المجتمع نشأ جيل اسلامي جديد ، من الذين ولدوا في أول العهد الاسلامي بافريقية والمغرب ، ومن الأسرى الذين وقعوا في السبي ، واخذوا إلى المشرق ، ونشأوا هنالك نشأة اسلامية عربية خالصة ، ثم عادوا من بعد إلى موطنهم يشاركون في حياته الجديدة وفي تطور هذا المجتمع . ونستطيع أن نتمثل هذا الجيل في رجلين : شارك احدهما في الحياة العلمية والعقلية ، وشارك الآخر في الحياة السياسية ، وهما : عكرمة البربري ، مولى عبدالله بن عباس . وقد ذكر المالكي في كتابه (رياض النفوس) انه « دخل أفريقية وأقام بالقيروان ، وبث بها العلم . وكان مجلسه في مؤخر جامع القيروان ، في غربي الصومعة » . وأما الآخر فهو طارق بن زياد النفزي ، مولى موسى بن نصير وعامله على طنجة وقد كان ـ كما نعلم ـ من اكبر الذين شاركوا في الحياة السياسية الاسلامية في شمال أفريقية .

وفي هذا المجتمع أخذت العربية تخطو خطواتها وتأخذ سبيلها .

ويعتبر بناء مدينة القيروان سنة ٥١ للهجرة من الأعلام البارزة في

تعرب الشمال الأفريقي . فقد بنيت لتكون مدينة اسلامية عربية ، تجتمع فيها وجوه النشاط الاسلامي . فلم يكد عقبة بن نافع يفرغ من اقامة سورها وبناء ما رأى بناءه بها من مساجد ومساكن ، حتى « شد الناس المطايا من كل بلد اليها ، وعظم قدرها » ، كما يقول ابن عذارى . وهكذا لم يكن بناؤها حاجة عسكرية في عملية الفتح وتنظيمها ، فحسب ، يأوى الجند اليها وينتشرون منها ، وترسم الخطط فيها ، وانما كانت ، مع ذلك ، نواة للنشاط الاسلامي العربي في أفريقية ، ومركزاً دينياً وثقافياً ، تنتشر منه تعاليم الاسلام ومبادئه ، واللغة العربية وثقافتها ، وتتيح لهذا المجتمع الجديد المؤلف من العرب والبربر الوانا من الاتصال والمشاركة في الحياة ، وتولد العوامل المختلفة التي تلائم بينه ، وتربط بين عناصره ، في أسواقها ومساجدها .

ولا ريب أن مسجد القيروان الذي بنى أول ما بنيت مدينة القيروان ، ثم جدده حسان بن النعمان وبناه بناء حسنا ـ كما يقول المالكي ـ سنة ٨٤ للهجرة ، كان من أكبر اسباب هذا التعرب . فقد كان ـ كما هو شأن المساجد في الاسلام ـ مثابة العلماء والمتعلمين . وقد رأينا أن أبا عبدالله عكرمة البربري اتخذ منه مجلسه الذي يجتمع اليه فيه الناس ، يأخذون عنه تفسير القرآن وحديث الرسول ﷺ . وكذلك كان شأن العلماء الذين يقصدهم الناس للتعلم منهم والأخذ عنهم ، ويرون فيهم المثل العليا لرجل الدين والعلم معا ، فكانوا يتلقون فيه مبادىء الدين وعلوم الاسلام واللغة العربية جميعاً . ولا ريب أيضاً في أن ما كان يحيط بهذا المسجد خاصة من هالات القداسة ، وما كان يغمر الأذهان والأخيلة حول بنائه ، وحول منشئه عقبة بن نافع ، من مآثر يذهب بعضها مذهباً بعيداً ، كان مما يجعله أقوى أثراً ، وأبعد لتحقيق هذه الغاية نفاذاً .

وإلى جانب مسجد القيروان هذا كانت هناك طائفة أخرى من المساجد يعقد فيها العلماء حلقات دروسهم ، وتنعقد فيها الصلاة بين روادها من العرب والبربر ، وتنفذ اللغة العربية منها إلى قلوب الناس

وآذانهم وألسنتهم ، كالمسجد الذي بناه اسماعيل بن عبيد الأنصاري ، أحد التابعين العشرة الذين أوفدهم عمر بن عبد العزيز إلى أفريقية . ويذكر المالكي هذا المسجد ، ويقول إنه « الذي يعرف الآن بمسجد الزيتونة » ، والمسجد الذي بناه أبو رشيد ، حنش بن عبدالله الصنعاني ، ويقول المالكي عن موقعه إنه في ناحية « باب الريح » ، ومسجد زياد بن أنعم السفياني في ناحية باب نافع ، ومسجد ابن وعلة المصري الشيباني ، إلى غير ذلك من المساجد التي كانت ـ ولا ريب ـ كبيرة الأثر في تعريب شمال أفريقية ، بما كان يجتمع فيها من علماء القرن الأول .

وقد ذكر أبو بكر المالكي في الطبقة الأولى من علماء القيروان سبعة وثلاثين عالماً ، منهم ـ وهم أكثرهم ـ من اتخذ من أفريقية موطناً له ، لم يتحول عنه إلى أن مات ، ومنهم من أقام بها فترة يعلم أهلها ويدعو إلى الإسلام بها ، ثم عاد إلى المشرق ، كعكرمة الذي أشرنا منذ قليل اليه .

ومن هؤلاء العلماء أعضاء البعثة التي أرسلها عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة ، مع واليه على أفريقية ، حين أحس بوجوب مضاعفة الجهد في سبيل نشر الإسلام بين البربر ، وتعليم هؤلاء الذين اتخذوا الإسلام ديناً لهم ، وتثقيفهم بالثقافة الاسلامية ، وفي سبيل الابقاء على العاطفة الدينية بين المسلمين قوية مرهفة .

وتتألف هذه البعثة من عشرة من التابعين ، هم : أبو عبد الرحمن بن يزيد المعافري ، وابو مسعود سعد بن مسعود التجيبي ، واسماعيل بـن عبيد الأنصاري ، وابو الجهم بن عبد الرحمن بـن رافع التنوخي ، وموهب بن حيي المعارفي ، وحبان بن أبي جبلة القرشي ، وأبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامي ، وأبو سعيد جعيل بن عمير ، وطلق بـن جابان الفارسي ، واسماعيل بن أبي المهاجر المخزومي .

وقد اجتمع هؤلاء العشرة في القيروان : يقرأون أهلها القرآن ، ويعلمونهم سنة رسول الله ، ﷺ ، ويفقهونهم في الدين ، ويوقظون

مشاعرهم الدينية اذا هي غفت . وقد كان بعضهم يتولى - إلى جانب هذه الوظيفة الأولى - بعض أعمال الدولة . فقد كان اسماعيل بن أبي المهاجر يشغل منصب الوالي ، وكان أبو سعيد جعيل بن عمير يتولى قضاء الجند بافريقية .

واذا نحن تعرفنا إلى هؤلاء ، وحاولنا أن نتعرف شيئاً من ملامح شخصياتهم ، بقراءة ما يؤثر من أخبارهم وأقوالهم ، وجدنا أن الصفة التي يشتركون فيها ويتميزون بها ، هي : الزهد في عرض الدنيا، والعاطفة الدينية القوية، وسماحة النفس ولين الجانب . وليس ثمت ما يدعونا إلى التشكك في ذلك . فنحن لا نكاد نشك في أن اختيار عمر بن عبد العزيز اياهم انما كان على أساس هذه الناحية التي ترشحهم لتحقيق ما ندبوا له على خير وجه . وأكبر الظن أن أثرهم بذلك كان كبيراً في المجتمع الافريقي ، وانهم استطاعوا أن يظفروا بقلوب أهل أفريقية ، ويصلوا ما بينهم وبين العامة ، وأن يؤدوا عن الاسلام صورة بعيدة عن صورة السيطرة والجبرية التي كان بعض الأمراء والعمال يظهرون بها .

بهذه الحركة الدينية العلمية التي أخذت مكانها في القيروان وغيرها من المراكز في شمال أفريقية منذ القرن الأول ، وجعلت تقوى وتتسع شيئاً فشيئاً ، وتداخل الطبقات المختلفة ، جعلت اللغة العربية تنتشر شيئاً فشيئاً بين البربر الذين اعتنقوا الاسلام وأقبلوا على درسه . فإذا كان القرن الثاني وجدنا أنه لم يكد يتقدم قليلا حتى كانت ناشئة من العلماء من أهل البلاد قد نشأت واحتلت في الحياة العلمية مكانا مرموقا ، فقد استطاعوا أن يقرأوا القرآن ويرووا الحديث ويعرفوا السنن ويستنبطوا الأحكام على النهج الاسلامي ، ثم اخذوا فوق ذلك يتجهون إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، ولقاء العلماء في مصر والحجاز والعراق والشام ، فإذا عادوا من رحلتهم أقبل عليهم أبناء البلاد يأخذون عنهم ويتفقهون بهم .

وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة الطبقة المثقفة ، وحلت بذلك المحل الذي كانت اللغة اللاتينية تشغله ، مع فارق كبير ، هو أن الطبقة

المثقفة بهذه الثقافة الجديدة كانت أوسع مدى وأكثر شمولاً ، إذ كان الاسلام ـ كما قلنا ـ دينا وثقافة وحضارة معا . ثم لم تلبث أن أصبحت لغة الناس جميعاً ، يتفاهمون بها ، ويدونون بها ما يحتاجون إلى تدوينه في جميع شؤونهم .

على أن هنالك عاملا آخر ينبغي ألا نغفله ، إذ لا نشك في أنه كان كبير الأثر في تعرب هذه البلاد ، وهو تعريب الديوان في أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، في القرن الأول . فقد كان لذلك أثره في القضاء على اللغة اليونانية التي بقيت لغة الديوان حتى ذلك الوقت ، وفي اقبال الناس على تعلم العربية وتجويدها ليستطيعوا أن يتولوا وظائف هذا الديوان .

واذ استطاعت اللغة العربية أن تؤدي الحاجات العقلية والادارية التي كانت تؤديها اليونانية واللاتينية ، فقد استولت على الميادين التي كانت تسيطر عليها هاتان اللغتان ، إلى جانب ما أتيح لها من سيادة في المجتمع الاسلامي الجديد الذي أخذ يكون مجتمعا موحدا متجانسا بعض الشيء ، وخاصة منذ القرن الثاني ، كما نرجو أن نعرض لذلك ونتبينه بعد إن شاء الله . فالاسلام لا يفرق بين جنس وجنس ، وولاة المسلمين الذين ولوا أمر أفريقية أشركوا البربر معهم في كثير من الشئون ، منذ أوائل الفتح ، فكان في ذلك ما أعان على تكوين هذا المجتمع الموحد ، كما أعان بذلك على أن تكون اللغة العربية لغة هذا المجتمع في حياته اليومية ، إلى جانب اللغة البربرية .

وإلى جانب هذا نستطيع أن نضيف عاملاً آخر ، هو ما كان بين العرب والبربر من تقارب في أسلوب الحياة ، وما يستتبع ذلك من تقارب في أسلوب التفكير . فلم يكد العرب يستقرون في شمال أفريقية حتى استطاعوا أن يستأنفوا في هذه البلاد الجديدة حياة قريبة من الحياة التي تركوها وراءهم ، وينتشروا بين قبائل البربر يأخذون في الحياة مأخذهم . وبذلك استطاعوا في يسر أن يداخلوهم صنوفاً من المداخلة ، ومن ناحية

أخرى يحس البربر أنهم بازاء شعب لا يفصل بينه وبينهم ما كان يفصل بينهم وبين اليونان والرومان من فوارق واسعة في الطبائع والأخلاق والعادات وأساليب العيش وأنماط التفكير . وانما هي اللغة وحدها . ثم لا تلبث الصلات التي جعلت تنعقد بين هؤلاء وأولئك في شتى مجالات الحياة ، وجعل ذلك التقارب يوثقها ، أن اضعفت من الاحساس بذلك الفارق .

وقد لاحظ بعض العلماء أن هناك صلة واضحة بين الموسيقى في جنوب مراكش ، والموسيقى في جنوب بلاد العرب . والموسيقى هي في حقيقتها أسلوب من أساليب التعبير الطبيعي . فهذا التقارب في هذا الأسلوب عند هؤلاء وأولئك يمكن أن يدلنا على مبلغ ما بينهما من تقارب في المزاج والطبيعة . ولعله من ذلك لم يكن غريبا أن تنشأ الدعاوى المختلفة التي لا نريد ، ولا نملك ، الدخول في تحقيقها في أن ما بين العرب والبربر انما هو شيء أصيل يرجع إلى صلات الدم وأواصر النسب ، وإن تفرقت بهما الأوطان ، واختلف المكان ، على النحو الذي نراه في الكلام عن أنساب البربر ، في كتب الأنساب .

وهكذا نرى كيف اجتمعت الأسباب المختلفة وتضافرت على تقريب ما بين العرب والبربر ، وعلى تلاقيهما . وكان في ذلك كله ما مكن للغة العربية ومهد سبيلها للانتشار بين القبائل البربرية ، في جملتها ، انتشاراً طبيعياً ليس فيه شيء مستكره أو قلق أو ناب عن نصابه الطبيعي . فقد كان هذا الانتشار ـ كما رأينا ـ مسايرا للتحول الذي أتيح للمجتمع البربري ، وجعل يتناوله في رفق من داخله ، ويلائم بين نوازعه الداخلية وحياته الخارجية .

من ملامح المجتمع المغربي في القرن الثاني للهجرة

كانت عوامل تعريب المغرب التي عرضنا في فصل سابق للحديث عن طرف منها عوامل تحويل للمجتمع المغربي ، بما اضافت اليه من عناصر عربية ، وما تناولته به من باطنه ، وغيرت كثيرا من اوضاعه . ولعل من اول القيم الاسلامية التي جعلت تقرب ما بين عناصر هذا المجتمع ، ما جاء به الاسلام من المساواة بين افراده وجماعاته . فلا فضل للعربي الفاتح المنتصر على البربري المغلوب وقد تحول اليه ، فقد جمع بينهما وجعلهما سواء في حق كل منهما على الدولة وواجبه لها ، واشرك بينهما في الحرب والسلم : في ميادين القتال يقاتلون معا عن العقيدة الواحدة ، وفي حلقات الدرس يتلقون معا هذه الثقافة الجديدة ، ويتشربون هذه المبادىء الاسلامية . مستشعرين روح المودة ترفرف عليهم ،وتسري في نفوسهم .

واذا كان ذلك قد استطاع ان ينهنه مشاعر القومية البربرية ، ويكفكف بعض الشيء من جماحها ، في خلال عمليات الفتح وخطوات التعريب الاولى في القرن الأول ، وخاصة بعد ان اخذت الامور في الاستقرار في عهد حسان بن النعمان ، وحتى نهاية القرن الاول وبداية القرن الثاني ، فان هذه المشاعر التي سكنتها وطامنت منها روح المساواة والمودة والرفق ، لم تلبث ان تيقظت ثم قفزت وانتفضت وثارت حين افتقدت هذه الروح .

فلم يكد يستهل القرن الثاني بوفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وتحول الخلافة الى يزيد بن عبد الملك ، حتى كان هذا ايذانا بسياسة جديدة في معالجة الامور غير تلك التي اخذ بها وجرى عليها عمر بن عبد العزيز من التزام العدل وايثار الرفق ، وتغليب المصلحة العامة على الاعتبارات الموقوتة ، وتحكيم المبادىءالإسلامية خالصة من كل شوب . حتى اذا جاء يزيد فقد اختلف الامر بقدر ما كان من اختلاف الشخصيتين . فقد كان طرازا مختلفا عن سلفه كل الاختلاف . كان من الرجال الذين تحكمهم اهواؤهم وتصرفهم شهواتهم ، فظهر ذلك في سيرته الخاصة من ايثار المتعة والتماس اسباب اللذة ، وفي سياسته العامة في تصريف امور الدولة وفي اختيار الرجال الذين يتولون هذه السياسة .

وكما انه لم يكد يلي الخلافة حتى بادر بعزل رجل مثل ابي بكر محمد بن عمرو بن حزم ، امير المدينة ، ليوليها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري ، وشتان ما بين الرجلين في الالتزام بمبادىء الاسلام وروحه ، من العدل والإحسان، وهما قوام الدين كما يقول عمر بن عبد العزيز ، كذلك بادر بعزل امير افريقية اسماعيل بن عبد الله بن ابي المهاجر . وقد كان ـ كما رأينا من قبل ـ احد الفقهاءالعشرة الذين اوفدهم عمر بن عبد العزيز الى افريقية ، ليبثوا بها مبادىء الاسلام ويثبتوا اركانه ، واحل محله يزيد بن ابي مسلم الثقفي .

ويزيد بن ابي مسلم هذا هو ابو العلاء يزيد بن دينار ، احد تلاميذ الحجاج واصفيائه واقربهم الى فهم مذهبه فيالحكم واصطناع اسلوبه . فقد كان كاتبا له ، ثم لم يلبث ان كان موضع رضاه عنه واعجابه به ، فاستخلفه على الخراج بالعراق . وكان أمر الخراج وجبايته ما زال مثار الاحتكاك بين العمال الذين يتولونه والرعية التي تؤديه . وكان اسلوب استاذه فيه أسلوباً يجافي مبادىء الإسلام، وروح العدل والاحسان، فأثار به سخط الناس عليه . وكذلك كان أمر يزيد حين كان واليا على افريقية . فاتخذ من البربر الموقف الذي كان يتخذه استاذه من النبط ، وسلك معهم

مسلكه ، فلم يفرق بين من اسلم منهم ومن لم يسلم ، كما كان شأن الحجاج في العراق في فرض الضرائب . « فان الحجاج كان قد وضع الجزية على رقاب الذين اسلموا من اهل السواد ، وامر بردهم الى قراهم ورساتيقهم على الحالة التي كانوا عليها قبل الاسلام . فلما عزم يزيد على ذلك تآمر البربر عليه ،واجمعوا على قتله فقتلوه » ، كما يقول الطبري . وكما كان الحجاج يشم ايدي النبط، علامة يعرفون بها ، كذلك حاول يزيد بن ابي مسلم ان يصنع ذلك بالبربر الذين اسلموا .

وبمثل ذلك افتقد البربر المساواة التي جاء الاسلام بها ، وسياسة المودة والرفق التي عهدوها وانسوا بها من قبل ، في مثل اسماعيل بن عبد الله بن ابي المهاجر .

وقد كان ذلك مما اتاح للمشاعر القومية ان تنفجر وتثور بعد هدوء وسكون ، فاذا بالثورات يشنها البربر على الامراء والعمال تجتاح المغرب كله ، حتى بلغ عددها ـ فيما يذكر ابن خلدون ـ سبعا وخمسين وثلاثمائة . كما بلغ عدد الولاة الذين ولوا امره من قبل الدولة في المشرق ، منذ بدء القرن الثاني وولاية يزيد بن ابي مسلم حتى قيام دولة الاغالبة في اواخر هذا القرن ، سنة ١٨٤ ، ثمانية وعشرين واليا . فقد كان الواحد منهم ، او من اكثرهم ، لا يكاد يبلغ مكانه ويستقر في منصبه حتى تضطرب الامور حوله ، وتأخذه الفتن من هنا وهنا ، وحتى يفلت الزمام من يده او يكاد ، فاذا هو لا يملك شيئاً، فيستبدل به غيره ، وهكذا .

وليس من شأننا في هذه الدراسة الأدبية ان نؤرخ لهذه الثورات ونتتبعها ونتعقب اخبارها . فان الذي يعنينا منها هنا هو ما عسى ان يكون لها من أثر في المجتمع المغربي ، وفي تاريخه الأدبي . واول ما لفت نظرنا من ذلك ، ونرجو في هذا الفصل ان نتبينه ونتعرف بعض وجوهه ، هو ان هذه الثورات التي ثارها البربر على السلطان العربي ، والتي تفجرت فيها مشاعر القومية البربرية ، لم تكد تبدأ تعبيرا عن هذه القومية ، حتى ظهر في المغرب ذهب الخوارج .

ومذهب الخوارج هذا هو مذهب ثوري ، منذ اول امره . فقد كان اول ظهوره تعبيرا عن النقمة على علي في قبوله التحكيم ، وثورة عليه وحربا له ،ثم لم ينته بقتل علي ، بل ظل يمثل روح الثورة على السلطان القائم في ايام بني امية وايام بني العباس ، متخذا شتى الميادين ، فما ان سرى من المشرق الى المغرب حتى التقى بهذه الثورة التي كان البربر يواجهون بهاعمال بني امية فاحتضنها . ولا نكاد نشك في انه كان لذلك اثره الخطير في توجيهها وفي اسباغ طابعه عليها . فقد تحولت بذلك ـ تحولا ما ـ الى ثورة في سبيل المبدأ الذي يؤمن مذهب الخوارج به ويدعو اليه . ولم تعد ، في جملتها ، ثورة عنصرية ينقسم فيها المغرب الى معسكرين متميزين : العرب والبربر، ، يقف الواحد منهما بازاء الآخر ، كما كان جديرا أن يكون الامر لو لم يتدخل هذا المذهب ، ويحتضن هذه الثورة ويطبعها بطابعه . وقد كان من اول ما اتاح له ذلك ومكنه منه ان المساواة بين المسلمين هي احد اصوله الاولى ، بل هي اعمق هذه الاصول واغلبها عليه : لا فرق بين عربي واعجمي في ولاية امر المسلمين وامامتهم ، فالكل سواء في استحقاق ذلك . وانما هي للأصلح لها ايا كان قبيله وجنسه . وهذه المساواة هي التي كان افتقاد البربر لها سبب ثورتهم ، والعامل الاول الذي هاج كوامن عصبيتهم .

وقد وجد مذهب الخوارج في المغرب ارضا خصبة وبيئة صالحة ، لهذا المبدأ الذي يقوم عليه ويغالي به ، ولمظهر البداوة الذي يسوده ، ثم لهذه الملابسات التي لابست المجتمع المغربي ابان انتقاله اليه وظهوره فيه . وكان في ذلك كله ما مكن له من ان يحتضن هذه الثورات البربرية . ومنذ ذلك الوقت اخذت الثورة البربرية طابعا اسلاميا خفت به صوت الطابع العنصري وعاد الى مكمنه ، كما عصمها من أن تنزلق فتكون ثورة على الاسلام بعد ان كانت ثورة على العرب وولاتهم . وانما مضت في الطريق الذي مضت فيه ثورة الخوارج في المشرق . فكانت ثورة على الجور في المعاملة ، والخرق في سلوك الولاة والعمال ، وسوء التصرف في الحكم ،

والانحراف في ولاية المسلمين عن روح الاسلام واصوله ومبادئه . فالأصل فيها هو الاصل الاسلامي ، لا الأصل العنصري البربري. وقد كان ذلك من العوامل التي حاولت ـ فيما نحسب ـ ان تقرب ما بين العرب والبربر ، وتجمعهم وتوثق الروابط بينهم ، إذ تجعل لهم جميعاً هدفاً واحداً يتجهون إليه .

وطبيعي ان البربر، منذ احتضن ثوراتهم الخوارج، وجمهرتهم من العرب ، لم يكونوا وحدهم قوام هذه الثورات. بل لقد كان العرب ممن استوطنوا هذه البلاد ممثلين فيها ، وان يكونوا قلة بطبيعة نسبتهم بين اهليها . ونحن نرى رجلا مثل عكاشة بن أيوب الفزاري يقود ثورة هوارة على حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤ ، الى جانب القائد البربري ، عبد الواحد بن يزيد الهواري .

هذه هي الظاهرة التي أردنا تقريرها لعلاقتها بما نحن فيه، من تبين ملامح المجتمع المغربي في هذه الفترة ، من حيث العوامل العاملة في تعريبه وتهيئته لقيام حياة ادبية فيه . وهي ان هذه الثورات التي احتضنها المذهب الخارجي ووسمها بميسمه ووجهها وجهته تعد ، على عكس ماهو متبادر ، من الأسباب التي كان لها اثرها البليغ في توحيد الجماعة الاسلامية في شمال لفريقية . وفي عصمتها من الايغال في الشقاق العنصري الذي كان من الممكن ان يعفى على الخطوات التي خطاها التعريب بينها ، ويحولها عن الطريق الذي بدأت فيه .

وهذه الظاهرة تثير في الذهن ظاهرة اخرى تناظرها ـ الى حد ما ـ في المشرق ، وهي مداخلة التشيع للقومية الفارسية . فكما كان ذلك اثر المذهب الخارجي في المغرب في القرن الثاني ، كان كذلك او قريبا منه امر التشيع في المشرق في القرن الاول والثاني . فان التشيع الذي وجد في الموالي الفرس ارضا صالحة وبيئته ملائمة يعد ـ فيما نرى ـ من العوامل التي اخذت تقرب بين العرب والموالي ، وتكون مجتمعا اسلاميا موحدا . وكان احتضان المذهب الشيعي لثورات الموالي التي اخذت القومية الفارسية تبرز من خلالها من الأسباب التي استطاعت ـ الى حد ما ـ ان توجه هذه القومية

في الطريق الديني وتتجه بذلك الى الثقافة الاسلامية . وان لم يلبث الامر بعد ذلك ان اختلف اختلافا بينا . فان القومية الفارسيةالتي وجدت في التشيع ما يتفق مع بعض نوازعها لم تلبث ان غلبت عليه ووجهته في سبيلها وطبعته بطابعها وجعلته في خدمتها ، حتى اصبح اخيرا مذهبا فارسيا . اما المذهب الخارجي فلم يذهب الى هذا الحد . وان استطاع ان يكون في المغرب دولةتتسم بوسمه وتحكم باسمه ، الا انها لم تعتصم بالعنصرية ، وانما هو المذهب الديني وحده الذي كان يميزها ويطبعها بطابعه .

لقد قامت في القرن الثاني في بلاد المغرب دولتان خارجيتان : اما احداهمافنشأت في اسرة بربرية ، واما الاخرى فنشأت في اسرة فارسية . والاولى هي دولة بني مدرار في سجلماسة ، وكان رأسها عيسى بن يزيد الأسود ، من موالي العرب ، كما يقول صاحب الاستقصا في صفته ، ثم آل امرها سنة ١٥٥ الى ابي القاسم بن سمكون ابن واسول المكناسي . واما الاخرى فهي الدولة الرستمية التي اتخذت من مدينة (تاهرت) مقرا لها ورأسها هو عبد الرحمن بن رستم ، وهو فارسي الأصل . وعلى الرغم من التفاوت الشديد بين القومية البربرية والقومية الفارسية ، فقد ربط المذهب الخارجي بين هاتين الدولتين رباطا لم يعد معه لمثل هذا التفاوت مكان ، كما نشأت بين الاسرتين صلة المصاهرة التي اتاحها الاشتراك في هذا المذهب . فتزوج صاحب سجلماسة من ابنة صاحب تاهرت : اروى بنت عبد الرحمن بن رستم .

وبهذا نرى ان ظهور مذهب الخوارج في المغرب ، بما يحمل من مبدأ المساواة بين المسلمين ، مهما اختلفت اجناسهم ، في الوقت الذي ابتدأت فيه ثورة البربر على الولاة ، حين اهدروا هذه المساواة ، يمكن ان يعد من العوامل المهمة في تكوين المجتمع المغربي ومزج عناصره او التقريب ما بينها . واذا كان قد اوجد شيئا من الشقاق المذهبي ، فانه استطاع ان يحد من الشقاق العنصري ، وان يمكن للاسلام وما صاحبه من تعريب ، من هذا الافق . على ان ذلك الشقاق المذهبي لم يلبث ان تضايق وتضاءل ، بعد ان خفت صوت ذلك المذهب واخذ في الاضمحلال

على يد اسرة المهالبة وخاصة رأسها يزيد بـن حاتم ، حتى لم يبق ممن يدينون به الا بقية قليلة ، « في بلاد زناتة بالصحراء . . وفي جبال طرابلس » ، كما يقول ابن خلدون .

واذا كان الفضل في اخماد هذه الثورات والقضاء على تلك الفتن يرجع إلى يزيد بن حاتم المهلبي ، وقد أتم بذلك في المغرب ما بدأه المهلب مع الخوارج في المشرق . ثم ما ترتب على ذلك من اشاعة الاستقرار والطمأنينة ، فاليه يرجع الفضل ايضا في بدءالحياة الادبية في المغرب .

ويزيد بن حاتم هذا هو ابو خالد ، يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن ابي صفرة،المتولي امارة مصر من قبل ، واحد المذكورين في بيت المهالبة المشهور في المشرق بالمجد الرفيع في صوره المختلفة : ادبية ومادية .

وكان ـ فيما يصفه به الرقيق القيرواني في كتابه تاريخ افريقية والمغرب ـ « كثير الشبه بجده المهلب ، في حروبه ودهائه ، وكرمه وسخائه »،كما يحكي عن سحنون بعد سعيد ، احد فقهاء المغرب وقضاته في القرن الثاني والثالث ، انه كان يقول : « كان يزيد بن حاتم يقول : والله الذي لا اله الا هو ما هبت شيئا قط هيبتي رجلا واحدا يزعم اني ظلمته ، وانا اعلم ان لا ناصر له الا الله » . كما يذكر عنه بعض الاخبار الدالة على نبله ونزاهة نفسه . فقد كان الرجل ، كما تؤدي الينا جملة اخباره ، سري النفس كريم الخلق يقظ الضمير ، عفيفا ، محتفظا بتقاليد اسرته في الجود والسخاء والترفع عن الصغائر ، الى جانب الحزم والتصميم وقوة الشخصية . وبذلك كان واليا يشبه ان يكون مثاليا ، استطاع ان يقر الامور ويبث الطمأنينة ، ويشيع حوله الحب والتقدير ، مدة حكمه التي امتدت حتى بلغت ستة عشر عاما ، منذ ولاه الخليفة المنصور سنة ١٥٤ الى ان قضى نحبه في مطلع خلافة الرشيد ، سنة ١٧٠ . كما يمكن القول بانه هو الذي مهد لدولة الاغالبة التي وليت امر المغرب بعد اسرة المهالبة ، وانه بذلك ، وبما اتيح له من تشجيع الحياة الادبية ، قد مكن

للعوامل الماضية في تعريب المغرب .

فبيزيد هذا بدأ عهد جديد في المغرب اتخذت فيه هذه البلاد مظهرا جديدا من النشاط الادبي ، وان يكن محدود المجال بطبيعة الحال ، فقد كانت البيئات العربية ما تزال محدودة ، كما كانت حوافز مثل ذلك النشاط قليلة ضعيفة . وانما اتيح له ان تظهر بواكيره بتولي يزيد امارة افريقية ، واقراره الهدوء والطمأنينة فيها ، واشعاره الناس روح الرضا والاستقرار ، وحرصه على ان يحقق في المغرب تقاليد اسرته من الاقبال على الادب والتحفي بالأدباء ، وان يجعل من قصر الامارة في المغرب صورة من قصور الامراء والسراة في العراق ، ومن مجلسه ندوة ادبية حافلة ـ قدر ما يمكن ـ بأهل الادب، والعلم ، تردد صدى ما يدور بينهم من رواية وحوار، وما يتطارحونه من اخبار واشعار .

على انا لا نعني بذلك انه لم توجد قبله في المغرب صور من التعبير الادبي . بل كل ما نعنيه ان اتخاذ الادب مقرا له في دار الامارة ، يجتمع فيها الادباء الذين خلصوا للأدب وتوفروا عليه، وممارسة الامير وظيفته ازاءهم ، بتشجيعهم وبرهم وبسط رعايته عليهم ، إنما بدأ في ذلك العهد . اما صور الادب التي تعبر عن مشاعر اصحاب الموهبة الشعرية فلا ريب انها وجدت كلما وجد مجتمع عربي يضم بعض هؤلاء الموهوبين . وقد كان للمجتمعات العربية في المغرب ، قبل عهد يزيد بن حاتم ، شعراؤها الذين ينفعلون ببعض الاحداث ، فيعبرون عن مشاعرهم ازاءها . وعلى الرغم مما منيت به هذه الفترة خاصة من ضياع اخبارها ودروس آثارها ، فقد بقي لنا منها ما يدلنا على بعض هؤلاء ، كأبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي الذي يذكر بين امراء الاندلس في العهد الاموي ، من قبل امير افريقية بشر بن صفوان الكلبي . وشعره يعكس روح العصبية القبلية التي كان يضطرب بها المشرق اذ ذاك ، حين ناله شيءمن شرها وهو في افريقية ، وقد وليها اذ ذاك امير قيسي متشبع بهذه العصبية . وكان ابو الخطار نفسه شديد الاعرابية .

ومن هؤلاء الشعراء الذين شاركوا في الحياة الافريقية ، وردد شعره بعض صورها ، الحكم ابن ثابت السعدي ، احد قواد الجيش الذي بعثه الخليفة المنصور اليها لقمع ثورة البربر فيها . فاتخذ القيروان دار مقام له .

ومنهم كذلك سليمان بن محمد الغافقي . وقد عرف به ابن الابار بقوله عنه : « فارس العرب قاطبة بالمغرب في عصره ، واحسن الناس لسانا وابلغهم ، الى معرفة بأيام العرب واخبارها ، ورواية لوقائعها واشعارها » .

والبقايا القليلة التي بقيت لنا من شعر هذاالنمط من الشعراء يصدر بعضها عن روح العصبية القبلية التي كان الشرق مضطربا بها بين القيسية واليمنية ، والتي نراها في مثل شعر القطامي وزفر بن الحارث الكلابي . وبعضها عن روح القتال ، اذ يعرض لما كان يدور منه بين العرب والبربر . وهو بذلك يعرض بعض صور الحياة في المجتمعات او المعسكرات العربية ، وبعض المشاعر السائدة فيها .

وطبيعي ان مثل هذه الصور من التعبير الأدبي ، في مثل هذه الفترة ، كانت صوراعابرة . ولم تكن الحياة المضطربة القلقة الثائرة تأذن لحياة ادبية مستقرة مطردة . إنما كان ذلك بعد أن استطاع يزيد بن حاتم أن يقرها ، واستطاع ان يفرغ بعد الى حياة مدنية هادئة ،والى قصر الامارة بالقيروان ، وان يسبغ عليه الصورة المعهودة في قصور بغداد والبصرة . وكان ـ كما يقول الرقيق القيرواني ـ « حسن السيرة بافريقية . منذ جاء تفد الشعراء عليه لطلب صلته واحسانه » .

وبهذا بدأت ـ كما قلنا ـ بأسرة المهالبة فترة جديدة يمكن القول بانها اول فترة استطاع الادب العربي ان يتخذ له فيها بالمغرب صورة متميزة . وان يستحدث بيئة جديدة يجلو فيها نشاطه ، منذ استطاعت دار الامارة ان تمثل الدور الذي تمثله في المشرق من اجتذاب الشعراء وتشجيعهم ، ومن اصطناع هذا المظهر من مظاهر الترف التي عرفت بها دور الامراء والسراة في البصرة والكوفة وبغداد ، مظهر الندوات الأدبية والعلمية تعقد فيها ، ويتسابق الشعراء والأدباء والعلماء إلى نيل الحظوة بها ، وإظهار مواهبهم

الفنية وقدراتهم العقلية ومحصولهم العلمي من خلالها .

ومن قبل كانت الحياة العقلية مقصورة على مسجد القيروان وما اليه من المساجد التي كان العلماء يتخذون فيها مجالسهم ، ويعقدون فيها حلقاتهم . وقد رأينا ـ في خلال حديثنا عن تعرب المغرب ـ ان الصفة الغالبة على هؤلاء العلماء هي الزهد والورع ولين الجانب ، الى جانب المعرفة الدينيةالواسعة العميقة ، وان الغاية الكبرى التي كانوا يتوخونها بمجالسهم وحلقاتهم هي تعليم اصول الدين واشاعة مبادئه ، وايقاظ العاطفة الدينية وتقويتها . فلا جرم كانت مجالسهم هذه مصبوغة بهذه الصبغة ، مطبوعة بهذا الطابع . فهي مجالس دينية في جملتها والصفة الغالبة عليها . وتلك كانت صورة الحياة العقليةعامة في تلك الفترة ، قبل ولاية يزيد بن حاتم المهلبي ، واقرار السكينة في البلاد ، ونزوعه في ولايته ذلك المنزع الذي بث الهدوء والطمأنينة ، والذي اتاح لدار الامارة في القيروان ان تؤدي ما تؤديه دور الامارة في المشرق ، فتصبح مركزا للنشاط الادبي الذي يتمثل في الشعر والرواية والاخبار ، والى جانب مسجد القيروان الذي ظل يمثل الجانب الاخر من جوانب الشخصية العربية الجديدة التي اخذ المغرب يظهر بها ، ويؤدي وظيفته الكبرى في نشر الثقافة الدينية والمبادىء الاسلامية .

واذن فقد اخذت الحياة الادبية (بالمعنى العام للأدب) تسير منذ ذلك الحين في طريقين ، وتتحد لها مركزين مختلفين : احدهما فني لغوي ، قوامه الشعر والرواية واخبار الحياة العربيةوصورها ، ويتمثل ـ اكثر ما يتمثل ـ في قصر الامارة ، والاخر ديني عقلي قوامه قراءة القرآن وبيان معانيه ، ورواية الحديث وشرحه ودرس الفقه ، والنظر في اصول الاسلام ومبادئه وتعاليمه ، ويتمثل ـ اكثر ما يتمثل ـ في مسجد القيروان وغيره من المساجد .

فأما النشاط الفني اللغوي ـ او الأدبي بالمعنى الخاص للأدب ـ الذي جعل قصر الامارة يثيره ويحتضنه وينفخ فيه من روحه خلال الفترة التي ولى

فيها يزيد بن حاتم ومن بعده اخوه روح ، فقد كان قوامه طائفة من الشعراء واهل الادب واللغة ، وفدوا من المشرق ، حين جعلت الأحاديث تترامى هنا وهنا عن صاحب افريقية ، وما اخذ يصطنعه فيها ويحيي به سنة المهالبة وتقاليدهم في ذلك الأفق . من مظاهر السماحة والكرم ، ومن تقريبه للادباء والعلماء واحتفائه بهم . وتوفير اسباب الحياة الرخية الكريمة لهم .

والاخبار التي لدينا عن هؤلاء الوافدين قليلة . ولا يكاد يداخلنا الشك في ان كثيرا منها قد ضاع فيما تبدد وضاع من اخبار افريقية في هذه الفترة . وما اكثر ما ضاع منها ، وخاصة ما يتصل بالحياة الادبية فيها . ولكن الاثارات القليلة الباقية لنا يمكن ان تصور لنا ـ على نحو ما ـ صورة من النشأة الادبية الاولى في المغرب العربي ، وتبين لنا ـ الى حد ما ـ بعض العوامل التي أخذت، منذ ذلك الوقت ، تعمل على تكوين الحياة الادبية فيها واستوائها .

وهذه الاثارات تقدم الينا هؤلاء الوافدين خليطا من الشعراء والرواة وعلماء اللغة ، كما نجد فيها الشاعر الفحل ، والشاعر الوسط .

فأما الشاعر الفحل فنعني به ربيعة بن ثابت الرقي . وقد انفرد ـ فيما نعلم ـ الرقيق القيرواني بالنص على انه احد من وفد على يزيد بن حاتم بافريقية ، « فمدحه باشعار كثيرة ، منها قصيدته التي يمدحه فيها ويهجو يزيدَ ابن اسيد السلمي » .

وربيعة بن ثابت الرقي هذا هو احد شعراء النصف الثاني ، من اهل الجزيرة . وصفه صاحب الاغاني بانه « من المكثرين المجيدين . وكان ضريرا . وانما احمل ذكره واسقطه عن طبقته بعده عن العراق ، وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء . وعلى ذلك فما عدم مفضلا لشعره ، ومقدما له » . وربما كان ابو الفرج يعني بالمفضل لذكره والمقدم له ابن المعتز ، اذ يبدو من الفصل الذي كتبه عنه في طبقاته انه كان مفتونا به ، مفضلا له على اكثر شعراء عصره .

واما القصيدة التي يذكرها الرقيق له ، فلعله آثرها لانها اشهر ما يؤثر

عنه . وقد اورد طائفة من ابياتها . كما انه انفرد ـ فيما ذكر ـ بايراد مقدمتها ، وهي :

الا طرقتنا باللوى ام عاصم   وقد زارنا منها خيال مجاشم
الت بركب عرسوا بتنو فة   هجوع لدى اعصار خوص سواهم
وبتنا كأن المسك بين رحالنا   يفوح علينا من عباب اللطائم
واني اهتدت تسري الينا غزيرة   مخضبة الاطراف ريا المعاصم
فقلت لها اني شعرت بفتية   نشاوى من الادلاج مثل النعائم
حلفت يمينا غير ذي مثنوبة   يمين امرىء آلي وليس بآثم

ثم يلي ذلك ابياته في مدح يزيد بن حاتم والتعريض بسميه يزيد بن اسد ، متفاوتة بين الزيادة والنقص في رواية الرقيق ورواية أبي الفرج . ويمكن الجمع بين الروايتين على هذه الصورة :

لشتان ما بين اليزيدين في الندى   يزيد سليم والأغر ابن حاتم
يزيد سليم سالم المال ، والغنى   اخو الازد للأموال غير مسالم
فهم الفتى الازدي اتلاف ماله   وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب التمتام اني هجوته   ولكنني فضلت اهل المكارم
فيا بن اسيد لا تسام ابن حاتم   فتقرع ان ساميته سن نادم
هو البحر ان كلفت نفسك خوضه   تهالكت في موج له متلاطم
ابا خالد انت المنوه باسمه   اذا نزلت بالناس احدى العظائم
كفيت أمير المؤمنين عظيمة   وكنت عن الاسلام خير مزاحم

ومن هؤلاء الوافدين على يزيد بن حاتم ، ممن بلغتنا اسماؤهم واصبنا طرفا من اخبارهم ، المسهر التميمي ـ وكان ـ فيما يبدو ـ شاعرا من الشعراء الاوساط المغمورين الذين يبعدون النجعة ، لعلهم يصيبون في البعد ما التوى دونهم في موطنهم . وقد اورد ابن خلكان بيتين مما قال في مدح

يزيد ، حين وفد عليه ملتمسا عطاءه ، وهما :

اليك قصرنا النصف من صلواتنا مسيرة شهر ثم شهر نواصله
فلا نحن نخشى ان يخب رجاؤنا لديك ، ولكن اهنأ البر عاجله

ومهما يكن من امر هذا الشاعر وفجاجة شعره فلعل وجوده ووجود امثاله في افريقية ، قادمين من المشرق ، كان من شأنه ان يثير الرغبة في مثل هذا اللون من الشعر والاقبال عليه ومحاولة احتذائه .

على ان الأمر في مثل المسهر هذا لم يقف عند حد الشعر يصنعه قصائد او مقطعات ينشدها في مجلس يزيد ، ويظفر بعطائه ، ولعله يظفر باعجاب بعض اهل هذا المجلس وجمهرة المتأدبين . وانما كان هنالك ما لعل الحاجة اليه كانت امس في هذا الافق البعيد ، وهو رواية الأشعار وحكاية الاخبار واداء صور الحياة العربية في المشرق ، مما يثير الرغبة فيه والتماسه روح الحنين التي لا نشك في ان يزيد بن حاتم واصحابه كانوا شديدي الاصغاءاليها والاستجابة لها ، كما كان شأن يزيد مع رفيقه في الرحلة ، المعمر بن سنان التيمي ، الذي يحكى صاحب الحلة السيراء انه « كان زميله في طريقه اذا ركب عماريته ، لانسه به ، واستمتاعه من حديثه . وكان المعمر من اعلم الناس بأيام العرب واخبارها ووقائعها واشعارها . وعنه اخذ اهل أفريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب » .

لقد كانت النفوس تتطلع الى هؤلاء القادمين من المشرق يحملون في روايتهم مشاهده الحاضرة والغابرة ، القريبة والبعيدة ، وينشدون من الشعر ما يمثل ذلك تمثيلا تهتز له المشاعر . كما يعدون ، مع ذلك ، من اهل العلم باللغة ، تؤخذ عنهم ، ومنهم ابومالك بن الصمصامة ، وعياض بن عوانة ، وقتيبة الجعفي .

فأما ابو مالك فهو امان بن الصمصامة بن الطرماح بن حكيم . فهو حفيد الطرماح ، احد فحول الشعراء في القرن الاول . ويبدو ان ابا مالك

هذا كان على شيء من ارث جده في الشعر . وقد نشأ على حفظ شعره ودرسه . وكان ذلك مما اتاح له ان يكون معدودا في الشعراء ، كما كان من اهل العلم باللغة .

وما ان وفد على المغرب فيمن كان يفد عليه حتى احتفى به المهالبة واكرموا وفادته ، على الرغم من نسبه القريب الى الطرماح ، وهو من اشهر شعراء الخوارج . والخوارج هم اكبر اعداء المهالبة الذين نصبوا لحربهم في المشرق والمغرب . ولكن ذلك لم يكن ليصرف ابا مالك عن ان يقصدهم . ومن قبل كان جده والكميت شاعر الشيعة صديقين ، « وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط » . كما يقول الجاحظ . كما لم يكن شيء من ذلك ليعبأ به المهالبة ، فلقى لديهم ما بسطه واقر عينه ، وجعله يتخذ القيروان مقاما له . كما توثقت الصلة بينه وبين كاتب المهالبة ابي علي الحسن بن سعيد البصري ، ونشأ بين الرجلين نوع من المودة القائمة على اتحاد المنزع ، مما ملأ قلبه طمأنينة ورضا ، وجعله يعقد المجالس الادبية يعرض فيها فنون ادبه ، فاقبل عليه المتأدبون يعقدون اواصرهم به ، ويأخذون عنه الشعر واللغة . وكان ـ على حد قول الزبيدي عنه ـ عالماً باللغة والشعر ، حافظا للقريض ، شاعرا مفوها . وقد تخرج به قوم منهم ابو الوليد عبد الملك بن قطن المهري . وكان من اخص تلاميذه واخلص اصدقائه .

واما عياض بن عوانة فكان اشهر ما عرف به النحو . فقد كان احد نحاة الكوفة ، ولعله كان من اوساطهم . ولكنه كان من اسرة اصطنعت علم العربية وتوارثته ، فكان جده الحكم بـن عوانة ممن يرجع اليهم في اخبار العرب وانسابهم . وكذلك كان ابوه عوانة بن الحكم عالما اديبا من علماء الكوفة ، كما يقول الزبيدي في كتابه (طبقات النحويين واللغويين) ، فنشأ عياض هذه النشأة ، واتخذ من علم العربية صناعة ، ثم التمس لصناعته سوقا جديدة ، فكان ان وفد على المهالبة في القيروان في ايام يزيد ، فتولى تعليم ابنائهم ، فكانوا ـ كما يقول الزبيدي ـ يكرمونه كثيرا ويوقرونه . وقد استطاع ان يبلغ عند روح بن حاتم اخي يزيد منزلة رفيعة ، كما اقبل

عليه المتأدبون في القيروان ، من امثال ابي الوليد المهري ، تلميذ ابي مالك بن الصمامة ، فقد كان تلميذه أيضاً ، وعنه أخذ كثيراً من النحو والشعر .

ومثل عياض بن عوانة قتيبة الجعفي ، فقد كان من نحاة الكوفة ايضا . ويذكر المالكي في كتابه (رياض النفوس) ، في سياق ترجمته لعبد الله بن غانم ، (ونرجو ان نعرض له بعد ان شاء الله) ، انه قدم على يزيد فانزله عنده .

هذا ما اتيح لنا ان نتبينه من صور النشاط الادبي الذي اتاحه قصر الامارة في القيروان . ولعلنا نستطيع بذلك ان نتمثل ـ عل نحو ما ـ هذا الوجه من وجوه المجتمع المغربي ، وهذا الجانب من جوانب الحياة الادبية في المغرب في القرن الثاني للهجرة ، كما نستطيع أن نتبين بذلك أيضاً طائفة من العوامل التي قادت الخطوات الاولى لعلم العربية في هذه البلاد ، الى جانب ما نرجو ان نعرض له بعد ان شاء الله .

صورة من الحياة العقلية في المغرب في القرن الثاني

- ١ -

جرى المسلمون في جميع فتوحهم على ان يكون المسجد الجامع ، وإلى جانبه دار الامارة، أول ما ينشئون في الأمصار التي يتخذونها لتكون مقر حكمهم ، ومركز نشاطهم ، ومنبعث تحركاتهم ، وموطن القارين منهم كان ذلك شأنهم في البصرة والكوفة حين تم لهم الامر في العراق ، وفي الفسطاط حين فتح الله عليهم مصر . وكذلك كان شأنهم في المغرب حين اختار عقبة بن نافع موقع القيروان في افريقية ، ليخطط فيه المدينة التي يتخذها المسلمون قاعدة لهم يأوون إليها، ويستقرون فيها . فقد كان اول ما أنشأ بها المسجد الجامع ، متخذا دار الامارة حذاءه .

ولم يكن المسجد في الاسلام ، منذ اول العهد به ، موضعا للصلاة ومكانا للعبادة وحسب . وانما كان ـ الى جانب ذلك ـ مدرسة للعلم ، كما كان دار ندوة ومجلس سمرومركزا للقضاء وفصل الخصومات . وبقدر ذلك كانت العناية به والنظر اليه وتفقده . فما زال مسجد القيروان يتجدد ويتسع ، على ايدي الولاة الذين جاءوا بعد عقبة ، باتساع العمران ، واستقرار المسلمين في هذه المدينة . وما زالت المساجد تنشأ في انحائها استجابة لهذه الأغراض التي تؤديها ، ينشئها العلماء في جهات اقامتهم ، كاسماعيل ابن ابي المهاجر ، وسائر اعضاء البعثةالتي ارسلها عمر بن عبد

العزيز الى افريقية ، والتي اشرنا من قبل اليها [1] . فقد كان لكل منهم مسجده ، يؤدي فيه صلاته ، ويعقد فيه مجلس درسه ، ويجلس فيه الى اصحابه ومريديه . وربما انشأ الى جانبه كتابا يتلقى فيه الصبيان مبادىء القراءة والكتابة .

وفي هذه المساجد بدأت الحياة العقلية في المغرب . ولعلها كانت اول امرها لا تعدو إقراء القرآن وبيانه ، ورواية الحديث ، وحكاية بعض الأخبار التي تمثل الحياة الاسلامية ، وتمثل بذلك لونا من ألوان الثقافة الجديدة ، الى جانب اثارة العاطفة الدينية . وقد كان المجتمع الاسلامي في القرن الاول ما يزال محدودا ، وما يزال مغمورا بشواغل الفتح . فاذا كان القرن الثاني ، وانتهى الفتح او كاد الى غايته ، واستقرت الامور نوعا من الاستقرار ، واخذ هذا المجتمع يمتد ويتسع ويتشعب ويتعقد ، ويستحدث صورا من الحياة جديدة ، ويستقبل الوانا من المؤثرات مختلفة ، كما كان النشاط الديني والعقلي في المشرق يخضع لعوامل جديدة ، ويستجيب لطائفة من الحوافز جعلته يتشعب فنونا من التشعب ، ويصطنع الوانا من المناهج والاساليب ، فقد كان من الطبيعي ان يتطور ذلك النشاط في افريقية تطورا يتفق مع تطور المجتمع الافريقي من ناحية ، ومع تطور ذلك النشاط في المشرق ، على ذلك النحو ، من ناحية اخرى .

وقد رأينا من قبل بعض العوامل التي كانت ترسم ملامح المجتمع المغربي خلال القرن الاول . وقد كان طبيعيا ان تستمر هذه العوامل في ابراز هذه الملامح . حتى اذا كان القرن الثاني فقد اصبح المجتمع الاسلامي في المغرب مجتمعا افريقيا ، له ـ الى حد ما ـ شخصيته المتميزة ، وذلك بعد ان نشأ في هذه البلاد جيل جديد ، يتألف من ابناء العرب الفاتحين الذين استقروافيها ، وتأثروا بها ، وابناء الوطنيين الذين اعتنقوا الاسلام ، وقد ربط بين هؤلاء واولئك الدين الواحد ، واللغة الواحدة ، والثقافة الواحدة ، والنشأة الواحدة ، ثم الغاية الواحدة .

---

(١) المغرب العربي وبعض عوامل تعربه .

وكان من ذلك ان اصبح هذا الجيل الجديد ، سواء من كان منه افريقي الأصل ام من كان افريقي المولد فقط ، هو قوام ذلك النشاط العقلي والديني الذي جعل يتمثل في مسجد القيروان وغيره من المساجد ، وان كان يداخله قليل من الوافدين او الطارئين من المشرق او من الاندلس .

فأما الاولون ، وهم افريقيو الاصل ، فلا نكاد نشك في انهم لم يكونوا قلة ، وان كان تحرير هذا القول يبدو امرا غير يسير . فقد كان أمر الانساب محوطا بكثير من الريب والشبه ، كما كان امر الولاء في المغرب مضطربا اضطرابه في المشرق او اشد .

ويمكن ان نرى شيئا من هذا فيما يذكر ، مثلا ، عن احدى شخصيات هذه المرحلة التي نحاول ان نتبين بعض ملامحها . وهي شخصية البهلول بن راشد الحجري الرعيني . فقد كان بعض القوم يلقبونه بالبربري ، كما جرى على لسان إبراهيم بن الأغلب ، حين جاء ذكره في حديثه الى عبد الرحمن القتات ، فيما يورده المالكي ، اذ يقول له : « افسدكم هذا البربري » .

وقد وصفه المالكي ، عقب ايراد اسمه ونسبه على تلك الصورة ، بانه مولى لهم اي مولى رعين ، وهي قبيلة يمنية . ولكن ذلك لا يعني الا انه غير عربي ، بربريا او غير بربري .

وقد كان البهلول ـ فيما يبدو ـ يضيق بهذه النسبة الى البربر ، ويود ان ينتفي منها ، كما يدل عليه هذا الخبر الذي اورده المالكي في سياق الفصل الذي كتبه في ترجمته ، اذ يقول :

«وذكرعنه ـ رحمه الله تعالى ـ انه صنع طعاما واحضر له جماعة من اصحابه ، فقالوا : يا أبا عمر ، لم صنعت هذا الطعام ، وليس عندك شيء يصنع لأجله الطعام ؟ فقال : اني كنت خائفا ان اكون من البربر ، لما جاء فيهم من الحديث . فسألت عن اصلي من يعلمه ، فأخبرت اني لست من البربر ، فاحدثت هذا الطعام شكرا لله عز وجل اذ لم اكن من البربر » .

وإذا كان هذا الخبر يدل على فزع البهلول من نسبته إلى البربر، لأن وضاعي الحديث لم يعفوهم من اختلاقاتهم ، فقسموا لهم منهانصيبهم، فانه يدل من ناحيةاخرى على انه لم يكن يعرف الجنس الذي ينتمي اليه معرفة قاطعة ، ولكن كان من المحتمل عنده ان يكون من البربر . ولعل قيام هذا الاحتمال يشير الى انه من اهل هذه البلاد ، البربر او غيرهم ، وان ولاءه الى رعين الذي يذكره المالكي انما نشأ فيها .

ومهما يكن من امر فأكبر الظن ان البهلول بن راشد ، وهو من أئمة العلم الاسلامي في القرن الثاني في المغرب ، كان من ذلك الجيل الذي نشأ في كنف الاسلام من أصل افريقي ، ومثله علي بن زياد العبسي التونسي ، شيخ سحنون واسد بن الفرات ، وخير اهل افريقية في الضبط للعلم ،كما يقول عنه ابو العرب القيرواني في كتابه (طبقات علماء افريقية وتونس) . وقد حكى المالكي عن بعضهم انه قال : سمعت سحنونا يسأل شرحبيل قاضي طرابلس عن اصل علي بن زياد ، فقال : كشفنا عن اصله فاذا هو من العجم . واكبر الظن ان كلمة (العجم) في هذا النص تعني البربر ، كما كانت تعني الفرس في المشرق . وقد رأينا من قبل ان اليعقوبي ـ وكان من اهل القرن الذي يلي هذا القرن ـ كان يسمى البربر عجم البلاد .

ولسنا نقصد في هذا الفصل ان نتقصى علماء القرن الثاني الذين يرجعون الى اصل افريقي . فانما غايةما نرمي اليه، ونرجو ان يتهيألنا، هو ان نتبين وجها من وجوه النشاط العقلي في المغرب ، ومظهرا من مظاهره ، وحسبنا لبيان ما نقصد اليه من ذلك ذكر هاتين الشخصيتين اللتين تعدان من أكبر شخصيات هذه المرحلة في تاريخ المغرب الفكري واكبرها اثرا .

وأما الاخرون ، وهم افريقيو المولد ، فلسنا ـ فيما اظن ـ بحاجة الى التنويه بهم . على انا نستطيع ان نتمثلهم في مثل عبد الرحمن بن زياد المعافري الذي يعتبره المؤرخون رأسهم ، اذ كان ـ كما قالوا ـ اول مولود ولد في الاسلام في افريقية . ولد سنة ٧٥ وعاش الى سنة ١٦١ . وكان

احد اعلام المحدثين ، وقد ولي قضاء افريقية من عهد خلافة مروان بن محمد الى عهد امارة يزيد بن حاتم المهلبي .

ونحن اذ نذكرهذين الفريقين كلا على حدة ، فليس يعني ذلك انه كان لكل منهما كيانه الخاص وشخصيته المتميزة ووضعه المستقل . فلم يكن هنالك ـ فيما يبدو ـ شيء من ذلك يفرق بينهما . . وانما نذكرهما على هذا الوجه لبيان ما اشرنا اليه من تلك الظاهرة من ظواهر التطور الذي اتيح للجماعة الاسلامية والحياةالعلمية في المغرب العربي .

والى جانب هذه الظاهرة ظاهرة اخرى نشأت عن هذا التطور في الحياة العامة الافريقية ، وهي ظاهرة تعدد البيئات العلمية ، بعد انفراد القيروان بالنشاط العملي . وقد بدأ هذاالتعدد منذ اوائل القرن الثاني بنشوء بيئة علمية في مدينة تونس الى جانب القيروان .

وقد اسست مدينةتونس عقب سقوط قرطاجنة في القرن الاول اسسها حسان بن النعمان لتقوم على حراسة هذه البلاد وتأمينها ، وصد ما قد يتجدد من غارات الروم عليها . وقد اعتزم ان يجعل منها مدينة بحرية تؤدي ما تؤديه المدن البحرية . وبذلك استقدم اليها طائفة كبيرة من اهل مصر المتمرسين بأعمال البحر ، والمهرة في بناء السفن واعدادها وتجهيزها ، ليعملوا فيما عقد النية عليه من انشاء دار لصناعة السفن فيها . حتى اذا جاء عبيد الله بن الحبحاب اميرا على افريقية سنة ١١٦ ، وكانت الدولة قد استقرت لها سياستها البحرية ، اتجه اليها ، وعنى بتخطيطها وعمرانها ، وتوفير اسباب الحياة النشيطة فيها ، واتم دار الصناعة التي بدأها حسان بن النعمان . وكان من تمام ذلك ان بنى بها مسجدا جامعا ، او أعاد بناءه الذي كان على عهد حسان بسيطا لا يفي بمقتضيات التطور الاجتماعي الذي اتيح لتونس ، وذلك هو جامع الزيتونة ، ليكون ـ الى جانب وظيفته الدينية ـ مركزا من مراكز العلم .

وبذلك تمت لهذه المدينة مقوماتها ، واصبح لها كيانها الخاص . فهي على البحر تقابل القيروان في الداخل . ومنذ ذلك الحين اخذت

الحياة الدينية والعلمية تتخذ منها مركزا لنشاطها تؤازر به القيروان . وقد كان للأصل الذي قامت عليه ، والهدف الذي كان يهدف مؤسسها اليه ، والصبغة التي اسبغت عليها ، اثر كبير في نشأة هذه الحياة بها ، ونموها فيها . وذلك كونها ثغرا من ثغور المسلمين ورباطا من رباطاتهم ، لحماية البلاد من عدوان الروم ، فقد جعلت هذه الصفة فيها تجتذب اليها طائفة من الزهاد والعباد الذين يرون في الرباط لونا من ألوان العبادة، بل لعلهم يعتبرونه اكبر قربة يتقربون بها الى الله ، ويلتمسون بها ثوابه . ولا ريب انه كان بين هؤلاء الزهاد والنساك جماعة ممن حملوا امانة العلم ، يرون في ادائه واجبا لا معدل عنه، كما يرون في مجالس العلم تمام رباطهم ومضاعفة ثوابهم .

وبهؤلاء الزهاد والعباد من اهل العلم جعل النشاط العلمي يدب في هذه المدينة الناشئة .

ويبدو ان بعض هؤلاء العلماء كان يؤثرها بالمقام ، لا بما يتاح له فيها من رباط في سبيل الله فحسب ، بل لبعدها عن السلطان الماثل في القيروان ، وما قد يستتبعه القرب منه ومداخلته من مزالق يحرصون على تجنبها والاعتصام منها ، باتخاذ هذه المدينة مقاما لهم . وهذا المعنى نحسه احساسا قويا في جملةاخبار الكثير منهم .

ومن اول العلماء المذكورين الذين اتخذوا مدينة تونس مقاما لهم ، وموطنا لمجالس درسهم ، ابومحمد خالد بن ابي عمران التجيبي . وكان ـ كما وصفه المالكي ـ من العلماء الراسخين في العلم ، والعباد المجتهدين . فقد كان كما نرى يجمع بين الصفتين . وقد توفي في نهاية الربع الاول من القرن الثاني ، سنة ١٢٥ او ١٢٧ . ومنهم كذلك ابو كريب جميل بن كريب المعافري . وكان كما جاء في صفة المالكي له ـ من اهل الفضل والعلم ، من اجلاء شيوخ افريقية . وقد رشحه ذلك لولاية قضاء افريقية ، على كراهيته له وامتناعه منه . وبهذه الولاية ترك تونس وانتقل الى القيروان يتولى فيها منصبه ، الى ان لقي فيها مصرعه . وكان ذلك في احدى ثورات الخوارج سنة ١٣٩ ، اذ كان قد شارك في مقاومتها.

على ان من اكبر هؤلاء العلماء وابعدهم اثرا في صبغ تونس بالصبغة العلمية ، وفي الإشادة بمكانتها في هذه الناحية ، علي بن زياد العبسي التونسي .وقد تقدمت الاشارة اليه في هذا الفصل . فقد كان استاذا لكثير من الائمة الافريقيين في هذه الفترة ، كالبهلول وسحنون واسد بن الفرات ، وكان اول عالم افريقي يعده هؤلاء العلماء من مفاخرهم ، حتى ليذهبون الى الموازنة بينه وبين علماء المشرق ، وهم من هم عندهم ، فيعدلونه بهم ، وقد يغلو بعضهم فيفضله عليهم ، كما نرى ذلك فيما اورده المالكي في سياق الفصل الذي كتبه عنه في كتابه . وقد استطاع ان يجعل من تونس منافسا للقيروان في اجتذاب طلاب العلم واتجاههم اليها . وكان يؤثرها اشد الايثار ، بقدر ما كان يصرفه عن القيروان ما كان يتمثله فيها من فتنة السلطان ، ومحاذرته الوقوع فيها . وقد عانى هذه المحنة ذات مرة حين بعث روح بن حاتم ، امير افريقية ، في طلبه ليتولى القضاء ، فلقي في محاولة التخلص من ذلك اشد العناء ، حتى خرج من عند الامير يمسح العرق عن جبينه ـ كما يحكي ذلك ابو العرب القيرواني ـ وهو يقول : عافى الله وهو محمود . ولم يشأ ، خوفا من ان يعاود الامير مراجعته ، ان يبيت ليلته بالقيروان ، فمضى واصحابه « حتى خرجوا من باب تونس ، والبواب يريد غلق المدينة لدخول الليل » . وعاد الى مدينته وموطن درسه وعبادته ، ولا جرم كان لذلك اثره في المنزلة العلمية التي استطاعت تونس ان تبلغها ، وتقف بها في مواجهة القيروان .

هذه بعض مظاهر التطور التي اتيحت للحياة العلمية في المغرب العربي ، في القرن الثاني للهجرة ، من حيث اتساع نطاق النشاط العلمي . وانطلاقه الى ما وراء الحدود التي جعلته من قبل مقصورا على العلماء الوافدين من المشرق ، وذلك منذ نشأ جيل اسلامي افريقي جديد ، ومن حيث امتداد ذلك النشاط الى ما وراء القيروان ، يستحدث بيئات جديدة له ، لا بد ان تكون لها سماتها الخاصة بها ، ولا بد للبحث العلمي ان يحاول تلمسها .

وقد كان من الطبيعي الا تقف عوامل التطور عند هذه الناحية التي

وقفنا عند صورتها العامة ، بل تمضي الى النشاط العلمي الناشىء نفسه ، فتداخله في صميمه ، وتتناول طبيعته واتجاهاته ، كما حدث في المشرق حين مضى النشاط العلمي مع التطور الاجتماعي ، مسايرا له ، متأثرا به ، فأخذ يواجه الحاجات الجديدة التي استحدثها هذا التطور ، والنوازع المختلفة التي جعلت تبرز في الجماعة الاسلامية ، ونشأت عنها المذاهب المختلفة في شتى الميادين : في التشريع والكلام والنحو واللغة ، وقامت بين هذه المذاهب الوان من الجدل وفنون من المناظرة ، ابرزت وجوه الخلاف بينها ، واجتذبت اليها كثيرا من العقول والأهواء ، وحفزتها للمشاركة فيها .

ذلك ان التطور الاجتماعي مضى في المغرب ، كما مضى في المشرق ، بخطى نشيطة فلا بد أن يستحدث هذا التطور هنا ـ على نحو ما ـ ما استحدثه هناك في النشاط العلمي .

وهذا إلى أن المغرب لم يكن بمعزل عن المشرق على بعد المسافة بينهما ، بل كان شديد الاتصال به ، وكان هذا الاتصال ما يزال يزداد على الايام وثاقة وقوة ، باستقرار الامور ، وانتشار الصبغة الاسلامية العربية ، وتنوع العوامل التي تقوم عليها هذه الصلة . ومن ذلك انها لم تعد مقصورة على العلماء الوافدين من المشرق الى المغرب ، كما كان الامر من قبل ، بل كانت تتمثل ـ الى جانب ذلك ـ في العلماء الراحلين من اهل المغرب الى المشرق . وقد اصبحت الرحلة اليه من النظم المرعية والتقاليد المتبعة ، وخاصة بين العلماء وطلاب العلم ، للقاء الشيوخ ورواية الحديث عنهم . . فكان ذلك مما وثق الصلة بين هذين الجانبين من جوانب العالم الاسلامي ، واتاح لما كان يسري في المشرق وما كان يضطرب به من نشاط عقلي ان يأخذ سبيله الى المغرب ، على نحو ما .

وكان الاصل الاول في هذه الرحلة هو اداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول ، ﷺ . فكان سبيلها من القيروان الى مصر والحجاز . وكان اكثر هؤلاء العلماء الراحلين للحج ولقاء الشيوخ يقصر نفسه على هذا الافق ، فهو مهبط الوحي وموطن الصحابة ومعقد الرواية ، ومستقر مناسك الحج

والزيارة ، فذلك حسبه من هذه الرحلة . ولا شأن له بعد بغيره من الأقطار، الا ان تدعوه اليه حاجة اخرى خاصة ، كالذي دعا عبد الرحمن بن زياد ، قاضي القيروان ، الى العراق ، حين اضطرب امر القيروان حتى غلب البربر عليها ، فقدم بغداد على رأس وفد من اهلها ، للقاء الخليفة ابي جعفر المنصور ، ومباحثته في هذا الامر .

واذا كان هذا هو شأن اكثر العلماء الراحلين الى المشرق ، فقد كانوا في رحلتهم لا يكادون يتعرضون لغير اتجاه واحد ، هو اتجاه أهـل الحديث الذين عقدوا بهم صلتهم في الحجاز وفي مصر كسفيان الثوري ومالك بن انس ومن ذهب من علماء المصريـن مذهبهما . وكانوا يرون فيهم المثل الاعلى لرجل العلم والدين ، فيقبلون عليهم ، وينصرفون اليهم ، ويتغلغل حبهم واكبارهم في اعماق قلوبهم . ونستطيع ان نتمثل هذا الاتجاه بين علماء القيروان في اثنين من ثلاثة ، كانوا من اكبر الأئمة الذين وجهواالحياة الدينية والعقلية في المغرب في هذه الفترة ، وسيطروا عليها ، وهما : البهلول بن راشد الرعيني ، وعبد الله ابن فروخ الفارسي .

اما الثالث فكان يمثل القلة من علماء القيروان الذين كانوا تطلعهم العلمي وطموحهم العقلي اقوى من الاعتبارات الاخرى التي وقفت بالكثرة عند حدود الحجاز . وهو : عبد الله بن غانم .

وهؤلاء الثلاثة الذين نستطيع ان نرى فيهم صورة للحياة العقلية في افزيقية ، في هذه الفترة ، يمثلون من ناحية اخرى العناصر التي كان يتألف منها المجتمع الافريقي . فهم ، وان كانوا افارقة الموطن ، يرجعون الى اصول مختلفة : فالبهلول افريقي الاصل ، كما رأينا منذ قليل ، وابن غانم يمت الى اصل عربي ، « كان ابوه مذكورا في العرب الذين كانوا بافريقية ايام بني امية » ، كما يقول المالكي ، فاما ابن فروخ فيرجع الى اصل فارسي ، كما يدل على ذلك اسمه ونسبته الملحقة باسمه . ومع هذا الاختلاف البعيد في الأصل الذي يمت إليه كل منهم والجنس الذي ينتمي إليه ، فقد نشأوا معا نشأة واحدة . وقد كانوا من جيل واحد ، حتى ليقال انهم ولدوا جميعا في عام واحد ، هو عام ١٢٨ ، وان اختلفت بعد وفياتهم ،

فكان البهلول اولهم وفاة ، اذ توفي في سنة ١٨٣ ، ثم مات ابن غانم بعده بسبعة اعوام ، سنة ١٩٠ . وأما ابن فروخ فقد ادرك القرن الثالث ومات في اوائله ، سنة ٢٠٦ .

جمعت النشأة الاسلامية ومجالس العلم في القيروان بين هؤلاء الثلاثة ، كما جمع بينهم الطموح العلمي والرغبة الصادقة في التحقق بالثقافة الاسلامية ، ثم جمعت بينهم - في سبيل هذه الغاية - الرحلة الى المشرق ، والجلوس الى شيوخه والاستماع اليهم والتلقي عنهم . فقد رحلوا معا ، وجلسوا جميعا الى سفيان الثوري ومالك بن انس وغيرهما من شيوخ الرواة وأهل الحديث ورجال الفقه من الحجازيين ، وقد غمرت قلوبهم عاطفةالحب لهم ، واستولت عليهم نشوة الاعجاب بهم ، كما خصهم هؤلاء الشيوخ بأحسن الرعاية واخلص الحب في مجالسهم . وربما اتيح لاحدهم ، وهو عبد الله بن غانم ، في هذه المجالس ، ان يكون آثر من زميليه واوفر حظا من الرعاية ، بسبب خلوص لهجته واستقامة لسانه ، بفضل ميراثه العربي . وذلك على الصورة التي نراها فيما يحكيه ابن فروخ ، اذ يقول :

« دخلنا على سفيان الثوري ، انا وابن غانم والبهلول ، فسألناه في السماع ، فأجاب الى ذلك ، وقال : يقرأ على اعربكم كلاما ، فانه ربما قرأ على القارىء يلحن في قراءته ، فأحرم نومي وطعامي . قال : فقرأ لنا عليه ابن غانم شهورا كثيرة ، فما رأينا الثوري رد عليه في قراءته شيئا ، ولا اخذ عليه لحنة » .

وهذا الخبر يدل الى جانب تلك الدلالة على ان مقام هؤلاء الثلاثة استمر شهورا كثيرة في الحجاز ، في فترة اقامة سفيان الثوري فيه بعد خروجه من الكوفة اليه ، سنة ١٤٤ ومغادرته الى البصرة في ايام الخليفة المهدي . وفي خلال هذه المدة التي اقاموها في الحجاز استطاعوا ان يبلغوا غايتهم ، فبرزت مواهبهم ، وتميزت ملكاتهم ، وتوسم مالك بن انس فيهم شخصيات علمية مكتملة ، في مثل ما يحكيه سليمان بن سالم عنه « انه نظر الى البهلول ، فقال : هذا عابد بلده ، ونظر الى عبد الله بن

غانم فقال : هذا قاضي بلده ، ونظر الى عبد الله بن فروخ فقال : هذا فقيه بلده . فكان كما قال » .

اما البهلول وابن فروخ فقد عادا الى القيروان دون ان يجدا في نفسيهما حاجة الى التعريج على العراق ، بل لعلهما كانا يريان في مثل هذا التعريج تنكبا عن الصراط السوي ، وخلط عمل صالح بآخر سيء ، لما كان قد وقر في نفسيهما عن السلطان القائم فيها ، خلال اقامتهما بالحجاز واتصالهما بمالك .

واما ابن غانم فقد افترقت سبيله منذ اليوم عن سبيلهما ، فقد كانت نفسه تنطوي على الوان من الطموح والتطلع والنوازع الخاصة والملكات العلمية المتوثبة دفعته ، بعد ان قضى وصاحبيه حاجتهم من الحجاز ، الى ان يمضي إلى الشام، ثم يأخذ سبيله منها الى العراق ، ويدخل بغداد ويشهد ذلك العالم الزاخر بصور النشاط العقلي وغيرها من الصور ، والذي طالما كان مالك يحذر من الانزلاق اليه والوقوع في فتنته . ثم ها هو ذا يجلس الى ابي يوسف يعقوب بن ابراهيم ، صاحب ابي حنيفة وقاضي القضاة ، ويستمع اليه ويأخذ عنه ، ويرى كيف يعالج الأمور، ويقضي فيما يعرض من الاقضية والنوازل ، فيقع من نفسه موقع الاعجاب والاكبار ، كما يرى فيه أبو يوسف شخصا جديرا بان يكون من تلاميذه الذين يرشحهم لولاية القضاء ، متى عاد الى القيروان ، وتهيأت لذلك الفرصة .

ورجع ابن غانم الى افريقية ، ولحق بصاحبيه في القيروان ، واجتمع فيها ثلاثتهم مرة اخرى . ولكنهم اصبحوا يمثلون منزعين مختلفين ، وان كنا لا ندري الى اي مدى كان ذلك الخلاف . واكبر الظن عندنا انه لم يبلغ مبلغ ما كان بين اهل الحديث واهل الرأي ، او الحجازيين والعراقيين ، وانما هو الخلاف بين طبيعة متحرجة متأثمة يمثلها البهلول وابن فروخ ، واخرى مرنة طيعة يمثلها ابن غانم .

وربما كانت مسألة القضاءاكبر مظهر لهذا الخلاف . فكان رأي ابن فروخ (والبهلول) انه لا يجوز للرجل ان يقبل ولاية القضاء اذا ولاه امير

غير عدل . اما ابن غانم فكان يقول : يجوزله ان يليه وان كان الامير غير عدل . على ان اختلاف هذين المنزعين كان لا بد ان تستتبعه صور اخرى من الخلاف غير هذه الصورة ، مما لم يبلغنا . ولعل هذه الصور كانت من هوان الشأن بحيث لم تظفر باهتمام المؤرخين ، كالاختلاف في امر القضاء . وفوق ذلك يبدو ان ابن غانم الذي كان يمثل النزوع الى المساهلة والمسايرة لم يتجاوز ذلك الى ما وراءه ، بل ظل وفيا لاستاذه مالك، مقيما على رعاية مذهبه ، ماضيا في قراءة موطئه على تلاميذه ، مكبرا له : لا يأذن لاحد ان يتطرق اليه بنقد ، او يثير حوله شبهة ،كما نرى في هذا الخبر الذي حكاه سحنون ، قال : « قرأ علينا ابن غانم كتابا من الموطأ . فقال له رجل : يا أبا عبدالرحمن ، أيعجبك هذا من قول مالك ؟ فقام ابن غانم والقى الكتاب من يده ، وقال : او ليس وصمة على في ديني وعقلي ان ارد على مالك قولة قالها ؟ والله لقد ادركت العباد الذين يتورعون عن الذر فما فوقه ، سفيان ودون سفيان ، فما رأيت بعيني اورع من مالك » .

واذا كان هذاالخلاف قد اتسع قليلا بتولي ابن غانم القضاء في عهد يزيد بن حاتم ، على غير ما كان يرى صاحباه ، فانه بقي في الحدود التي ذكرناها ، فهو خلاف في داخل المذهب الواحد . ومع ذلك فجدير بمثل هذا الخلاف ان يكون له اثره في بث شيء من النشاط والحيوية ، في جو الحياة العلمية . وان كنا لا نحسب ان ما اتفق من ذلك كان امرا كبير الخطر ، لانحصار الخلاف في تلك الحدود اولا ، ولان اهل الحديث ، ثانيا ، ليسوا من اهل الجدل ولا طاقة لهم بالمناظرة ، بل انهم ليكرهون ما كان من ذلك ويصدون عنه، وينبزونه بالمراء . سواء في ذلك المتطرفون منهم والمعتدلون . والمناظرة هي التي تكسب الخصومة خصبها وتفيض بركتها على الحياة الفكرية التي تعيش فيها. وان كانت الخصومة الفكرية على اي حال ، خصيبة ام مجدبه ، تعد في نفسها مظهرا من مظاهر اليقظة الفكريةالتي يلاحظها مؤرخ الحياة الادبية ، ويعرف مكانها في تطور هذه الحياة ونموها .

والى جانب هذه الخصومةاالتي انقسم فيها اتباع المذهب الحجازي الى كثرة متطرفةوقلة معتدلة كانت توجد ، فيما نفترض ، خصومة اخرى بين اصحاب هذا المذهب واصحاب المذهب العراقي ، كما كان الأمر في المشرق . فلم يكن المغرب في ذلك الوقت خالصا للمذهب المالكي ، كما انتهى اليه الامر فيه بعد ، وانما كان يشاركه فيه مشاركة ما مذهب ابي حنيفة ، كما ينص على ذلك القاضي عياض في الفصل الذي اورده ابن فرحون عنه ، في مقدمة كتابه (الديباج المذهب) ، اذ يقول في سياق كلامه عن نشأة المذاهب الفقهية ومناطق نفوذها :

« وغلب مذهب ابي حنيفة رحمه الله على الكوفة والعراق وما وراء النهر وكثير من بلاد خراسان الى وقتنا هذا ، وظهر بافريقية ظهورا كثيرا الى قريب من اربعمائة عام ، فانقطع منها » .

وقد رأينا كيف اخذ المذهب المالكي سبيله الى المغرب ، بواسطة اهل المغرب انفسهم ، في رحلتهم الى الحجاز . اما مذهب ابي حنيفة فالأمر فيه مختلف من هذه الناحية ، فقد طرأ على المغرب مع العلماء الوافدين عليه من المشرق ، من اهل العراق خاصة ، ومن علماء الكوفة بصورة اخص ، منذ تحولت الخلافة الى بني العباس ، وانتقل امر المغرب اليهم ، فبسطوا عليه نفوذهم ، بما كانت الدولةتوجهه من ولاة يتولونه وعمال يديرون اموره ، من اهل العراق ومن اليهم . وتسلل اليه الطابع العراقي بما استتبع ذلك من اتجاه بعض علماء العراق نحوه ، ووفودهم عليه . وبذلك وجد المذهب العراقي الكوفي سبيله اليه .

ومن هذا نرى وجهاً من وجوه الخلاف بينه وبين المذهب المالكي ، من ناحية الاسباب والملابسات التي لابست كلا منهما في دخوله المغرب . فقد كان مذهب ابي حنيفة يعد مذهب السلطان . دخل مع السلطان ورجاله او بسبب منه ، وظل يحمل سمته ، ويتمثل في اذهان الناس معه . وما زال السلطان بغيضا الى الناس ثقيلا عليهم ، فلا جرم تحول شيء من جريرة ذلك اليه . كل ذلك على عكس ما كان عليه الامر بالقياس الى مذهب

مالك ، فقد دخل المغرب مع اهل المغرب انفسهم ، وقد حملوه معهم في ود واعتزاز . وقل ظل بعيدا عن السلطان ، مزوراً عنه ، منقبضا دونه ، يضمر الحذر منه ، والوقوع في فتنته ، حتى حين كان السلطات للمهالبة ، على اعتدالهم ولين جانبهم واجلالهم للعلماء، كما رأينا صورة من ذلك في سياق هذا الحديث ، وكما نحس في مثل هذا الخبر الذي يرويه المالكي : « أرسل يزيد بن حاتم إلى ابن فروخ يسأله عن دم البراغيث في الثوب ، هل تجوز الصلاة به ، فقال : ما أرى به بأساً . وقال، بحضرة الرسول : يسألوننا عن دم البراغيث ، ولا يسألوننا عن دماء المسلمين التي تسفك » .

ووجه اخر من وجوه الخلاف بين المذهب الحجازي المالكي والمذهب العراقي الحنفي ، يرجع الى طبيعة كل منهما ، وربما كان له اثره في ايثار اهل المغرب للأول واستيحاشهم من الثاني، وقد اشار اليه ابن خلدون في الفصل الذي كتبه في مقدمته عن (علم الفقه وما يتبعه من الفرائض) ، اذ يقول في سياق تفسيره لاختصاص اهل المغرب والاندلس بمذهب مالك : « . . . وايضا فالبداوة كانت غالبة على اهل المغرب والاندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق ، فكانوا الى اهل الحجاز اميل ، لمناسبة البداوة . ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها ، كما وقع في غيره من المذاهب » .

فالأمر في هذا الوجه من وجوه الخلاف الذي فطن اليه ابن خلدون يرجع الى الملاءمة بين البيئة التي نشأ فيها وانطبع بها المذهب المالكي وبيئة المغرب ، على العكس مما عليه الامر بين هذه البيئة وبيئة العراق التي نشأفيها وصدر عنها مذهب ابي حنيفة .

وهكذا نرى ان عناصر الخلاف ودواعي الخصومة بين اصحاب هذاالمذهب وذاك موفورة . وكنا نود لو اتيح لنا ان نعرف مظاهرها والصور التي تبدت فيها وظهرت بها ، وما عسى ان تكون بعثته الخصومة السابقة . فنحن من هذه الخصومة ازاء خصومة اصيلة واضحة صريحة . إذا

كـان احد طرفيهـا ، وهـم أصحاب الحديث من أهل المذهـب الحجازي ينفرون من الجدال ، ويسمونه المراء ، وينبزون اصحابه بأنهم من اهل الاهواء، كما سبقت الاشارة الى هذا ، فان للطرف الاخر ، وهم اصحاب الرأي من اهلم المذهب العراقي ، مرانة على الجدل والمناظرة، واقبالا عليهما ، وتعلقا شديدا بهما ، وتوفرا على وسائلهما ، وحرصا بالغا على اشاعة المجالس الخاصة بها . فهل استطاعوا ان يستدرجوا بعض خصومهم ، وخاصة ممن دخل العراق واتصل بالحياة العقلية فيها ، الى المشاركة في مثل هذه المجالس ، والدخول في مثل هذه المناظرات ، ام ان ذلك لم يتح لهم ، فبقيت الخصومة مجدبة عقيمة ، وعاش المذهبان معا فيما يشبه المهادنة ، على الصورة التي لاحظها المقدسي وعبر عنها بقوله ، في كتابه (احسن التقاسيم) : « وما رأيت فريقين احسن اتفاقا واقل تعصبا من اهل القيروان ، وسمعتهم يحكون عن قدمائهم حكايات عجيبة ، حتى قالوا انه كان القاضي سنة حنفيا وسنة مالكيا »، الى ان خلص الامر اخيرا للمذهب المالكي ، لا يشاركه مذهب غيره ؟

ومهما يكن من امر ، فان شيئا من آثار هذه الخصومة لم يبلغنا ، فهل يرجع ذلك الى الفرض الثاني ؟ ام ان ما صدر عنها ضاع فيما ضاع من آثار هذه الفترة واخبارها ، وخاصة ما يتصل بالحياة العقلية ، وما يتصل ، على نحو اخص ، بالمذهب العراقي الذي لم يلبث ، بعد القرن الرابع ، ان اخذ في التقلص والانقراض ؟

- ٢ -

في احدى القصائد التي قالها صفوان الأنصاري ، يمدح واصل بن عطاء ، رأس المعتزلة ويرد بها عنه ما كان ينسبه اليه ويهجوه به بعض أهل البصرة ، وخاصة بشار بن برد ، بعد ان انقلب عليه ، وكان قبل من شيعته ، والتي اورد الجاحظ في (البيان والتبيين) طائفة من أبياتها ، يلفت نظر الباحث هذان البيتان ، في سياق التنويه بدعاته الذين كان يبثهم في الأمصار :

له خلف شعب الصين في كل ثغرة   الى سوسها الأقصى وخلف البابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم   تهكم جبار ولا كيد ماكر

اذ يعني هذا ان رسل واصل وحاملي دعوته قد بلغوا اقصى المغرب ، كما بلغوا اقصى المشرق . الا أن يكون الرجل لم يرد بهذا الا مجرد التعبير عن انتشار هؤلاء الدعاة في أقطار العالم الاسلامي دون أن يعني قطرا بعينه . ولا ينبغي ان نأخذ بهذا المعنى الثاني الا ان يمنع مانع من ارادة المعنى الأول . ولا نحسب ان هناك ما يمنع منه .

وقد وصف صفوان هؤلاء الدعاة بأوصاف الخطباء والمصاقع ، ونوه بسمات البلاغة والزهد فيهم . ويشير هذا إلى الأصل الذي صدر عنه (الكلام) ، وتطور عنه مذهب الاعتزال ، وهو الخطابة الدينية التي نشأت في البصرة خاصة ، تنبه اى حقائق الدين ، وترد الناس عن مغريات الحياة الجديدة التي جعلت تغشي هذه الحقائق وتحجبها ، فتصد الناس عنها وتحول بينهم وبينها ، ومنهم من هو حديث عهد الاسلام ، ومن لم يتغلغل الايمان في اعماق قلبه . وقد بلغت هذه الخطابة غايتها في اواخر القرن الأول واوائل الثاني ، متمثلة في الحسن البصري . وكان قد اوتى من الفصاحة والتصرف في العبارة وسعة المعرفة والقدرة على الاقناع ما اجتذب الى مجلسه صنوفا من الناس شتى ، يثير فيهم حاستهم الدينية ، ويستجيب الى تطلعهم الى ألوان المعرفة المختلفة ، على النحو الذي يمكن أن نراه في الكلمة التي اوردها ابو حيان التوحيدي ، ونحلها ثابت ابن قرة ، في صفة هذا المجلس ، مما يجعلنا نتمثله تعبيرا صادقا عن التحول الذي تعرضت له الحياة العقلية في البصرة .

والأصل في ذلك التحول يرجع ـ في جانب منه ـ الى ذلك الجيل

الجديد الذي نشأ اذ ذاك في ظلال الاسلام واللغة العربية ، ولكنه كان ـ الى جانب ذلك ـ قد نشأ مزودا بميراثه العقلي ، وما كان يلقنه عن الآباء الذين كانت نشأته بطبيعة الحال فيهم ، وعن بعض البيئات الثقافية التي كانت لا تزال قائمة ، وكان أثرها ربما تعدى ابناء هذا الاقليم والأقاليم المجاورة الى ابناء الفاتحين انفسهم .

ثم كان لما اقترن به نشوء هذا الجيل من تطورات سياسية في هذه المرحلة من مراحل الانتقال ، والتي يسميها مؤرخو الأدب مرحلة مخضرمي الدولتين ، ما جعل ذلك التحول يتجه اتجاهات شديدة الخطر ، فقد تيقظت القومية الفارسية ، وبرزت عناصرها التي ظلت كامنة حينا من الزمن . وكان من ذلك ان اخذت النزعات والمذاهب والديانات الفارسية القديمة تطل برأسها ، تريد ان تتسلل الى المجتمع الاسلامي ، وتحاول ان تأخذ فيه مكانها . وبذلك تعرضت العقيدة الاسلامية لانحرافات خطيرة ، كما تعرض بذلك المجتمع الاسلامي لهذه النزعات والمذاهب التي تحاول ان تغير قيمه ، وتحرف مثله .

وبذلك واجهت الخطابة الدينية حالة جديدة ، تقتضي اسلوبا جديدا يتخذ بازائها . وفي الوقت نفسه نشأت في مجلس الحسن مناقشة تقدير اعمال الناس والحكم على ما يرتكبونه في الحياة من آثام ، مما هو متصل اشد الاتصال بموضوع الخطابة . وثار الخلاف حول ذلك، ونشب الجدال بين من يذهب الى تكفير صاحب الكبيرة من الخوارج ، ومن يقضي بأنه مؤمن من المرجئة ، ومن يقول بأنه منافق كما كان يذهب الى ذلك الحسن . وفي خلال ذلك ظهر مذهب المعتزلة ، كما كان يمثله واصل بن عطاء ، ذاهبا الى أن صاحب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين .

وبهذا نرى الصلة الوثيقة بين الكلام ، كما كان يتمثل في مذهب المعتزلة ومبادئه الخمسة ، ومن اولها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ورأس ذلك المذهب واصل بن عطاء ، وبين الخطابة كما كان يمثلها الحسن البصري . وقد ظل هذا الارتباط بينهما قائما خاصة في

المرحلة الأولى من مراحل الكلام ، فقد كان واصل يجمع بينهما ، كما كان رسله الذين يذكرهم صفوان الأنصاري .

وبذلك دخل مذهب المعتزلة المغرب العربي مع هؤلاء الدعاة ، يمثلون الاتجاهين : الاتجاه الخطابي والاتجاه الجديد. فيقاومون بخطبهم ما جد في الحياة هنالك من انحراف عن مبادىء الدين ومثله ، ويذيعون في مجالسهم ، ومن خلال ما يديرونه فيها من حوار ، أصول الإعتزال . واحسب ان هذا الحوار الذي كان من اول ما يميز المعتزلة ، هو ما قصد إليه صفوان الانصاري بعلم التشاجر ، في قوله عن هؤلاء الدعاة :

وأوتاد أرض الله في كل بلدة وموضع فتياها وعلم التشاجر

ولكن ماذا كان من شأن هذا المذهب بعد في ذلك الأفق ؟ ان تاريخ المعتزلة في المغرب العربي قد تقطعت الأسباب دونه ، ونشاط الاعتزال هنالك قد ضاع ـ فيما يبدو ـ فيما ضاع من تاريخ هذه الفترة ، ولم يبق بين ايدينا مما يشير اليه او يدل عليه الا اثارات قليلة ضئيلة ، واشارات عارضة عابرة .

على ان هذه الاشارات تدل في جملتها على أن الاعتزال قد استطاع ان يمارس نشاطه ، على نحو ما ، في المغرب ، وانه أخذ يصطنع ذلك الاسلوب الذي عرف به ومهر فيه رجاله في البصرة ، وهو أسلوب الحوار والمناظرة . وذلك في مثل هذا الخبر الذي يورده ابو العرب محمد بن احمد بن تميم القيرواني ، في كتابه (طبقات علماء افريقية وتونس) ، اذ يقول :

« وحدثني أبو عثمان سعيد بن محمد ، قال : سمعت ابي يقول : جزت بسقيفة العراقي ، وهم يتناظرون في الاعتزال ، فوقفت اسمع منهم ، فبلغ ذلك بهلولا . فلما جئته أقبل علي ، وجعل يقول : يا محمد ، بلغني انك مررت بسقيفة العراقي وهم يتناظرون في القدر ، فوقفت اليهم تستمع منهم . واغلظ علي » .

فقد كان للمعتزلة ، اذن ، في القيروان مجالسهم التي اعتادوا ان يجتمعوا فيها ، ليمارسوا فيها ذلك اللون من الوان نشاطهم وهو المناظرة في مسائل الكلام . وكان ذلك شأن معتزلة البصرة ، فقد جعلوا من المناظرة في الكلام رياضة عقلية لهم ، يقصدون اليها قصدا لذاتها احيانا ، وكأنهم يلتمسون بها نوعا من المتعة ، كما نعرف عن ابي الهذيل العلاف فيما يحكيه عنه ابو الحسين الخياط ، وكما نستخلص من بعض حديث الجاحظ . فقد كان ذلك اذن بعض شأن المعتزلة في القيروان . وقد كان لأسلوبهم في الجدل ، وطريقتهم في ايراد الحجج ودفعها ، وفصاحة منطقهم وطلاوة عبارتهم ما يستهوي بعض المارة بهذه المجالس او يثير تطلعهم . وقد كانت ـ فيما يبدو ـ مجالس مفتوحة ، كما كانت سقيفة العراقي هذه . فكان هنالك من يقف عليهم يستمع اليهم ، مستمتعا او مستجيبا الى فضوله . وقد كان ذلك مما يضيق به علماء القيروان من اهل الحديث ، من امثال البهلول بن راشد ، فكانوا يحرصون على صد الناس عنهم ، وتنفيرهم من شهود مجالسهم او الاستماع اليهم ، وان يسدوا كل ذريعة يمكن ان يتذرعوا بها ليتيحوا لمذهبهم حظا من معرفة الناس به .

ومثل هذا نراه في هذا الخبر الذي يحكيه المالكي في كتابه (رياض النفوس) ، في سياق الفصل الذي كتبه في الترجمة للبهلول ، اذ يقول :

« وقال بعض اصحابه : كنت يوما جالسا عنده ، ومعه رجل عليه لباس وهيئة ، فقال له البهلول : احب ان تذكر لي ما يحتج به القدرية ، فسكت الرجل حتى تفرق الناس ، ثم قال له : يا أبا عمرو ، انك سألتني عما تحتج به القدرية ، وهو كلام تصحبه الشياطين ، لأنه سلاح من سلاحهم ، فتزينه في قلوب العامة ، وفي مجلسك من لا يفهم ما أتكلم به من ذلك ، فلا آمن ان يحلو بقلبه منه شيء ، فيقول : سمعت هذا في مجلس البهلول » .

فهذا الخبر واضح الدلالة على ما كان لكلام المعتزلة واحتجاجهم لما يذهبون اليه من طلاوة يراها اهل الحديث فتنة ، وعلى مبلغ محاذرتهم

ان يتعرض الناس لها ، فربما افتتنوا بها وانساقوا في سبيلها . كما يدل على ان من رجال الحديث هؤلاء من كان على صلة بحجج المعتزلة ، على سوء رأيه فيهم . ومنهم من كان مثل البهلول قد تجنب الالمام بها ، تورعا عنها ، وان لم يمنعه ذلك من التطلع اليها .

ذلك هو شأن الاعتزال والمعتزلة في القيروان في هذه الفترة ، قدر ما تمثله لنا النصوص القليلة التي اتيحت لنا ، والتي انما تذكر في سياق الكلام عن اهل السنة ، وهي طبيعة الحال لا تمثله على حقيقته ، ولا تدل على شتى جوانبه . وانما غاية ما تبينه هو هذه الصورة العامة له ، وموقف أهل السنة منه ، على النحو الذي رأينا .

واذا كان مذهب المعتزلة قد وجد سبيله الى المغرب العربي ، واستطاع ان ينفذ اليه ويتخذ لنفسه مكانا فيه ، وان يمارس في مدينة كالقيروان بعض مظاهر نشاطه ، كما نرى في تلك الصورة العامة المبهمة ، فقد كان هنالك فيما نقدر امران يحدان من هذا النشاط ، ويقيدان خطاه ، ويجعلان منه شيئا عقيما ضعيفاً متهالكاً ادنى الى التكلف .

أما أحد هذين الأمرين فهو هذه المعارضة القوية التي واجهه بها جمهرة علماء القيروان ، وهم من أهل الحديث الذين يرون كل أمر لم يصدر عن السلف الصالح بدعة منكرة توشك ان توبق صاحبها . وقد كان لهؤلاء العلماء المكانة الاولى في قلوب الناس ، والمنزلة التي ارتفعت الى حد القداسة ، اذ كانوا عندهم هم الذين يمثلون هذا الدين تمثيلا صادقاً ، واذ كانوا انما صدروا بعلمهم وما يذهبون اليه من امور دينهم عن مهد الاسلام ، وعن اقرب الناس اليه والصقهم به . واذ كانوا في حياتهم صورة للورع الشديد والتنزه عن الصغائر ومغريات الحياة الدنيا . فلا جرم كانت مقاومتهم للاعتزال بليغة الاثر ، جديرة ان تحد منه الى ابعد حد .

وأكبر الظن أن هذه المعارضة لم تكن تعتمد على الجدال والمناقشة وقرع الحجة بالحجة ، فلم يكن اهل الحديث عامة من اهل هذا الميدان .

ذلك الى انهم كانوا يكرهون الجدال وينفرون منه ، كما سبق القول ، على كثرة الدواعي التي كانت تدعوهم الى مواجهة خصومهم ومنازلتهم . اما أهل الحديث من رجال المغرب فلم يكن هنالك شيء من هذه الدواعي يخرجهم عن الموقف الذي اتخذوه ، فأحر ان يكون انصرافهم عن الجدال اشد ونفورهم منه اقوى . وبذلك اتخذت المعارضة صورة الاعراض اولا ، فكانوا يتجنبون لقاء من عرفوا بالاعتزال ، كأنهم كانوا يرون في مثل هذا اللقاء غضا من دينهم وورعهم وانتقاصا من مروءتهم ، ثم جعلت تعتمد على صد الناس عن هذا المذهب وتنفيرهم منه بكل وسائل التنفير وصوره التي هي اشد في نفوس العامة اثرا ، وابعد فيه نكاية . وقد رأينا منذ قليل شيئا من ذلك في لهجة التأنيب والتقريع التي واجه بها البهلول احد تلاميذه ومريديه ، لانه بلغه عنه انه مر بسقيفة العراقي ، فوقف بها يستمع الى ما يدور بين القوم فيها من حوار ومناظرة . وفي مثل هذا الخبر الذي نورده بعد عن سحنون مايؤدي الينا صورة جلية من صور صدهم الناس عن المعتزلة وتنفيرهم منهم . قال :

« مات رجل يقال له الرفاء ، وكان من أصحاب البهلول ، وكان فاضلا ، فحضره ابن غانم وابن فروخ والبهلول ، فأتى بجنازته وجنازةابن صخر المعتزلي ، فصلى على الرفاء ، ثم قدم ابن صخر المعتزلي ، فقيل لابن غانم : الجنازة ! فقال : كل حي ميت . قدموا دابتي ، ولم يصل عليه . فقيل لابن فروخ : الجنازة ! فقال مثل ذلك . وقام ولم يصل . وقيل للبهلول : الجنازة ! فقال مثل ذلك » .

فها هم اولاء أئمة القيروان الثلاثةالذين يمثلون الاسلام في أنقى صوره ، فيما يرى الناس ، تحققا به وقياما بحقه ، فهم ينزلون منهم اجل منزلة ، يدعون الى الصلاة على رجل مسلم حضرت جنازته ، فيمتنعون الواحد منهم بعد الآخر وينصرفون . فلا ريب ان لمسلكهم هذا دلالته الواضحة القريبة ، اذ يفرقون بين رجلين مسلمين حضرتهما الوفاة ، وفرض الاسلام ان تقام على كل منهما صلاة الجنازة ، فيأبون اداء هذه الصلاة

على أحدهما لأنه معتزلي ، وقد ادوها على الآخر . ان مثل هذا المسلك على ملأ من الناس ابلغ أثرا في تنفير العامة من الاعتزال ، وتصويره في صورة بغيضة منكرة ، من كل ما عسى ان يكون من حوار ومناظرة .

وأما الأمر الآخر الذي كان يحد من نشاط المعتزلة في المغرب ، بل يكاد يهدره ، وهو في حقيقته العامل الأول في ذلك ، فهو ان البيئة العقلية هنالك لم تكن في ذلك الوقت البيئة الملائمة لمثل هذا المذهب وذلك النمط من التفكير .

فالظروف التي اقتضت ظهور هذا المذهب ، فنشأ عنها ، وعاش فيها ، في المشرق ، والملابسات التي لابسته في نشأته وصحبته في تطوره ، وأمدته بأسباب النماء والقوة ، لا يكاد يكون لها وجود في المغرب . ولا بد من تشابه الأسباب الداعية والظروف المصاحبة ، ليكون لهذا المذهب هنا ما له هناك .

نشأ الاعتزال في البصرة ، واتخذ الصورة التي ظهر بها في العراق ، متأثرا في ذلك بعاملين كبيرين :

اولهما ما جعل يظهر في بعض البيئات الاسلامية ، منذ تطور المجتمع الاسلامي فيها ، من أثر بعض العقائد والديانات القديمة ، وبعض المواريث العقلية الفارسية ، مما جعل يقحم على الاسلام ما ليس منه ، وحاول ان يلبسه لبوسا غريبة عنه ، ويبعد به عن حقيقته الاولى التي جاء بها القرآن ، وعرفها المسلمون الاولون . فكان من ذلك ان فزع جماعة من العلماء ، هم شيوخ المعتزلة ، وقد لمحوا ذلك الخطر الداهم الذي يوشك ان يمضي بهذا الدين في سبيل غير سبيله ، فنهضوا يردون عنه هذه العادية ، ويدفعون عنه هذه الاعتقادات المتسللة اليه ، والمندسة عليه ، ويبرئونه من هذا الفساد الذي اراد ان ينكر صورته ، ويبرزه في مظهر غير مظهره ، ويردونه الى حقيقته الاولى الخالصة ، متمثلة في المبدأين الاساسيين اللذين وسموا بهما ، وهما العدل والتوحيد . وقد اصطنعوا

لذلك سبيل الدعوة ، واتخذوا الدعاة ، يدعون الى مبادئهم ، ويدفعون عنها ، ويجادلون خصومهم بها .

وهنا ظهر العامل الآخر في توجيه الاعتزال ، وفي اصطباغه بالصبغة التي غلبت عليه وعرف بها .

ففي هذا الحجاج والجدال الذي اخذ فيه المعتزلة والذي اصطنعوه وسيلة للاقناع ، برز ميراث اخر ، هو ميراث الفلسفة اليونانية التي كانت سائدة في اقليم البصرة وما حوله ـ بصورة ما ـ قبل الاسلام ، والاسلوب الفلسفي الذي كانت تصطنعه المذاهب المسيحية في مجادلةخصومها ، وفي مناظرة بعضها لبعض . فقد وجدت الحركة الجديدة التي نهض بها المعتزلة في ذلك الميراث اداة جديدة تصطنعها في تأييد مبادئها ، وفي الاضطلاع بما اخذته على عاتقها من اقرار هذه المبادىء بالجدال عليها والمناظرة فيها ، فاقبلت عليه ، وطوعته لما تريده منه ، حتى كانت الصبغة الفلسفية هي الصبغة الغالبة على هذا المذهب ، وقد وجد في هذه الاداة ما آزره في سبيله ، ووسمه بطابع عقلي واضح السمات . وبذلك اخذ مكانه الممتاز في المشرق . على الرغم من كل ما اعترضه من عوائق ، وناهضه من خصومات عنيفة متعددةالوجوه . بل لقد زادت هذه الخصومات عوده صلابة ، ودفعته الى الامعان في سبيله . والاصل في ذلك انه نشأ في ظروف طبيعية ، تدعو له وتستلزم وجوده وتسدد خطاه .

اما المغرب فالأمر فيه بالقياس الى هذا المذهب مختلف . فقد كان خلاء من هذا وذاك . لم تتعرض الحياة فيه لأسباب الترف التي تعرض لها المجتمع العراقي في القرن الاول ، ولا لرواسب العصبيات القبلية التي طغت عليه واستبدت به ، فتعرض بذلك لشر ما في الحضارة وشر ما في البداوة معا ، وبقدر ذلك كان بعده عن روح الاسلام واصوله ، ولم يتعرض لمثل ما تعرض له المجتمع العراقي من تلك المواريث الدينية والمذهبية ، تحاول ان تنحرف بالاسلام عن حقيقته ، ولا كان ثمت من المذاهب

الفلسفية ما جعل يداخل حياته العقلية ، ويسيطر على عقول طائفة من علمائه ، حتى اذا دخله هذا المذهب مع الدعاة الذين وجههم اليه واصل بن عطاء كان في هذه المذاهب مايمد اسلوب الحوار الذي اصطنعه . ويغذي الخصومة التي نشأت حوله بما يجعلها خصومة خصيبةمفتنة ، كشأنها في البصرة .

وهكذا نرى ان مذهب المعتزلةكان مذهبا طارئا على الحياة المغربية ، ثم لم يجد في المغرب بيئه صالحة له ، فكان منبتا عما حوله ، منقطعا عن الجوالعام المحيـط به . وبذلك كان من الطبيعي ان يعيش ـ ما عاش فيه ـ ضعيفا مغمورا ، وان تتعرض بذلك صور حياته ـ فضلا عن العوامل العامة التي تعرضت لها حياة المغرب عامة في هذه الفترة ـ للضياع والدثور .

وبعد ، فهذه صورة من النشاط الديني والعقلي في المغرب في هذه الفترة حاولنا ـ قدر ما اتيح لنا من عناصر ذلك النشاط ـ ان تكون صورة مجتمعة الاجزاء ، بينة الملامح واضحة القسمات ، موفية بتمثيل هذا الجانب من فجر الحياة المغربية .

ولكنا نود قبل ان نفرغ من الحديث عن هذه المرحلة ، في جانبيها العقلي والادبي ، ان نلفت النظر الى ان هذا النشاط الديني والعقلي لم يكن في معزل عن النشاط الادبي مقطوع الصلة به ، وان كان لكل منهما ميدانه ورجاله .

ذلك أن درس القرآن والحديث ما زال وثيق الصلة بالدرس اللغوي وتربية الذوق الأدبي ، فلم يكن بد للفقيه او المحدث من الالمام باطراف اللغة والعلم بسننها والتثقيف بالآثار الأدبية المختلفة ، وبذلك كان كثير منهم قد ملكوا زمام اللغة العربية فهما لها واستبطانا لدقائقها وقدرة على التعبير الصحيح بها . ولا ريب أنه كان لرحلاتهم إلى المشرق وجلوسهم إلى فقهائه ومحدثيه ،

واتصالهم بالبيئات الادبية والعلمية فيه ، اثر غير قليل في ثقافتهم اللغوية وحسهم الأدبي . وان كانوا يختلفون بعد ذلك ـ بطبيعة الحال ـ في مدى ما يصيبون من ذلك ، ومبلغ انطباعهم به . فمنهم من كان من اصحاب الموهب الأدبية التي تفتحت بما اتيح له وما أصابه من الدرس والرواية ، فبلغ من ذلك ما جعله يقول الشعر يعبر به عن نوازعه ، وربما عد من رجال الأدب كعبد الرحمن بن زياد المعافري . ومنهم من بلغ من درس اللغة والفطنة لدقائقها والمعرفة بسننها مبلغا مذكورا يستطيع ان يقف به في صف العلماء المختصين فيها ، كعبد الله بن غانم . وقد اتيح لنا ، في غير هذا السياق مما نعالجه في هذه الدراسة ، ان نتعرف الى كلا الرجلين .

اما عبد الرحمن بن زياد ، اول مولود ولد في الاسلام بافريقية من العرب الفاتحين ، فاذا كانت شخصيته الدينية ، كما يمثلها لنا من عنوا بترجمة حياته ، كالمالكي وابي العرب القيرواني ، قد غمرت الجانب الأدبي عنده ، اذ كانت هذه الشخصية هي مناط الحديث ومعقد التنويه عندهم ، فقد بقي لنا ، مما يدل على ذلك الجانب ، ابيات قالها في رحلته الى العراق ، يتغنى فيها بالحنين الى موطنه القيروان ، توحي بما كان له من موهبة ادبية ، لم يفرغ لها ، وانما صرفته عنها همومه الدينية والإجتماعية في افريقية ، كما كان ذلك شأن اكثر الفقهاء ورجال الفكر فيها ، وذلك اذ يقول :

ذكرت القيروان ، فهاج شوقي ... واين القيروان من العراق
مسيرة اشهر للعير نصا ... وللخيل المضمرة العتاق
فأبلغ انعما وبنى ابيه ... ومن يرجى لنا وله التلاقي
بأن الله لو خلى سبيلي ... لجد بنا المسير الى مزاق

واما عبد الله بن غانم ، صاحب البهلول وابن فروخ وثالثهما في

الرحلة الى الحجاز ، والسماع من سفيان الثوري ، وآثرهم عنده لخلوص لهجته وصحة قراءته ، فقد حكى المالكي ما يدل على مبلغ ثقافته اللغوية ، فضلا عن سليقته العربية ، في سياق روايته لشيء من الحديث جرى بينه وبين يزيد بن حاتم المهلبي في مجلسه. وكان قد جاء في كلام ابن غانم هذه العبارة يقص بها شأنهم حين لاح لهم هلال رمضان : « وقد اهلنا هلال شهر رمضان ، فتشايرناه بالأيدي » . فأنكر عليه يزيد هذه الكلمة الاخيرة ، قائلا له : « لحنت يا عم » . اذ كان ينبغي عنده ان يقول : تشاورناه ، بالواو ، لا تشايرناه ، بالياء . ويأبى ابن غانم تخطئة يزيد له ، مفرقا بين الاثنتين ، فيقول : « تشاورناه من الشوري ، وتشايرنا من الاشارة بالأيدي » .

وكأنما يحس ابن غانم ان ابن حاتم غير مطمئن لقوله ، اذ لا يراه ثقة في مثل هذا الموطن ، فهو عنده رجل فقه لا شأن له باللغة ، فيقول له : « بيني وبينك أيها الامير قتيبة النحوي » . وكان قتيبة - كما عرفنا من قبل - قد قدم على يزيد ، فأنزله عنده ، وجعله من خاصة اهل مجلسه ، لمنزلته من علم اللغة . فبعث اليه يستقدمه . وكانت فيه - كما يقولون - غفلة ، فجرى الحوار بين الثلاثة على هذه الصورة :

قال يزيد لقتيبة : « اذا رأيت الهلال كيف تقول ؟ كيف يكون القول اذا اشرت اليه واشار غيرك ؟ » .

قال قتيبة : « اقول : ربي وربك الله » .

فقال له يزيد : « ليس هذا اردنا »

فعلم ابن غانم ان الرجل لم يفهم ما يراد بالسؤال ، فانبرى قائلا ليزيد : « دعني - اصلحك الله - آخذ له من طريق النحو ، فأفهمه » . يعني بذلك ان يصوغ السؤال صياغة نحوية . فأجابه يزيد الى ما طلبه ، قائلا : « لا تلقنه اذن » .

وهنا نرى ابن غانم يوجه السؤال الى قتيبة في هذه العبارة :

« اذا اشرت واشار غيرك ، فقلت : تفاعلنا في الاشارة ، كيف يكون ؟ » .

قال : « تشايرنا » . وانشد لكثير عزة ، مستشهدا :

فقلت ـ وفي الاحشاء داء مخامر ـ : إلا حبذا يا عز ذاك التشاير

ويقول الخبر ان يزيد استحيى ،وقال لابن غانم : « ظلمناك يا عم » . كأنما يعتذر اليه .

ثم التفت الى قتيبة ، فقال له : « فأين انت يا قتيبة من التشاور ؟»

فقال قتيبة : هيهات ايها الامير ؟ ليس هذا من عملك . هذا من الشوري . وذاك من الاشارة » .

ففي هذه القصة ـ الى جانب ادائها صورة من صور مجلس الامير يزيد بن حاتم ـ ما يدلنا على مبلغ ما كان يتمتع به رجل من أئمةالشريعة في أفريقية، مثل عبد الله بن غانم، من ثقافة لغوية . واحسب أنه لولا انصراف اصحاب الكتب التي جعلوها في تراجم علماء افريقية الى الناحية الدينية والتنويه بها لوقع الينا كثير مما يحمل مثل هذه الدلالة .

وبعد ، فهذه صورة من الحياة العقلية والأدبية في المغرب العربي ، في القرن الثاني ، قدر ما يمكن ان تقدمه الينا البقايا القليلة المقتضبة المضطربة التي اتيحت لنا من اخبارها وآثارها . ومنها نستطيع اجمال القول بان هذه الحياة كانت صورة مصغرة من الحياة العقلية والأدبية في المشرق ، في نطاق الظروف الخاصة بالمغرب ، فاخضعتها لمقتضياتها ولاءمت بينها وبينه ، وان ممثلي هذه الحياة من ادباء وعلماء كانوا بين وافد من المشرق ، وصادر بعلمه عنه، بعد ان رحل اليه ، وكون بعلمائه والحياة العلمية فيه ثقافته .

ولكن مهما يكن من امر هذه الصلة التي طبعت هذه الحياة بطابعها ، فان الباحث يستطيع ان يلمح شيئا من السمات الخاصة التي جعلت تكون شخصية المغرب العربي . وهذا شيء تقتضيه طبيعة الاشياء ومنطق الحياة . ويبدو ان ملامح هذه الشخصية اخذت تكون اكثر وضوحا في العصر التالي لهذا العصر . وهو ما نرجو ان يتاح لنا تبينه فيما نأمل ان نستقبل من هذه الدراسة ، ان شاء الله .

الحياة الأدبية في المغرب العربي في القرن الثالث

- ١ -

في ختام الفصول التي أردنا أن نتعرف فيها إلى بعض ملامح الحياة الاجتماعية والأدبية في المغرب العربي في مرحلتها الأولى ، في القرن الأول والثاني ، والتي لاحظنا من خلالها ، ملاحظة عابرة مبهمة ، بعض السمات التي جعلت تميز الشخصية المغربية ، على وجه ما ، استظهرنا ان تكون هذه السمات أشد ظهوراً وأقوى دلالة في المراحل التي تلي هذه المرحلة ، منذ القرن الثالث ، ورجونا أن يتاح لنا ، إذا قدر لنا أن نستأنف هذه الدراسة التي نحرص على متابعتها ، أن نتبين هذه السمات وندل عليها .

ونحن حين نذكر القرن الثالث ، ونأخذ في الحديث عنه ، ونتبين بعض ملامح الحياة الأدبية فيه ، وما يقدم لها ويقترن بها من بعض شمائل المجتمع المغربي وبعض صور نشاطه العقلي ، فأنا لا نعني الفترة الزمنية التي تبدأ بمطلع هذا القرن وتنتهي بخاتمته ، على النحو الذي يعنيه اصحاب التاريخ وكتاب الحوليات . وإنما نعني مرحلة من مراحل التطور يقع معظمها في هذا القرن ، إذ تبرز فيه مظاهرها ، فكان عنواناً لها .

وقد رأينا من قبل أن الشمال الأفريقي أو المغرب العربي ، كان ككل

الأقاليم الإسلامية جزءاً من دولة الخلافة الإسلامية التي يقع مركزها في دار الخلافة بدمشق ثم ببغداد - يتولى الحكم فيه وال تبعث به هذه الدولة ، يحكم باسمها ، ويرجع اليها ، ويمارس سلطاته مستمدة منها . عدا دويلتين صغيرتين استطاعتا منذ اواسط القرن الثاني أن تنشأ بعيداً عن هذه التبعية ، إذ قامتا على أساس مذهبي ، ونشأتا عن الحركة الخارجية التي وجدت في المغرب اذ ذاك بيئة ملائمة ، وهما الدولة المدرارية في سجلماسة ، والدولة الرستمية في تاهرت .

ولم يكد القرن الثاني يتقدم نحو نهايته حتى رأينا دولتين اخريين تتوليان الحكم في شمال افريقية ، استقلت احداهما بالمغرب الأقصى استقلالاً مطلقاً ، وهي دولة الادارسة ، واستقلت الثانية بالمغرب الأدنى ، أو ما يسمى افريقية ، استقلالاً ذاتياً داخلياً ، وهي دولة الأغالبة .

وهذا الاستقلال السياسي الذي اتيح للمغرب الاسلامي في بعض اجزائه لا يعني انه قد بت ما بينه وبين المشرق ، اذ كان امراء هذه الدول المستقلة مشارقة وثيقي الصلة بالمشرق ، فالأغالبة عرب من بني تميم ، والأدراسة علويون من قريش ، والرستميون من أهل فارس ، وإذ كانت النظم الأدارية التي تنظم الحكم في هذه الدول هي النظم القائمة في المشرق . وذلك الى جانب الصلات الدينية الوثيقة ، والصلات العقلية التي ظلت تزداد على الأيام وثاقة واطراداً ، وروح الحنين السارية في أهل المغرب الغالبة عليهم نحو المشرق ، والتي تجعل مشاعرهم متجهة اليه دائماً .

ولكن الوجه الآخر الذي لا ينبغي أن نغفل ملاحظته واعتباره هو أن ظهور هذه الدول المستقلة يعتبر في نفسه مظهراً من مظاهر الشخصية المستقلة ، كما يعتبر - الى جانب ذلك - عاملاً من العوامل في تقوية ملامح هذه الشخصية وتعميقها وإبراز خطوطها . وفي استثارة العناصر الباطنية الخاصة التي هي الأصل في تكوين خصائص الشعوب والجماعات . وان بقي الشمال الافريقي - مع ذلك - داخل النطاق الاسلامي الكبير الذي يضم

الشعوب الاسلامية المختلفة ، من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، ويؤلف بينها .

ولعل الأصل في ذلك يرجع الى أن مثل هذا الاستقلال السياسي هو نتيجة وجود اسرة أو شخصية قوية استطاعت ان تحكم قبضتها على زمام الأمور ، وأن تقضي على الفتن والقلاقل ، وتقر الأمن والهدوء والطمأنينة ، وتظفر بثقة أهل البلاد بها ، وركونهم اليها ، حتى ارتفعت الحواجز بينهم وبينها . وأن مثل هذا الاستقلال الذي صدر ذلك المصدر اطلق يدها في اتخاذ الأسباب المختلفة للنهوض بالبلاد ، ومكن لها من أن تمضي في اصطناع كل ما يمكن أن يؤدي الى ازدهارها واستغلال القوى الكامنة او المعطلة . وبذلك تحقق وجودها الحق بعناصره المختلفة ، كما أخذت بذلك شخصيتها تتجلى في شتى نواحي النشاط بقدر ما اتيح لقواها الكامنة ان تظهر وتستعلن ، متفاعلة مع القوى الجديدة الطارئة .

وكان شمال افريقية قد منى منذ زمان طويل بما عطل قواه ، وأهدر شخصيته ، ودمر أوكار معالم حضارته المعبرة عن هذه الشخصية . وقد بدأت مظاهر هذا الانهيار في أواسط القرن الثالث الميلادي ، بعد مضي أربعة قرون على الحكم الروماني ، وان كانت اسبابه ومبادئه قد بدأت قبل ذلك بزمن غير قليل ، بل لعلها بدأت مع الحكم الروماني نفسه .

فإذا كان الرومان قد استطاعوا ان يسبغوا على البلاد كثيراً من مظاهر الحضارة ، فينشئوا المدن على الطراز الروماني ، ويقيموا بها المعابد والمسارح على ما هو المعهود عندهم ، ويوفروا لها أسباب الحياة الرخية ومظاهر الترف ، ويشقوا الطرق التي تصل بين هذه المدن ويعبدوها ، ويحفروا الآبار وينظموا وسائل الري ، وينهضوا بالفلاحة ، الى غير ذلك من وسائل استغلال الثروة وإقامة المرافق ، فقد كانوا في ذلك كله إنما ينظرون الى انفسهم ، ويهيئون ما يقتضيه كون هذه البلاد موطناً لهم ، باعتبارهم العنصر الفاتح ، والطبقة الحاكمة المسيطرة صاحبة السيادة . أما أهل البلاد فكانت الجمهرة العظمى ممن يعيشون منهم في المدن أو ما

حولها عبيداً ارقاء للسادة الرومان الذين يملكون الأرض، ويستثمرون مصادر الثروة المختلفة ، ويستمتعون بألوان الحضارة . لا يكاد غيرهم يصيب من ذلك الا ما لا بد ان يصل اليه . وأما من كانوا يعيشون في البادية أو في المناطق الجبلية ، فقد ظلوا معتصمين بها ، متمسكين فيها بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم ، لا يكادون يغادرون مواطنهم هذه الا حينما تدعوهم ضرورة العيش للإغارة على السهول الخصيبة والمزارع النضرة .

مثل هذا النظام كان يحمل في اطوائه عوامل فساده وأسباب انهياره ، على الرغم من ظاهر قوته وازدهاره . فلم يكد ينتصف القرن الثالث الميلادي حتى أخذت الأزمات الاقتصادية والاضطرابات الاجتماعية والثورات القومية تغمر البلاد ، وقد أخذ بعضها برقاب بعض . كل منها متأثرة بالأخرى ومؤثرة فيها ومضاعفة لخطرها وسوء أثرها في حياة البلاد. وبذلك اخذت تفقد شيئاً فشيئاً مقوماتها الاقتصادية التي كانت تظن أنها بلغت الغاية في القوة والإحكام والتماسك ، وجعل هذا البناء الحضاري الذي عني الرومان به أيما عناية يتحلل ثم يتقوض ويتهاوى ، حتى اذا انتهى العهد الروماني كان الشمال الأفريقي قد ضعف كيانه واضمحل شأنه ، وتغلغل الوهن في كثير من اركانه .

ومن بعد الرومان جاءت قبائل الوندال ، ثم جاء من بعدهم الروم والبيزنطيون ، فكانت الحالة فيه تزداد سوءاً على سوءا ، وضعفاً الى ضعف . ثم كان الفتح الاسلامي ، وما اقترن به من مقاومة البربر له مقاومة عنيدة،تلك الفترة الطويلة ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، وما صحب ذلك من تعطيل لمرافق الحياة ، وما ارتكب خلال ذلك من تخريب وتدمير ، كالذي صنعته الكاهنة . ثم جاءت من بعد ذلك ثورات البربر والخوارج ، متتابعة متعاقبة لا تكاد تهدأ .

كل ذلك كان له أثره البعيد المدى في إهدار كثير من مقومات الحياة في شمال افريقية،وفي طمس كثير من ملامح شخصيته ، الى ان اتيح له ـ بعد هذه المحن المتعاقبة ـ ان يظفر بالهدوء ، وان يستشعر الاستقرار

والطمأنينة الى حد غير قليل ، في ظل تلك الدول الحاكمة في القرن الثالث ، فأخذ يسترد كيانه باستثمار ثرواته المعطلة ، واستغلال قواه الكامنة ، وبذلك اتيح له ان يسترجع كثيراً من مقومات شخصيته ، ويتبوأ في التاريخ مكانه الجدير به ، حتى ليمكن القول بأنه قد بدأت بهذه الفترة مرحلة جديدة بعيدة الأثر في حياته . وذلك ما نرجو ان نتبين في هذه الدراسة بعض معالمه .

وليس يعنينا ـ بطبيعة الحال ـ ان نستقصي صور التطور الذي أصابه المغرب في هذه المرحلة ، وإنما نكتفي بواحدة هي ، فيما نحسب ، أمسها بموضوعنا ، وهي صورة التطور الاجتماعي ، لما له من العلاقة الوثيقة بما نحن فيه ، ولما له من الأثر الكبير فيما نريد أن نؤرخ له ، ونتبين بعض وجوهه من الحياة الأدبية .

ولعل من أول مظاهر هذا الوجه من وجوه التطور واجدرها ان يلفت نظر مؤرخ الأدب ويستثير اهتمامه هو اتساع نطاق الحياة المدنية ، أي حياة المدن ، وامتداد نشاطها ، وسيطرتها على الحياة عامة ، او بعبارة اخرى ، مضاعفة الاتجاه نحو الحضارة ، وما يتضمنه هذا الاتجاه من تقلص البداوة بقدر ذلك .

ومنذ جاء الفينيقيون الى شمال افريقية بغريزتهم الاقتصادية واتجاهاتهم التجارية انتشرت المدن على سواحله ، تحقيقاً لتلك الأغراض التي جاءوا يمارسونها ، وازدهرت هذه المدن بازدهار النشاط التجاري ، واستقرار الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العهد الفينيقي والروماني ، حتى إذا أخذت هذه الحياة في الاضطراب ، وجعلت الأزمات المختلفة تأخذ بمخنقها ، على النحو الذي اشرنا اليه ، فقد كان من الطبيعي ان تفقد هذه المدن اسباب ازدهارها ، فتتضاءل قيمتها ويهون شأنها . ثم لا يبقى لها ما يربط الناس بها ويمسكهم فيها ، فيأخذون في التحول عنها ، والتماس أسباب الحياة في غيرها ، واصطناع اساليب للمعيشة غير أساليب المدينة ، ومن ذلك كان انصراف الناس الى حياة البادية .

ويبدو أن هذا هو المصير الذي صارت اليه المدن في المغرب ، في ابان الفتح الاسلامي : قليلة العدد ، ضئيلة الشأن .

وروح الاسلام ، كما نعلم ، روح مدنية ، تدعو الى المدينة ، أي الى الحياة المستقرة التي يسودها النظام ، وتبغض حياة البادية ، أي الحياة المضطربة القلقة ، وتنفر منها ، وتشجع على التحول عنها . على هذا درج منذ نشأته الأولى في الجزيرة العربية . فالتعرب بعد الهجرة نكوص الى الوراء ، فهو لهذا امر بغيض غير جائز . ومضى تاريخه مع هذه الروح ، كما نرى في عنايته بتأسيس المدن وتخطيطها ، وتوفير أسباب ازدهارها ، وإقرار دعائم الحياة المدنية في كل مكان يبسط عليه سلطانه .

وكما كان دأبه في كل بلد يفتحها ، لم يكد يدخل المغرب ، ويحقق المرحلة الأولى من مراحل فتحها ، حتى أسس مدينة القيروان ، ولم يكد يستقر فيها حتى وجه عنايته الى المدن الأخرى التي كانت قائمة على صورة ما ، كتونس وسوسة وطرابلس وما اليها ، فأخذت بفضل هذه العناية تسترد مكانتها التي كانت فقدتها .

وفي هذه الفترة التي نتحدث عنها تمت مدينة القيروان نموا مطرداً ، بفضل ما أولتها الدولة من عناية بها ، واقبال الناس عليها ، وقد جعلت تستهوي نوازعهم المختلفة ، ثم كانت تحقق لكل منهم غايته من الاتجاه اليها ، من توفر على العلم أو المام به ، او كسب لأسباب العيش .

أما عناية الأغالبة بها ، حتى بعد أن تحولوا عنها الى (العباسية) أولاً ، ثم إلى (رقادة) بعد ذلك ، فتتمثل في غير وجه من وجوه حياتها المعنوية والمادية . فقد عنوا بمسجدها الجامع ، اذ وسعوا ساحته ، وجددوا بناءه ، وأبدعوا عمارته ، وأولوا خزانة كتبه جل اهتمامهم ، وصيروه تحفة فنية استطاعت أن تطاول الزمن . كما عنوا بالمدينة نفسها ، واهتموا بمرافقها وحرصوا على توفير أسباب الرخاء لها ، ومن ذلك انشاؤهم الصهريج العظيم ، أو ما

يسمى بالماجل الكبير ، تنصب فيه المياه في أودية وجهت نحوه ، فتتجمع به لتكون ذخيرة لها في أوقات الجفاف . وما زال حتى اليوم شاهداً بما ظفرت به القيروان في عهد الأغالبة من رعاية . ويعرف باسم (فسقية الأغالبة) .

وامتدت روح التمدين والتعمير من القيروان ، في داخل البلاد ، الى (سوسة) في الساحل . وقد كان كلاهما ـ كما يذهب اليه الأستاذ المحقق حسن حسني عبد الوهاب ـ ينتمي الى الاقليم الذي عرف في أيام الرومان والوندال والروم بإسم (بوزاقيه) ، وحوله العرب الى (مزاق). فقد عني الأغالبة بهذه المدينة التي كانت ـ كما قلنا ـ قد ضعفت وضؤلت . وكان أول ذلك في عهد ابراهيم بن الأغلب رأس الدولة الأغلبية . وقد عرف لها خطرها في رد العدوان الذي كان الروم يحاولونه على الأرض الأفريقية ، وفي التمكين للدولة الاسلامية ، بما يمكن أن ينطلق منها من حملات بحرية . فحصنها واتخذ فيها مصنعاً للسفن نظير ذلك الذي في مدينة تونس .

« ومن ذلك الحين تتواصل جهود امراء بني الأغلب بدون انقطاع ، طيلة مائة عام ، لتمصير سوسة وتعميرها بالمعالم والمصالح ، ما بين عمومية وحربية ودينية ، لدرجة ان تصبح اكبر معقل حربي يذكر في الجانب الغربي من البحر المتوسط » ، كما يقول العلامة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في الفصل الرائع الشامل المستقصى الذي كتبه عن (سوسة الأغلبية) والذي يقع ما بين صفحة ١٥ وصفحة ١٥٠ من القسم الثاني من كتابه : (ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية) .

وكذلك امتدت روح التمدين والتعمير بمثل ذلك إلى سائر المدن الأفريقية القديمة ، تجددها وتحيي مرافقها وتنميها في شتى نواحيها ، مما لا يتسع المجال هنا لتفصيل القول فيه .

ولكن هذه الروح لم تقف بالأغالبة عند هذا الحد ، بل تجاوزته

بهم ، فحملتهم على استحداث مدن اخرى تتحقق بها الروح المدنية الاسلامية التي اشرنا اليها ، على وجه اكمل ، كما تتسع لوجوه تطور الحضارة التي مضت قدما في عهدهم . فبنوا بالقرب من (القيروان) مدينة سموها (العباسية) ، انشأها ابراهيم بن الأغلب مؤسس دولتهم ، وهي التي يطلق الآن على مكانها والبقايا الدارسة منها . خارج القيروان ، اسم (قصور الأغالبة) .

وفي سنة ٢٦٣ بنى ابراهيم الأصغر الأغلبي مدينة اخرى اطلق عليها اسم (رقادة) ، على ستة أميال جنوب القيروان ، لتكون عاصمة الدولة الأغلبية بعد العباسية . وكذلك عني بأن يجعلها جديرة بذلك ، على النحو الذي يمكن أن نتمثل شيئاً منه فيما كتبه عنها ابن الآبار . محمد بن سليمان القضاعى ، إذ يقول :

« مدينة وقادة بناها الأمير ابراهيم بن احمد ، واتخذها دارا ووطناً ، وانتقل اليها من مدينة القصر القديم (يعني العباسية) . وبنى بها قصوراً عجيبة ، وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق . وأجرى اليها الماء واغترس فيها صفوف الثمار الطيبة والرياحين ، وبنى على القصور التي احدثها فيها سوراً . وأحد هذه القصور يسمى بغداد ، وآخر منها يسمى المختار ، فصارت بعد حين أكبر من القيروان ، وبينهما ستة أميال . ولما ولى زيادة الله الأخير انتقل اليها ، وحفر بها صهريجاً طوله خمسمائة ذراع ، وعرضه اربعمائة ذراع ، وأجرى اليه ساقية ، وسماه البحر ، وبنى فيه قصراً سماه العروس ، انفق فيه مائتي الف دينار واثنين وثلاثين الف دينار . . . ولم تزل رقاده دار ملك بني الأغلب الى أن هرب منها زيادة الله من عبد الله الشيعي ، وسكنها عبيد الله المهدى الى أن انتقل الى المهدية» .

والأمر في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى من هذه الناحية كالأمر في المغرب الأدنى . ففضلاً عن الروح الاسلامية الداعية الى الحياة المدنية كان من الطبيعي ان تنشىء كل من الدولة الرستمية ودولة الادارسة مدينة على الأقل تكون عاصمة لها ، ومستقراً لنشاطها .

فأما الدولة الرستمية في المغرب الأوسط فقد انشأت مدينة (تاهرت) ، قريباً من مدينة قديمة كانت تحمل هذا الاسم . وقد عين ياقوت موقعها بأنه بين تلمسان وقلعة بني حماد . أما جورج مارسيه فيقول أنها على بعد تسعة كيلو مترات غربي (تيارت Tiaret) الحالية (وتيارت هذه تقع في منطقة مستغانم بوهران)[١] .

وقد كان لموقع (تاهرت) وسيطرتها على الطريق التجاري الذي يصل البحر المتوسط بالجنوب ، وللاعتبار الديني المذهبي الذي قامت عليه واصطبغت به ، ما أتاح لها نمواً سريعاً وازدهاراً مطرداً . ولم تلبث أن أصبحت مركزاً مذكوراً من مراكز الحياة الأدبية والعقلية في هذا الإقليم من أقاليم المغرب ، تتجه إليها أنظار الخوارج من هنا وهنا ، ويعقدون بها كثيراً من الآمال ، فقد كانت تمثل أول نصر سياسي لهم ، وكانوا يرون فيها رمزاً لمطامحهم وتطلعاتهم . وبذلك جعلت تزخر بألوان النشاط وخاصة النشاط العقلي والأدبي ، وسرعان ما خرجت عدداً من العلماء والأدباء ، كما نرجو أن نعرض لذلك بعد ، إن شاء الله ، حتى لقد كانت تلقب أحياناً بعراق المغرب . كما كانت تشبه أحياناً بمدينة بلخ ، وتسمى لذلك (بلخ المغرب) .

وفي المغرب الأقصى أنشأت دولة الأدارسة مدينة (فاس) . أسسها إدريس بن إدريس ، ثاني ملوك هذه الدولة ، بعد أن عجزت مدينة (وليلي) التي نزل بها أبوه ، وجعلها عاصمه دولته ومركز نشاطه ، عن أن تتسع لذلك النشاط الكبير الذي استتبعه قيام هذه الدولة ، واستقبال الوفود الكثيرة التي أخذت تفد عليها من أفريقية والأندلس .

وقد بنيت (فاس) على مرحلتين ، وجعلت عدوتين ، بينهما نهر مخرجه على مسيرة نصف يوم منها . فأما العدوة الأولى فهي عدوة الأندلسيين وقد احتلها ادريس سنة ١٩٢ ، وأطلق عليها هذا الاسم لنزول

---

(١) انظر G. Marçais: La Barberie Musulmane, p.103.

العرب الوافدين من الأندلس فيها . وبنى بها الجامع المعروف بجامع الأشياخ،وأقام بها يشرف على بناء العدوة الأولى . وقد فرغ منها في السنة التالية ، وسميت عدوة القرويين ، نسبة ألى العرب الوافدين من القيروان ، والنازلين بها ، وبنى فيها جامع سمي بجامع الشرفاء .

ومن هذا يتبين لنا أن مدينة (فاس) قد اتيح لها ، منذ أول انشائها ، ان تتمثل فيها عناصر المجتمع المغربي المختلفة ، بربرية وعربية ، فإلى جانب قبائل البربر التي احتضنت دولة الادارسة ودانت لها وقامت بأمرها ، كأروبة وزناته وغيرهما ، كان هنالك جموع العرب الوافدين من المشرق ، من ناحية افريقية والقيروان ، والعرب الوافدين عبر البحر من عدوة الاندلس .

ثم لم تلبث هذه المدينة الناشئة ان اتيحت لها مادة جديدة، ضاعفت نشاطها ، ومدت عمرانها ، وذلك حين نشبت في (قرطبة) في ولاية الحكم بن هشام ، الثورة التي عرفت باسم (ثورة الربض) . واستطاع الحكم ان يحبط هذه الثورة ويتغلب عليها . كما جعل يتعقب الثوار وينكل بمن يقع في يده منهم ، فأخذوا يفرون من وجهه . وكان منهم جماعة غير قليلة من العلماء والفقهاء ورجال الفكر ، فمنهم من أبعد في مهربه حتى بلغ مدينة الاسكندرية ثم جزيرة كريت ، ومنهم من وجد في مدينة فاس وصاحبها ادريس ملجأ له ، ومعتصماً يعتصم به ، وهكذا استقبلت من هؤلاء الثوار الفارين عدداً غير قليل ، نقل ابو العباس الناصري صاحب الاستقصا عن عبد الملك الوراق انه يبلغ اربعة آلاف أهل بيت ، فكان من هؤلاء ومن أهل القيروان الذين يذكر الوراق انهم كانوا يبلغون ثلاثمائة أهل بيت عناصر طيبة في هذا المجتمع الجديد ، ومادة صالحة قوية للتوسع العمراني والنشاط المادي والأدبي الذي أخذت هذه المدينة تتجه اليه وتظهر به ، مما أتاح لها ان تصبح مركزاً له خطره من المراكز المذكورة في المغرب العربي . ولم تلبث هذه المدينة الناشئة، بعد ان نمت هذا النمو المطرد السريع ، ان احست الحاجة الى مسجد ثالث يكفل لها الوفاء

بحاجاتها الدينية والعقلية ، فاستحدثت ، الى جانب مسجد الأشياخ ومسجد الشرفاء ، مسجد القرويين الذي انشىء في منتصف القرن الثالث .

هذه المدن التي انشئت واتسع عمرانها ، في هذه الفترة التي نخصها بهذه الدراسة ، الى جانب المدن القديمة التي تجددت وأخذت الحياة تدب فيها وتنشط بها ، بعد ان مضى عليها دهر وهي أقرب الى الاطلال الدوارس ، لا يكاد يحس فيها للحياة بأثر . هذه المدن الجديدة والمتجددة المنتشرة في انحاء المغرب العربي ، والمنبعثة من الروح الاسلامية التي اومأنا اليها ، ولم نحاول استقصاءها لأن لذلك موضعاً هو أملك به ، أسبغت على المغرب صورة جديدة زاهية ، تتألق بألوان مختلفة من النشاط والحيوية ، إذ أخذت تحول الحياة فيه تحولاً ملحوظاً الى الناحية المدنية ، وتصرفه الى حد غير قليل عن حياة البادية . فقد كان من الطبيعي ان تجتذب اليها طوائف من البدو الذين يعيشون حولها أو قريباً منها ، اذ تتصل أسبابهم بأسبابها ، أو تستهويهم مظاهر الرخاء فيها ، أو تقع من نفوسهم مجالسها العلمية والأدبية موقعاً خاصاً يجعلهم يدمنون هذه المجالس ، الى غير ذلك من الأسباب والدوافع التي تدفعهم الى التحول اليها ، والأخذ في اصطناع انماط حياتها .

ويبدو أن اول اثر وأخطره لهذا التحول الذي اتيح للمجتمع المغربي ، بهذه الطائفة من المدن ، هو التقريب بين عناصره المختلفة واتجاهاته المتباينة المتعارضة ، حتى يندمج بعضها في بعض ، وتتآلف منها وحدة متماسكة او قريبة من التماسك ، لا تفرقها العصبيات السائدة في البادية ، ولا تمزقها الخصومات التي تثيرها حياة البادية . فالحياة في المدن تقوم على تبادل المنفعة وما يدعو له ذلك ويترتب عليه من المشاركة والتضامن ، بقدر ما تقوم في البادية على تعارضها ، وما يدعو إليه ذلك من النزاع عليها . فهي في المدن واصلة مجمعة ، وفي البادية قاطعة مفرقة .

والى جانب اسلوب الحياة هذا الذي تفرضه المدينة ، وتضم به

العناصر المختلفة فيها والذي يقوم على تبادل المنفعة والمشاركة في تحقيقها ، فهي بذلك تؤلف ما بينها ، كان هنالك عامل كبير آخر من عوامل التقريب والتوحيد ، يصل ما بين هذه العناصر من باطنها ، وهو يتمثل في مجالس العلم التي كانت اولى خصائص المجتمع الاسلامي حيثما كان ، والتي كانت تنعقد في مساجد هذه المدن ، وبذلك كانت مجالس عامة مفتوحة ، يغشاها الناس جميعاً من هنا وهنا ، بين ملم بها ومقيم عليها . يلتمسون فيها المعرفة التي يدعوهم الاسلام اليها ويحثهم على تحصيلها ، ويستجيبون فيها لنوازعهم الدينية والعقلية . ويستكملون فيها مقومات كيانهم المعنوي الذي أودع الاسلام في قلوبهم الحرص عليه والرغبة في السمو به ، مهما تفاوتت طبقاتهم ، واختلفت عناصرهم ومشاربهم وصناعاتهم . فلم تكن هذه المجالس مقصورة على الطلاب الذين يعدون انفسهم ليكونوا علماء وإنما كانت تضم أشتاتاً مختلفة من أهل المدينة وأهل البادية ، ومن التجار والصناع والفلاحين وغيرهم ، كما هو الشأن في مجالس العلم الاسلامية عامة إذ ذاك ، وعلى النحو الذي يمكن أن نتمثل صورة منه في مثل هذا الخبر الذي رواه ابو بكر المالكي في كتابه (رياض النفوس) عن أبي عثمان سعيد ابن محمد الغساني ، المعروف بابن الحداد . قال :

« بلغني عن أسد (يعني أسد بن الفرات) أنه كان يختلف اليه شاب يطلب عليه العلم . فبينما هو ذات يوم جالس معه إذ سأله عن صناعته ، فسمى له الشاب صناعته . فقال له أسد : قم ! بانتهار . فقال له الشاب : ما قصتي اصلحك الله ؟ ان كنت انكرت صناعتي تركتها . فقال له أسد : ما أنكرتها ، ولكني انكرت تعطيلك لحانوتك الذي منه معاشك ، وتقوى به على طلب العلم . وصاحب الحانوت انما هو بالحرفاء . فإذا جاء حريفك اليوم ولم يجدك ، وغدا فلم يجدك . وبعد غد مثل ذلك ، استبدل بك غيرك ، فضررت نفسك ومن تعوله . ولكن أن عزمت فاجعل لنفسك يوماً أو يومين في الجمعة ، يعلم حرفاؤك بمغيبك عن حانوتك في ذلك اليوم او اليومين ، فيأخذون ما يحتاجون إليه قبل مغيبك . ثم قال له أسد : انظر

إلى هؤلاء الذين يأتون . انما هم أهل حرث وحصاد ، فإذا كان وقت حرثهم وحصادهم لم تر منهم احداً يجيء إلينا ، فإذا انقضى حرثهم وحصادهم عادوا إلى ما كانو فيه » .

وليس يعنينا الآن من هذا الخبر الغرض الذي ساقه المالكي له ، في الفصل الذي دونه عن أسد ابن الفرات ، وإنما الذي يعنينا منه هو دلالته على طبيعة هذه المجالس ، وأنها كانت من حيث روادها والمختلفون اليها مجالس عامة تضم هؤلاء وأولئك ، يجلسون الى شيخ واحد ، يضمرون له جميعاً المحبة والتجلة ، ويشتركون جميعاً على اختلاف مستوياتهم في تلقي ما سعوا الى تلقيه منه ، ويؤثرون مجلسه أشد الإيثار حتى ليود الواحد منهم ان يترك حرفته إذا وقعت في قلبه شبهة إنكار الشيخ أن يجمع بينها وبين شهود مجلسه . تسرى فيهم روح واحدة . ويسودهم جو واحد ، وتتمثل في أنفسهم مثل واحدة او متقاربة . ففي هذه المجالس اذن كانت تضعف الفوارق العقلية والاجتماعية ، وبها جعل يتكون ـ قدر ما تأذن به القوانين العامة ـ مجتمع منسجم مؤلف المثل والقيم وأساليب التفكير ، وألوان الثقافة بصفة خاصة .

فلا جرم كانت هذه المجالس ، في مساجد المدن ، من العوامل الأولى في توحيد المجتمع الاسلامي ، في المغرب العربي ، الى جانب كونها أداة تثقيف وسمو بالجانب الانساني .

وأمر آخر ملتبس بهذا يدين به المجتمع المغربي لحياة الحاضرة التي وسع الاسلام نطاقها ، وما استتبعته من هذه المجالس على هذه الصورة ، وهو الوضع اللغوي في هذه البلاد ، وذلك بما أتاحته للغة العربية ، لغة هذه المجالس الغالبة عليها ، وأداة الثقافة التي تشيعها بين طبقات الناس الذين يغشونها ، فقد دفعتها الى أن تتغلغل بين هذه الطبقات ، فتصبح لغة جميع أهل المدن المغربية ، ويتحقق بذلك هذا المظهر القوي من مظاهر التجانس الاجتماعي .

وبذلك كله نرى أن روح المدينة التي جاءت مع الفتح الاسلامي ، وما تضمنته من العناية بأمر المدن : بإنشائها وإحيائها وامدادها بأسباب الحياة النشيطة ، كانت من أول العوامل البليغة الأثر في تحقيق ذلك الوجه من وجوه التطور التي اتيحت للمجتمع المغربي في القرن الثالث ، مما يتصل اتصالاً وثيقاً بما نحاول معالجته في هذه الدراسة ، من تبين أصول الحياة الأدبية ومظاهرها وعوامل تطورها ، في هذا الأفق من آفاق العروبة .

فإذا نحن مضينا بعد ذلك الى هذه الحياة لنتبين مداها وكبرى قسماتها ، في هذا القرن ، فإن أول ما يواجهنا هو أننا منها إزاء عالم كبير ممتد الأطراف ، بالقياس الى العالم الذي رأيناه ووقفنا عنده في القرن الثاني ، إذ كان النشاط الأدبي اذ ذاك مقصوراً على افريقية لا يكاد يتجاوزها الا بقدر ضئيل . حتى إذا ما بلغنا هذا القرن الثالث ، وقد استقبل عوامل ذلك التطور السياسي والتطور الاجتماعي اللذين لاحظنا في اجمال بعض مظاهرهما ، فقد اتسع نطاق النشاط الأدبي ، بعد أن نشأت الى جانب بيئة افريقية بيئتان جديدتان في كل من دولة الرستميين في المغرب الأوسط ، ودولة الادارسة في المغرب الأقصى ، واصبح لهذا النشاط مراكز جديدة في كل من هاتين الدولتين لعلها اخذت تنافس القيروان وتونس .

وإذا كان لكل من هذه البيئات الثلاث ملابساتها وأسبابها الخاصة بها ، وكان للنشاط الأدبي مظاهره واتجاهاته في كل منها ، متأثراً بهذه الأسباب والملابسات ، سالكاً الطريق الذي شقته له ووجهته فيه ، فإن مما ينبغي في مثل هذه الدراسة ان يفرد كل منها ببحث على حدة ، فينظر اولاً في افريقية ، ثم في تاهرت ، ثم المغرب الأقصى .

ولعل الله يتولانا ، فيما نحاول من ذلك ، بالعون والتوفيق والسداد .

- ٢ -

أول أقاليم المغرب العربي الثلاثة التي نود أن نتبين ملامح الحياة الأدبية فيها ، في هذا القرن ، هو افريقية . إذ تقع الى غربي مصر حتى

بلاد الزاب ، وهو ما يطلق عليه الآن قسنطينة ، مبدأ المغرب الأوسط ، او ما كان يسمى في العهد الروماني (نوميديا) . ومن ذلك كانت تسمى بالمغرب الأدنى .

ولا ريب ان الحياة الأدبية في هذا الاقليم هي استمرار للحياة الأدبية التي رأيناها من قبل منذ نشأتها في القيروان ، واستطاعت ـ على نحو ما ـ أن تتخذ فيه صورة معينة . وان تنمو وتتطور فيصبح لها ـ الى حد ما ـ سماتها وصفاتها الغالبة ، وان تمضى في سبيلها مستجيبة لعوامل التطور .

فماذا اتيح لهذه الحياة ، في هذا القرن ، من عوامل جديدة الى جانب العوامل الأولى ؟

ان اول ما يلاحظه المؤرخ هو قيام دولة جديدة مستقلة بتدبير أمر البلاد . منوط بها وحدها تحقيق التقدم الأدبي والعمراني ، الى جانب المهام السياسية ، وهي دولة الاغالبة ، ومن ذلك كان بعض المؤرخين ينسب هذا الاقليم اليهم ، فيسميه بلاد الأغالبة . وإذا كان هذا الاستقلال يرجع بين ما يرجع اليه الى اجتماع طائفة من الأسباب جعلته مهيأ له . فلا ريب أنه كان لقيام هذه الدولة أثره الذي لا ينبغي اغفاله في مثل هذه الدراسة . وقد كان التكوين الثقافي والمظهر الأدبي خاصة من اول الأمور التي تعني الدول الاسلامية عامة بتحقيقها وتوفير أسبابها واستكمال وجوهها حتى لقد كان موضع المنافسة بين هذه الدول . وخاصة حين يكون القائمون على هذه الدولة او تلك من اصحاب الحس الأدبي ، والنزوع الفني ، والثقافة الرفيعة . فتتجاوب مع ذلك التقليد العام نوازعهم الغالبة عليهم ، وتؤرثه وتحفزه .

وقد رأينا من قبل أثر المهالبة ، ويعتبرون تمهيداً لهذا الاستقلال الذاتي الذي أتيح من بعد لأفريقية . من هذه الناحية . وذلك بما كان لهم من شبه استقلال بها . وما كان لهم من نوازع أدبية . ومثل المهالبة كان الأغالبة ، فقد توفرت لديهم هذه النوازع ، الى جانب الطموح الذي كان

يحفزهم ويثير هممهم الى أن يوفروا لدولتهم التي تحمل اسمهم هذه المظاهر .

فقد كان رأسهم ومؤسس دولتهم ابراهيم بن الأغلب شخصية مكتملة ، فإلى جانب كفاءته الخاصة في شؤون السياسة والحكم ، وصرامته في مواجهة الفتن ومكابدة الحروب ، مما أتاح له ان يظفر بثقة الخليفة العباسي المطلقة . وان يؤسس هذه الدولة . وأن يتولى شؤون افريقية اثني عشر عاماً وبضعة اشهر . كان فيها حاكماً اقرب الى المثالية ، مما جعل ابن عذارى يقول عنه في كتابه (البيان المغرب) : « لم يل افريقية احسن سيرة ، ولا أحسن سياسة ، ولا أرأف برعية ، ولا أوفى بعهد ، ولا أرعى لحرمة منه » . الى جانب ذلك كانت له شخصيته الأدبية والعلمية . يقول ابن الآبار عنه في كتابه (الحلة السيراء) : « كان ابراهيم في أول حالته كثير الطلب للعلم ، والاختلاف الى الليث بن سعد الفقيه . والليث وهب له (جلاجل) أم ابنه (زيادة الله) ، فخرج حتى وصل أفريقية . وكان ابراهيم من الشعراء المجيدين والخطباء البلغاء والمترسلين البارعين» .

فقد جمع هذا الأمير اذن الى ثقافة عصره التي تلقاها في مصر عن فقيهها ومحدثها الليث بن سعد، وكان وثيق الصلة به شديد الولاء له ، وعن غيره من علماء اللغة والأدب ، نزوعاً فنياً يجري في عروقه، صدر به عن ابيه الأغلب بن سالم بن عقال التميمي وكان ينزع به الى قول الشعر ، يعبر به عن خوالجه ، وينفس به عما يضطرب في نفسه ، كما يدفعه احياناً الى مواقف الخطابة ، يواجه بها الجماهير ، فيجيد القول ، وينفذ به الى قلوب المجتمعين حوله والمستمعين اليه ، ويصيب به الغرض الذي قصد اليه في هذه المواقف .

وقد روى الرقيق القيرواني في كتابه (تاريخ افريقية والمغرب) الذي نشرت اخيراً قطعة منه شيئاً من شعره ، لعله البقية الباقية منه . اذ يبدو ان شخصية ابن الأغلب السياسية غمرت شخصيته الأدبية . ومن هذا الشعر ما

قاله وهو في طريقه الى افريقية ، وقد خلف في مصر أهله ، معبراً عن الحنين الذي غلب عليه ، ومنه ما قاله معبراً عن مشاعره لقاء بعض المعارك التي خاض غمارها وانتصر فيها .

وإذا كنا لا نملك ، بمثل هذه البقية النزرة من شعره ، ان نتبين مدى شاعريته . فإن ذلك لا يعنينا في كثير . إذ يكفينا فيما نحن بصدده من تعرف العوامل الجديدة في الحياة الأدبية في افريقية ان نرى فيه شخصية تكونت تكويناً أدبياً وعلمياً ، فهي من ذلك تعني بالأدب والحياة العقلية عامة عناية خاصة .

ولا جرم كانت هذه الشخصية ، بطابعها ذلك الأدبي واتجاهها العلمي ، وبما أتيح لها من سلطان ومن قدرة على قيادة الحياة في أفريقية وتوجيهها ، من أول الأسباب التي آزرت النشاط الأدبي والعقلي عامة فيها ، وأمدته بما جعله يمضي بقوة في السبيل التي ارتسمها من قبل واستطاع المهالبة ان يقروا اسسها ويوضحوا معالمها . ويبلغوا بها غاية مذكورة ، على النحو الذي رأينا من قبل صورة منه .

وكذلك كان ابنه (زيادة الله) الذي ولي الإمارة بعده ، فقد جرى ابوه في تنشئته وتكوينه على التقاليد المرعية اذ ذاك في تنشئة الأمراء وتأديبهم وأخذه من ذلك بما يجعله جديراً بالمكان الذي يرشحه له في هذه الدولة . وقد ذكر ابن الآبار طرفاً مما كان أبوه يأخذه به ، وما استطاع ان يبلغه حين تم تمامه ، وذلك اذ يقول : « كان ابوه ابراهيم ابن الأغلب اذا قدم عليه أحد من الأعراب والعلماء بالعربية والشعراء أصحبهم ابنه زيادة الله هذا ، وأمرهم بملازمته ، فكان أفضل أهل بيته وأفصحهم لساناً وأكثرهم بياناً . وكان يعرْب كلامه ولا يلحن ، دون تشدق ولا تقعر ، ويصوغ الشعر الجيد» .

وإذ كانت دار الامارة قد أخذت منذ أيام المهالبة تصطبغ بالصبغة الأدبية والعلمية ، وكانت ـ فيما نفرض ـ تتمثل في مجالسها الوان المعرفة بمن كانت تجتذبهم اليها من أهل العلم والأدب المقيمين والوافدين ، فقد

كان في ذلك ما أتاح لزيادة الله ان يعقد صلته بهم ، فيجد عندهم ما تتجه اليه نوازعه ، وما تتكون به ملكاته ، وما جعل منه شخصية ادبية ممتازة ، فكان عالماً واسع الأفق فصيح اللسان بليغ البيان ، حتى قيل في وصفه انه كان اعلم أهل بيته .

وعلى هذا النهج مضى أمراء الأغالبة وأفراد الأسرة الأغلبية عامة ، تحققا بالعلم والأدب ، وحرصاً عليهما، وتشجيعاً لهما ، وتوفيراً لأسبابهما ووسائلهما ، إذ كانوا يعتبرون ذلك ضرورة من ضرورات الدولة ، وواحداً من أهم مقوماتها . كما كانوا يعتبرون الأدب من أول مشخصات الأسرة الأغلبية ، فكان قول الشعر أمراً شائعاً فيهم ، حتى عرف به بعض نسائهم ، كمهرية بنت الحسن الأغلبية .

وربما كان ابرز الأغالبة اثراً في تشجيع النشاط الأدبي والعلمي في أفريقية ، وأكثرهم توفراً على تحقيق أسبابه ، وأبعدهم نظراً في وجوهه المختلفة هو ابراهيم الثاني أو ابراهيم الأصغر الذي ولى الإمارة سنة ٢٦١ ، وظل يلي امور افريقية حتى سنة ٢٨٩ . فأتيح له في هذه الفترة الطويلة أن يحقق كثيراً من ذلك ، الى جانب ما حققه من توطيد اركانها وتوسيع رقعتها ومد سلطانها .

وقد عني الأستاذ المحقق حسن حسني عبد الوهاب في غير موضع من دراساته بهذا الأمير ، والتنويه بمآثره في هذا المجال خاصة . فمن ذلك ما قاله في البحث الذي نشره سنة ١٩٥٥ في المجلد الأول من مجلة معهد المخطوطات العربية ، بعنوان (العناية بالكتب وجمعها في افريقية التونسية ، من القرن الثالث الى الخامس للهجرة) ، مما يؤدى لنا صورة دقيقة رائعة ، قال :

« أسس ابراهيم الثاني لأول ولايته مدينة (رقادة) ـ عام ٢٦٤ ـ وجهز منها في سنتها سفارة الى عواصم الشرق الكبرى ـ الفسطاط ودمشق وبغداد ـ ليستوفد منها علماء مختصين ، من أطباء وفلكيين ومغنين

وغيرهم ، بنية اقرارهم في عاصمته الجديدة التي أراد ان يباهي بها (سامرا) بالعراق ، و (الفسطاط) بمصر ، فجلب اليها سفراؤه من تلك العواصم جملة علماء ، أشرنا الى دخولهم وتأثيرهم في غير هذا المكان . كما جلبوا اليه منها الاعلاق النفيسة . على ما جرت به عادة سائر الملوك للتظاهر بالأبهة ، والتفاخر بشارات البذخ . ومن جملة ما حمل اليه الكتب النادرة الجميلة الخط ، خصوصاً وأن هذا الأمير كان مولعاً بعلوم الفلسفة ، وبالفلك وبفنونه . وقد حفظ لنا التاريخ اسماء بعض اولئك السفراء الذين كان يخرجهم من حين لآخر الى المشرق . وهكذا تهيأ لإبراهيم الثاني ـ يتيمة العقد الأغلبي ـ أن يوشح (بيت الحكمة) الذي انشأه في رقادة بنفائس الكتب الفنية ، الأصيلة والمترجمة، وبآلات الرصد الفلكي وغيرها . ويكفينا شاهداً لشغف هذا الأمير وعنايته بالخزانة التي أنشأها انه كان يرسل الى كبار علماء القيروان ، المبرزين في النحو واللغة ، فيجلبهم الى رقادة ، ويمسكهم عنده المدة الطويلة ، لتصحيح مخطوطات مكتبته وشكلها وتفسير مفرداتها » .

ثم أورد صاحب البحث عن طبقات النجاة للزبيدي ما يشهد لذلك .

أما (بيت الحكمة) الذي جاء ذكره في سياق هذا الكلام فقد خصه مفصل كبير ضمنه كتابه (ورقات في الحضارة العربية بأفريقية التونسية) فصل فيه ما أحمله هنا . وقد استظهر فيه ان يكون مما انفرد به بيت الحكمة هذا ترجمة بعض المصنفات اللاتينية . ذلك « أن ما ترجم من أمهات الكتب الأعجمية في ممالك الشرق الاسلامي انما نقل عن اللغات التي كان لها رواج بالشرق في زمن الفتوح الغربية ، كاليوناني والسرياني والفارسي والهندي . ولم نقف البتة على اسم كتاب واحد ترجم من اللسان اللاطيني ، إذ لم يكن منتشراً هناك . أما بلاد المغرب ـ من الأندلس الى آخر برقة ـ فأن اللغة السائدة فيها ، سواء في الشؤون الرسمية او في رسوم الديانة هي اللاطينية خاصة ولذا اضطر كثير من العرب الأفارقة الى تعلمها واتقانها ، تكلما وكتابة ، لما يفرضه عليهم امتزاجهم بالعناصر المحلية ،

ومجاورتهم المستمرة لبقايا الرومان المسيحيين المقيمين في بلادهم ، سواء كانوا في الشمال الأفريقي او في الأندلس أو في صقلية » .

ومن ذلك يتبين لنا مبلغ ما كان يملأ نفوس الأغالبة من طموح علمي . ومدى احساسهم بتبعتهم نحو البلاد التي يتولون حكمها وتدبير امورها ، حتى بلغت افريقية في عهدهم ، وهو العهد الذي استقلت فيه ذلك النوع من الاستقلال ، مبلغاً كبيراً من التقدم العمراني ، وظفرت بكثير من مظاهر الرقي المادي والمعنوي . فقد أتاح لهم استقلالهم بأمرها أن يأخذوا في جعلها مركزاً مرموقاً من المراكز العلمية الاسلامية ، كما كانت العراق ومصر ، وفي أن يسبغوا على مدائنها هذه الصبغة التي كانت تتألق بها بغداد والبصرة والفسطاط مثلاً ، وان يصطنعوا لذلك كل وسيلة ، ويبذلوا له كل جهد يملكونه ، من ارسال البعثات لجلب الكثير في فنون العلم المختلفة ، الى تشجيع الأدباء والعلماء من المشارقة على القدوم الى افريقية ، والمشاركة في حياتها الأدبية والعلمية .

وذلك الى جانب علماء الأفارقة الذين كانوا ما يزالون على رأيهم من الرحلة الى المشرق ، يلقون علماءه ويتحدثون اليهم ، ويتلقون عنهم ، ثم يعودون من بعد إلى بلادهم ، اوسع علماً وانضج ذهناً ، وقد تزودوا بما رحلوا من أجله ، ليتخذوا فيها مجالسهم العلمية ، ويشاركوا بقدر ما لهم من موهبة أدبية صقلتها الرحلة في نشاطها الأدبي .

وشيء آخر متصل بما نحن فيه من آثار قيام دولة مستقلة كدولة الأغالبة في أفريقية ، وهو نشوء طبقة الكتاب ذوي الثقافة الرفيعة والأسلوب الأنيق والطموح الأدبي ، على النحو الذي عرفه المشرق منذ عهد عبد الحميد وابن المقفع او قريباً منه . فقد كان طبيعياً ان يعظم شأن الديوان ، ديوان الرسائل ، في افريقية وتتسع آفاقه بقيام هذه الدولة ، كما كان طبيعياً أن تحرص هذه الدولة على أن تحقق لنفسها هذا المظهر من مظاهر الاستقلال في أحسن صورة يمكن ان تتاح لها . وذلك إلى ان هذا الديوان بما صار اليه وما ترامى في الآفاق عنه أصبح يملك القدرة على استهواء

الكتاب واجتذابهم اليه من هنا ومن هنا ، يظهرون فيه مواهبهم ، ويرضون بالعمل فيه طموحهم .

وإذا كان ما بين ايدينا من أخبار الديوان في افريقية في هذه الفترة لا يأذن لنا أن نتمثل هذه الطبقة ونتعرف الى نشاطها في صورة مفصلة واضحة الملامح ، فلعلنا نستطيع أن نرى شيئاً من ذلك فيما اتيح لنا معرفته عن رجل مثل أبي اليسر ، ابراهيم بن محمد الشيباني ، الذي ولى منصب الكتابة ووكل اليه ديوان الرسائل في أواخر عهد الأغالبة ، وفي قلة قليلة سقطت الينا أسماؤهم مقرونة بنتف من أخبارهم وآثارهم ، شاركته في أعمال الديوان .

أما أبو اليسر الشيباني فهو أحد أدباء بغداد الذين نشأوا فيها واصطنعوا الكتابة بها ، ثم استهوتهم الأندلس وما كان يترامى اليهم عنها ، فآثروا الرحلة اليها . وقد قدمها في أيام محمد ابن عبد الرحمن الأموي الذي ولى الأمر فيها فيما بين سنة ٢٣٨ وسنة ٢٧٣ ، ولأمر ما تركها متجهاً الى الشرق ، حتى إذا بلغ افريقية تلبث بها ، ولم يلبث ان عقد صلته بالأغالبة . إذ رأى فيه الأمير ابراهيم الأصغر من « الأدب الرفيع ، والترسل البليغ ، والشعر الرائق مع حصافة الفكر ومكارم الأخلاق » ـ وهي الصفات التي وصفه بها الرقيق القيرواني ـ ما جعله يكل اليه ديوان الرسائل . وقد استطاع ان يظفر بإعجابه ، وإعجاب ابنه زيادة الله من بعده . حتى لقد وكل اليه أمر بيت الحكمة الى جانب عمله في الديوان .

وإذ كنا لا نعرف من الكتب التي تنسب اليه غير جريدة أسمائها ، فأكبر الظن عندنا انه صاحب (الرسالة العذراء) التي نسبها محمد كرد على ، في مجموعة رسائل البلغاء ،الى ابراهيم ابن المدبر ،خطأ ،ثم تابعه في ذلك الدكتور زكي مبارك في نشره لها محققة على حدة . وهي باعتبارها من تأليف أبي اليسر جديرة ان تؤدى الينا صورة من ثقافته وأدبه وأسلوب كتابته . مما أتاح له هذا المكان في افريقية .

وأما الكتاب الآخرون الذين اتيح لنا أن نلم ببعض اخبارهم ، ممن شاركوه في ديوان الرسائل فأولهم محمد بن حيون البريدى . ولا ندري حقيقة هذه النسبة . ولدينا قطعة من انشائه في صورة رسالة كتب بها الى الأمير ابراهيم الاصغر ، وكان سخط عليه وأودعه السجن ، فهو يستعطفه فيها . وأبو سعيد الصيقل ، وهو بغدادي المحتد والمنشأ ، ومحمد بن أحمد بن الفرج البغدادي ، وهو مثل أبي اليسر في أنه قدم الى افريقية ، بعد أن هاجر من بغداد الى الأندلس .

ومهما يكن جهلنا بأمور الديوان بأفريقية في هذه الفترة ، فلا ريب عندنا في أن هؤلاء الكتاب الذين ادخلوا « إلى افريقية رسائل المحدثين واشعارهم وطرائف اخبارهم » كما يقول الرقيق القيرواني فيما تحدث به عن أبي اليسر الشيباني ، استطاعوا أن يمثلوا فيها هذا اللون من الثقافة الأدبية الفنية التي يغلب عليها جانب الظرف والأناقة ، كما عرفت في المشرق . وكما كان لها أثرها في الحياة الأدبية هناك ، فإن من الطبيعي أن يكون لها أثرها في افريقية .

وكما كانت مجالس المهالبة ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، أندية أدبية ، يلتقى فيها الأدباء والعلماء يتساجلون ويتناظرون ، فكذلك كانت مجالس الأغالبة . ولكنها ـ فيما نقدر ـ أصبحت أكثر اتساعاً لفنون الثقافة المختلفة ، بحكم الزمن وسعة السلطان الذي كان للأغالبة ، كما كانت أكثر تمثيلاً لألوان الترف العقلي والأدبي التي عرفت بها قصور الأمراء والسراه في بغداد وما اليها من مدن المشرق .

وإذا كان الغناء والموسيقى أصبحا من العناصر التي يبدو أن هؤلاء الأمراء والسراة كانوا حريصين عليها في مجالسهم مع خاصتهم ، وقد كان ذلك يضفي عليها لوناً جديداً فاتناً ، فليس يبعد أن يكون الأمر قريباً من هذا في مجالس أمراء الأغالبة في افريقية . وقد رأينا أن استقدام المغنين من المشرق كان من الأمور التي عني ابراهيم الثاني بها . وكان من هؤلاء الذين استقدموا في عهده (مؤنس) البغدادي المغنى الذي ذكره ابن

عذارى عرضاً في جملة من ماتوا سنة ٣١٤ . وقد وصفه بأنه مولى موسى بن بغا ، وأنه مات بالمهدية فجأة . أي أنه انتقل اليها بعد قيام دولة العبيديين .

وإذا كان ما بلغنا من أخبار الغناء عند الأغالبة لا يؤدى الينا هذه الصورة ، ويجعل الغناء أمراً مقصوراً على مجالسهم الخاصة ، فأنه يحسن بنا في مثل هذه الدراسة ، أن نسجل ما بلغنا من ذلك . على أن غاية ما نقوله هو أننا لا نبعد ان تكون هذه المجالس الخاصة قد اتسعت لبعض الوان الأدب ، ولبعض الخاصة من الأدباء .

من ذلك ما أورده العلامة حسن حسني عبد الوهاب في كتابه (مجمل تاريخ الأدب التونسي) عن المؤرخ الرقيق القيرواني « أن بكر بن حماد كان ينتجع ابراهيم الثاني ويمدحه ، فيصله بالجوائز السنية . فغدا ذات يوم في رقادة على الفتى بلاغ ليوصله الى الأمير . فقال له بلاغ : الأمير مشغول هذا اليوم . فقال له بكر : فالطف في ايصال رقعتي اليه فقال بلاغ : الأمير مصطبح في البستان مع الجواري ، على بركة القصر ، ولا يصل إليه أحد . فألح بكر ، وكتب رقعة ، وجعل بلاغ يحتال في توصيلها مساعدة له . وفي الرقعة أبيات منها :

خلقن الغواني للرجال بلية ... فهن موالينا ونحن عبيدها
إذا ما أردنا الورد في غير حينه ... اتتنا به في كل حين خدودها

وكتب تحت الأبيات :

فإن تكن الرسائل أعوزتني ... فإن وسائلي ورد الخدود

ووصل الشعر ابراهيم ، فلما قرأه أمر الجواري بإنشاده وإيقاعه على العود ، بمحضر (مؤنس) المغنى . فأظهر الجواري سروراً كبيراً بذلك ، وتوسطن الى الأمير أن يبعث بصرة مختومة الى الأديب القائل فيها مائتا دينار ذهباً» .

وكان ذكر الغناء في أفريقية بعد ذلك في سياق الكلام عن زيادة الله ، آخر امراء الأغالبة ، واستهتاره به ، وانصرافه الى اللهو واستغراقه فيه ، حتى آخر لحظات حياته ، باعتبار ذلك نذيراً بانقضاء دولته .

ومن ذلك ما يذكره ابن عذارى ، إذ يقول : « وفي سنة ٢٩٤ ، انصرف زيادة الله الى رقاده . . والتزم التنزه على البحر وغيره ، واتباع اللذائذ ، واشتد كلفه بغلام يسمى (خطاب) ، ثم وجد عليه وحبسه ، فغنت جارية له تستعطفه على خطاب :

يأبها الملك الميمون طائره رفقا ، فإن يد المعشوق فوق يدك
كم ذا التجلد ؟ والأحشاء خافقة اعيذ كفك ان تسطو على كبدك

فرضي عن خطاب وأعاده الى منزلته » .

ومن ذلك ما يذكره ابن عذارى ايضاً عن زيادة الله هذا حين اضطر الى الخروج عن رقادة هارباً ، فأخذت جارية من جواريه عوداً ووضعته على صدرها ، وغنت لتحركه على حملها معه :

لم أنس يوم الوداع موقفها وجفنها في دموعها غرق
وقولها ـ والركاب سائرة ـ : تتركنا سيدي وتنطلق ؟
استودع الله ظبية جزعت للبين والبين منه لي حرق

ومهما يكن من أمر ، فإن ما رأينا من حرص الأغالبة على هذا المظهر من مظاهر الترف الفني الى جانب حرصهم على أن يسبغوا على مجالسهم ما يجعلها أكثر اشراقاً ، وأكثر مسايرة لما اصطبغت به مثل هذه المجالس في المشرق ، وأكثر ملاءمة لما أتيح لهم من انفراد بالسلطان ، هو الذي يحملنا على القول بأنا لا نبعد اصطباغ هذه المجالس ، أحياناً ، وفي أضيق الحدود ، بالصبغة الغنائية الموسيقية ، ثم يجعلنا نفترض بعد ذلك أن مثل هذا كان له أثره في الصياغة الشعرية في افريقية كما كان الشأن ـ فيما نرى ـ في المشرق .

وإذ كـان الأغالبة يمثلون الصفوة المثقفة ثقافة أدبية وعلمية ، وكانوا يملكون الوسيلة الى أن تتجاوب مجالسهم بهذه الثقافة ، ويتمثل فيها ما يسود الحياة الفكرية من اتجاهات ومذاهب ، يجدون فيها أنفسهم ، ويستمتعون بما تثيره من نشاط فكري ، فقد كانت المناظرة بين هذه الآراء والمذاهب تمثل جانباً من جوانب هذه المجالس ووجها من وجوهها .

وبنا الآن أن نحاول تبين بعض ما كانت تجلوه هذه المجالس من ذلك . بقدر ما أتيح لنا أن نصيبه منها . وان كنا لا نشك في أن نشاط هذه الأندية كان يمثل ألوان النشاط السائدة في العالم الإسلامي ، ويؤدي صورة مصغرة مما كانت تضطرب به الحياة الفكرية في بغداد أو البصرة او الكوفة او الفسطاط ، في مسائل الكلام وأصول الفقه ، الى جانب الألوان الأدبية والفنية .

لقد كانت الأبحاث الكلامية وخصومات المتكلمين من أصحاب المذاهب المختلفة حولها بلغت ذروتها في العراق في ذلك الوقت ، وخاصة بين المعتزلة وأهل السنة . وقد رأينا من قبل مكان الاعتزال في أفريقية ، وأنه استطاع منذ نشأته الأولى أن ينفذ اليها ، ويمارس بعض وجوه نشاطه فيها ، وإن تكن الملابسات التي أشرنا إلى شيء منها قد جعلت تقيد خطاه وتحد من نشاطه . ولكنه استمر على كل حال في تمثيل هذا اللون من ألوان الحياة العقلية في أفريقية ، وفي اثارة الخصومة حوله ، في الحدود التي اتيحت له .

ولم يكد يبدأ القرن الثالث ، مجال دراستنا في هذه الفصول ، ويستولي الخليفة المأمون على مقاليد الخلافة ، ويستقر في قصره ببغداد ، ويتخذ له حاشية من العلماء وأهل الفكر ، حتى اتخذ الاعتزال صورة أخرى ، وارتدى لبوساً جديداً . فقد أصبح مذهب الدولة الرسمي ، تدعو اليه ، وتذيع مبادئه وحججه ، وتنافح دونه ، وتحاول فرضه بكل ما تملك من وسيلة ، ونشأت إذ ذاك مسألة خلق القرآن . واتخاذ الدولة منها موقفاً ايجابياً ، باستجواب القضاة والفقهاء وامتحانهم فيها . ونشأ ما نشأ عن ذلك

من حركة رد فعل شديد التصميم .

وكان من الطبيعي أن يتردد في أفريقية صدى هذه الخصومة ، حول هذه المسألة ، ولكنها ـ فيما يبدو لنا ـ لم تتخذ الصورة العنيفة التي اتخذتها في العراق ، ولا اتخذت الدولة منها الموقف الذي اتخذته هناك . وهذا ـ فيما نحسب ـ أمر يتفق مع طبيعة الأشياء من حيث الاختلاف الذي أشرنا اليه بين بيئة المغرب وبيئة العراق . فلم يكن الأمر يعدو المناظرة عليها والجدال فيها . وكانت مجالس الأمراء احد الأمكنة التي كان ينشب فيها هذا الجدال ، وتدور فيها هذه المناظرات ، كالذي نراه في هذا الخبر الذي يحكيه المالكي في سياق ترجمته لأبي محمد بن أبي حسان اليحصبى ، مروياً عنه . قال :

« دخلت على الأغلب ، فإذا الجعفري والعنبري يتناظران في القرآن . والجعفري ينكر أن يكون القرآن مخلوقاً ، والعنبري يقول إنه مخلوق . فلما رآني الجعفري قال :

ـ قد جاء شيخنا أبو محمد يعيننا عليكم .

قال : فلما جلست قلت للعنبري :

ـ وما أنت وذا ؟ هذا بحر عميق . عليك بجيسران البصرة (يعني النخل العنبري) فقال العنبري :

ـ إن كان أبو محمد معك ، فهذا الأمير معي (يعني الأغلب) .

فقلت : ما للملوك والكلام في الدين ؟ فأحفظه ذلك (يعني أغضبه) ثم قال لي :

ـ يا أبا محمد ، وكذلك من أتى السلطان هو مثل السلطان .

فقلت له :

ـ إنما أتاكم الآتي لأنكم خير ممن هو شر منكم . ولو أتى من هو

خير منكم لأتاه الناس ولم يأتوكم» .

وهذا الخبر لا يؤدى الينا صورة من هذه المناظرة بين العنبري والجعفري ، أو بين القول بقدم القرآن ، وهو مذهب أهل السنة والقول بأنه مخلوق وهو مذهب المعتزلة ، فلم يكن شيء من ذلك يعني راوي الخبر . وإنما كان الذي يعنيه منه وساقه من أجله هو عرض هذه الصورة من شخصية ابن أبي حسان ، صورة الرجل المؤمن برأيه الواثق من نفسه ، حتى لا يعبأ بالسلطان ، ولا يبالي ان يقذف الأمير في مجلسه بمثل ما قذفه به . وما كان لرجل مثل المالكي ، وهو يمثل الجمهرة الكبرى من معاصريه ، ان يورد في كتابه شيئاً من حجج المعتزلة ، وان كانت مقترنة بحجج اهل السنة .

وإنما يدل هذا الخبر عندنا على هذه الصورة من صور الأندية الأدبية التي كانت تتمثل في مجالس الأغالبة ، صورة رجلين : احدهما معتزلى ، وهو العنبري من أهل البصرة ، مهد الاعتزال وبلد المعتزلة ، والآخر من أهل السنة ، وهو الجعفري ، وقد اتخذا من مجلس الأمير مكاناً للمناظرة في مسألة خلق القرآن . وكان الأمير نفسه معتزلي المذهب ، وقد اتسع صدره ، كما اتسع مجلسه ، لحجج أهل السنة ، كما اتسع لكلمات التعريض يقذفه بها رجل مثل ابن أبي حسان من رواد مجلسه هذا .

وكذلك كانت تتمثل في مجلس الأمير الخصومة حول هذه المسألة او تلك من مسائل الفقه . وما زالت افريقية ـ كما رأيناها في القرن الثاني ـ مقسمة بين المذهب الحجازي والمذهب العراقي . فكان من الطبيعي ان يتردد صدى هذا الخلاف بين المذهبين في هذا المجلس الذي كان يتسع لفقهائهما والآراء المذهبية المختلفة . ولدينا صورة من ذلك في خبر يورده المالكي عن ابن ابي حسان أيضاً ، أذ يقول :

« دخلت على زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب ، فأصبته جالساً ، وعنده أبو محرز وأسد ، وهما يتناظران في النبيذ المسكر ، وأبو محرز

يذهب الى تحليله ، وأسد يذهب الى تحريمه . فلما جلست قال لي زيادة الله : ما نقول يا أبا محمد ؟ فقلت له : قد علمت سوء رأيي فيه ، وقاضياك يتناظران بين يديك . فقال لي : ناظرني أنت ودعهما . فقلت : أصلح الله الأمير ، كم دية العقل ؟ فقال : وما هذا مما نحن فيه ؟ فقلت : بجوابك ينتظم سؤالي . فقال : دية العقل الف دينار . فقلت : أصلح الله الأمير ، فيعمد الرجل الى ما قيمته الف دينار ، فيبيعه بدكيكيجة تسوى نصف درهم ؟ فقال لي : يا أبا محمد ، إنه يذهب ويجيء . فقلت له : بعد ماذا ، اصلحك الله ؟ بعد ان قاء على لحيته ، وكشف سوأته ، وسب هذا وضرب هذا وقتل هذا . فقال : صدقت والله صدقت » .

وفي هذا الخبر نجد ابن أبي حسان يورد ما احتج به هو لحرمة النبيذ ، دون أن يورد ما كان يدور بين أبي محرز وأسد بن الفرات ، إذ يحتج أولهما لحله والآخر لحرمته . وقد كان الخلاف على النبيذ من أظهر وجوه الخلاف بين أصحاب المذهب العراقي وأصحاب المذهب الحجازي . على أن مما يلفت النظر أن كلا من المتناظرين مالكي المذهب ، وكانا يتوليان القضاء في وقت واحد . كان أبو محرز يتولاه أولاً ، ثم أشرك معه فيه أسد بن الفرات ، لأن ولاة الأمر كانوا يرون أسداً أرحب أفقاً وأوسع علماً وأكثر استقلالاً في الرأي

وكأن ذلك كان يجعله أكثر ملاءمة لمنصب القضاء وما يحتاجه من مرانة وسعة نظر ، وان كان حجازي المذهب كصاحبه أبي محرز . ومع ذلك فإن اختلافهما في النبيذ ، على النحو الذي يعرضه ذلك الخبر ، يمثل الخلاف فيه بين المذهب الحجازي والمذهب العراقي .

على أن هذا الرفق بأهل السنة لم يلبث أن تغير قليلاً حين ولى الإمارة محمد بن الأغلب ، وكانت ولايته فيما بين سنتي ٢٢٦ و ٢٤٢ ، فقد سار في تعقب القائلين بأن القرآن غير مخلوق سيرة تقرب من سيرة المعتصم والواثق في المشرق . وكان معظم بطانته وأهل مجلسه من

المعتزلة ، ولكنه لم يبلغ على كل حال مبلغهما في الإيذاء والتنكيل. كما تحسب أنه بقي لدار الإمارة مع ذلك طابعها في هذه الناحية ، في جملة الأمر ، فظلت تجمع بين هؤلاء وأولئك ، من أهل السنة والمعتزلة ، فلم يكن الجو العام يأذن بالتنكر لأهل السنة ، ولم يكن لخصومة الاعتزال والسنة ملابساتها التي كانت لها في العراق . ومن ذلك بقي لأهل السنة مكانهم في الدولة . فكان سحنون قاضياً في ذلك العهد ، على الرغم من الخلاف الشديد بينه وبين المعتزلة .

وبعد ، فهذه صورة من الأندية الأدبية ، كما كانت تتمثل في دور امراء الأغالبة ، في حدود ما أتيح لنا من أخبارها . ولا ريب انها صورة شديدة القصور بالغة الاقتضاب . فإن أسرة كأسرة الأغالبة يجري الشعر في عروقها لا بد أن تحتفي بالأدب والشعر حفاوة تظهر في مجالسها ، بل تغمرها . وقد كان الشعراء يقصدونها ويتقدمون اليها بالمدائح يجودونها ويتنوقون فيها ، لما يعرفون من نوازعها الأدبية . ولو عني المؤرخون بالالتفات الى هذه الناحية وتقييد اخبارها لكان لنا من ذلك ما يعيننا على جلاء الوجه الأدبي لهذه الأندية .

- ٣ -

في هذه المحاولة المتواضعة المتقطعة الأسباب والوسائل ، والتي نود لو اتيح لنا بها أن نتبين شيئاً من معالم الحياة الأدبية ، أو الثقافية عامة ، في أفريقية في هذه الفترة ، ونجلو بعض ما درس منها ، ونتعرف الى مواطنها ، لا بد لنا أن نفترض أنه كان هنالك الى جانب مجلس الأمير في دار الإمارة ـ وقد تحدثنا عنه في الفصل السابق قدر ما أتيح لنا ـ مجالس سائر الأمراء الأغالبة الذين كانوا يمثلون الصفوة المترفة المثقفة ثقافة يغلب عليها الطابع الأدبي ، ويسودها روح الطموح العقلي ، بمن كان يمثل فيها

ويجتمع بها من أهل الأدب ورجال العلم . وان تقطعت دوننا الأسباب التي تصلنا بها ، والتي تجلو لنا بعض جوانبها .

وإلى جانب هذه المجالس في دور أمراء الأغالبة نستطيع أن نتمثل ، بهذه المثابة ، دار الوزير ، منذ استحدث الأغالبة منصب الوزارة ، فصار لهم وزراؤهم . فقد كان من الطبيعي أيضاً أن يحرص هؤلاء الوزراء على أن يأخذوا بتقاليد الوزراء في المشرق ، فيشاركوا في الحياة الأدبية ، ومن ذلك أن يجعلوا من دورهم ومجالسهم اندية ادبية ، يجتمع فيها الأدباء ورجال الفكر عامة ، يتبادلون الحديث ، ويتساجلون طرائف القول ، ويجادلون ويناظرون . ولعله كان من هؤلاء أبو اليسر الشيبابي الكاتب الذي عرفنا شيئاً من أمره في الفصل السابق . فربما كان لقب الكاتب في ذلك الوقت مرادفاً للقلب الوزير ، كما كان الأمر قبل في المشرق . وان طوى عنا هذا الوجه من وجوه حياته فيما طوى أو اندثر من أخبار هذه الفترة ومعالمها .

على أنه قد بقيت لنا قلة قليلة من الأسماء الموسومة بسمة الوزارة في هذه الفترة ، ذكرت عرضاً في سياق بعض اخبارها ، كعبد الله بن الصائغ . وقد عرفنا انه تدرج في وظائف الديوان ، حتى استوزره زيادة الله الأصغر .

ومن هذه الأسماء التي أتيح لها أن تبقى ، على بن حميد الوزير . فقد بقي لنا مقترناً بلقبه هذا في سياق الكلام عن بعض علماء ذلك العصر . ففي أخبار أسد بن الفرات ينقل المالكي ، في الفصل الذي عقده للكلام عن سبب ولايته القضاء ، عن « بعض المؤرخين، ان سبب ولايته القضاء ان على بن حميد لم يزل يتلطف بزيادة الله في عزل ابي محرز وولاية أسد ، وعظم عنده شأنه واشتهاره بالفقه والعلم . فأجابه الى ذلك . وأقر أبا محرز على القضاء ، وولى معه أسداً ، وذلك سنة أربع ومائتين» .

وإذا كان على بن حميد لم يقترن اسمه في هذا النص بلقب الوزير ، فأنا لا نلبث أن نراه مقترناً به بعد ، في سياق الكلام عن سحنون ـ

وسنعرض للحديث عنه إن شاء الله ـ وذلك في سياق الكلام عن موقفه من قضية خلق القرآن ، وموقف الأمير منه فيها ، واصداره الأمر الى عامله بالقيروان ان يعاقبه ، « فبلغ ذلك وزيره علي بن حميد . فأمر الوزير العامل ان يتوقف» . الى آخر هذا الخبر . كما نراه بعد ذلك مقترناً بلقب الوزير ايضاً في أخبار محمد بن سحنون .

وجملة هذه الأخبار تدلنا على أن علي بن حميد هذا كان رجلاً قوي الشخصية ، واسع الأفق ، بعيد النظر ، دقيق المسلك ، رفيع المكانة ، كبير التقدير للعلماء ، يبسط عليهم حمايته ، ويمنعهم مما كانوا يتعرضون له في مثل محنة خلق القرآن ـ وخاصة فيما بلغته في عهد محمد بن الأغلب ، رابع أمراء الأغالبة ـ وقد كان من الطبيعي ان يكون لعلي بن حميد هذا ندوته الأدبية ، تضم من يحفون به ويأنسون اليه من أهل العلم والأدب من الأفارقة والوافدين على أفريقية من المشرق والأندلس ، تدور فيها الأحاديث بين هؤلاء وأولئك ، ويتناظر فيها أهل السنة والمعتزلة في بعض مسائل الكلام ، كما يتطارح فيها الأدباء طرائف الأدب .

ذلك هو ما ينبغي افتراضه في مثل هذه الندوة ، وان لم يبق لنا مما يصور ألوان الحديث فيها إلا مثل هذا الخبر الذي يحكيه المالكي في سياق ترجمته لأبي عبد الله محمد بن سحنون والذي يصور لنا ـ إلى حد ما ـ وجهاً من وجوه هذه الندوة ، كما يعرض لنا ، في الوقت نفسه ، في حدود ما يعرض لرواية مثل هذه الأخبار ، صورة من الحياة العقلية ، ومثلاً من أمثلة الحوار الذي كان يصطنعه أهل السنة فيما كان بينهم وبين المعتزلة :

« وحضر محمد بن سحنون يوماً عند علي بن حميد الوزير . وكان علي يبغيه . وكان يجل محمداً ويعظمه . وكان في مجلسه جماعة ممن يحسنون المناظرة . واحضر معهم شيخاً قدم من المشرق ، يقال له أبو سليمان النحوي ، صاحب الكسائي الصغير . وكان يقول بخلق القرآن ،

ويذهب الى الاعتزال . فقال على بن حميد الوزير لمحمد : يا أبا عبد الله ، ان هذا الشيخ وصل الينا من المشرق ، وقد تناظر معه هؤلاء ، فناظره أنت . فقال محمد : تقول أيها الشيخ او تسمع ؟ فقال له الشيخ : قل يا بني . فقال محمد : أرأيت كل مخلوق هل يذل لخالقه ؟ فسكت الشيخ ، ولم يحر جواباً . ومضى وقت طويل ، وانحصر ولم يأت بشيء ، فقال له محمد : كم سنة أتت عليك أيها الشيخ ؟ فقال له : ثمانون سنة . فقال ابن سحنون للوزير ابن حميد : قد اختلف اهل العلم في الصلاة على الميت بعد سنة من موته (وفي نسخة إذا دفن ولم يصل عليه) . فقال بعضهم . يصلى عليه . واجمعوا انه إذا جاوز السنة لا يصلى عليه . وهذا الشيخ له ثمانون سنة ميت ، في عداد الموتى . فقد سقطت الصلاة عليه بإجماع . ثم قام . فسر بذلك على بن حميد وأهل المجلس . فسئل ابن سحنون ان يبين لهم معنى سؤاله هذا ، فقال : ان قال إن كل مخلوق يذل لخالقه فقد كفر ، لأنه جعل القرآن ذليلاً ، لأنه يذهب الى انه مخلوق . وقد قال الله عز وجل (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) ، وان قال إنه لا يذل ، فقد رجع الى مذهب اهل السنة ، لأنه لا يذهب في هذه الحالة الى انه مخلوق الذي هو صفه من صفاته» .

وواضح ان هذا الخبر قد سيق على هذه الصورة للدلالة على منقبة من مناقب محمد بن سحنون ، وهي قدرته على التصدي للمعتزلة ، ومهارته في اصطناع مثل هذا الأسلوب في افحامهم واظهارهم في مظهر الضعف والانقطاع والاستكانة . ولكنا انما نسوقه للدلالة على هذا اللون من ألوان مجلس علي بن حميد ، وهو المناظرة في مسائل الاعتزال ، وخاصة مسألة خلق القرآن ، وانه كان يضم جماعة ممن يحسنون المناظرة ، وان طوى عنا أسلوبهم فيها ، وما قالوه في جدال أبي سليمان النحوي قبل مقدم ابن سحنون ، وان أبا سليمان هذا يمثل عنصراً من عناصر هذا المجلس ، وهو عنصر الوافدين من المشرق . وهو ـ وإن لم

يكن من أهل الكلام ، فقد كان نحوياً كوفياً ، ولم يكن للكوفيين قدم في الكلام والمناظرة - وجد القوم يجبهونه بالمناظرة في خلق القرآن ، وقد لا يكون من أهل هذا الميدان ، كما وجد من ابن سحنون رجلاً سريع التقحم عليه ، لا يعبأ بشيخوخته ، بل يتخذ منها مقدمة الى الزراية به ، والمبالغة في التهجم عليه .

على أن وجود أبي سليمان النحوي هذا في مجلس علي بن حميد يشير الى أنه كان لهذا المجلس لون آخر غير هذا اللون ، ربما كان أشبه بصاحبه الذي نفترض أنه كان من أهل الثقافة الأدبية ، وهو اللون الأدبي ، بما يتضمنه من رواية الشعر والحديث عنه ، وطرائف الأدب والنقد ، ثم ما يمت الى ذلك ويتصل به من الثقافات الأخرى .

وفوق هذا فما نحسب ان مثل هذه الأندية الأدبية كانت مقصورة على من ذكرنا من امراء الأغالبة ووزارئهم . فأكبر الظن أنه كان لها مكانها في سائر دور السراة عامة ، وأنها كانت تعكس الوان النشاط الفكري والأدبي ، وأنه كان لكل منها لونه الغالب عليه . كما كانت تمثل احدى حلقات الاتصال في هذا المجال بين المشرق بشتى اقطاره والمغرب بمختلف أقاليمه .

وإلى هذه الندوات يمكن أن نضيف ندوة اخرى تختلف عنها ، هي ندوة بيت الحكمة الذي عرضنا له في الفصل السابق ، وأوردنا بعض ما قاله العلامة حسن حسني عبد الوهاب عنه في الفصل الذي تناوله فيه . وهو ، في ذلك الفصل ، يفترض أنه الى جانب ما وصفه به من أنه « اكبر مؤسسة وجدت قديماً في البلاد التونسية لدراسة العلوم الفلسفية والحسابية والفلكية والطبية وغيرها من الفنون الموصوفة والرياضية»، كان ملتقى العلماء والأدباء ، وان قاعاته شهدت مجالس الجدل والمناظرة التي نشطت في هذه الفترة ، بين اصحاب المذاهب المختلفة ، ونتمثل هذه القاعات مفروشة بأنواع من الحصر واللبود الجميلة ، من الصنع المحلى ، وتتخللها

طنافس (زرابى) مخصصة لجلوس وجوه المطالعين وكبار الباحثين ، كالمدرسين ورجال الدولة» .

مثل هذه الأندية الأدبية التي نحسب أنها كانت تمثل وجوه الحياة الأدبية وألوان نشاطها في أفريقية ، في القرن الثالث ، كانت بطبيعتها محدودة الرواد ، حتى ما كان منها مثل بيت الحكمة ، مقصوراً على طبقة معينة . وعلى قدر ذلك كان أثرها ومبلغ اصدائها ؛ وان كانت لها خصائصها التي قد لا تشاركها فيها المجالس العامة التي كانت تنعقد في المساجد .

أما هذه المجالس ، مجالس المسجد ، فقد كانت بطبيعتها مفتوحة للجميع ، متاحة لكل من يشاء ، يغشاها ويشارك في نشاطها كل من يأنس من نفسه القدرة على المشاركة . وهي مشاركة تتخذ صوراً مختلفة . فمن هذه المجالس مجالس درس يتحلق فيها الطلاب حول شيوخهم ، يتلقون علوم الدين واللغة والأدب ، ومنها مجالس مناظرة وجدل حول المسائل التي كانت تشغل عقول المفكرين ، ورأينا صورة منها في الحديث عن الأندية الأدبية والمجالس الخاصة .

وقد كان لأرباب الفرق الدينية وأصحاب المذاهب الكلامية المختلفة مجالسهم في المسجد . كما يدل على ذلك ما ذكره المالكي في الفصل الذي عقده في كتابه عن أبي سعيد ، سحنون بن سعيد اذ يقول : « وكان أول قاض فرق حلق أهل البدع من الجامع ، وشرد أهل الأهواء منه . وكانوا فيه حلقاً من الصفرية والاباضية والمعتزلة .

وكانوا فيه حلقاً يتناظرون فيه ، ويظهرون زيغهم ، وعزلهم ان يكونوا ائمة للناس - أو معلمين لصبيانهم أو مؤدبين . وأمرهم الا يجتمعوا» .

كانت المذاهب الكلامية المختلفة تتمثل اذن في المسجد ، وكانت حلقات الجدل والمناظرة بينها تتعقد في جنباته ، وان تبددت وضاعت

اخبارها بسيطرة مذهب اهل السنة وشخصيات رجاله من أمثال سحنون . بتشريدهم أهلها وتنفيرهم منها ، فلم يبق مما يدل عليها الا مثل هذه الإشارة تقال في التنويه به ، والإشادة بهذه المنقبة من مناقبه .

وفي المسجد أيضاً كان يتمثل الخلاف ، على صورة ما ، بين اصحاب المذهب المالكي او الحجازي وأصحاب المذهب الحنفي او العراقي . وليس الخلاف بين المذهبين أمراً كبير الخطر في ذاته ، ولكن من حيث أن احدهما هو مذهب الدولة والآخر هو مذهب جمهرة الشعب . ومن ذلك ظفر مذهب الدولة ، وهو المذهب العراقي ، بكثرة ملحوظة في عدد فقهائه ، كما يؤخذ من قول صاحب كتاب معالم الإيمان ، في خبر تولية سحنون القضاء ، وترشيح الفقهاء سليمان بن عمران : « وذلك ان أكثر الفقهاء اذ ذاك على رأي الكوفيين ، وكان سليمان يرى رأيهم» . وان كانت هذه الكثرة العددية في فقهاء الحنفية يقابلها عند المالكية قوة في الشخصية عند الكثير منهم ، ومنزلة علمية رفيعة ، وإيمان ثابت مكين ، ومكانة عالية عند جمهرة الناس : كالذي نراه من ذلك عند سحنون وابنه محمد وابن عبدوس ويحيى بن عمر وغيرهم من أئمتهم . وذلك الوضع المتكافىء على هذه الصورة بين الفريقين يجعلنا نفترض قيام المناظرة بينهما في هذه المسألة او تلك من مسائل الخلاف بين المذهبين ، في رحاب المسجد ، بمرأى ومسمع من عامة الناس .

وهذه المنزلة الرفيعة التي بلغها فقهاء المالكية كانت مما مكن لهم من مناصب القضاء ، وجعلت رجلاً كسليمان بن عمران يرشح للقضاء رجلاً مثل سحنون . على خلاف ما بينهما في المذهب . ويقول عند الأمير محمد بن الأغلب حين استشير في هذا الأمر : « ما ظننت أنه يشاورني في مثل سحنون . حججت فرأيت أهل مصر يتمنون أن يكون بين اظهرهم . وما يستحق أحد القضاء وسحنون حي» .

وإذ كان سحنون هذا يعتبر من أهم معالم الحياة الدينية والعقلية ، أو الحياة الأدبية بالمعنى العام لها ، في المغرب العربي في القرن الثالث ،

فإن التعريف به ، وبيان ملامح شخصيته ، وتاريخ حياته العلمية ، من أهم ما يجلو بعض هذه الحياة ، ويبين كثيراً من اتجاهاتها ، والتيارات السارية فيها .

وهو أبو سعيد ، سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي ، يجمل أبو العرب ابن تميم القيرواني صفته وسمات شخصيته ومنزلته في هذه العبارات ، كما جاءت في كتابه (طبقات علماء افريقية وتونس) ، وكما أوردها عنه المالكي ، في صدر ترجمته له في كتابه (رياض النفوس) :

« اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت في غيره : الفقه البارع ، والورع الصادق ، والصرامة في الحق ، والزهادة في الدنيا . والتخشن في الملبس والمطعم . والسماحة . كان ربما وصل اخوانه بالثلاثين ديناراً . وكان لا يقبل من احد شيئاً . سلطاناً أو غيره . ولم يكن يهاب سلطاناً في حق يقوله . سليم الصدر للمؤمنين . شديد على أهل البدع . انتشرت امامته بالمشرق والمغرب ، وسلم له الامامة أهل عصره ، واجمعوا كلهم على فضله وتقدمه» .

ونحن اذ نعد سحنون من أهل القرن الثالث ، وان ولد ونشأ في القرن الثاني . فإنما ذلك لأنه في القرن الثالث برزت ملامح شخصيته ، وعظم أثره في الحياة العلمية والإجتماعية . أما فترة القرن الثاني فهي الفترة التي اجتمعت له فيها عوامل تكون هذه الشخصية . كما نرى فيما يلي .

وقد ولد في سنة ١٦٠ ، وتلقى تعليمه ـ كما كان يتلقاه الصبيان والفتيان في عصره ـ في القيروان . وكان شيخ القيروان في ذلك الوقت البهلول بن راشد ، وقد سبقت الإشارة اليه . فسمع منه ، كما سمع من صاحبه ورفيقه في الرحلة الى المشرق والجلوس الى مالك ، عبد الله بن غانم . ولكنه كان ـ فيما يبدو ـ أوثق بالبهلول صلة ، وأشد له اكباراً ، وأعمق له وداً ، إذ كان يرى فيه المثل الأعلى لرجل العلم والدين ، كما كان البهلول يتوسم في تلميذه مخايل تنبىء عن شخصية قوية تنأى بصاحبها عن

الصغائر . ومن ذلك توثق ما بينهما ، وعلى قدر هذه الصلة كان أثر البهلول في تلميذه ، وفي تكوين شخصيته التي رأينا اظهر خطوطها في صفة أبي العرب التي أوردناها منذ قليل ، فهي وما يوصف به البهلول قدر مشترك :

على أن إعجاب سحنون بشيخه البهلول وشدة تعلقه به لم يقصراه عليه ولم يصرفاه عن غيره من ائمة عصره . فقد كان طموحه العلمي يغمر نفسه ، ويدفعه دائماً الى التماس المعرفة من كل سبيل يمكن أن تتاح له ، ومن ذلك أنه لم يقف في تلقي العلم عند حدود القيروان ، فقد جعل يتطلع الى مدينة تونس ، وقد اصبحت بشيخها على بن زياد مثابة من مثابات العلم ، فأزمع أن يمضي اليها ويجلس الى شيخها ، ولم يلبث أن أمضى نيته ، وأخذ مكانه في مجلسه . وقد أحسن علي بن زياد استقباله . وكان البهلول قد وجه اليه كتاباً في شأنه يقول فيه : « إني انما كتبت اليك في رجل يطلب العلم لله عز وجل». وحسبه ذلك شهادة له .

وكذلك لم يقتصر في تونس على علي بن زياد ، بل أخذ عن عالم آخر من علمائها ، وهو العباس بن اشرس ، احد الذين سمعوا من مالك ، وكان ـ فيما يصفه هو به ، بعد أن تلمذ له ـ حسن الضبط للعلم ، شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويبدو ان سحنون كان يتطلع الى لقائه والأخذ عنه ، منذ عرفه في مجلس شيخه البهلول . وكان قد قصده في القيروان ، في شأن نازلة نزلت به أراد أن يستفتيه فيها .

ثم كانت بعد هذه الرحلة العلمية الصغرى الى مدينة تونس رحلته الكبرى الى المشرق .

وما كان لسحنون ، وهو من هو طموحاً علمياً ونزوعاً دينياً قوياً ، أن يغفل هذه الرحلة . بل ان بعض المؤرخين يذهب الى أنه رحل الى المشرق مرتين : أما أولاهما فكانت سنة ١٧٨ ، وهو في الثامنة عشرة من عمره وانتهى فيها إلى مصر ، وعقد فيها صلته بفقيهها في ذلك الوقت، ابن القاسم . وكان أخص تلاميذ مالك بها . ويبدو انه آثره وجعله من خاصة تلاميذه . فكان يشهده جوابات مالك وهي ترد عليه . فكانت هذه

الجوابات تبعث في نفسه الوانا من التطلع ، وتطلق لسانه بعبارات التلهف على لقائه . فإذا قيل له : وما يمنعك من لقائه . قال : قلة الدراهم . ومازال مطوى النفس على الحسرة لعدم استطاعته تحقيق ما كان يتطلع اليه من لقاء مالك والتلقي عنه . فإن مالكاً لم يلبث ان ادركته الوفاة في السنة التالية ، سنة ١٧٩ .

وأما رحلته الأخرى فكانت بعد ذلك بعشر سنين ، وبعد موت شيخه البهلول بخمس سنين . وقد استأنف فيها صلاته التي بدأها في رحلته الأولى بعلماء مصر : ابن القاسم ، وابن وهب ، وابن عبد الحكم ، وسعيد بن الليث بن سعد . وأخذ مكانه الأثير لدى ابن القاسم ، فقرأ عليه (الأسدية) التي كان أسد بن الفرات تلقاها عنه ، والتي كان سحنون سمعها من أسد في أفريقية . وقد بدا لابن القاسم في مواضع منها وهو يقرؤها . فصححها على ما بدا له فيها . وبذلك اصبحت نسخة سحنون هي النسخة المعتبرة . وتماماً على هذا كتب ابن القاسم الى أسد بن الفرات كتاباً في شأن هذه النسخة ، يأمره فيه أن يرد مدونته على مدونة سحنون .

وكان ابن القاسم شيخ الفقهاء المصريين في وقته ، صحب مالكاً عشرين سنة . فكان بذلك اقوم تلاميذه بمذهبه وأصحهم بصراً به . وكان قوي الشخصية ، الى جانب منزلته العلمية . كان في مصر نظير البهلول في أفريقية ، وهكذا اتيح منه لسحنون أستاذ واسع العلم في القمة من علماء عصره يأخذ عنه بعد استاذه البهلول ، ومثل أعلى في قوة الخلق ويقظة الضمير العلمي ونفاذ الشخصية وصفاء الروح والتنزه عن معنويات الحياة الدنيا ، فكان بذلك كبير الأثر في حياته وتسديده في طريقه .

وهكذا كان مقام سحنون في مصر إلى أن حان موعد رحلة الحج ، وتهيأ القوم لها ، فخرجوا جميعاً : سحنون وابن القاسم وابنه موسى وأشهب وابن وهب . وقد أورد المالكي بعض حديث سحنون عن هذه الرحلة ، وقص في هذا الحديث بعض شأنهم فيها ، اذ يقول مثلاً : « لما

حججنا كنت أزامل ابن وهب ، وكنت في الشق الأيمن ، وكان اشهب يزامله يتيمة (؟)، وكان ابن القاسم يزامله ابنه موسى أبو هارون . فكنت اذا نزلت ذهبت الى ابن القاسم اسأله عن الكتب وأقرأ عليه الى وقت الرحيل . . وكنا نمشي بالنهار ونلقى المسائل ونحن مشاة». وكأن هذه الرحلة قد أتاحت لصلة سحنون بابن القاسم ان تزداد وثاقة ، كما أتاحت له ـ كما يبدو ذلك في بعض حديثه ـ ان يشهد صوراً من زهده وورعه . الى جانب ما كان يأخذ من علمه ومنهجه .

وما زال الركب ماضياً بسحنون حتى بلغ الحجاز ، فقضى في مكة مناسك الحج ، ثم فرغ للغاية الأخرى ، فاتصل بعلمائها ، يقرأ عليهم ويسمع منهم . كما اتاح له موسم الحج ان يتصل بكثير من علماء الأمصار الذين جمعهم الموسم ، فأخذ عنهم . فكان ممن لقيهم وسمع منهم في مكة من أئمة المحدثين سفيان بن عيينة ، وعبد الرحمن بن مهدى ، ووكيع بن الجراح ، وحفص بن غياث ، ويزيد بن هارون ، ويحى بن سليمان ، وأبو داود الطيالسي ، وأبو اسحاق الأزرق ، فإذا كان في المدينة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد اتيح له فيها ان يتصل بطائفة اخرى من العلماء ، سمع منهم وأخذ عنهم ، منهم عبد الله بن عبد الله بن نافع ، ومعين بن عيسى ، وأنس بن عياض وابن الماجشون ، والمغيرة بن عبد الرحمن ، ومطرف . ثم أخذ من بعد طريقه الى الشام ، فأخذ عن الوليد بن مسلم ، وايوب بن سويد .

ولم يذكر في ترجمته انه دخل العراق . وربما كان ذلك لأنها تمثل السلطان وليس هو من أهله . وحسبه من لقى في الحجاز من علمائها ، كوكيع ابن الجراح الكوفي ، وأبي داود الطيالسي البصري ويزيد بن هرون الواسطي ، وجعفر بن غياث النخعي ، قاضي بغداد الشرقية ، ثم قاضي الكوفة .

كانت رحلة علمية مباركة امتدت ثلاث سنوات حتى سنة ١٩١ . وهي السنة التي مات فيها استاذه ابن القاسم . فلم يعد الى افريقية هذا

العام حتى كانت مقومات شخصيته قد اكتملت ونضجت . وكان قد بلغ الثلاثين وتجاوزها . وبذلك تبدأ مرحلة جديدة في حياته ، امتدت خمسين عاماً .

رجع سحنون الى أفريقية يحمل النسخة الجديدة من مدونة ابن القاسم ، ويحمل كتاب ابن القاسم الذي أشرنا اليه الى أسد بن الفرات . ودفعه اليه وما كان به إلا أن يؤدى امانة العلم . قال المالكي في سياق ترجمة اسد يقص ما أثاره هذا الكتاب : « . . . فلما قرأه أراد أن يفعل ما أمره به من ذلك فشاور في ذلك جماعة من تلاميذه ، فقالوا له : لا تفعل ، فإنك تتضع عند لناس إن رددت كتبك على كتب سحنون ،ويسود بذلك عليك ، وترجع له تلميذاً ، وأنت قد أدركت مالكاً وأخذت عنه . ثم دخلت الكوفة وأخذت عن أبي يوسف ومحمد ابن الحسن . . ولم يقبل كتاب ابن القاسم في ذلك ، وتمسك بكتابه الأسدية ، ونشر مذاهب أهل العراق ، وتمسك سحنون بمدونته التي قدم بها . ونشرها وسمعها عليه أهل المغرب ، وانتشر ذكرها في الآفاق ، وعول الناس عليها ، وأعرضوا عن الأسدية ، وغلب عليها اسم سحنون» .

وهكذا بدأ سحنون حياته العلمية في أفريقية بعد عودته اليها ، شاباً في عنفوان شبابه ، بهذا الخلاف الذي أوشك أن يكون نوعاً من الخصومة بينه وبين أسد بن الفرات ، شيخ القيروان ، وقد انقسم الناس بين الرجلين اللذين كانا يمثلان الحياة الدينية في بعض وجوهها .أما سحنون فكان أقوم الناس بمذهب مالك ، وان لم يلقه . وأما أسد فكان مذهبه مزاجاً بين مذهب أهل المدينة ومذهب أهل العراق . أو هو ـ بعبارة أخرى ـ مزاج بين المذهب الرسمي ، مذهب السلطان ، ومذهب عامة الشعب . فكانت هذه الخصومة التي تمثل فيها سحنون في صورة المؤدى لمذهب مالك القيم عليه ، وان لم يرق ذلك للسلطان القائم ، مما مكن له ، الى جانب ما عرف به من ورع وزهد ، وما شاع عنه من تثبت في الحكم والفتيا، وما أخذ به نفسه من إعراض عن السلطان ، على الرغم من صغر سنه بإزاء

أسد الذي كان كهلاً في الخمسين من عمره .

ولعل الظفر الذي اتيح لسحنون في هذه الخصومة كان مما سدده في سبيله التي انتهجها ، وهي تعليم الناس العلم وتفقيههم في الدين ، فإنه لم يلبث أن اصبح مقصد طلاب العلم في أفريقية ، بل في المغرب كله ، متحرزاً من مداخلة السلطان ، متوقياً كل شبهة يمكن أن تعرض له ، ماضياً في ذلك أربعين عاماً أو ما فوقها ، منذ عاد من المشرق حتى سنة ٢٣٣ ، خالصاً للعلم والفتيا ، لا يكاد يخالطهما شيء من أعراض الدنيا .

وكان يلي القضاء في هذه الفترة احد رجال المذهب العراقي ، وهو عبد الله بن أبي الجواد ، وكان يدل بمكانته من السلطان ، ومصاهرته لأسد بن الفرات ، اذ كان زوج ابنته اسماء ، ولكنه كان ـ فيما يبدو ـ غير جدير بمنصبه . لم يستطع ان يظفر بثقة الناس به ورضاهم عنه ، وكانت ممارسته لوظيفته مثاراً للشكوى والتذمر وكان سحنون يصفه ـ فيما يحكى عنه ابن عذارى في (البيان المغرب) ـ بأنه « فرعون هذه الأمة وجبارها وظالمها » . وكأن الدولة احست بما يسببه بقاؤه في القضاء من اتساع الفجوة بينها وبين الشعب ، وما يمكن ان يترتب على ذلك ، وأن من الحكمة صرفه عن هذا المنصب واسناده الى غيره ، واستشارت في ذلك ، فكان سحنون هو المرشح له . وكان قد علت به إذ ذاك السن ، وبلغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً .

وكان من الطبيعي ان يعتذر سحنون الذي ظل حياته كلها بعيداً عن السلطان متجنباً له ، متحرراً من كل شبهة مداخلة له أو اتصال به . ولكن ابن الأغلب ظل يراجعه ويديره عن رأيه هذا عاماً كاملاً ، كان سحنون في خلاله يدير الأمر على وجوهه المختلفة ، موازناً بينها ، الى أن وجد ، أخيراً ، في نفسه الطمأنينة الى قبول ما عرض عليه ، ولكن بعد أن يستوثق لنفسه ، ويأخذ العهد المؤكد على الأمير أن يطلق يده ، حتى لا يحول شيء بينه وبين اجراء الحق الذي يقتضيه منصبه . فكان مما اشترطه عليه

وواجهه به ، على ما يحكيه ابنه محمد : « ابدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانهم ، فإن قبلهم ظلامات للناس وأموالاً لهم ، منذ زمان طويل،إذ لم يجترىء عليهم من كان قبلي» . فأقره ابن الأغلب وأجابه الى ذلك قائلاً : « نعم ، لا تبدأ الا بهم ، وأجر الحق على مفرق رأسي» .

ومع ذلك ، ومع ما يعرفه الناس عنه من شجاعة في ابداء الرأي ، وصرامة في الحكم ، وقوة في مغالبة السلطان ، فإن كثيراً منهم استقبلوا ولايته القضاء بالوجوم والكراهية ، كأنما كانوا يودون أن تبقى لهم هذه الصورة الرائعة من التأبي على السلطان والاستعلاء عليه ، يستمتعون بها . فإذا هو قبل ان يتعاون مع السلطان على نحو ما ، أو يستجيب له ، فجدير بذلك ان ينكر هذه الصورة ، ويحرمهم هذه المتعة . وها هو ذا رجل من أهل الاندلس المقيمين في أفريقية ، يواجهه بهذه العبارة الغليظة ، معبراً عن ذلك الشعور الذي جعل يسرى في قلوب كثير من الناس : « أنا لله وإنا اليه راجعون وددنا أنا رأيناك على اعواد نعشك ، ولم نرك في هذا المجلس قاعداً ! ». وها هو ذا أحد زهاد أفريقية ، عبد الرحيم بن عبد ربه الربعي ، يكتب اليه منكراً عليه أن يتحول من النظر في شؤون الآخرة الى النظر في شؤون الدنيا . فيجد سحنون لزاماً عليه إزاء ذلك أن تجيبه برسالة تبين وجهة نظره في ولاية القضاء ، يقول فيها :

« أما بعد ، فإني جاءني كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وإني أجيبك : لا حول ولا قوة في شيء من الأمور الا بالله تعالى ، عليه توكلت وإليه أنيب . فأما ما كتبت من انك عهدتني وشأن نفسي مهم عليّ : أعلم الخير وأؤدب عليه ، وأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة ، أؤدبهم على دنياهم . فلعمري ان من لم تصلح له دنياه فسدت له أخراه . وفي صلاح الدنيا ، إذا صح المطعم والمشرب ، صلاح الآخرة ، فكلا الأمرين متصل بالآخر . أؤدبهم في معاشهم ، وأدفع ظالمهم عن مظلومهم . وأخذهم الامور

من وجوهها أدب لآخرتهم ، لأن بصلاح تصلح لهم آخرتهم ، وبفساد الدنيا تفسد الآخرة .

حدثني ابن وهب ، ورفع سنده إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : نعم المطية الدنيا . فارتحلوها فإنها تبلغكم الآخرة . ولن تبلغ الدنيا الآخرة من عمل في الدنيا بغير الواجب من حق الله . وأما قولك : اني وليت أمر هذه الأمة ، فإني ، ولم أزل ، مبتلى ، ينفذ قولي في أشعار المسلمين وأبشارهم . حدثني ابن وهب أن عبد الله بن أبي جعفر قال : لن تزالوا بخير ما تعلمتم . فإذا احتيج اليكم فانظروا كيف تكونون . قال ابن أبي جعفر : فرأيت في المنام : إنما المفتى قاض يجوز قوله في أبشار الناس وأحوالهم . ومع ذلك فإني قد ابتليت ، فقدمت جبراً . فعليك بالدعاء لي . والسلام » .

وفي هذه الرسالة ، على ما داخل نصها هذا من اضطراب ، نرى ان سحنون حسم قضية القضاء وجواز ولايته ، وهي القضية التي ثار حولها الخلاف بين ابن غانم وابن فروخ في القرن الثاني . وكان مثار الخلاف منوطاً بعدالة الأمير وعدم عدالته ، على النحو الذي أشرنا اليه قبل فهو هنا لم ينظر اليها من هذه الزاوية ، ولا من الزاوية الضيقة التي كان العامة ينظرون اليها منها ، وإنما كان ينظر اليها من حيث أن القضاء ينبغي أن يكون وجهاً من وجوه الغاية التي هيأ نفسه لها منذ أخذ يطلب العلم « لوجه الله » ، وواجباً لا ينبغي لمثله أن يتنحى عنه بحجة أنه أمر من أمور الدنيا ، وقد أخلص نفسه لتعليم الناس أمور دينهم ، والعناية بما تصلح به آخرتهم ، فإن من لم تصلح له دنياه فسدت أخراه ، فكلا الأمرين متصل بالآخر ، كما هو نص كلامه في هذه الرسالة ، مما يذكرنا بما قاله الجاحظ من هذا القبيل ، وفي هذا الوقت ، في رسالة المعاد والمعاش ، اذ يذهب الى أن أصول امور التدبير في الدين والدنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في الدنيا ، وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط . وما دام قد اتخذ لنفسه

المواثيق التي تمكنه من إقامة حق الله ، وتدفع عنه ما قد يتعرض له من زلل ، فإن إقامة حدود الله أمر محتوم لا يجوز التنحي عنه . وقد كان يقوم به منذ أربعين سنة مفتياً ، فما له لا يؤديه قاضياً ، وهو واثق من نفسه ، مطمئن الى أن السلطان لا يملك أن يغير هذه النفس ، اذ لا سلطان له عليها .

وظل سحنون يتولى قضاء أفريقية الى أن وافاه اجله سنة ٢٤٠ ، أي أنه أمضى في منصبه هذا ست سنين ، استطاع فيها - فيما يروى لنا من اخباره - أن يرتفع بهذا المنصب الى الغاية المثلى ، ويحقق ما كان مرجواً له فيه . وقد امتحن ببعض النوازل المتصلة بالسلطان فلم يستطع شيء منها ولا ما أحاط بها أن يصرفه عن قول الحق والحكم به والإصرار على تنفيذه . ويرى قارىء اخباره صورة من ذلك فيما أورده المالكي والدباغ عن موقفه من ابن أبي الجواد ، ومن رجال بني الأغلب ، ومن أحد عمال الأغالبة ، وهو حاتم الجزرى فيما سمى بقضية سبى تونس ، الى غير ذلك مما كان سحنون حريصاً على أن يؤدى فيه حق وظيفته أتم أداء ، وأن يرضى فيه ضميره أكمل رضا . حتى ليذهب بعض المؤرخين الى أنه كان بيقظته فيما يراه من حقوق منصبه الأصل في نشوء الاحتساب والمحتسبة بأفريقية .

وكان من ذلك ما أشرنا اليه قبل في هذا الفصل من موقفه من مجالس المناظرة وحلقات الجدل التي كانت تنعقد في الجامع بين طوائف المتكلمين ، إذ رأى من حقه ومن واجبه أن يمنع هذه المجالس ويشرد أصحابها ، باعتبارهم عنده من أهل الأهواء والزيغ والبدع . وأيا كان الرأي في هذا الصنيع فلا ريب أنه صدر فيه عن اقتناع به وإيمان بضرورته ، وأنه كان يرى في ذلك ، مخلصاً في ذلك الرأي ، أداء لواجبه في منصب القضاء .

وقد تكونت بسحنون ، وتلك هي شخصيته القوية الغلابة ، مدرسة

تنتسب اليه ، وتحاول ان تتخذ سمته وتسلك طريقه . وكان على رأس هذه المدرسة ابنه محمد ، وأبو عبدالله محمد بن عبدوس ، وأبو العباس عبدالله بن طالب ، ويحيى بن عمر الأندلسي ، ولكن سحنون كان ـ فيما يبدو ـ أمة وحده . كان يسيطر بقوة شخصيته ووثاقة تكوينه وصدق يقينه على الحياة الدينية والعلمية في أفريقية سيطرة مطلقة وقد كانت ولايته القضاء ومسلكه فيه من مظاهر هذه السيطرة ، على الرغم من أن الدولة القائمة كانت عراقية المذهب ، أو هي إلى مذهب العراقيين أكثر ميلاً . فما إن قضى نحبه حتى انتشرت بعض الشيء هذه العقدة الوثيقة التي كان أوثقها وأحكم ايثاقها ، وأخذت الأمور تتشعث بعد اجتماع .

وكان أول ذلك أن عاد القضاء الى أصحاب المذهب العراقي ، وان حدث هذا التحول في رفق فقد كان الذي ولى القضاء بعد سحنون سليمان ابن عمران ، وكان أقرب العراقيين اليه في حياته وأكثرهم مودة له ، حتى إنه ولاه الكتابة له ، ثم جعله على قضاء باجة .

على انه لم يكد يلي منصبه حتى استعلنت الخصومة التي ظلت زمناً راكدة بين المالكيين والعراقيين ، يقودها هو من جانب العراقيين ، ويؤازره فيها عبد الله بن أبي الحواجب صاحب الصلاة والخطبة . كما كان يقودها من الجانب الآخر محمد بن سحنون . وقد فسد ما بينه وبين سليمان بن عمران .

ثم كان من مظاهر انتقاض العقدة التي كان سحنون أوثقها أن ظل الأمر ، فترة غير قصيرة ، مضطرباً بين الفريقين ، وظل القصر حائراً بين هؤلاء وأولئك : ينظر بعينه مرة الى قوة الرأي العام ، ومرة إلى مذهب الدولة في بغداد ، فيكل القضاء الى المالكية حيناً ، وحيناً الى الحنفية .

فلم يستمر القضاء لسليمان بن عمران الذي يمثل المذهب الرسمي ، على رفقه واعتداله ، فقد نحى عنه بعد فترة من الزمن ، ليليه

احد رجال المذهب المالكي ، أبو العباس عبد الله بن احمد بن طالب التميمي ، سنة ٢٥٧ . ولكنه ما لبث ان عزل عنه بعد عامين من ولايته ، ليعود الى سليمان بن عمران مرة أخرى ، ويظل متولياً له إلى أن تقعده الشيخوخة وتدعو الضرورة الى قاض غيره ، فيتجه الرأي العام الى ابن طالب ، فيرجع الى القضاء الى أن يعزل عنه بأبي العباس أحمد بن عبد الله بن عبدون ، أحد رجال المذهب العراقي . وكان عهده ، فيما يقال ، من العهود المذكورة التي امتحن فيها المالكيون وأوذوا بسبب مذهبهم .

ولعل اول ما يعنى المؤرخ الأدبي بملاحظته واستخلاصه من ذلك هو ما لهذه المجاذبة والمغالبة بين المذهبين من أثر في اتجاهات الخصومة بينهما وأحسب أنه كان من ذلك اتخاذ هذه الخصومة صورة عقلية ، تتمثل في الحوار والجدل ، الى جانب ما كان من تأثير دخول الاعتزال افريقية ، والمناظرة أخص سماته . فقد كان من هذا وذلك أن فرضت المناظرة نفسها على الفريقين ، فأصبحت من الألوان المعروفة في مجالسهما ، واستطاعت ان تخرج الحجازيين من عزلتهم ، وأن تعدل بهم عما كانوا يرونه من كراهية الجدل ، فتحملهم عليه ، وتأخذهم بالتمرس به واصطناعه ، كما نعرف ذلك في رجل مثل محمد بن سحنون ، وقد أشرنا من قبل الى شيء من أمره فيه ، وفيما كتبه عنه المالكي ما يدل على اشتهاره به . وكذلك كان ابن طالب التميمي الذي عرضنا لذكره . فقد حكى المالكي في (رياض النفوس) والدباغ في (معالم الايمان) عن محمد بن الحارث انه قال في (تاريخ الأفارقة) وغيره من كتبه : « كان ابن طالب لقنا فطينا جيد النظر . يتكلم في الفقه فيحسن ، حريصاً على المناظرة ، يجمع في مجلسه المختلفين في الفقه ويغرى بينهم لتظهر الفائدة ، ويبيتهم عند نفسه ويسامرهم» . ومثل هذا ما نقله الدكتور حسين مؤنس عن طبقات علماء افريقية لمحمد بن الحارث ، فيما جعله ذيلاً للجزء الأول من رياض النفوس . وقد جاء فيه ان له كتباً يرد فيها على الشافعي لا بأس بها .

ويدلنا هذا على أن الجدل المذهبي لم يقف عند حد المناظرة في

المجالس . بل اتخذ ، فوق ذلك من تأليف الكتب مجالاً له ، كما لم يقف عند حد الخصومة بين المالكيين والعراقيين ، بل مضى الى ما وراء ذلك ، حتى إنه ليعرض لمثل الشافعي ، ولم يدخل مذهبه ـ فيما يبدو لنا ـ معترك الخصومة في أفريقية .

ومن ذلك ظهر في أفريقية ، في هذه الفترة ، من علماء المالكية ، من جعل الجدل وكده فكان اغلب عليه ، ومهر في تأليف الكتب مطبوعة بطابعه . كأبي عثمان ، سعيد بن محمد الغساني القيرواني . وقد عرف به القفطى في كتابه (الإنباه) ، فقال فيما قاله عنه : « كان استاذا في كل فن ، عالماً بالعربية واللغة والجدل ، وكان الجدل اغلب الفنون عليه» ، كما ذكر له طائفة من الكتب منها « كتاب المقالات ، رد فيه على المذاهب اجمعين» ، ثم قال في عقب ذلك : « إلى كتب كثيرة جملتها في الاحتجاج على الملحدين . وله مع أبى عبد الله المعلم مسائل برز فيها ، وظهرت حجته فيها ، ثم أملاها سعيد على أصحابه وسماها : المجالس» .

ومن مظاهر حالة التفكك التي نشأت بعد موت سحنون أن نشبت بين تلاميذه خصومة صاروا بها حزبين وانقسموا الى فريقين : محمدية وهم شيعة محمد بن سحنون ، وعبدوسية ، وهم شيعة أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن عبدوس. وكان الاثنان ، ابن سحنون وابن عبدوس ـ فيما يقولون ـ أفقه تلاميذ سحنون وأخصهم به .

وربما كانت المنافسة على خلافة سحنون هي مبعث هذه الخصومة . ولكن لم يبلغنا من أمرها ما يأذن لنا أن نقطع بشيء في منشئها . وكل ما بلغنا ان الخلاف بين الفريقين تمادى حول مسائل من الكلام، متعلقة بالإيمان . والإيمان ـ كما نعرف ـ هو المحور الذي دار حوله مذهب المرجئة ، وتشعبت منه مسائل كانت مثار جدل بينهم وبين سائر المتكلمين من معتزلة وشيعة وخوارج . ولكن المسألة التي نشب حولها الخلاف بين المحمدية والعبدوسية ليست من المسائل التي اشتهر الخلاف فيها بين

المرجئة وخصومهم ، فيما يبلغه علمنا . وقد بين ابن ناجي هذه المسألة بقوله في (معالم الإيمان) :

« المسألة المشار اليها هي : هل يجوز أن يقول : أنا مؤمن ، أو لا بد من زيادة : ان شاء الله ؟ فقال ابن سحنون ومن قال بقوله بالأول ، وقال ابن عبدوس ومن قال بقوله بالثاني» .

ولعل مما يزيد هذه المسألة وضوحاً ، كما يبين الى جانب ذلك المدى الذي تمادى اليه الخلاف حولها هذا الخبر الذي يحكيه المالكي عن أبي الحسن القابسي ، ان ابن عبدوس « أتاه رجل في الوقت الذي اختلف فيه أصحاب سحنون في الإيمان ، فضرب عليه باب داره ، فخرج اليه ، فقال له : ما مذهبك في الإيمان ؟ فقال له : أنا مؤمن . فقال له : عند الله ؟ فقال : قد قلت لك إني مؤمن ، فأما مؤمن عند الله فلا أقطع لنفسي بذلك لأني لا أدري بم يختم لي . فبصق الرجل في وجه محمد بن عبدوس» .

ولكن هل وقف الخلاف حول هذه المسألة عند هذا الحد ، وانحصر في هذه الصورة العامية السخيفة ؟ إذا لم يكن بين أيدينا غير ذلك فأنا لا نحسب ان مثل المالكي وابن ناجي كان يعنيه أن يورد الوجوه العقلية التي اتخذتها مثل هذه الخصومة ، وصورة الجدل الكلامي الذي يمكن أن يكون قد دار حولها ، على نحو ما كان يدور بين المرجئة وأصحاب المذاهب الأخرى ، فلم يكن شيء من ذلك من منهجه في تأليفه ، كما نحسب ان الجو السائد اذ ذاك لم يكن يأذن به .

وأكبر الظن عندنا أن هذه الخصومة الجديدة التي نشبت في صفوف المالكية ، وفيهم أمثال محمد بن سحنون من أهل المناظرة والجدل ، والتي لقب فيها العبدوسية بالشكوكية ، كانت مبعث جدل ومثار حوار ، وان لم يبلغنا ، لما ذكرنا ، شيء منه ، وإنها كانت تمثل وجهاً من وجوه الحيوية التي جعلت في هذه الفترة تتغلغل في صفوف المالكية ، وكانت تسود الحياة العقلية عامة في أفريقية في ذلك الوقت ، وان درست آثارها وانبهمت معالمها .

القسم الثاني

المغرب العربي في العصر الحديث

صفحة مطوية في حياة بيرم التونسي

كتبت هذه الدراسة بمناسبة الذكرى
الخامسة عشرة لوفاته (١٥ يناير ١٩٦١)

أنفق بيرم نحواً من تسعة عشر عاماً بعيداً عن مصر ، فيما بين ١٧ اغسطس سنة ١٩١٩ (تاريخ رحيله عن مصر الى المنفى)[١] ، و ٦ مايو سنة ١٩٣٨ (تاريخ عودته اليها للإقامة بها ، فيما عدا بضعة اشهر استطاع ان يحياها فيها ، متسللاً اليها . وقد أنفق اكثر من ربع هذه المدة في تونس ، فيما بين أول يناير سنة ١٩٣٢ ، او أواخر ديسمبر قبله ، و١٧ ابريل سنة ١٩٣٧) .

ومع طول هذه الفترة التي جاوزت خمس سنين ، والتي لا يمكن الا ان تكون فترة متميزة ، تختلف اختلافاً كبيراً ، عن سائر مدة المنفى ، فإن احداً من كتابنا الذين يؤرخون للأدب الحديث عامة ، وأدب بيرم خاصة ، لم يعن ـ فيما أعلم ـ بها العناية التي تستحقها . ومن عرض لها منهم فإنما يمر بها مروراً عابراً . وربما توقف قليلاً ليشير إشارة خاطفة الى أنه أنشأ بها هذه القصيدة او ذلك الزجل ، أو انه أصدر بها صحيفة حقق بها حلمه .

---

(١) هذا هو التاريخ الذي تثبته مذكرات المنفى لبيرم ، وان اختلف عما ذكره اكثر الذين كتبوا عنه ؛ إذ جعلوا رحيله في سنة ١٩٢٠ . أما الأستاذ محمد كامل البنا فقد جعله ، في العدد الخاص الذي أصدرته مجلة الأدب عن « أديب الشعب » ؛ سنة ١٩١٩ في يوم عيد الأضحى .

أما متى بدأت هذه المرحلة وكيف بدأت ، ومتى انتهت وما ملابسات انتهائها ، وماذا كانت صور نشاط بيرم فيها ، وما مدى تجاوبه مع الحياة التونسية خلالها ، الى غير ذلك مما يمكن أن يعرض منها صورة حية واضحة ، فلا شيء ، إلا بعض الرجم بالغيب ، كأن يقال أن السلطات الفرنسية قامت بترحيله الى تونس حين اشتدت ازمة البطالة في فرنسا سنة ١٩٣٢ ، فلبث فيها حتى سنة ١٩٣٦ ، دون سند أو دليل .

وهكذا مضت هذه المرحلة من حياة بيرم كأن لم تكن ، وان ظفرت بعناية بعض مؤرخي الأدب التونسي ، كالذي صنعه الأستاذ محمد صالح الجابري في كتابه الذي أصدره سنة **١٩٧٤** عن الشعر التونسي المعاصر ، فيما بين سنتي ١٨٧٠ و ١٩٧٠ ، حين خص بيرم بفصل جيد من هذا الكتاب . ومن قبل ، سنة **١٩٦٢** ، صدر عن تونس كتاب « **مذكرات المنفى** » ، وهو جملة الفصول التي كتبها بيرم عن بعض صور حياته في منفاه ، ونشرها في جريدة الزمان وجريدة الشباب أثناء إقامته في تونس . وقد وعد الناشر في تقديمه له أن « **سوف يلي هذا الكتاب تآليف أخرى للمرحوم بيرم ما تزال مجهولة لدى عامة القراء** ». ولست أعلم ان شيئاً من هذا الوعد الذي مضى عليه ثلاثة عشر عاماً قد تحقق .

ومهما يكن من أثر ذلك الفصل الذي كتبه الأستاذ صالح الجابري ، وألقى به كثيراً من الضوء على حياة بيرم في هذه الفترة ، فإنه لا يعفينا من متابعة هذه الدراسة متابعة جادة مصممة ، والتماس أسبابها ووسائلها . وأول ذلك أن نمضي في السبيل التي بدأت بنشر « مذكرات المنفى » ، فنتعقب آثار بيرم المختلفة في الصحيفتين اللتين كان يتولى تحريرهما في تونس ، وهما : الزمان والشباب ، وفي الصحف الأخرى التي شارك في تحريرها ، كالسرور والسردوك . ولم يعد من العسير أن تصور هذه الصحف في (ميكروفيلم) يؤدى لنا منها صورة كاملة تستجيب لحاجة الباحث . كما ينبغي أن نتعقب آثاره الأخرى التي صدرت عنه في هذه الفترة ، ونشرت في بعض

المجلات المصرية ، كمجلة ابولو ومجلة الإمام .

وحبذا لو استطعنا ـ الى جانب ذلك ـ أن نلتمس عند بعض معاصريه الذين صحبوه أو شاركوه نشاطه في هذه الفترة ما يحتفظون به عنه من ذكريات او مذكرات . ومنهم ـ فيما اذكر ـ الأستاذ الجليل الهادي العبيدي ، رئيس تحرير جريدة الصباح التونسية ، والأستاذ الشاعر محمد المرزوقي المشرف على جمع التراث الشعبي التونسي ودرسه ، في وزارة الثقافة التونسية .

وأنا أرجو ألا تذهب هذه الدعوة ادراج الرياح ، كما أخشى ان يكون ذلك نصيب الدعوات الملحة المتلاحقة منذ وفاة بيرم لجمع تراثه وتحقيقه وإلقاء الضوء عليه . وان كان الأمل مازال يغالب الخشية .

كما أرجو أن يكون في هذه الدراسة التي احاولها عن هذه المرحلة . لأقضي بها شيئاً من حق بيرم وحق القارىء المصري ، وحق التاريخ الأدبي علينا ، ما يحفز المسئولين الى تحقيق ذلك الرجاء .

كان بيرم يعاني في فرنسا ألواناً من الشدائد : كان يعاني الحنين الطاغي الى وطنه ومراتع صباه وشبابه التي كان يعيش فيها بخياله الخصب وبشاعريته الطيعة ؛ وكان يعاني الحنين الى الحياة الأدبية متمثلة في الصحافة . وكان يستجيب لهذا الحنين بمشاركاته في تحرير بعض الصحف المصرية ، كالشباب والفنون . ولكن هذه المشاركة على البعد كانت عرضة لأن تتقطع بها السبل دون غايتها : ثم كان مع هذا يعاني حياة كادحة قاسية مريرة لا علاقة بينها وبين ما يتمتع به من مواهب عقلية وأدبية ، مع معاناة الإحساس باستغلال اصحاب هذه الصحف له ، واغتنامهم فرصة بعده وحرج مركزه .

وكان له من أهل تونس في فرنسا اصدقاء يستروح اليهم ويأنس بهم ، ويبثهم بعض همومه . وكان من بينهم صديق له اسمه محمد بدره رأى أن

مكانه الجدير في تونس ، حيث يستطيع أن يشارك في اثراء حياتها الأدبية ، ومعاضدة كفاحها الوطني . فمازال به يغريه أن يترك فرنسا الى تونس ، موطن اجداده ، ففيها تجد مواهبه المنطلق الذي تنطلق اليه ، والحياة التي تلائمها ، كما تجد تونس فيه احد أبنائها عائداً اليها ، يشارك فيما تبذل من جهد لتحقيق مكانها وتأكيد شخصيتها .

وما أحسب ان بيرم كان في حاجة الى كبير جهد حتى يقتنع بالتوجه الى تونس ، واتخاذها مقاماً له ، حتى يقضي الله أمراً بالعودة الى مصر . فقد ضاق أشد الضيق بهذه الحياة الكادحة في فرنسا ، وهذا الإحساس بالغربة الذي لم يفارقه يوماً . فهو - لا ريب - واجد في تونس أهله الذين تربطه بهم وشائج الدم واللغة والمشاعر ، وهو واجد هناك - كما كان يحدثه محمد بدره - الصحافة ، هواه الأول ، يصرف فيها نشاطه ، ويبرز فيها مواهبه ، ويشارك بها في مناهضة الاستعمار وربائبه ، وإذكاء الروح الوطنية في قلوب المواطنين .

وربما مثلت في خياله صورة نزوله بها أول مرة ، منذ نحو عشرة أعوام ، وقد وجد نفسه اذذاك مغموراً لا أحد يأبه له ، ووجد الشعب التونسي وقد غلب على أمره ، فأصبح في حالة أقرب الى الاستكانة والخضوع ، لقد كانت السياسة الاستعمارية المرسومة من عهد بعيد ، والرامية الى طمس الشخصية التونسية ، قد أثمرت ثمرتها ، وكانت سنو الحرب وما انتهت اليه من أهم عوامل نجاحها ، حتى لقد زينت بعض الأحزاب التي قامت في تونس اذذاك ، كالحزب الاصلاحي والحزب الاشتراكي ، تلك السياسة الاستعمارية القائمة على دمج تونس في فرنسا ، فلا جرم ان كانت الصورة التي مثلت في خياله عن زيارته تلك لتونس ، صورة تثير الكراهية والنفرة . وربما ردد في نفسه ما قاله عن تلك الزورة :

والمغربي المسلم راخر أبو زر فاشوك
لما انتقدته فزع ، قال لي : يلعن دين ابوك
وأنا اللي قصدي أشوف قيده اصبح مفكوك

لقيتـــه فـــرحـــان بـــه راضي طـــيـــب ، مـــبـــروك

ولكنه لم يعبأ بهذه الصورة وتلك الخواطر ، فإن تونس التي عرفها في بعض الشباب التونسي في فرنسا تختلف كثيراً عن هذه الصورة .

وهكذا استجاب للرغبة التي ابداها له صديقه الأستاذ محمد بدره ، وأبحر معه إلى تونس . ولعل ذلك كان أثناء أعياد الميلاد ورأس السنة ، في ملتقى سنتي ٣١ و٣٢ . ولم يكد يبلغها حتى بدت له في صورة مختلفة اختلافاً كبيراً عن تلك الصورة التي كانت ماثلة في خياله منذ عشرة أعوام . ها هو ذا بين شباب متفتح متوثب ، يستقبله أحسن استقبال ، ويحتفي به أكرم حفاوة ، معتزاً بوطنه ، كبير الرجاء في مستقبله ، فإذا جال بين ربوعها وتنقل بين معاهدها ، مثلت له في صورة مشرقة عبر عنها في مقال نشره بعد ذلك بعام ، بعنوان (الشمائل التونسية في نظر الغريب) بمثل قوله :

« وديعة ، تستقبل الداخل اليها بمبانيها البيضاء المنخفضة التي تلوح من بعيد كأنها عقود اللؤلؤ المتناثرة ، ترصعها شبابيكها الخضراء كفصوص الزمرد ، والتي تشعر الزائر ، في شوارعها الضيقة ، تحت الأقبية المعقودة ، والأقواس المتعانقة ، بأريحية وقوة تجذبه الى أن يضل ويضيع في هذه الشوارع » .

وها هوذا منذ اليوم الأول قد أخذ مكانه في الحياة التونسية ، وبدا له هواه الغالب عليه وقد تحقق في أكرم صوره . « فمنذ اليوم الأول الذي نزل فيه بيرم تونس . . انتدبه محمد شفيق (من رؤساء الوزارات السابقين) الذي كان من وراء عملية اجتلابه . لتولي منصب رئيس تحرير مجلة الزمان » ، كما يقول الأستاذ الجابري .

وها هو ذا صديقه محمد بدره يقدمه إلى القراء في فصل نشرته جريدة الزمان في الثاني من شهر يناير يقول فيه :

« يعود الأستاذ محمود بيرم إلى بلده الذي ينتسب إليه . والذي خرج منه جده إلى مصر . وتونس اليوم تسترد من شقيقتها ابنها الذي أعارته اياها عمراً كاملاً ، وتشكر لها حضانته وإنماءه على أرضها وتحت سمائها ، ثم ردته إليها صحفياً بارعاً ومؤلفاً قديراً . وما أحوج صاحبي الجلالة : الصحافة والمسرح ، الى مثله :

وقد اجتمع السيد بكثير من أدباء تونس ، وزار عدة صحف تونسية ، ومعاهد التمثيل ، وكان موضع الإكرام والحفاوة في كل مكان ، حيث ظهر فضله اضعاف ما سبق إلى الأسماع . وتونس اليوم بأسرها ترحب بمقدم الأستاذ . والزمان ، في مقدمتها ، يفخر بأن يكون ميداناً لكتاباته من اليوم ، ويقدم له أسمى عبارات الترحيب » .

لا ريب أن بيرم طاب نفساً بذلك كله ، وأقبل على ما وكل اليه من المشاركة في تحرير الزمان ، منشرح الصدر ، قوي العزيمة ، حتى « أصبح بعد ذلك رئيس تحريرها المباشر(١) ومحررها الوحيد ، يكتب افتتاحيتها وصحيفة أدبها ، وأيضاً اعلاناتها ، بأسلوبه الذكي في خلق المرح واغتصاب الابتسامة ». كما يقول الأستاذ الجابري :

ولعل ما وكل اليه من ذلك كان من وراء اغرائه بالانتقال الى تونس واتخاذها مقاماً له ، بل كان من عناصر هذا الإغراء وأسباب نجاحه ، فقد كانت الصحافة هواه الأول ، منذ أن كان شاباً في العشرين ، يبعث بقصائده وأزجاله إلى بعض صحف الاسكندرية ، كجريدة الأهالي وجريدة الأفكار ، إلى أن أسندت اليه إدارة صحيفة النجاح بالإسكندرية . ثم أنشأ نشرته التي سماها (المسلة)، ومن بعدها (**الخازوق**) . حتى إذا استقر في المنفى كان ـ على الرغم من حياة الكدح والحرمان التي يحياها ـ لا يفتأ

---

(٢) يقول الأستاذ أبو القاسم كرو ، في كتابه عن « عبد الرازق كرباكة » انه التحق بجريدة الزمان سنة ١٩٣٢ رئيسا لتحريرها ، فهل يعني هذا ؛ مع ما يذكره الأستاذ الجابري ؛ أن بيرم تولى رياسة تحرير الزمان بعد أن تخلى عنها عبد الرازق كرباكه في السنة نفسها ؟

يراسل هذه المجلة او تلك في مصر ، كالشباب والفنون والأيام ، بل كان يتولى تحرير بعضها من ألفها إلى يائها . دون أن يجد من وراء ذلك ما يكفيه الحياة الكادحة . ويكف عنه عادية الحرمان .

فلا جرم تفتحت نفسه حين فوتح في أمر تحرير الزمان ، وتطلعت إلى أن تحقق ما كان يراوده ويتشوف اليه دون أن يملك الوسيلة له . وبذلك احتشدت جميع قواه لهذه الصحيفة ، وخاصة بعد أن أصبح رئيس تحريرها . حتى أصبحت من الصحف المذكورة بعد أن كانت ـ فيما قد يظن ـ من نكراتها أو مغموراتها . وإن كنا نرى ـ مع ذلك ـ أن ما أصابه الشعور القومي من نشاط في تلك السنة خاصة كان من عوامل هذه المنزلة التي تبوأتها هذه الصحيفة في الحياة التونسية ، السياسية والأدبية .

فقد كان ذلك العام ، عام ١٩٣٢ ، عاماً حافلاً بالمناسبات القومية والاحتفالات التي نظمت للإشادة بها ، كالاحتفال بمرور احد عشر قرناً على وفاة المؤرخ القيرواني الكبير أبي العرب تميم ، في شهر فبراير من ذلك العام ، وبمرور ثلاثة عشر قرناً على تأسيس القيروان ، في الشهر التالي ، شهر مارس ، والاحتفال بمرور ستة قرون على مولد ابن خلدون ، في شهري ابريل ومايو ، والاحتفال بتأبين شاعر النيل حافظ ابراهيم ، في شهر اكتوبر ، وتأبين أمير الشعراء شوقي في شهر نوفمبر .

ومع أنه لم يتح لنا أن نعرف مدى مشاركة الزمان ، صحيفة بيرم ، في ذلك النشاط ، فإما لا نكاد نشك في أنه من العوامل التي مكنت لها من أن تأخذ مكانها في الصحافة الأدبية التونسية ، إلى جانب مجلة (**العالم الأدبي**) التي أصدرها سنة ١٩٣٠ ، باسم (العالم)، الأستاذ زين الدين السنوسي ، والتي كانت ـ كما يقول العلامة الجليل الفاضل ابن عاشور ، رحمه الله ـ « رائد النهضة الفكرية ، وسجل التطور الأدبي» .

لقد كان كل من « **العالم الأدبي** » و « **الزمان** » لسان حركة التجديد في تونس ، إلى أن انفرج ما بينهما كما نذكر بعد . وبهذا الاعتبار يقع في

تقديرنا أن المعركة التي نشبت حول كتاب الطاهر الحداد : (**امرأتنا في الشريعة والمجتمع**)، والتي يذكر الأستاذ الفاضل بن عاشور ، في كتابه : (**الحركة الفكرية والأدبية في تونس**) أن أنصاره التفوا حول مجلة العالم الأدبي والزمان ، كانت في مرحلتها هذه في ذلك الوقت .

وكان ظهور هذا الكتاب الذي خاضت (الزمان) معركته قد أثار ـ كما يقول الأستاذ الفاضل ـ « حركة كبرى بين علماء جامع الزيتونة الأعظم ، وسعت النظارة العلمية لدى الحكومة في مصادرته ، فلم يتم ذلك . وشكلت النظارة لجنة من كبار العلماء لتقرير رأيها في الكتاب ، فنظرت فيه ، وقدمت تقريراً في بيان مآخذه ، انبني عليه سحب شهادة الطاهر الحداد الزيتونية منه ، وحرمانه من خصائصها ، وكتب رجال من علماء الدين تآليف في الرد عليه ، منها كتاب (الحداد على امرأة الحداد) ، للشيخ محمد صالح بن مراد . . وأراد أنصـار دعوة التجديد المتطرفة تحدي هذا العمل ، وإظهار ذاتياتهم ، فأقاموا حفلة لتكريم الطاهر الحداد . . فكان حديث هذا الكتاب والتشنيع على مؤلفه ملء الصحف وشغل الأفكار . . وتميزت المواقف جلية في هذه المعركة ، فالتف مؤيدو الحداد حول مجلتي العالم الأدبي والزمان ، وظهرت وحدة مهاجميه في جريدة الزهرة وجريدة مرشد الأمة وجريدة النديم » .

فقد كانت الزمان إذن ، رفيقة مجلة العالم الأبي في الدعوة الى التجديد ، وفي خوض معاركه ؛ كما كان بيرم رفيقاً لكثير من كتاب العالم الأدبي وأدبائه ، كأبي القاسم الشابي ، وعلى الدوعاجي ، ومصطفى خريف ، ومحمد الحليوى ، والهادي العبيدي ، في ندوة شيخ الأدباء الشيخ العربي الكبادى . ولكن الأمر لم يلبث ، في هذا العام الأول لجريدة الزمان في عهد بيرم ، أن انفرج بينهما ، كما قلت .

وكان أول ذلك حين ثارت في الحياة الأدبية التونسية قضية (إمارة **الشعر**)، فقد كان لشعراء تونس أمير ، كما كان شوقي في مصر ، وهو محمد الشاذلي الخزنه دار . سمته الصحف بذلك « تشبيهاً لموقفه بين

الملك والحزب (أي الحزب الحر الدستوري الذي أنشأه الشيخ عبد العزيز الثعالبي في أعقاب الحرب العالمية الأولى) بموقف شوقي بين الخديو عباس والحزب الوطني »، كما يقول الأستاذ الفاضل بن عاشور ، في الفصل الذي كتبه عنه في كتابه (تراجم الأعلام). ويقول في هذا الفصل : « ولما قوي الضغط على الحركة السياسية ، وانتقلت القيادة عن المنظمة السياسية التي كان ينتسب اليها ، ضعف مقدار نتاجه الشعري ، وانفصلت عنه الروح الخطابية التي كانت تمهد له مسالك القبول الشعبي ، فانصرفت أغراض شعره الى الناحية المجردة ، وتعمقت في صميم الحكمة الدينية » .

وعن هذا الوضع نشأت قضية (إمارة الشعر) إذ لم يعد خزنه دار الـذي وليـها بفضـل شعـره الوطني والسياسي جديراً بها ، وإذن فلا بد ، حفاظاً على هذه المرتبة ، من التماس غيره ، يشغل مكانه الذي شغر ، ويحمل لقبه الذي نزع منه . ومن لذلك يتولاه غير كبرى المجلات الأدبية التي كانت أول من أثار الحديث عن هذه القضية ، والتي كانت مثابة لصفوة الشعراء ، ومنطلقاً لهم .

وهكذا أخذت مجلة العالم الأدبي لهذا الأمر أهبته ، وأعدت له عدته ، فطبعت قوائم الاستفتاء ، وجعلت توزعها على المتجولين بالمقاهي والمنتديات ، وتبعث بها بالبريد الى من هم خارج العاصمة . كما يحكى ذلك الأستاذ صالح الجابري . « وكانت النتيجة أن فاز ثلاثة من الشعراء : عبد الرازق كرياكة ، ومحمود بورقيبه ، والظاهر القصار . وخاب آخرون من بينهم أبو القاسم الشابي ومصطفى خريف» .

وأثارت هذه النتيجة دهشة جيل الشعراء الجديد وهاجت غضبهم ، وكأنهم رأوا في الأمر نوعاً من الكيد لهم والأفتئات عليهم ، وتنبهوا إلى أن هذه المهزلة التي لعبها صاحب (العالم الأبى) إنما أريد بها استمرار الإمارة حيث كانت ، وإبقاؤ ها في ورثة الأمير المخلوع الذي ينتمون اليه . ويدورون في فلكه ، ويدينون بمذهبه . وانتهى الأمر ـ بطبيعة الحال ـ إلى

استعلان الجفوة بين جماعة الشابي ، وشيعة كرباكة ووزيريه ، وصرحت الخصومة بين الفريقين . وكان أن « تصدر جماعة (الإمارة) صفحات العالم الأدبي . يواصلون عليها مسيرة أيامهم ، ومخاض قرائحهم ، بينما انسحب الشابي ورفيقاه البشروش والحليوى إلى جريدة الزمان ، في صحبة الشاعر محمود بيرم التونسي . . متخذين مما أفسح لهم بيرم في صحيفته من حرية مجالاً يصبون فيه نقمتهم على العالم الأدبي والإمارة الشعرية ، كما يقول الأستاذ الجابري . وبذلك بدأت حملة بالغة العنف ، يقودها على صفحات الزمان عبد الخالق البشروش ، على أمير الشعراء الجديد عبد الرازق كرباكة ، ووزيريه : محمود بورقيبه والطاهر القصار .

وهكذا أصبح أبو القاسم الشابي وعبد الخالق البشروش ومحمد الحليوى من كتاب (الزمان)، وانتقلت بذلك هذه الجريدة التي يتولاها بيرم من مزاملة (العالم الأدبي) في الدعوة الى التجديد ، وشد أزر الجيل الجديد ، الى احتلال المكان الأول في هذه الدعوة ، ومناهضة زميلتها السابقة ، وتصويرها في صورة المنتكسة المرتكسة .

وهكذا واجه بيرم أول خصوماته في تونس بهذا الوضع الجديد الذي صارت اليه جريدته ، منذ أصبحت أحد قطبي الخصومة ، ومركز الهجوم على الإمارة الجديدة ولسان حالها .

وإذ كان لهذه الخصومة أثرها في انشقاق الندوة التي كان يجتمع فيها أدباء تونس عامة حول شيخهم العربي الكبادي ، وتحول دعاة المذهب الجديد الذين اخطأتهم إمارة الشعر إلى ندوة خاصة بهم ، فقد كان من نتائجها بالقياس الى بيرم أن قادته الى خصومة تلك الندوة الأولى التي اختصت بأصحاب المذهب القديم في الشعر ، وأهل الجيل الماضي في السياسة والأدب . ثم ما لبث ذلك أن جعله يهاجم شعراءها بأشعاره العابثة الساخرة ، من مثل قوله في (ابن شعبان) :

لابن شعبان شارب حاكه الله من مسد
كم له عند فتله من بصاق ومن زبد

إلى غير ذلك مما برع فيه بيرم وبلغ في افتتانه فيه غاية بعيدة لا يكاد يباريه فيها أحد .

ومثل هذا الأسلوب اللاذع من شأنه أن يملأ قلوب خصومه ومخالفيه والناقمين عليه من الضغينة ما لا تقف آثاره عند حد ، من التأليب عليه وإثارة الشبهات حوله .

ولا ندري إذا كان بيرم ، وهو يخوض هذه المعركة مع خصومه هؤلاء بمثل هذا الأسلوب ، يقدر ما عسى أن يعرضه له ذلك ، من استعداء السلطات عليه ، وما عسى أن يكون موقف هذه السلطات منه ، وهي - ولا ريب - موغرة الصدر عليه ، بسبب المسلك الذي أخذ نفسه به ، من التنديد بها ، صراحة أو تعريضاً ، وإيقاظ الوعي القومي إزاءها ، على النحو الذي يمكن أن نتمثله في القدر الذي أتيح لنا من شعره الذي كانت الزمان تحمله إلى قرائها .

لقد كان الشعب التونسي يعاني في ذلك العام من آثار الأزمة الاقتصادية التي حاقت بالعالم . وكانت وطأتها عليه أشد ، وأخذها بمخنقه أنكى . ومثل هذه الأزمة كانت تفتح الطريق أمام طائفة من المتجرين بالمال للإثراء على حساب الشعب ، يمتصون دمه ويتركونه لقى لا روح فيه . فأنشىء لمواجهة ذلك واتقائه (بنك التعاضد) . وكأنما أنشىء في غفلة من هؤلاء المقربين من الاستعمار والضالعين معه . فما إن بلغ أشده ، وجعل يؤدي بعض أغراضه ، حتى أحسوا بمبلغ ما يحرمهم منه ، فجعلوا يناوئونه ، ويحاولون دك أركانه وتقويض بنيانه ، ويتوسلون لذلك بمكانهم من المستعمر . وفزع الناس لذلك ، وأحس بيرم بالنكبة القادمة إذا نجح هؤلاء في تحقيق غرضهم ، وترك الاقتصاد الوطني لعبة في أيديهم ، فانطلقت شاعريته بهذه القصيدة . يدعو فيها الشعب الى درء هذا الخطر في حزم وقوة ، وبذل كل ما يملك في سبيل حماية بنكه ، وأن يقف من هذا الأمر موقفاً ايجابياً ، لا أن يكتفي بالدعاء والابتهال والحوقلة والحسبلة ، شأن العجزة وأهل المسكنة :

بنك التعاضد ! لم أدع السماء على   مناوئيك ولم اضرع بآمالي
ولم احوقل كمسكين وعاجزة   ولم أحسبل كموتور ومكسال
بل افتديك بروحي ، كلما نضبت   مواردي واستخار الدهر اموالي
يفديك كل غنى بالذي ملكت   يداه من كسبه او إرثه الغالي
يفديك كل فقير بالذي ادخرت   يداه من درهم باق ومثقال
تفديك كل فتاة بالغدائر ، ان   لم تملك الحلى من قرط وخلخال
فلم .تزل بنت قرطاج مضحية   إذا سفينتها احتاجت لأحبال
يفديك كل قوى الزند معتصم   بالحزم والعزم لا بالقيل والقال
وما عروق بني الخضراء نابضة   الا لتحييك في الدنيا لأجيال
وهذه ساعة الأهوال ما برحت   حتى تبرهن أنا خير ابطال

بمثل هذا الشعر كان بيرم ، إلى جانب افتتاحيات الزمان ، يتجاوب مع الأحداث في تونس ، ويواجه كيد المستعمر واشياعه ، ويوجه الشعب الى إحباط ذلك الكيد ، مقوياً عزيمته ، مستثيراً ذكرى امجاده .

وكانت شاعريته سريعة الاستجابة لما كان يثير مشاعره في الحياة التونسية ، وما بلغته من مشاهدها ومتناقضاتها التي صنعها الاستعمار . كم كانت تهيجه وتثير شجونه ـ مثلاً ـ هذه الكاتدرائية الفخمة التي افتن المستعمر في تشييدها ، وفي جعلها آية من آيات الفن الذي يروع بجماله وجلاله معاً ، وقد أقامها في قلب المدينة ، لتكون تعبيراً عن غلبته وقوته واستعلائه ، وفتنة للمفتونين من أبناء هذا الشعب المغلوب على أمره . وكم كانت محزنة مشاهد الأفراح والأعراس التي تعرضها هذه الكاتدرائية بين مظاهر الترف وصور الرفاهية ، بما كانت تثيره في نفسه من صور الحياة التعيسة التي يحياها الشعب التونسي ، فإذا هو يقول موجهاً خطابه لهذه الكاتدرائية :

يا ربة الناقوس والأرغن   أهجت بلبالى واكمدتنى
ما بال افراحك لا تنقضي   وسترك الأحمر لا ينثني
في كل يوم عرس حافل   بحاملات الورد والسوسن

والنـد والشمـع مشيـر إلى ... بخـوره المنعـقـد الأدكـن
وكم على بـابك من مـوكب ... تسيـر ذكـراه عـلى الألسـن
لهفى على قومي ! أقاموا على ... عيش كئيب الوجه مخشوشن
تبـاع لـلدائـن امـلاكهـم ... ويقتنى الـدائـن مـا يقتنـى

وهذا « العيش الكئيب الوجه المخشوشن » الذي تثيره في خاطره مظاهر الترف التي تغمر حياة المستعمر ، ما يزال ماثلاً أمامه ، يهيج أحزانه ، ويثير شاعريته ، فإذا هي ترسم من صوره ما هو جدير أن يملأ القلوب أسى ووجيعة ، وأن يدفعها الى إنكاره والثورة عليه ، وعلى الأسباب التي أدت اليه .

ومن ذلك هذه اللوحة التي رسم فيها بعض مشاهد الحياة البائسة ، في بعض الأحياء الشعبية كحي (باب سويقة) وحي (الحلفاوين) ، وذلك إذ يقول :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي ... وجل البلايا ان يحييك أمثالي
وقفت على رغمي بباب سويقة ... كما وقف المعفور في وسط أوحال
أشاهد من قومي وأبناء جلدتي ... هياكل من عظم مغطى بأسمال
تنام على (المادات)[1] صرعى كأنهم ... سكارى من الخمر العتيق بأرطال
ومن واقف حاف كتمثال آدم ... وليس له في العين قيمة تمثال
ولما بلغت الحلفوين وأهلها ... أعيذك من هول هناك وأهوال
ديار بناها مقعد وهو جالس ... إذا قورنت بالقبر كأن هو العالي
ويا رب حانوت عليه مظلة ... من الخيش لم يفضل بها غير أنسال
يقوم عليه عامل فوق جسمه ... ملابس مساح المراحيض زبال

بريةٌ حقاً

هذه صورة من حياة بيرم ونشاطه في خلال عاميه الأولين في تونس ،

---

(١) المادات : الأرصفة في اللهجة التونسية .

قدر ما أتيح لنا من آثاره فيها. فإذا كانت سنة ١٩٣٤ فقد كان موعد انتخابات (المجلس الكبير) ، وهو مجلس نيابي من هذه المجالس التي يصنعها الاستعمار ليلهي بها الشعوب التي تطالب بأن يكون لها شأن في الحكم . ويمكن أن نتمثل صورة منه . أو على الأقل كما كان بيرم يراه ، فيما ذكره بعد ذلك به ، في افتتاحية جريدة الشباب ، إذ يقول عن نواب هذا المجلس ، ساخراً ، انه قد توافرت فيهم كل المزايا اللازمة للنواب الأكفاء ، من الجهل بالقراءة والكتابة والتجرد من الوطنية الصادقة والكاذبة والاستهانة بتونس ومن عليها .

وجرت المعركة الانتخابية ، وكان طبيعياً أن تتابعها صحيفة « الزمان »، لتنقل أنباءها ، وتردد بروحها الساخرة أصداءها . وبين أيدينا شيء من الشعر الذي كان بيرم يعلق به عليها . وقد بلغت غايتها ، فدخل المجلس من دخل ، ورد عنه من رد . وهو يقدم الينا بهذا الشعر صورة مما كانت هذه المعركة قد اتخذته في نفسه ، كما نرى فيه نموذجاً مما رددته فيها شاعريته ، ساخرة عابثة ، كقوله في بعض من أخفق :

ما للنيابة لم تبذل مطارفها   لكل جلف عظيم الأنف منفوخ
وكل ممتلىء علما ومعرفة   يمشي بوجه كاست القرد مسلوخ
وبائع الجزر المرهون برنسه   وسارق البذر والدلال والبوخي[1]
هبوا على نغمة المزمار تحفزهم   ثم انثنوا بين مصفوع ومشدوخ

أو قوله في وجه آخر من وجوه المعركة ، وصورة من صور المجلس :

أسدل المجلس الكبير سدوفا   حصنته من أعين الأجلاف
واكتفى الشعب بالذين اصطفاهم   من فحول أماجد أشراف
أي خطب يكون لو نجح الثو   ر لدى حمله على الأكتاف

(١) البوخي : هو بائع البوضة ، اسم نوع من الخمر في تونس .

يا لقومي لو يحمل الناس فيلا   فوق ما يحملون من تعساف
وترى الفقحة العظيمة تعلو   فوق هام المثقفين الضعاف
أيهذى المثقفون تعجزوا   بالذي نالكم من الإجحاف
إن لله في المصائب لطفا   لو فطنتم من أظرف الألطاف

ولا ريب أن مثل هذا الشعر المليء بالهزء والسخرية ، وبالصور العابثة ، وبالرموز التي لا تخفى ـ في أكبر الظن ـ ما وراءها ، جدير أن يثير كثيراً من النفوس ، ويملأها بالموجدة والحفيظة ، ويجدد له من ذلك فوق ما أصابه منه في مسألة إمارة الشعر ، ومعركة المحافظين والمجددين .

ومع ذلك ، وربما لقوله عن بعض من ظفروا بعضوية المجلس انهم فحول أماجد أشراف ، دعى الى حفل أقيم لتكريم بعض الظافرين ، فأنشد فيه قصيدة نوه فيها بهم ، وبالأمل المرجو الذي تعقده البلاد عليهم . وقد استطاع بلباقته وكياسته أن يجعل من قصيدته هذه تعبيراً صادقاً مهذباً عن النيابة وتبعاتها ، وأن يلطف من أثر ما قاله قبل . وها هي ذي :

سادتي ، هذه سويعة أنس   طالما رمتها وقلبي اشتهاها
ساعة من صميم عمر تقضى   اتمنى بأن يطول مداها
لأرى اللطف والحماسة والظرف   وهذي الوجوه ، - ما أبهاها !
كل فحل وكل شهم كريم   أكثر الله منكم الأشباها
كي يدوم السرور في كل حفل   يتحلى بكم ولا يتباهى
سادتي ، ذا مكانكم بعد حرب   دار في الانتخاب صوت رحاها
وهي حرب ليس الغنيمة فيها   تجلب الفخر للذي يلقاها
لا ، ولا حسرة الهزيمة فيها   تجلب العار للذي يصلاها
انها حرب أمة تتبارى   كي تولى قيادها أقواها
سادتي ، المجلس الكبير كبير   ان كبرنا ، وان صغرنا فواها
تونس هذا التي وقفت حيـ   رى ، ترجى غوث السماء يداها
من لها ؟ من لها إذا جل خطب   غير ابنائها وذوب حشاها

انشلوهــا من الشقــاء بــرفق بلغــوهــا مــرادهــا ومنــاهــا
واجعلوها فوق الخصومة والحقـ ـد لئــلا تضــاعفــوا بــلواهــا
واغفـروا للذين عـاثـوا فسـاداً لـتـراعى قـلوبـهـم تـقــواهــا
خلق الله بعض قــوم قلوبـا عـامـرات ، وبعضهم أفــواهـا
سادتي . كل ما لكم من جهود اجعلوهـا لتـونس لا ســواهـا

قصيدة رائعة بارعة ارتفع بها بيرم فوق الخصومات والأحقاد ، وأراد أن يمحو بها ما أحدثته حرب الانتخاب من جروح ، وكأنما أراد أن يستغفر بها عما بدر منه فيها .

وفي هذا العام ، عام ١٩٣٤ ، عظم أمر الخلاف بين شيوخ الحزب الدستوري الذي أنشأه ، في أعقاب الحرب العالمية ، الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، وشبانه ، ثم لم يلبث أن تكشف ، في شهر مارس ، عن انسحابهم منه ، وإعلانهم ، في مؤتمر قصر هلال ، قيام (الحزب الدستوري الجديد) . وبذلك اتخذت الخصومة بين الجيل الجديد والجيل القديم وجهاً آخر ، وأصبح الأمر في السياسة كما كان في الأدب . وكما كان موقف بيرم من هذه الخصومة في الأدب كان موقفه في السياسة ، فوقف إلى جانب الحزب الجديد ، يدعو بدعوته ، ويريد أن يجعل من جريدة الزمان لساناً له . وجعل ، فوق ذلك ، ينشىء القصائد في مدح زعيمه الحبيب بورقيبة ، ويخاصم في ذلك طائفة غير قليلة ولا هينة الشأن من رجال الحزب الدستوري القديم ، ويتعرض بذلك لألوان من التشهير به والتأليب عليه ، ويقف هو وصحيفته في وجه الحملة التي جعلت صحف هذا الحزب الجادة والساخرة تشنها عليه وتنال بها منه .

وبقدر المنزلة التي كان الحزب الدستوري مازال يحتلها في الحياة التونسية ، وفي قلوب الناس ، كانت هذه الخصومة الجديدة التي تعرض لها بيرم ، وكان لها وجوهها وآثارها المختلفة . وإذا كان قد صمد لها ، وواجهها بما عرف عنه من عناد وصلابة وخشونة ، وقد تسلح فيها بما كان يستمده من مواهبه الأدبية ، من قدرة على الحوار والجدل ، وبراعة في

التعبير الساخر ، متخذاً من جريدة الزمان ميداناً له ، فإن ذلك ـ فيما يبدو لنا ـ لم يلبث أن أثار بعض الخلاف بينه وبين صاحب الزمان ، حتى فسد ما بينهما ، وعرضه لبعض المتاعب ، وحتى فتر نشاطه في الزمان ، وإن لم يفتر نشاطه الأدبي الذي تحول عنها . وقد وجد في مجلس أصحابه ما يسرى عنه همومه ، وينفس عنه ما يلقى من كيد خفي ، ويشجعه على متابعة طريقه .

ويقول الأستاذ الجابري أنه « مكث طوال سنة ١٩٣٤ في إجازة اختيارية ، جددت اتصاله بالصحف المصرية ، يراسلها بالأخبار والأزجال التي يعدها نهاراً . أما أثناء الليل فكان ينضم إلى جماعة (تحت السور) التي كان يجد في نواديها مقبرة نسيان كبرى ، يهرع اليها ليوارى فيها أحزانه وقلقه » .

والواقع أن اسم بيرم جعل يتردد بكثرة هذه السنة في مثل مجلة أبولو التي كان يصدرها في القاهرة الأستاذ الشاعر العالم أحمد زكي أبو شادي ، ومجلة الإمام التي كان يصدرها في الأسكندرية . وذلك بما كان بيرم يبعث به اليهما من فصول وقصائد وأزجال ، وفي مثل ما كتبه عنه شيخ العروبة احمد زكي باشا ، تنويهاً به وتقديراً له ، ورجاء أن يرده الله إلى مصر .

ولا ريب انه كان يجد في مثل هذه الصلة كثيراً من العزاء عما جعل يتعرض له من متاعب في جريدة الزمان ، وما كانت تسببه له المشاحنات التي كانت ما تزال تنشب بينه وبين صاحبها ، من ضيق وقلق . وهي مشاحنات لا ندري على وجه الدقة واليقين مثارها ، وان كنا نلمح ، في سياق ما يذكره الأستاذ الجابري في غير موضع ان الأمر فيها كان متصلاً بموقفه من الحزب الدستوري اذ يقول ، بعد أن أشار الى موقفه من الجناح الذي يقوده الشباب في هذا الحزب، أنه « لم يبال بقطع صلاته مع جماعة جريدة الزمان التي أحبت أن تجريه في ركابها ، مع ما في نفسه من الود والوفاء ». ويقول في موضع آخر أنه حين آثر أن ينسحب من رياسة تحرير

الزمان كان ذلك منه « كي يحتفظ بالنقاء الذي يجب أن يكون سيرة حياته » .

وفي أواخر هذه السنة تعرض بيرم لمحنة نفسية لا نشك في أنها هزت كيانه هزاً عنيفاً ، بوفاة صديقه وأقرب الناس الى قلبه ، أبى القاسم الشابي ، في التاسع من شهر اكتوبر . فقد كان روح الندوة التي كان وثيق الصلة بها . منذ حل بتونس ، وكان أصدق معبر عنها . وكان رفيقه في نزهاته في البلفدير وفي ضواحي تونس ومواطن الجمال فيها . وقد رثاه بقصيدة رائعة ، كانت موضع الإعجاب ، حتى لقد وصفها الشاعر المطبوع مصطفى خريف بأنها من معجزات الشعر الذي فتح بيرم آفاقه في تونس .

وقد أتاحت لنا مجلة الفكر التونسية ، في عددها الصادر في مايو ١٩٦١ ، هذه القصيدة التي تقع في عشرين بيتاً ، في مقطوعات خمس ، تبدأ بهذه المقطوعة التي تنوه ، في أسلوب بارع ، بأبرز مظاهر شخصية الشابي ، واتجاهات شاعريته المفتونة بالطبيعة في شتى مجاليها :

أرى غابة طيرها صادح ... يرد على جؤذر باغم
أرى شفقاً زنده قادح ... على شجر أخضر قاتم
أرى جدولاً حوته سابح ... يحاذر من طيره العائم
وهذي الربى بالزهور اكتست ... ولست هنا يا أبا القاسم

وتنتهي بهذه المقطوعة التي تعبر تعبيراً بارعاً عن فكرة الخلود التي يجد فيها بيرم عزاءه :

حياتك كانت بقاء لنا ... وبالموت أنت ورثت البقا
يرفرف روحك من فوقنا ... ومثلك ان مات قيل : ارتقى
وان أنت بالشخص فارقتنا ... إلى حفرة فإلى الملتقى
وبورك في عمرك المنقضي ... وبورك في عمرك القادم

وإذا كان بيرم فقد بوفاة أبي القاسم الشابي أجمل صورة وأنقى قلب

وأرق روح أتيح له في تونس ، فإن ذلك لم يسلمه إلى اليأس . وإن زاده زهداً في جريدة الزمان التي لم يلبث أن اعتزلها اعتزالاً تاماً في شهر يونية سنة ١٩٣٥ ، وهو يود أن تكون له صحيفته الخاصة له ، يحررها كما يشاء ، ويودعها آراءه وخواطره في الأسلوب الذي يروق له ، دون أن يملك أحد مراجعته أو التعقيب عليه .

حتى إذا كانت سنة ١٩٣٦ ، وتألفت في فرنسا في شهر يونية ، حكومة الجبهة الشعبية . برياسة ليون بلوم ، مصطنعة سياسة جديدة . وكان من ذلك أن الغت القيود التي كانت مفروضة على العمل الصحفي فيما وراء البحار ، بادر بيرم باستصدار صحيفة بإسمه ، أطلق عليها اسم (الشباب) ، كما استصدر كل من صاحبيه : على الدوعاجى والهادي العبيدي صحيفة خاصة ، سماها اولهما (السرور) ، وسماها الآخر (السردوك) .

ولعله أطلق عليها هذا الاسم ، لأنها ـ فوق كونها ـ فيما يريده لها ، لسان الشباب في الأدب والسياسة ـ تذكره بمجلة الشباب التي كان يصدرها في القاهرة الأستاذ عبد العزيز الصدر ، وكان هو يشارك ، من فرنسا ، في تحريرها، وينفرد أحياناً بتحرير بعض اعدادها .

وقبل أن يخرج صحيفته في التاسع عشر من شهر أكتوبر كانت صحيفة صديقه على الدوعاجى قد صدرت ، وكتب بها مصطفى خريف فصلاً عنه ، يشيد به . وكأنه أراد بهذا الفصل أن يقدم إلى القراء صحيفته التي تتهيأ للظهور . وقد قال في هذا الفصل عنه :

« دنيا من الأدب الحي تمشى على رجلين . فتن المصريين قبل الحرب ، وهم إلى اليوم يتلهفون عليه . فتح آفاقاً رائعة في الشعر العربي والنثر ، تبدو معجزاتها في مرثيته للشابي ، وفي معارضته لرسالة الغفران . أما مسرحياته وأغانيه فذائعة ذيوع الشمس . لا تكاد تفارقه جنية عبقر .

فمشيته وحديثه ونظراته الوادعة ، وجميع آثاره النثرية والشعرية والزجلية ، وحتى ملزوماته التي أصبح ينظمها باللغة التونسية ، كل تلك تفيض عبقرية ونبوغاً . طيب ساذج دائماً ، وظريف محبوب أبداً .

كان من المقرر أن يكتب عنه أمير الأدباء الأستاذ العربي الكبادى ، ويسجل اعجابه بأدبه وظرفه . ويسجل أيضاً وقفته العجيبة والتفاتاته الخفيفة ، وهو واقف في النهج الكبير ، يستعرض الحسان ، ويغازلهن بنظراته ، ورأيه في الجمال كرأي عمر ابن أبي ربيعة » .

وتحققت بظهور (الشباب) أمنية بيرم . واستأنف بها عدداً قديماً مضى عليه سبعة عشر عاماً ، حين كان يصدر (المسلة) ومن بعدها (الخازوق)، وأرسلها تحمل آراءه في الاصلاح ونقده للمجتمع وتبصيره بحقائق الأمور عنده ، وسخريته من هذا وذاك من رجال الحكم والأدب والفن ، « وما كان لأحد منهم أن يسلم من نقده وسخريته »، كما يقول الأستاذ الجابري ، في سياق الفصل الذي كتبه عن بيرم ، في حديثه عن هذه الصحيفة . وقد ذكرها مرة أخرى في فصل آخر من كتابه بعنوان (رياح التغيير) . وأورد فيه نموذجاً من بعض فصولها ، وذلك إذ يقول :

« ... وفي افتتاحية جريدة الشباب التي أسسها محمود بيرم التونسي ، الأديب الساخر الشهير الذي أثر انضمامه الى جماعة (تحت السور) تأثيراً بالغاً في مجال تطور الصحافة والأدب والشعر يرى أروع ما كتب للضحك من المجتمع الحاكم الذي كان يسير في مدار السلطة . يتوجه بيرم إلى الشباب ، يسخر بإسمه من تقاليد آبائه ، ويعرى له عن حقائق الحياة المغلفة بستار الحرمة الموهومة :

« وبعد ، فاضحك ايها الشباب ، لأن كل ما حولك يسير على ما يرام ، بلادك تجود للعالم بأكبر محصول للزيت المبارك ، وتخرج أجود أنواع التمر الشهير ، ومقادير هائلة من القمح الممتاز ، وفيها مناجم(غنية

بالفوسفات والرصاص والبترول . ولكن آباؤك وأعمامك هؤلاء يضعون أيديهم على خدودهم ويقولون : الله غالب ! بلادنا فقيرة معدمة مجدبة . وهم صادقون ، فهذي المباني الشامخة المؤلفة من عشرة طوابق ، والآخذة في الزيادة والامتداد ، وهذه الفيلات الضخمة المحاطة بالحدائق الغناء ، وهذه السيارات الخصوصية التي تبلغ أثمانها عشرات الألوف ، كل هذا جلبه الافرنج في حقائبهم من الخارج ، ووضعوه في أرض تونس .

ولك أيها الشباب مجلس نيابي يجعل بلادك مساوية للبلاد البرلمانية من انكلترا إلى موناكو . عمادك في هذا المجلس نواب توفرت فيهم كل المزايا اللازمة للنواب الأكفاء ، كالجهل بالقراءة والكتابة . والتحرر من الوطنية الصادقة والكاذبة والاستهانة بتونس ومن عليها . وقد قاموا لك بواجبهم النيابي على أكمل وجه ، فاستطاعوا تأجيل ما عليهم من الديون ، وزوجوا بناتهم ، وطهروا أولادهم ، وعلقوا النياشين ، وتشرفوا بمعرفة كبار الموظفين » .

وتمضي المقالة على هذا النمط ، تتناول مظاهر الحياة التونسية بهذا الأسلوب الساخر ، إلى أن يقول :

« وهذا هو محيطك الذي تعيش فيه أيها الشباب . فأضحك إذا شئت مبتهجاً لمستقبلك السعيد الذي هو أمامك ، والذي هو لك وحدك . اضحك على كل حال» .

ونستطيع ان نرى في هذه الافتتاحية التي استهل بها بيرم العدد الأول من جريدته (الشباب) ما يدلنا على الغاية التي كانت ماثلة في ذهنه وهو يستصدرها ويختار لها اسمها ، وهي تنبيه الشباب ، أمل المستقبل ، إلى الحقائق التي جهد الاستعمار في تعميتها ، وكشف الزيف الذي حاول أن يقنع به آباءهم ويقره في عقولهم . كما نرى فيها المنهج الذي اتخذه لها ، وهو منهج السخرية . وما كان ليتخذ غيره ، فالسخرية أظهر صفاته ، وأبرز

عنصر من عناصر شخصيته ومزاجه الفكري .

كما نستطيع أن نرى فيها ـ فوق هذا ـ نموذجاً لأسلوب بيرم المترسل ، إلى جانب ما عرفنا من أسلوبه الفني المسجوع في مثل مقاماته . ولو كانت مجموعة الشباب بين أيدينا لاستطعنا أن نرى فيها من ملامح شخصية بيرم ما لعله لم يتح لنا أن نعرفه بعد . وأن نرى فيها مصداق ما كان يوصف به من « قدرة على تحسس المجتمعات ، واستقراء ما في نفسها من تطلعات» .

على أن شاعرية بيرم ظلت مسيطرة عليه في (الشباب) ، كما كانت في (الزمان) ، فكما كانت نفحاتها تتخذ من الزمان مجالاً لها . وقد رأينا نماذج منها ، كذلك كان شأنها في الشباب فهو ما زال يوشحها بشعره . مصوراً ما كان يثيره في الحياة التونسية . مستجيباً بذلك للغاية التي أنشأ الشباب من أجلها ، وهي إيقاظ الوعي القومي ، والتبصير بحقائق الأمور .

من ذلك قصيدته التي صور بها جباة الضرائب ، وما يلقى المواطن من تعنتهم وشططهم ، وقد جعلها على لسان أحد ملاك الأرض ، وجعل عنوانها ـ كما وضعته مجلة الفكر في رأسها ـ : (عريضة لادارة المال) ، وقد أوردها أيضاً الأستاذ الجابري . وها هي ذي :

إدارة المال ! قد غيرت هنشيرى والحرث طولا وعرضا بالتركتور
وجئت بالبذر من فول ومن عدس لا سلفة ، بل شراء بالفواتير
ولم أدع عـود زيتون بحـالته كلا ، ولا عود توت غير مزبور
ستون شخصاً جلبناهم بنسوتهم بـالأجر جـاءوا لتطهيـر وتبخير

وقلت للسحب :صبي وامطري كرما لكنهـا لم تجـد إلا بتقـطيـر
أضحى الحشيش لنار الشمس تأكله والحب رزقاً حلالا للعصـافير

لم يبق في الأرض من عود لماشية تسعى إليه ، ولا بعر لعصفور

وحطت الطير فوق الغصن واجمة	لما تجرد من وشى الأزاهير
وجاء ،في موكب ،يسعى ،خليفتكم	ليقبض المال من عبد ومأمور
قلت : المناجل لم تظفر بسنبلة	حتى لقد صدئت في مخزن الكور
فقال : اخفيتم المحصول أجمعه	والقمح هربتموه بالقناطير
قلت :ادخل الدار وأعزل في دوامسها	وما تراه فخذه غير مأزور
فقال : آخذ من حر المصاغ على	ما عندكم من صحون او طناجير
فقلت : هذي عليها عقلة سبقت	إلى مرآب عظيم البطن بنكير
فقال لي باحتقار : رافعاً يده	مهدداً ، انت يا فلاح دستوري

وهذه القصيدة التي نتخذها نموذجاً لما كان ينشره في الشباب من شعره تكشف لنا عن طائفة من خصائص شاعرية بيرم . وأولها البساطة والمرونة والطواعية . فقد استطاع في سماحة ويسر أن يطوع شعره لمثل هذه الأحداث اليومية . يصورها تصويراً واقعياً لا تكلف فيه ولا تصنع ، كما استطاع ان يطوعه لمثل هذا الحوار في هذه القصيدة بين (الخليفة) والمالك في عبارة قريبة في صورتها دقيقة في دلالتها . وكذلك استطاع تطويعه لبعض الألفاظ التونسية العامية ، كالهنشير (وتعنى المزرعة او ما يسمى في مصر بالعزبة) ، والتراكتور ، والفواتير ، والمزبور ، والكور (وتعنى الأسطبل ، مأخوذة من الكلمة الفرنسية Ecvire والطناجير والعقلة والبنكير . وقد انسجمت هذه الألفاظ والتأمت في صياغة القصيدة ، حتى لا يحس فيها بنبوة وجسوء .

وبذلك كانت هذه الأشعار قريبة من جماهير الشعب التونسي حبيبة اليه ، أثيرة عند خاصته الداعية إلى إبراز الشخصية التونسية الحريصة على ملامحها . وبقدر ذلك أصابت من التقدير ، وكان ذلك من الأسباب التي جعلت صحيفة الشباب جديرة بأن تحقق اهدافها الوطنية ، إلى جانب الأهداف الإجتماعية والأدبية .

وبذلك أيضاً ، وبهذه القدرة على التعبير عما كان يخالج الشعب ،

وبما أخذ فيه بيرم ودأب عليه من نقد رجال الحكم والسياسة والفن ، نقداً تغلب عليه روح السخرية ، على ذلك النحو الذي عرف به ، كان موضع السخط عليه والضيق به ، من جماعات مختلفة أدبية وسياسية ، تألبت عليه ، واجتمعت على التشهير به ، وإثارة الأقاويل الشبهات حوله . وربما جعلت ـ فوق ذلك ـ تستعدى السلطات عليه وعلى صحيفته (الشباب) . فلم تلبث هذه السلطات الاستعمارية ان أصدرت قراراً بتعطيلها لمدة ثلاثة أشهر . ولم يكن صدر منها غير عشرين عدداً .

ولكن بيرم الذي وصفه الأستاذ الجابري بأنه « صائد عواصف ماهر ، لا يصفو له العيش إلا في قلب الأزمات » لم يعبأ بهذا القرار ، بل مضى يتحداه . فإذا كانت الشباب عطلت فإن لقلمه متسعاً في صحيفتي صديقيه : على الدوعاجي والهادي العبيدي . وكان اولهما يصدر صحيفة السرور ، كما كان الآخر يصدر صحيفة السردوك .

ورحبت به (السرور) التي رسمت له منذ شهر صورة رائعة . فأخذ يشارك في تحريرها ، ويواصل رسالته فيها ، ويجد لنفسه متنفساً على صفحاتها ، فإذا احتجبت كما احتجبت (الشباب) من قبل مضى إلى زميلتها (السردوك) يتخذ منها مجالاً لنشاطه السياسي والأدبي ، ويواصل فيها حملاته على خصومه في السياسة والأدب .

وهكذا نرى ان بيرم قد أوغل في الطريق الذي سلكه منذ نشأت قضية إمارة الشعر ، وانشعبت الندوة التي كان قد عقد صلته بها منذ وضع قدمه في تونس ، وهي الندوة التي كان يتصدرها الشيخ العربي الكبادى ، ويجلس اليه فيها أدباء تونس ، شيوخاً وشباناً ، محافظين ومجددين . فانصدع ما بين الجيلين ، وصرح الخلاف بين المذهبين . وانضم بطبيعة الحال إلى جيل الشباب ودعاة التجديد ، وفسح لهم صفحات الزمان يهاجمون فيها خصومهم ، ثم لم يلبث ان شاركهم في الهجوم وغامر في هذه الخصومة الأدبية بشعره العابث ، وأسلوبه الساخر اللاذع .

ثم نشبت الخصومة السياسية بين جناحي الحزب الدستوري ، فانضم الى جناح الشباب ، وخاصم الحزب الدستوري القديم ، واجتلب لنفسه خصومة صحفه المختلفة ، تشتد في مهاجمته والنيل من شخصه .

وخاصم أعضاء المجلس الكبير وأشياعهم والضالعين معهم . وخاصم السلطات المختلفة مخاصمة ذاتية ، وهو يعلم أن من خصومه بين الأدباء والصحفيين والسياسة من كانوا يستعدونها عليه .

ولم يعبأ بذلك كله ، بل مضى في طريقه في عناد وإصرار . ولكنه لم يكد يمضي في جريدة (السردوك) عشرة أيام ، حتى كان صبر السلطات عليه قد عيل ، واحتمالها إياه قد نفد . لقد ظنت ان في تعطيل صحيفته وقفا لنشاطه ، وإنذاراً ان يسلك سبيل الاعتدال حين يعاوده . ولكنه لم يهادن يوماً واحداً ، بل واصل السير في الطريق الذي انتهجه من أول يوم ، مما يعد - في حقيقة الأمر - تحدياً للسلطات ومراغمة لها . فلم تجد هذه السلطات إزاء ذلك كله إلا أن تنفيه عن تونس نفياً ، كما هو دأبها في نفي المجاهدين من أبنائها .

وهكذا أصدرت اليه أمرها بمغادرة البلاد على اول باخرة تغادر ميناء تونس ، فغادرها في السابع عشر من شهر ابريل سنة ١٩٣٧ .

وانتهت بذلك هذه المرحلة من مراحل حياته ، وقد امتدت خمس سنين ونحو أربعة اشهر ، كانت كلها نشاطاً دائباً ، وحيوية دافقة ، ومشاركة خصبة في الحياة التونسية .

وطبيعي أن يستقبل الناس في تونس نبأ نفيه محزونين واجمين ، فقد استطاع ان يصبح جزءاً من حياتهم ، وان يتغلغل في قلوب الكثيرين منهم . ثم إن نفيه كان مفاجأة سيئة للذين كانوا يحسنون الظن بحكومة الجبهة الشعبية ، ويرون ان تونس تبدأ في عهدها عهداً جديداً تسوده العدالة ، وتنتفي منه الإجراءات التعسفية والأوضاع الاستثنائية . وقد عبرت عن ذلك الكلمة التي نشرتها صحيفة (السردوك) في أول عدد يصدر منها

بعد مغادرة بيرم البلاد ، بعنوان : من ضحايا القلم ، تقول فيها :

« توالت الجماعات والرسائل على إدارة السردوك تتساءل في فزع واستياء عن صحة ما نشرته الصحافة بشأن نفي الصحفي العبقري والكاتب الضليع محمود بيرم التونسي . صاحب (الشباب) المعطلة ، ومحرر هذه الصحيفة . وقد باغتهم الأمر ، سيما وقد اصبحوا يشعرون ان عصر الإرهاب والقوانين الاستثنائية الغاشمة قد زال واضمحل مع السياسة القديمة وأربابها ، وصافح جفوننا فجر سياسة جديدة رشيدة لا تعتمد في تأييد نفسها على كتم الأفواه وتكسير الأقلام ، بل تمنحها حقوقها المشروعة أيضاً . ومتى أخلت بهذه الواجبات وتجاوزت حدود الحرية ، ففي القضاء وقصر العدالة انصاف للجميع . فما بالنا نرتطم بهذا الحادث المحزن الذي جعلنا نشك في أن نظرتنا الجديدة وشعورنا الحديث إنما هي أوهام واضغاث أحلام ، وان الأمور ما تزال هي هي ، ودار بن لقمان على حالها » .

وبعد ، فهذه صورة من حياة بيرم في تونس ، قدر ما أتيح لنا من أخباره وآثاره .

على أني لا أحب ان أدع هذا الفصل قبل ان اعتذر بقلة مصادري عما قد يكون فيه من تقصير ، أو خطأ في الاستنتاج والتفسير ، مما أرجو أن يكون موضع استدراك الباحثين ، وتصحيح أهل الشأن من الأدباء والمؤرخين .

مِن قصص البداوة العربية في الأدب التونسي المعاصر

في محاولة تصنيف القصص العربي ، وخاصة القديم منه ، لوضع تاريخ له ، يمكن القول بأنه يقع ، بادئ بدء ، في بابين رئيسيين كبيرين : قصص البداوة ، وقصص الحضارة . والأول هو ما يصدر عن البادية ويصور ملامح الحياة فيها ، والثاني هو ما يصور الحياة الجديدة المتحضرة التي جاء الإسلام يوسع نطاقها ، ويدعو إليها ، في مجال التطور الاجتماعي الذي أتاحه للعرب والمسلمين عامة .

على أن البداوة ظلت تحتل مكاناً ظاهراً في الأدب العربي ، منذ العصر الجاهلي ، لم يقف به ولم يضعف منه غلبة الحياة المتحضرة على المجتمع العربي ، منذ جاء الإسلام ، وأخذ يدفع الناس عن البادية دفعاً ، ويأخذهم باصطناع الحياة المستقرة في الحواضر والأمصار ، فلم يقض ذلك على البداوة التي بقيت ـ وما زالت ـ جانباً له كيانه وخطره من جوانب الحياة الإنسانية ، وعنصراً أصيلاً من عناصرها ، وصورة حية رائعة من صورها .

وفوق ذلك فقد ظل للبداوة وجودها العقلي إلى جانب وجودها الخارجي . وبذلك ظل لها مكانها في العالم المثالي الذي يداخل الحياة الفنية مداخلة قوية ، كما ظلت تحتل في وجدان الأديب الذي ينتمي في

كثير من حالاته الى ذلك العالم ، مهما تكن صلته بها في ظاهر حياته ضعيفة او منبتة ما يجعله دائم الحنين اليها ، والانتشاء بما تثير فيه من أحاسيس ومشاعر ، إذ هي ماثلة في أعماقه ، تهيج خياله وتداعبه ، وتبعث فيه صورها من وراء الحجب والسدود التي أقامتها دونها الحياة المعاصرة ، بواقعها الملح ، ومذاهبها الصادة عنها ، فإذا هي أحد المناهل التي ينهل بفنه منها ، وأحد المصادر التي يصدر عنها على صورة ما . واعياً أو عن غير وعي .

فالبداوة ، بما تقع من الإنسانية في تاريخها الطويل ،قد تركت على الإنسان طابعها . فهي تمثل بين مواريثه الوجدانية قدراً غير قليل ، ان تكن الآماد المتطاولة قد قسمت له في أعماقه البعيدة ركناً مهجوراً انزوى فيه . وقد تراكمت عليه الحجب ، فإن شاعرية الإنسان الشاعر لا تلبث ان تبعث وميضها عليها ، فتشي بما وراءها فإذا هو ماثل فيها . وقد أثارت في صاحبها الحنين إلى تلك البداوة ، فبعثته وراءها ، يلتمس صورها ، ويتبين ملامحها فيما خلفه شعراؤ ها .

ومن ذلك ظل الشعر محتفظاً ، على نحو ما ، بصور الحياة البدوية في كثير من تعبيراته ومجازاته ، على نسب مختلفة . وظل ذلك أمراً مطرداً فيه ، في جميع ادواره ومراحله ، وفي مختلف بيئاته ومواطنه . كما ظلت روح البداوة اليونانية ماثلة في الأدب الأوروبي ، لأن لها مكانها الأصيل في عقل الأديب ومشاعره الباطنة .

وليس يرجع هذا في جميع حالاته ، فيما أرى، إلى روح التقليد أو طبيعة الجمود ، أو إلى الحذلقة والرغبة في التعالم ، كما درج كثير من الناس على اطلاق القول به ، في تفسيره وتعليله . فذلك عندي تعليل ناقص ، ينظر الى الأمور في ظاهرها دون أن يتعمقها ، ويتناولها من الجانب القريب دون أن يتغلغل فيما وراءها . فإنما يرجع الأمر في كثير من حالاته ـ فيما أحسب ـ الى ذلك الأصل البعيد ، وهو ما تحتله البداوة في أعماقنا ، وما اصطبغت به في صميم أنفسنا وتلافيف عقولنا ، وإلى هذا

الهوى الذي انتحى مكاناً قصياً في قلوبنا .

وأكثر ما يقول الشاعر الشعر إنما يصدر فيه عن أعماق نفسه ، وعن ذلك العالم الباطني والذخر المركوم فيه من العواطف والمشاعر والأهواء مما راكمته في عقله الباطن الأجيال المتطاولة والمواريث المختلفة ، وقد خلعت عليه من الحب والجلالة ما يجعله شديد الحنين إليه والنزوع نحوه . وأحسب ان الشاعر حين يتجه الى قراءة الشعر القديم وروايته ، وحين يقبل على صور الحياة القديمة يلتمسها ويتأملها ويتذوقها ويستشعر المتعة بها ، إنما بفعل ذلك ـ في أكثر الأمر ـ بحافز من تلك المشاعر الأصيلة العميقة في نفسه ، ثم تجيء هذه الرواية وما إليها عاملاً قوياً من العوامل التي تثير هذه المشاعر من مكامنها ، فتمهد لها سبيلها اليه . وتعين مكانها في شعره ، وتبرز ظواهرها فيه .

وإذا صح ذلك فإن هذا الذي ننظر اليه أحياناً نظرة عامة مطلقة ، على أنه من دلائل الجمود أو إمارات التقليد او مظاهر التكلف البغيض هو ، في بعض حالاته ، مظهر طبيعي من مظاهر القيم الفنية العميقة الأصيلة ، وصورة من صور الاستجابة للمشاعر النفسية استجابة تلقائية . وهناك فرق قد يدق ويغمض ، بين من يستخدم الصور البدوية محاكاة وتقليداً ، أو حذلقة وتكلفا ، وذلك صنف من الشعراء لا شك في وجوده ، وبين من يستخدمها لأنها تعبر عن طائفة من عواطفه العميقة الجذور التي تربطه بالبداوة ، تلك المرحلة الطويلة من مراحل الإنسانية ، إذ يجد في صورها طائفة من الرموز تعبر بها هذه العواطف عن نفسها ، وتجلى بها عن مكنوناتها ، وتنفس بها عن مضمراتها .

هذا ـ فيما نحسب ـ هو الأصل في تلك المظاهر البدوية التي تبدو في شعر الشعراء ، وهذه هي علاقة البداوة بالفن ، كما يتمثل في الشعر . والحديث عنها طويل الذيول ، كثير الجوانب ، مختلف الشواهد .

وينبغي أن يكون الأمر في القصص قريباً من هذا أو نظيراً له ، إذ كان

القصص لوناً من ألوان الفن ، بل من آصل ألوانه . وكذلك كان للبادية في الميدان الأدبي قصصها المعبر عنها ، فيرويه الرواة ، ويقبل عليه الناس ، تدفعهم الى ذلك دوافع مختلفة . منهم من يرى فيه جمال الفن ، فهو مفتون به ، مستمتع بما يجلوه عليه ، ومنهم من يرى فيه وثيقة من وثائق ما يشغل نفسه بتحصيله وتحقيقه من علم وأدب وتاريخ ، مما نرجو أن يتاح لنا الحديث عن شيء منه . وأحياناً أخرى يضعه الوضاعون من أهل الأدب تصويراً لهذه البادية ، وحكاية لبعض ألوان حياتها ، وتعبيراً عنها وعن مداركهم وأحاسيسهم وعواطفهم نحوها معاً .

وقد ظل هذا اللون من ألوان الفن ، وهو قصص البادية ، مطرداً مع العصور الأدبية ، إذ كان لوناً من الوان الاستجابة لتلك العواطف الأصيلة التي أشرنا اليها ، وقضاء لتلك الحاجة النفسية وانبعاثاً معها . فإذا ما تحللت الحياة الأدبية العربية في صورتها المثلى ، وسرت فيها أسباب الفساد ، وأصبح الشعر العربي صناعة وتكلفا ومحاكاة ، وانقطعت بذلك الصلة بينه وبين حقائق النفس وصور الحياة ، فقد استمر قصص البادية في سبيله ، بعد أن اتخذ مظهراً آخر يستطيع ان يؤدي به وظيفته ، ويستجيب به لتلك الحاجة النفسية ، فنزع عنه ثوب الفصحى ، واصطنع بدلاً منها اللغة العامية .

وهكذا اتخذت القصة البدوية مكانها في ذلك النوع من الأدب الذي اصطلحنا على تسميته بالأدب الشعبي ، في صورة قوية التعبير عن تلك النزعة الى البادية بليغة الأثر في المجتمع ، على النحو الذي نراه في سيرة عنترة وأبي زيد الهلالي وغيرهما . مما يعد ـ في حقيقته ـ استمراراً لقصص البداوة ، في صورة ملائمة لما صارت اليه ثقافة المجتمع العربي اللغوية والأدبية .

وبذلك نرى إلى أي حد كانت البداوة وثيقة الصلة بالفن القصصي في اللغة العربية ، وإلى أي مدى كانت مصدراً خصيباً يستوحيه أهل هذا الفن ، ويستجيبون به لتلك الحاجة الأصيلة المستقرة في روح

المجتمع ، والماثلة في ضمير الإنسانية عامة . مهما اصطنعت الحضارة واتخذت لبوسها .

وكما ان البداوة هي الصورة الأولى للحياة الإنسانية ، وإن ظلت ماثلة في هذه الحياة الى جانب الصورة الحضارية، مسايرة لها، على درجات مختلفة ، كذلك كانت الصورة الأولى للقصص هي الصورة البدوية . وكما بقيت البداوة في المجتمعات العربية بعد الإسلام ، كان لنا أن نتمثل القصص البدوي العربي في عهدين كبيرين العهد الجاهلي والعهد الإسلامي . وطبيعي ان يكون لكل من العهدين خصائصه ، وإن جمعت صفة البداوة بينهما .

وقد ظل للبداوة مكانها في المجتمع العربي المعاصر ، فهي ماثلة ـ فيما نحسب ـ في جميع أقاليمه . تمثل عنصراً مذكوراً من عناصر شعوبه . ولا بد ان يكون لها أدبها الذي يصور حياتها ، ويعبر عما يسرى فيها من مشاعر وأهواء ، في فنونه المختلفة من شعر وقصص وأساطير وأمثال ، مما اتجهت العناية في العهود الأخيرة اليه ، وانشئت له في البلاد العربية المراكز العلمية تتقصاه وتسجله وتصنفه وتدرسه . وهو في جملته أدب يصدر عن هذه المجتمعات صدوراً تلقائياً ، باللهجة التي تصطنعها ، من غير أن يكون منسوباً الى أشخاص بأعيانهم .

على أنا نفترض انه يوجد الى جانب هذا الأدب الشعبي التلقائي او الطبيعي لوناً آخر من أدب البادية . في عرض مشاهدها وتصوير حياتها والتعبير عن مشاعرها . ولكنه يخالفه في اللغة التي يصطنعها . إذ يصطنع الفصحى لا العامية ، كما يخالفه في صدوره تلقائياً غير منسوب إلى واحد بعينه . فقد قصد اليه منشئه قصداً ، فهو معروف به منسوب اليه . والأمر بين هذين النوعين من الأدب كالأمر بين نوعي الملحمة.: الطبيعية والصناعية . فقد نشأت الأولى التي كانت تتمثل في الألياذة والأوذيسة اللتين كان هومير ينشدهما ، فاقترنتا باسمه ، فهي ميراث الأجيال . ثم كانت بعد ذلك الملحمة الصناعية أو المصطنعة ، كالملحمة التي صاغها ، في القرن

الأول قبل الميلاد ، الشاعر الروماني فرجيل ، وملحمة فولتير التي صاغها عن بعض الأحداث الكبرى في عصر هنري الرابع ، ووسمها باسمه .

وكما سجل مؤرخو الأدب الأوروبي الملحمة الصناعية او المصطنعة الى جانب الملحمة الطبيعية او التلقائية ، كذلك ينبغي ان يكون شأن مؤرخي الأدب العربي فيما نحن بصدده . فإلى جانب العناية بتسجيل الأدب الشعبي الذي يصدر عن البادية تلقائياً ، غير منسوب الى أحد بعينه ، ينبغي أن تسجل ألوان الأدب الأخرى التي تصور حياة البادية ، وقد صدرت عن أدباء بأعيانهم . وان كان الأمر في هذه الألوان يختلف باختلاف طبيعة كل منها عن الآخر .

وقد رأينا ان البادية قد تمثلت في شعر الفصحى في صورة رموز ترمز اليها . أو تعبيرات عن بعض حالات الانفعال بها ، أو في بعض المشاهد الجزئية مما ذخره الشاعر في نفسه عنها . وليس الأمر كذلك في القصص ، إذ ان القصة عمل متكامل ، وصورة ملتحمة الأجزاء ، ومن هنا كان لا بد لقصص البادية ان يكون صادراً صدوراً حقيقياً عنها ، بأن يكون منشئه وثيق الصلة بها والانطباع بها وبطبيعة الحياة فيها . بحيث تكون مشاهدها ملء عقله وخياله ووجدانه .

ومن ذلك كنت افترض ندرة قصص البادية هذه او قلتها ، إذ كانت جمهرة أدبائنا نشأت في الحاضرة : مدينة أو قرية ، لا تكاد تربطهم بالبادية رابطة حقيقية ، فضلاً عن أن تصل إلى اعماقهم وتثير حنينهم وتبعث أخيلتهم ، فينشئون هذا اللون في القصص . وكم أود لو اتجه احد الذين توفروا على درس الأدب العربي الحديث ، او الفن القصصي منه خاصة ، إلى تحقيق هذا الفرض وتحرير القول فيه .

وبقدر غلبة هذا الفرض علي كانت غبطتي إذ رأيت بين يدي هذه المجموعة القصصية التي خص معظمها حياة البادية ، والتي أثارتني لكتابة هذا الفصل ، والتي اتخذت سبيلها إلي ، وقد بعد عهدي بقراءتها للمرة

الأولى ، من خلال بعض هذه الحالات النفسية التي تسيطر على المرء فيها مشاعر الضجر والضيق ، وتحاصره في شيخوخته أحاسيس السآمة والبرم ، فيلتمس التفلت منها في محاولة الارتداد الى الوراء ، ومراجعة ماضي حياته ، يتمثل بعض صورة ، ويلقي بنفسه بينها ، ويدع خواطره تجول فيها ، وقد أطلق العنان لها .

وفيما أنا في ذلك رأيتني في مدينة تونس . صيف سنة ١٩٥٦ ، زائراً شديد التطلع ، مشبوب الخيال ، متفتح الحس والعقل والوجدان . فلم اكد استقر بها حتى وجدتني أعدو الى مكتبة هناك ، كنت قد حدثت قبل رحلتي عنها وعن صاحبها ، إنه رجل ودود لطيف المعشر ، وإن كثيراً من أدباء تونس قد اتخذوا منها منتدى لهم ، يلتقون فيه ، ويسمرون به . فإذا بلغتها وتقدمت إلى صاحبها ومن معه من أصحاب ندوته ، فقد استقبلوني بما ملأ قلبي اشراقاً ونضرة ، وما تنسمت فيه عبير الود الصادق يدغدغ مشاعري ويغمرها بالنشوة ، مما جعل يبعثني على أن اختلف إلى هذا المجلس الكريم بين وقت وآخر .

وكان ممن علقهم قلبي من أهل هذا المجلس رجل لفتتني اليه بساطة واضحة أدنى إلى الفطرة في ملبسه وأسلوب حديثه وجملة هيئته . وتواضع شديد في مسلكه يشبه أن يكون خجلاً . ولم أكن أعلم أنه صاحب قصص حتى ألقي إليّ ذات يوم بمجموعتين قصصيتين أحداهما هذه التي يدور عليها هذا الحديث ، ومعهما ديوان شعر له عنوانه (دموع وعواطف) ، فإذا عدت إلى مثواي جعلت اتصفحها ، ثم اقبلت على هذه المجموعة التي اتخذت عنوان أولى قصصها (عرقوب الخير) عنواناً لها . فإذا أنا مستغرق فيها ، مفتون بها .

ذلك أن الأستاذ محمد المرزوقي ، مؤلفها ، جعل يجلو علي فيها وجهاً آخر من وجوه الحياة التونسية غير ذلك الوجه الذي عرفته في مدينة تونس والقيروان وغيرهما من المدن التي سعدت بزيارتها ، واستمتعت فيها بجمال الحاضر وعبير الغابر . وقد آنسني وأرضى تطلعي ان تكون حياتي ،

بفضل هذه المجموعة ، مرددة بين الحاضرة التونسية ، أراها في الفندق الذي أنزله وآوى اليه ، والشوارع التي أجوبها ، والمقاهي التي أجلس اليها ، والمطاعم التي أغشاها ، بين أوربي ووطني ، والشواطىء الرائعة التي تجلو أجمل صفحات الطبيعة ولوحاتها ، وهؤلاء القوم الذين لا يكادون يدركون انني مصري حتى يقبلوا علي ويبالغوا في الحفاوة بي وبمن معي من أهلي ، وبين البادية التونسية التي لم يكن لي من سبيل اليها إلا في مثل هذه الصور الرائعة والمشاهد البارعة التي تعرضها وتستولي بها على مشاعري هذه المجموعة القصصية .

ثم هأنذا اليوم ، وأنا أحاول الإفلات من حالة الضجر التي اطبقت علي وملأتني ضيقاً ومضاضة ، بمراجعة هذه الفترة ، تكر صورها متتابعة متداخلة . فتبعث في عروقي الهشة الواهنة ما يعيد إليها الحياة جذعة ، أراني منبعثاً إلى بعض أوراقي أقلبها وأتصفحها ، وإلى كتبي التمس فيها مادة هذه الحياة التي سعدت بها في ذلك الأمس البعيد ، فأغيب فيها عن حاضري المثقل بأعباء السنين ، وأستبقى بها تلك المشاعر التي حاطتني بأريجها الفواح ، فإذا بهذه المجموعة القصصية بين يدي ، وإذا بي ، وقد رجعت القهقرى اكثر من عشرين عاماً ، أقبل عليها في غير قليل من النشوة ، سعيداً بالصور التي ترسمها ، والنماذج البشرية التي تجلوها ، إلى جانب سعادتي بهذه القطعة الجميلة من حياتي الماضية ، ماثلة أمامي حية نابضة .

ويا لروعة هذه الصور والنماذج التي يرسمها رجل أديب مرهف الحس طيع الأداة . وقد ولد في البادية ونشأ نشأته الأولى بها ، وبين مشاهدها تفتحت مداركه وترعرعت مشاعره . فإذا جاء بعد إلى الحاضرة ، يلتمس العلم في بعض معاهدها ، كالزيتونة والخلدونية ، فقد جاءها وهو يحمل بين جوانحه صور هذه الحياة الأولى ، مجلوة ناضرة نابضة . لا يكاد يغشيها ما تحفل به العاصمة وما تضطرب به حياته الجديدة ، حتى يبعثها الحنين الذي هو أقوى مشاعر أهل البادية ، فهي تراوحه وتغاديه ، يأنس

ليها . ويستروح بها ، ويجد في استحضارها واستصحابها ومناجاتها متعته لحقة ، ومن ذلك جادت هذه القصص التي تعرض من تلك الحياة صوراً حية ، سواء في ذلك مشاهد الطبيعة في شتى حالاتها ، وعادات أهل البادية وأساليب حياتهم ومسالكهم تجاه ما يلم بهم أو يعرض لهم .

وأول قصص هذه المجموعة ، كما سبقت الإشارة الى ذلك ، القصة الموسومة باسم (عرقوب الخير) وقد أطلق على إحدى شخصياتها تفاؤلاً به .

وهو ، أول ما يبدو في القصة ، صبي في العاشرة من عمره ، شهد مع أبويه سني القحط التي أطبقت على البادية ، فهما يتنقلان به من موقع إلى آخر ، التماساً لما عسى ان يظفروا به لماشيتهم من كلأ رطب أو يابس ، حتى إذا لم يبق لهم من هذه الماشية ما يلتمسون له المرعى ، آووا الى قرية من هذه القرى التي تمثل إحدى الحلقات الوسطى بين البادية والحاضرة ، لعلهم يصيبون فيها ما يمسك الرمق ويرد عنهم عادية الفناء فإذا بهذه القرية قد طاف بها طائف الوباء ، وإذا بهذا الوباء يصرع العشرات من أهلها والملمين بها كل يوم . ولم تلبث هذه الأسرة التعيسة ان تعرضت لشره ، إذ أصاب الأم . فعادت إلى البادية التي هربت منها . حمل الرجل زوجته على ظهره ، واصطحب صغيره ، ومضوا يضربون في الأرض يلتمسون مكاناً يأوون اليه ، إلى أن اتيح لهم بعد مسيرة يوم وليلتين . ولكنهم ما كادوا يبلغونه وينزلون به حتى قضت الأم نحبها . ولم يلبث الأب أن لحق بها ، وكانت عدوى المرض قد مسته ، وخلفا صغيرهما وحيداً ، لا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلاً .

وبينا هو إلى جانب جثة أبيه ، تحيط به أشباح الموت وتفزعه ، مرت به أسرة من هؤلاء الذين شردتهم المجاعة ، مؤلفة من رجل وزوجته وصبيين ، فوقفت عليه ، وأعانته على دفن أبيه . حتى إذا ازمعت المضي في طريقها رغب إليها ان تصحبه ، فاصطحبته ، على كراهية لذلك أحسها الصبي في ملامح الزوجة . حتى إذا جن الليل ، واتخذت الأسرة مكاناً

تبيت فيه ، وانتحى الصبي جانباً ليرقد الى جذع شجرة ، ترامت إلى سمعه أطراف خصام نشب بين الرجل والمرأة حملته الريح اليه ، فهم منه ضيق الزوجة به ، ورغبتها في التخلص منه ، فكره ان يكون مثار خصام ، وان يكون طالع نحس . فأزمع في نفسه أن يفترق عن هذه الأسرة .

فإذا كان الصباح ، وتهيأت الأسرة لاستئناف السير ، طلب الصبي من الرجل ان يدله على أقرب قرية يمكن ان يلجأ اليها ، ثم مضى في طريقه صوب الجهة التي أشار اليها الرجل يوماً ويوماً ، حتى نفدت صبابة الماء التي كان قد تزودبها ، فهبط الى أحد الأودية ، فإذا به يطأ أفعى كانت مندسة تحت التراب ، فلدغته ، فأرسل صيحة رددت البادية صداها ، حتى بلغت آذان أسرة صغيرة أخرى من تلك الأسر المشردة في أنحاء البادية ، مؤلفة من رجل وزوجته .

ومن هنا يبدأ المشهد الأول من مشاهد القصة كما عرضها المؤلف :

مشهد الكهل سليم وزوجته حليمة ، وقد انتهى بهما التطواف في أرجاء الصحراء الى هذه القطعة المقفرة الموحشة التي لا أثر فيها على مد البصر لإنسان أو حيوان ، وإنما هي الريح العاتية ، تزفر زفرات متصلة حامية ، كأنما هي « ترسل انينها من الصباح إلى المساء ، باكية على ما كان لهذه الأرض من خصب وثروة ونعيم . ولم يبق بها الآن غير مفاوز قاحلة ، اغبرت آفاقها ، وعطلت اشجارها ، وسكنت بلابلها ، فحل محل غنائها وتغريدها الشجي نعيق الغربان نهاراً ، وصياح البوم ليلاً »، كما جاء على لسان حليمة ، حين طرقت سمعها وسمع زوجها تلك الصرخة ، فعرف فيها الزوج صرخة صبي مذعور ، رأى أن يهب لنجدته : واستبعدت زوجته ان يأتي الى هذا المكان إنسان ، وتلك صفته . فإن لم يكن ما سمعاه وهما ، فلعلها « استغاثة أرنب عجوز ، أطبق عليها ثعلب جائع » .

أما سليم « فانطلق نحو الوادي ، فمد بقدميه الحافيتين في خطى متسعة ، متلفعاً جبة ممزقة مهلهلة من الصوف ، شاداً وسطه بحزام من

الشعر ، بينما لف رأسه وعنقه برداء قديم من الصوف أيضاً . وفي أحضان الوادي المغبر ، وبين اشجاره الجرداء المحطمة ، حسر لثامه فظهر من تحته وجهه الأسمر الكالح ، وعيناه الضيقتان اللامعتان» .

تلك هي صورة سليم ، كما رسمها المرزوقي في إطار هذا المشهد ، ناطقة الملامح ، بينة القسمات ، قوية التعبير .

أما زوجته حليمة « فقد جلست فوق كثيب صغير ، حريري الرمل ، مستندة إلى جذع هرم لشجرة ارطى ، اضمحلت تحت وطأة الجفاف المستمر » . وفي مجلسها هذا ، في انتظار زوجها جعلت الذكريات والخواطر تحلق عليها وتدور في نفسها . « انها تتذكر تلك الأرطاة بالذات التي كانت تجلس اليها قبل عامين ، وهي خضراء محملة بأوراقها الرقيقة الطويلة المهدلة ، كشعر الفرس الأدهم ، فأصبحت الآن خشبة يأكلها السوس ، واضمحلت أطرافها بفعل الشمس المحرقة ، والرياح العاتية . ومدت حليمة ببصرها الى شياهها الهزيلة، وهي تفتش في بقايا الأشجار على ما تلتهمه من الأعواد اليابسة . رافعة عينيها من حين إلى آخر نحو الوادي ، حيث اتجه زوجها الكهل ، باحثاً عن مصدر صرخة زعم انها صوت استغاثة آدمية» .

ولم تلبث أن رأت زوجها عائداً يحمل على كتفه صبياً وهو يجري به ، متعثراً في كثبان الرمل ، وفي أعواد الحطب المبعثرة في كل مكان . إنه صاحب الصرخة التي أثارت نخوته فبادر في اتجاهها ، وقد رآه يئن تحت ظل شجرة ، بعد أن رأى وهو في طريقه الى مصدر تلك الصرخة جسماً طويلاً لامعاً ممدداً ادرك من أول وهلة أنه جسم افعى كانت مختبئة تحت التراب ، وإلى جانبها آثار صبي تدل على انه مر من هناك ، وأنه وطىء الأفعى فأفرغت فيه سمها ، فعاجلها بضربة اجهزت عليها ، ومضى يتتبع الأثر ، حتى وجده في تلك الصورة ، ازرق الرجل اليمنى منتفخها .

ويبدو سليم من أول ما نشهده في القصة رجلاً طيب القلب نقي السريرة مجبولاً على الشهامة والنجدة ، لا يبالي بشيء في سبيل تحقيق ما

جبل عليه . في حين تبدو زوجته حليمة امرأة حريصة حتى ليمنعها حرصها أن تتجاوب مع زوجها في المضي إلى البحث عن مبعث تلك الصرخة ونجدة صاحبها. كما يبدو ذلك أيضاً في بعض ما كان يتردد على لسانها بعد أن عاد زوجها بالصبي ، وبادر الى مداواته بالطريقة اليدوية ، إذ « جرى إلى أول شاة اعترضته ، فوجهها للقبلة وذبحها ، ثم مال بسرعة فبقر بطنها ، وأخرج أحشاءها ، وقرب منها رجل الصبي . وبعد أن جرح مكان اللدغة حشا الرجل داخل البطن الملأى بالفرث . ولم تلبث كرش الشاة ان اسودت شيئاً فشيئاً ، حتى تمزقت ونتنت رائحتها ، بفعل السم الذي امتصته من رجل الصبي الذي فتح عينيه ، ودبت فيه الحياة من جديد» .

وبعد ذلك يتحول المشهد من العراء الى الخيمة المنصوبة في سهل من الأرض ، وقد نقل سليم اليها الصبي ذا الوجه الأسمر النحيل والعينين السوداوين الحالمتين . والابتسامة الجميلة التي تطوف على شفتيه ، تعبر عن شكره على الصنيع الذي قدم اليه . وهذه الخيمة ـ كما رسم الكاتب خطوطها ـ « مكونة من خرق بالية ، من نسيج شعر المعز ووبر الإبل ، محاطة بسور من الأغصان اليابسة» .

وفي هذا المشهد تبدو لنا صورة اخرى من علاج اللدغة عند أهل البادية ، بعد أن رأينا صورتها الأولى في ذلك الإسعاف الأولي الذي بادر سليم اليه ، فور بلوغه بالصبي مكان زوجته وشويهاتهما . فما ان بلغ سليم الخيمة ، وهو يحمل الصبي ، حتى « وضع حمله على الأرض ، وأوقد النار ، وجاء بقطع من ورق الكاغد الدنس ، وصار يلويها على أصبعه ، ويضعها في حفرة بجانبه ، وأخرج من وسط لفة من الخرق موسى قديمة جرح بها مكان اللدغة من جديد ، وأشعل قطعة من الورق ، ووضعها بمصاصة الدماء وأطبق بها على مكان الجرح ، فجذبت الجلد ، والتصقت بالموضع ، فتركها سليم في مكانها . وصار يمسح رجل الصبي من اعلاها إلى أسفلها ، ثم نزع المصاصة ، فاذا بها ملأى بالدماء السوداء القاتمة ، ثم اعادها مرتين أو ثلاثا ، ثم لف الرجل بخرقة ، وتركه يستسلم إلى نوم هادىء عميق .

ويظل الصبي مستغرقاً في النوم حتى منتصف الليل . وكانت حليمة قد عادت بشياهها الهزيلة عندما أطبقت الظلمة على البرية الموحشة . وشرعت تعد عشاءاً طيباً من لحم الشاة التي ذبحت لمداواة الصبي » . ويستيقظ الصبي نشيطاً قد زايله الألم واستروح العافية ، فيقدم اليه طعام خفيف ، ويأخذ في حكاية قصته التي قدمنا جملة خطوطها . حتى إذا أخذت ظلمات الليل تنجاب نهض « ليستقبل أنوار الفجر المطل على تلك البرية المغبرة التي لا تكاد تصلها تلك الأنوار الوردية الجميلة حتى يتحول جمالها وحمرتها الى شيء من الكدرة القاتمة » وما زال شأنه بالأمس ماثلاً أمامه ، فهو يعرض على الزوجين ان يتولى حراسة الشياه اليوم ، مؤملاً أن يسترد أثناء ذلك صحته كاملة ، فيمضي بعد إلى ما كان ماضياً له ، ويأخذ طريقه الى الناحية التي أشار اليها ذلك الرجل الذي أعانه على دفن ابيه ، وعاقته الأفعى عن بلوغها . ثم مضى بالشياه ، وترك سليماً وحليمة في الخيمة .

وتشهد الخيمة الرجل وزوجته وقد جلس كل منهما إلى الآخر ، يتحدثان عن أحداث الأمس ، ويتفاوضان في أمر الصبي وما ينبغي أن يكون شأنه منهما وشأنهما معه . ويكشف الحوار مرة أخرى عن طبيعة كل منهما ، فسليم الى جانب شهامته ونجدته رجل مؤمن يسلمه إيمانه الى التفاؤل ويدفعه إلى فعل الخير دون نظر في العواقب . وحليمة امرأة لا يزال الحرص يغلبها ويسيطر عليها ، فهي شديدة الحذر ، دائمة التوجس ، لا يفارقها التفكير في الغد والتقدير له .

ويبدأ الحوار بينهما بقول سليم لزوجته :

ـ ماذا ترين يا حليمة لو أسكنا هذا الصبي عندنا ، فنجعل منه ولداً ، حين حرمنا الله الولد ؟ فتجيبه حليمة قائلة :

ـ كم أود ذلك يا سليم . . . ولكن هل فكرت أولاً في مشكلة اطعامه ؟ أنا لنلقي عنتا وجهداً في سبيل التحصل على لقمة العيش ، ونحن اثنان ، فكيف يمكننا أن نجد هذه اللقمة ونحن ثلاثة ؟

ويمضي الحوار بينهما على هذا الوجه : سليم يرى أن الرزق على الله يرزق من يشاء بغير حساب ، وأن التفكير في رزق الغد ، لأنهما زادا واحداً فصارا ثلاثة كفر بالله ، وإن كل شخص يولد ورزقه معه . ثم من يدري : لعل هذا الصبي بشير الرحمة وتكون ناصيته ناصية الخير ، وحليمة لا ترى امامها الا مشكلة الغذاء تواجهها كل يوم . ويترقرق في حديثها شعور الرقة للصبي ، فهي ترى أنه خير له أن يذهب الى العمران بعد أن يدلاه عليه ، فلعله يجد هنالك خيراً ، بدلاً من الجناية عليه باستبقائه يعاني معهما ما يعانياه من عنت وشقاء . فإذا قال سليم يحاورها في هذا : « إن الجناية الكبرى في تسليمه الى هذه الصحراء المجدبة ، وأفاعيها الشرسة ، وعقاربها السامة . ولعله إذا قدر له الوصول إلى العمران ان يلاقى شقاء أكثر من الشقاء الذي يترقبه هنا» . غلبتها الرقة له . وكان عاطفة الأمومة الكامنة في صدرها تحركت وأعلنت عن نفسها عند هذه الصورة المفزعة التي رسمها سليم ، فأدعنت قائلة : « أنت وذاك يا سليم . أمسكه إذن . وما علينا إلا أن نرجو الله أن يجعل الخير في عرقوبه» .

وهكذا انتهى الخلاف بين سليم وحليمة في شأن الصبي باتخاذه ولداً ، وإن لم تخلص حليمة من التفكير في طعام الغد ، بعد ان نفذت بقية الشاة الذبيحة ، وقد اتخذا منها طعام الغداء لهما وللصبي الذي اتخذ مكانه هنالك بإزاء الشياه يرقبها ويحرسها . وقد مضى سليم اليه بعد الظهر يحمل له « شيئاً من اللحم ، مع آنية بها حساء من دقيق الشعير ، وركوة ماء » .

ويعود سليم من لدن الصبي يحمل بين يديه ما كان مبعث دهشة وفرح مما لزوجته . إنها أرنب وجدها عند الصبي قال : إن عقاباً جارحاً كان يطاردها ، فالتجأت منه إلى الشياه ، وهنالك رآها فانقض عليها وذبحها .

وكما كان ذلك بدء تحول حقيقي في مشاعر حليمة ، كان مقدمة تحول في صورة الصحراء .

فبينما سليم وزوجته يترادان فيما بينهما عبارات البشر والفرح بما ساقه الله اليهما من هذه الأرنب ، ولم يكونا رأيا أثرا للأرانب منذ عام تقريباً ، وطال شوقهما إلى لحمها الطري . وقد أشرقت بذلك على حليمة روح التفاؤ ل . وإن لم يفارقها التفكير في الغد ، وغلبها الأمل المستبشر على الحرص المبتئس . بينما هما كذلك إذا بسحاب مركوم يطل من الشمال الغربي ، صاعد في اتجاهها ، إنه عارض ممطر كما قال سليم ، وهو يلفت نظر حليمة اليه .

وبهذا نأخذ مشاهد الصحراء التي رسم الكاتب خطوطها في غير موضع تتحول تحولاً تاماً ، ويترتب على ذلك ان يتحول سياق القصة .

« وتدفقت المياه من كل جانب ، وامتلأت الأودية والقيعان ، وغابت الروابي الرملية امام قوة العارض ، وعم الخير والبركة تلك الأرض الجدباء التي لم تلبث ان اهتزت وربت وانبتت من كل روج بهيج ، وبعد اسبوع كشفت عن أعشاب خضراء بهجة ، واخضرت الغصون والاخشاب التي كانت بالية بالأمس ، وظهرت الأرنب والغزال ، وعردت البلابل ، وتبخرت الحبارى . حافرة بمنقارها شقوق التراب ، مستوية من تحتها على عروق الاخشاب البيضاء ، وانتشرت جيوش من القطا حول مياه الغدر الصافية ، وتبدل كل شيء في الحياة ، فأصبحت الأرض غير الأرض والسماء غير السماء . وهكذا تغيرت وجوه الآدميين ، فاحمر خدا الكهلة حليمة ، ولمعت عيناها بعد ذبول . واكتنز لحمها بعد ترهل ، وتدفق الدم حاراً في وجه عرقوب الخير ، فلمعت عيناه بنظرة ضاحكة واختلطت سمرته بحمرة ، أما الكهل سليم فقد اختفى منه ذلك الوجه المغبر الكالح ، وحل مكانه وجه شديد الأدمة ينضح بماء الحياة . أما الشياه فقد امتلأت بطونها ، وكثر بينها الشجار والنطاح ولم تعتزل الرقص على الروابي والأحجار صغارها وكبارها ، وأصبحت حليمة تخرج كل صباح الى القيعان والسهول . وترجع إلى خيمتها مملوءة اليدين بالأعشاب المأكولة . أما سليم فلا يرجع كل

مساء إلا بصيد في يده . وأما عرقوب الخير فلا تخلو مخلاته من الخرانق وفراخ القطا» .

ولا يسع القارىء إلا ان يقف أمام هذه اللوحة متأملاً خطوطها وألوانها . مأخوذاً بروعة تصويرها وحيوية تعبيرها عن مشاهد الخصب التي شملت البادية في شتى وجوهها ومختلف نواحيها : اشجارها وأزهارها ، أوديتها وقيعاتها وغدرانها ، روابيها وكثبانها ، حيوانها من طيور وأرانب وحبارى وغزلان ، وإنسانها متمثلاً في الكهل والكهلة والصبي ، إلى غير ذلك من حياة البادية التي تحولت فجأة ، حتى ليبدو انها لم تدع شيئاً دون أن تعرضه في أدق معرض ، وفي أصدق تعبير . ويزيد هذه اللوحة روعة مقابلتها بالصور التي رسمها المؤلف قبل لمشاهد الجدب والجفاف ، في دقة وأحكام وحيوية .

وقد كان لتحول البادية من الجدب الى الخصب على هذه الصورة أثره في تحول مسار القصة . وهي تكشف لنا بهذا التحول عن بعض عوامل التحول من البادية الى الحاضرة . وكما رأينا من قبل في قصة الصبي ان القحط الذي تصاب به البادية يدعو بعض أهلها الى الهرب منها ، واللجوء الى القرية ، لعله يصيب فيها ما يقيم أوده ، فإنها تدلنا هنا على أن ما يتيحه الخصب من رخاء قد يدفع صاحبه الى القرية يثمر فيها ماله .

لقد فتح هذا الرخاء لسليم السبيل الى القرية حين كثرت شياهه وسمنت ، فذهب بأحداها الى القرية ليبيعها ويشتري بثمنها شيئاً من الطعام لأهله ، ثم خطر له أن يشتري إلى جانب ذلك قدراً من البذور يستنبتها على ضفاف الغدران خضرا وقثاء وجزراً وبصلاً وثوما ، يتخذ منها طعامه ، ويبيع ما فضل عنه ، فأطرد بذلك ذهابه الى القرية ، وتحولت حياته ، فإذا هو يصطنع الزراعة والتجارة الى جانب رعي الغنم . وأطردت سنوات الغيث ، وأعوام الزرع والضرع ، « وتدفق الخير على العائلة ، وامتلأت اهراؤ ها ومطاميرها قمحاً وشعيراً ، كما اكتظت زرائبها واخصاصها شعراً

وصوفاً وغلات مختلفة ». وكلما نمت الثروة وكثر المال اشتدت صلة سليم بالقرية وحاجته اليها ، فلم يعد ما بني من زرائب واخصاص في البادية كافياً ، فابتنى في القرية داراً كثيرة الغرف « صار يخزن فيها جميع غلاته السنوية ، من سمن وصوف وشعر وقمح وشعير وتمر ». ثم غلبت عليه هذه الحياة الجديدة ، « فصار يقضي من كل سنة أربعة أشهر أو يزيد في القرية». ثم دعاه ذلك إلى أن يفكر في أن ينصرف الى التجارة انصرافاً تاماً ، فيفتح لنفسه دكان تجارة في القرية ، ويقيم بها وزوجته اقامة دائمة ، لولا ايثار حليمة حياة البادية ، ومعارضتها التحول عنها الى القرية . الى أن كان زفاف عرقوب الخير الذي تقرر ان يكون فيها ، فانتقلت الأسرة إليها . « واستطاع الشيخ سليم الذي أصبح كبير القرية ومدبر أمورها وصاحب الكلمة العليا فيها أن ينفذ ما كان فكر فيه سابقاً ، فلازم القرية . ولكن لا ليشتغل بالتجارة او بالبساتين ، بل ليلازم المسجد وعبادة الله ، ولا يغادر القرية إلا شهرين في الربيع» .

وإذا كان سليم يمثل في هذه القصة عنصر التحول الاجتماعي من البادية الى الحاضرة ، فقد كانت حليمة تمثل عنصر الارتباط بالبادية وإيثارها والحب الشديد لها ، او عنصر الاستقرار فيها . فإذا عرض عليها زوجها ان يقسم اسرته قسمين : يقيم احدهما في البادية ، يتولى امر الإبل والغنم والزراعة ، وليكن عرقوب الخير وزوجته ، ويقيم القسم الآخر ، يعنى نفسه وزوجته ، في القرية ، انبرت له قائلة :

ـ « أنت جننت يا رجل ! اتريد ان أقضي بقية عمري داخل جدران أربعة ، تخنق أنفاسي وتقضي على إحساسي؟» .

فإذا جادلها في ذلك ، وذكرها بأرزاقه في القرية ، وبحاجتهما إلى الراحة ، لم يغن جداله شيئاً وتحسم هي الجدال بما يعبر عن احساسها نحو البادية ، ومبلغ نفورها من الحاضرة ، إذ تقول له :

ـ« كيف تريد مني يا رجل ان أترك هذه الخيمة التي يتلقاني فيها

النسيم من كل جانب ، وتطالعني فيها الشمس الضاحكة إذا أشرفت صباحاً ، وإذا غربت مساء ، وأرى منها الفضاء اللانهائي ، فلا يرد بصري جدار مظلم ؛ ولا يحول بين سمعي وبين أزيز الرياح المتضاربة . وثغاء الشياه ، ورغاء الابل ، وهدير الفحول . وغناء البلابل في المروج . حائل سميك ؟ كيف تريد ان انتقل إلى منزل يقصر نظري ويثقل سمعي . لا أرى فيه الشمس إلا عند الظهيرة ، ولا اسمع فيه اصوات الرياح إلا إذا كانت عاصفة ؟ دعني من رأيك يا سيد سليم . واتركني حيث درجت وتربيت. ان الشهور القليلة التي اصبحنا نقضيها بالقرية سنوياً كافية وحدها لأن تخصم اعواماً طويلة من عمري . دعني بربك في هذا الفضاء الحر الطليق . فإن جلسة واحدة في ظل أرطاة ظليلة . ونفحة واحدة من نوار الرتم الأبيض . ونزهة واحدة في هذه المروج المليئة بالشعارى والرفج لأعز علي من بساتين القرية ونخيلها ومياهها الدافقة وظلالها الوارفة . بل اني لأرجو الله ان يقدر موتي هنا في هذه الأرض العريضة ، فأدفن الى ظل أرطاة » .

وبهذه الكلمات التي وضعها الأستاذ المرزوني على لسان حليمة استطاع ان يبرز المشاعر الكامنة في أعماق الكثير من أهل البادية نحو البادية . والتي تجعلهم دائمي الارتباط بها والإيثار لها ، مهما لقوا فيها من عنت ، وكبدتهم الإقامة فيها من عناء ، لا تصرفهم عنها ضرورات الحياة ، او مغريات الحضارة ، ولا يلقون بالاً الى مثل تلك الاعتبارات التي جعلت سليم يتجه الى القرية ، يريد ان يتخذها مقاماً له ، وهي الاعتبارات التي تمثل عنصر التحول من البداوة الى الحضارة ، ولم تفلح في زحزحة حليمة عن موقفها ، حتى حينما اقترح زوجها ان يبقيا في البادية ، ويدفعا بعرقوب وزوجته الى القرية ، نظراً لهذه الاعتبارات ، فإن حليمة التي تمثل عنصر الارتباط بالبادية لم تلبث ان عارضت اقتراحه وردت عليه قائلة :

ـ « وهذا لن يكون أيضاً . ولن أكون جانية على ابني وزوجته ، فأخرجهما من جنة هذه الصحراء الى سجن القرية البغيض ، فيتعلما كسل أهل القرية ونفاقهم وابتساماتهم الصفراء ، ويصبحا هما واطفالهما عرضة

للأمراض المختلفة وعرضة لعيوب التحضر المقيتة» .

ولكن هذا الصراع بين عنصر التحول من البادية ان الحاضرة ، وعنصر الارتباط بالبادية والإخلاد اليها ، لم تلبث قوانين التطور الاجتماعي ان حسمت أمره . ولم يغن شيئاً اباء حليمة أن تترك البادية واصرارها على الآباء ، فقد كانت تعترض بذلك العوامل الماضية في طريقها نحو التحول ، وتقاوم قوانين التطور الاجتماعي التي لم تلبث ان فرضت نفسها ، فإذا بالأسرة كلها قد انتقلت الى تلك القرية التي كان سليم قد ابتنى فيها داراً يخزن فيها غلاته ، ويباشر منها بعض شهور العام تجارته . فقد كان أمراً مقضياً ان يحدث هذا التحول منذ اصطنع سليم التجارة .

وفي هذه القرية زفت ريم التي اختارتها حليمة لتكون زوجة عرقوب الخير . من « عائلة كريمة تتركب من والد وابن وفتاة تقوم لهما بإعداد الطعام ، ماتت امها من سبع سنوات ، وكفلها أبوها ، وتنقل بها من مكان إلى مكان . حتى بلغت الرابعة عشرة من عمرها . وهم لا يملكون غير جمل وعشر شياه . متوسطة الجمال ، متينة البنية ، شديدة الحياء ، لا تتكلم إلا همساً ، ولا ترفع عينيها الى وجه رجل ، حتى والدها وأخيها . » ولكن حفلات الزفاف الليلية الثلاث كانت حفلات بدوية خارج القرية . وقد رسم لها الكاتب صورة بارعة .

وفي القرية شاهدت حليمة ـ قبل وفاتها ـ احفادها الثلاثة من ابنها المتبنى عرقوب الخير .

وفيها اصبح الشيخ سليم كبيرها ومدبر امورها وصاحب الكلمة العليا فيها .

وفيها جمعت الصدفة بين عرقوب الخير وأخ له ، كان أبوه ، حين حضرته الوفاة ، قد أوصاه بالبحث عنه . وكان قد هرب ، وهو في العاشرة من عمره . من اضطهاد زوجة أبيه له ، فهام على وجهه . ثم اتيح له ان يتثقف ثقافة اهلته لبعض مناصب السلطة ، ثم رغب في أن يعمل في ذلك

المركز الذي تقع فيه القرية ، ليبحث عن أهله .

وفيها مات العم سليم .« تاركاً أرزاقه في القرى بيد سيد البلاد وحاكمها . الذي اصبح ولده الثاني . والذي عاش مع أخيه عرقوب الخير في سعادة . . يتحدث بها الكبير والصغير ، وتضرب بها الامثال» .

وبهذا تنتهي القصة ، وقد استطاع صاحبها ، الأستاذ محمد المرزوقي ، أن يجعل منها معرضاً لطائفة من صور البادية . أجاد تصويرها . ومثل فيها طائفة من شخصياتها ، يعتبر كل منها نموذجاً من نماذج الحياة الإنسانية بها . وقد اتيح له ان يوضح ملامحها ويبين قسماتهما .

وقضى بذلك حق الأدب في هذا الجانب من جوانبه .

كما يمكن القول ، إلى جانب ذلك ، ان هذه القصة تضع أمام الباحثين في علوم الاجتماع والانتروبولوجيا بعض المسائل الخاصة بتطور المجتمعات وعوامل هذا التطور ، وبعض الموضوعات التي تمس نشأة الشاعر الإنسانية وارتباطها بصروف الطبيعة في البادية ، من إيمان شديد وتسليم مطلق ، كما يتمثل ذلك في سليم ، ومن حذر بالغ وحرص دائم . في مثل الصورة التي رأيناها في حليمة .

إنها قطعة من الفن الصادق ، تبعث المتعة . وتدعو إلى التأمل والتفكير في قوانين الحياة معاً : المتعة بما تعرض من مشاهد وما ترسم من صور ، والتفكير فيما يوحي به مسار القصة واحداثها من بعض هذه القوانين التي تصنع الأخلاق ، وتوجه السلوك ، وتسيطر على المجتمع .

أحمد رفيق المهدوي
شاعر ليبيا الأول

في الأيام الأخيرة من عام ١٩٥٥ كنت أتهيأ للسفر الى ليبيا ، استاذاً بجامعتها الناشئة التي كانت ظروف انشائها تمثل صورة من صور الصراع بين الإرادة العربية والنوازع الاستعمارية ، كما كان قيامها مظهراً من مظاهر الروح العربية الصامدة إزاء الخطط الاستعمارية ، حتى تقهرها وتبطل كيدها .

وكما أن لكل مسافر جهازه الذي يتجهز به فيما هو مقبل عليه ، فقد كان جهازي الذي جعلت ألتمسه ، حريصاً عليه ، هو تكوين صورة عن ليبيا ، تمثلها في شتى نواحيها . وقد استطعت اذ ذاك ان اكون لنفسي هذه الصورة على نحو ما . ولكنها كانت بعيدة عن أن تكفيني ، فأقنع بها ، إذ كان ينقصها أهم جوانبها ، وهو الجانب الأدبي . ذلك أن صورة أي بلد تظل صورة سطحية منقوصة إذا لم تعن بتمثيل الحياة الأدبية . فالأدب هو الصورة الحية الصادقة التي تمثل روح الشعب ، وتعبر عن نوازعه ، وتصور حياته الظاهرة والباطنة جميعاً .

ولم تكن ليبيا غريبة علي ، فقد ربطت بيني وبين بعض أبنائها صداقة ترجع إلى عهد الصبا ، ومازالت هذه الصداقة من أول ما اعتز به ، وكانت صور جهادها الرائع ومقاومتها الباسلة للطغيان الايطالي مما مثلها في أذهاننا

منذ عهد بعيد ، رمزاً للكفاح الذي تتداعى اليه الشعوب العربية لمواجهة الاستعمار الأوروبي ، تلك كانت صورة ليبيا ، وحسبنا إذ ذاك بها ، فلم نكن نشعر بالحاجة الى التماس غيرها . ولم نكن نسأل أنفسنا إذ ذاك : ما أدبها ؟ من هم شعراؤها الذين يعبرون عنها ؟. فقد كنا نرى صورة تلك البطولة التي ترمز لها ماثلة في الشعر العربي عامة .. ثم لا يعنينا بعد إن كان قائل هذا الشعر مصرياً أو عراقياً أو شامياً او ليبياً .

كنا نقرأ لصبري والرصافي وفؤاد الخطيب وحافظ ابراهيم وشوقي ومطران وأحمد الكاشف وأحمد محرم ومصطفى صادق الرافعي وغيرهم من الشعراء الذين كان شعرهم في تصوير المعارك وإثارة الحمية العربية مازال يتردد بيننا ، فنجد فيه صورة لهذه البلاد تملأ قلوبنا فخراً وزهواً ، وإن أثارت فيها الوجيعة والأسى . كنا نتناشد قصيدة حافظ ابراهيم :

طمع القى عن الغرب اللثاما ... فاستفق يا شرق واحذر ان تناما

والتي يقول فيها :

عجز الطليان عن أبطالنا ... فأعلوا من ذرارينا الحساما
كبلوهم ، قتلوهم ، مثلوا ... بذوات الخدر . طاحوا باليتامى
ذبحوا الأشياخ والزمنى ولم ... يرحموا طفلاً ولم يبقوا غلاماً
اطلقوا الأسطول في البحر كما ... يطلق الزاجل في الجو الحماما
فمضى غير بعيد ، وانثنى ... يحمل الأنباء شؤماً وانهزاما
قد ملأنا البر من أشلائهم ... فدعوهم يملؤوا الدنيا كلاما

الى غير ذلك من القصائد التي كنا نقرؤها ونتناشدها ، والتي كانت تعبر عن الأحداث الكبرى في ليبيا ، وتمثل بطولتها الصامدة الماضية في سبيلها . وفي هذه القصائد كنا نتمثل الصورة الأدبية لهذا الإقليم من أقاليم البلاد العربية ، وكأنما لم يكن يعنينا بعد ذلك ان نعرف أي شعب من الشعوب العربية ينتمي اليه هذا الشاعر او ذاك ، فقد أرضت هذه الصورة ، على كل حال ، حاجتنا النفسية ونوازعنا الأدبية ، كما تجاوبت مع مشاعرنا الوطنية .

كانت هذه القصائد التي كانت الشاعرية العربية تنطلق بها عند كل حدث من الأحداث الليبية ، والتي اتمنى لو أتيح لها من يجمع شتاتها ويصل ما بينها ويدرس اجواءها وملابساتها . من أقوى الصلات التي كانت تربط الشعب الليبي بسائر شعوب الأمة العربية .

ولكن كان لا بد لفترة البطولة الليبية ان تبلغ غايتها ، وتجد ظروف وملابسات تكمن خلالها هذه البطولة التي كانت تغمر سائر وجوه الحياة الليبية وتحتاج الأمة العربية في أقطارها المختلفة الى معرفة هذه الوجوه ، وتبين تلك الملامح ، وتحقيق التواصل بينها وبين الشعب الليبي . ولكن شيئاً من ذلك لا يكاد يتفق ، لأننا كنا لا نزال نعاني من عقابيل الفرقة والتشتت التي قضت على الأمة العربية ان يعيش كل شعب منها في نفسه ، ولأن الحاجز الحديدي الذي أقامه الاستعمار بين الشرق العربي والمغرب العربي ، وبالغ في تشييده وتحصينه ، لم يكن قد تقوض تماماً بعد . . ثم لأن « الوعي الأدبي » ـ ان صح هذا التعبير ـ لم يكن متمشياً مع الوعي القومي العربي عامة . ومن ذلك وجدنا انفسنا منعزلين عن الحياة الأدبية في البلاد الليبية ، ووجدتني أسائل نفسي عنها ، واتحرى في تلك الأيام القلائل وأنا أتهيأ للسفر الى ليبيا ملتمساً السبيل اليها ، وقد قوى احساسي بضرورة الإلمام بها ، فلا أجد من يدلني عليها ، ويرسم لي صورة منها .

لقد عرفت ، إذ ذاك ، تاريخ ليبيا في خطوطه الكبرى ، وتاريخها الحديث خاصة ، بما نشر في مصر عنه ، مثل كتاب الدكتور فؤاد شكري : السنوسية ، دين ودولة ، أو كتاب الدكتور محمود الشنيطي : قضية ليبيا . . إلى جانب ما كانت تنشره الصحف المصرية » كما استطعت أن أعرف شيئاً عن المجتمع الليبي في بواديه وحواضره . . والتعليم في ليبيا : معاهدة وإتجاهاته ، ولكني عييت بمعرفة الحياة الأدبية ، وخاصة النشاط الشعري ، في ليبيا : وكان ذلك أول شيء تعنيني معرفته ، لا لأنني من المشتغلين بالأدب وتاريخه فحسب ، بل لأن الأدب ـ كما قلت ـ هو خير معبر عن حياة الشعب .

فإذا ما بلغت مدينة بنغازي ، موطن الجامعة الليبية الأول ، متهلل النفس منشرح الصدر . . متطلعاً الى ذلك الشيء الذي التمسته في مصر فلم أوفق اليه ، فقد كان اسم « رفيق » هو أول اسم اسمعه . بل كان الاسم الذي تردده جميع الألسنة كلما عرض ذكر الأدب الليبي ، في إعجاب وزهو ، وفي حب وشغف .

وكان تردد اسم رفيق على هذا النحو ، والمنزلة الرفيعة التي يتبوؤها عندهم ، والحب الشديد الذي يضمرونه له ويؤثرونه به . مما كان يغريني إغراء شديداً ـ إلى جانب رغبتي في التعرف الى الحياة الأدبية عامة ـ بالبحث عن شعره ، والتماسه في شتى مظانة .

ولكن ما نشر من شعر رفيق في المناسبات المختلفة لم يكن يمثل إلا نسبة صغيرة من جملة شعره . أما سائره فكان ما يزال مخطوطاً في صحائف وأوراق وجذاذات مختلفة هنا أو هنا ، أو محفوظاً تردده الرواية الشفوية .

فأما القليل المنشور فقد نشر بعضه في مجلة ليبيا المصورة التي كان يصدرها المرحوم عمر فخري المحيشي ، فيما بين سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٤١ وكان رفيق يبعث اليها بشعره ، وببعض الفصول التي كان يكتبها ، من مقامه اذ ذاك في تركيا ، وبعضه نشر في مجلة ليبيا التي كان يصدرها الصديق الكريم الأستاذ مصطفى بن عامر ، فيما بين سنة ١٩٤١ وسنة ١٩٥٣ ، ومجلة عمر المختار التي كان يصدرها الأستاذ مصطفى قبل ذلك بين سنة ١٩٤٣ وسنة ١٩٤٤ ، وبعض الصحف الأخرى كجريدة بريد برقة ، والمناخ ، وبنغازي ، والوطن .

وكان يبدو لي ـ بادىء بدء ـ ان هذا القليل الذي نشر في المجلات والصحف هو القدر الذي يستطيع الباحث ان يطمئن الى الظفر به ، ما دامت هذه الصحف قد سجلته وحفظته . ولكني لم أكد أبدأ البحث حتى تبين لي أنها طمأنينة زائفة لا حقيقة لها ، فإن هذه الصحف والمجلات التي سجلت شعر رفيق وحفظته فترة من الزمن لم تلبث ان عدت عليها

العوادي ، ذلك ان المحن المختلفة التي عانتها البلاد الليبية ، والاضطرابات العنيفة المتصلة التي تعرضت منذ نشوب الحرب الثانية ، قد أصابت هذه المجلات والصحف ، فتبعثرت وتبددت وضاع معظمها ، او على الأقل الكثير منها ، حتى أن مجلة كمجلة عمر المختار لم استطع ان أظفر بعدد واحد منها ، أو حتى مجلة ليبيا التي ظلت تصدر إلى شهر أغسطس سنة ١٩٥٣ لم استطع ان أظفر بمجموعة كاملة منها .

وإذا كان هذا شأن المجلات التي من شأنها أن تحفظ وتدخر ، فما بالنا بالصحف ، بل ما بالنا بما كان الأفراد قد احتفظوا به لأنفسهم من شعر رفيق في أوراق وجذاذات ، أو ما استطاعت الذاكرة ان تستبقيه في خلال تلك الفتن والاضطرابات .

وهكذا كان جمع شعر رفيق أمراً عسيراً بالغ العسر ، وخاصة بالقياس الى رجل مثلى ، وإن اجتمع لي ـ بعد فترة طويلة ومعاناة متصلة ـ قدر منه لا بأس به . ثم علمت ان لجنة ألـفت بعد وفاته لتقصى شعره . وإخراج ديوانه ، فكان ذلك مبعث غبطة ملأت أرجاء النفس . ولكني لا أعلم بعد عن هذه اللجنة ، لجنة الرفيقيات ، إلا انها خرجت الجزء الأول من الديوان ، منذ نحو سبع سنوات ، متضمناً شعره في الفترة الثالثة من فترات حياته فيما بين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٤٦ .

وحين أخذت في درس شعر رفيق وشاعريته كان أول ما مثل أمامي هو هذا السؤال :

ما سر هذا الإعجاب العام الذي ظفر به رفيق في طبقات الشعب المختلفة ، من عامة وخاصة ، ومن ذوي الثقافة الواسعة والثقافة المحدودة ، حتى كان اسمه ـ كما قلنا ـ على كل لسان ، وفي كل قلب ؟

ايكون مرجع الأمر في هذا إلى ان رفيقاً يعد أول شاعر ليبي استطاع ان يعبر عن مشاعر الشعب الليبي بشعر الفصحى ، بعد ان كانت الشاعرية الليبية لا تكاد تجد سبيلاً الى هذا التعبير الا في الشعر الشعبي ، وقد ظل

هذا الشعر وحده المعبر عن مشاعر الشعب ، المصور لأحداث الوطن ، المسجل لبطولات الجهاد ، في انطلاق وتدفق ، وفي يسر وسماحة ؟

ولكن ما بال هؤلاء الشعراء الذين سبقوا رفيقاً وهؤلاء الآخرين من أترابه ؟ ما بالهم لم يظفروا ـ فيما يبدو لنا ـ بما ظفر به رفيق من إعجاب عام وحفاوة بالغة ، ولم ينزلوا من الشعب المنزلة التي أصابها ؟

وإذا كنا لا نملك الوسائل التي تيسر لنا درس هذه الملاحظة درساً دقيقاً ، وتتبعها تتبعاً مستفيضاً وتعرف الملابسات المختلفة التي تلابس هذه الظاهرة، وإذا كنا لا نملك بعد الدخول في شيء من المقارنة والموازنة بين رفيق ومعاصريه ، وليس ذلك بالشيء اليسير ، فلهذه الدراسة مقدماتها ووسائلها التي لم تتح لنا على الوجه الذي تقتضيه هذه الدراسة فليس لنا إلا أن نقتضب القول اقتضابا. ونتلمس بعض الأسباب التي ميزت شعر رفيق . فنال به هذه الحظوة الشعبية الكبرى .

وأول ما يفترضه الباحث ان مثل هذه الحظوة الشعبية ينبغي أن يكون مردها صفة مشتركة بين شعر رفيق وهذا الشعب الذي يؤثره ذلك الإيثار : وماذا عسى أن تكون هذه الصفة المشتركة غير ما يمكن أن يسمى بالشعبية ؟

فما هي هذه الشعبية في الشعر ؟ انها ليست الابتذال بطبيعة الحال ، فإن الابتذال إنما يعجب العامة وحدها ، بل أدنى طبقاتها . ثم لا يلبث ان يتلاشى .وشعر رفيق موضع اعجاب العامة والخاصة جميعاً ، وهو شعر خالد لا يزيده الزمن إلا نصوعاً .

وهنا أرجو أن يأذن لي القارىء ان أرجع به ـ في تفسير ما يمكن ان يسمى بالشعبية في الشعر ـ إلى شيء من حديث النقد الأدبي القديم ، وأقف معه عند بعض الكلام عن المذاهب الأدبية في الشعر .

فنقادنا القدامى يصنفون الشعراء صنفين كبيرين : صنف المطبوعين ، وصنف المتكلفين . . فالمطبوعون هم الذين يقولون الشعر

كما يتفق لهم وكما تفيض به شاعريتهم ، لا يغوصون عليه ، ولا يتكلفون له ، فشاعريتهم فياضة ثرة . سريعة التأثر بما حولها ، والتجاوب معه ، والاستجابة له . ثم هم بعد ذلك لا يكادون يراجعون ما تنطلق به شاعريتهم ، فذلك شأن الشعراء المتكلفين الذين ينحتون من صخر ، كما يقال عن الفرزدق في شعره ،ثم هم لا يزالون ينظرون في شعرهم :ينقحونه ويهذبونه ، يثبتون وينفون . ويبدلون ويغيرون : يضعون كلمة مكان كلمة ، أو يستبدلون صورة بصورة . ومن أجل ذلك سموا بالشعراء المتكلفين ، لأنهم يكلفون انفسهم ويشقون عليها ويعنفون بها ، فيما لا يزالون ماضين فيه من التنقيح والتهذيب ، والنظر بعد النظر في اعطاف الشعر ومتونه ، حتى يجيء مستوياً مصقولاً ، لاعوج فيه ولا أمت ، محققاً للمثل الأعلى الكامن في نفوسهم ، المستقر في قرارة مشاعرهم .

وكلا الرجلين ، المطبوع والمتكلف ، شاعر يمثل اتجاهاً فنياً في الشعر ، له نظيره في سائر الفنون من النحت والتصوير وما إليهما .

وطبيعي ان يكون المتكلف مقلا ، فقد كان من ذلك الصنف من يمضي عاماً كاملاً في تنقيح القصيدة الواحدة ، حتى سميت قصائده بالحوليات ، وطبيعي ان يكون أكثر اعتباراً لقوانين الشعر ، وتقيداً بتقاليده ورسومه ، منه بالشعر في نفسه ، من حيث كونه تعبيراً عن النفس ، وتصويراً لما تتأثر به ، ومن ذلك كان بعض النقاد يسمى هذا الصنف من الشعراء بعبيد الشعر .

كما ان من الطبيعي ان يكون المطبوع على عكس ذلك كله ، فهو مكثر ، وهو في إكثاره هذا أكثر تجاوباً مع ما حوله ، إذ كان لا يتزمت في قبول ما تعرض عليه شاعريته ، وهي شاعرية خصبة بطبيعتها ، وإذ كان كذلك فهو أسير شعراً . وأكثر بالإعجاب ظفراً ، أو قل إنه أكثر شعبية . إنه منطلق مع شاعريته في جميع الفنون ، سالك بها في شتى المسالك ، قريب بذلك من الروح الشعبية العامة ، وان تنكر لبعض التقاليد الفنية ، أو

تحلل من بعض القيود ، مما قد يسخط النقاد عليه ، بقدر ما يرضون عن الشاعر المتكلف . ولكنه يعوض ما فقده من رضا النقاد عنه بهذه الشعبية ، أو هذا الإعجاب العام الذي اتيح له .

ولدينا في تاريخنا الأدبي مثل قريب يوضح هذا المذهب ويبين جوانبه ، هو بشار بن برد . فبشار سيد الشعراء المطبوعين ، قال في كل شيء دون أن يقف عند حدود ما رسمه الشعر القديم من موضوعات شعرية ، وتجاوبت شاعريته مع كل صورة من صور الحياة . فاستهوى بشعره طبقات الناس جميعاً : يرددونه ويحفظونه ويتغنون به ، لأنهم رأوا فيه انفسهم ، وأحسوا فيه مشاعرهم ، وان لم يرض عنه النقاد رضا تاماً . وكيف يرضون عنه وقد طوع الشعر ـ على جلالته ـ لأنواع من العبث لا معنى لها في رأيهم ، وأقحم عليه فنوناً من القول لا تليق به . فبالرغم من انه استطاع ان يغمر الجو الأدبي في عصره بروائعه ، فإننا نجد رجلاً كأبي عبيدة ـ وهو من المائلين مع بشار ـ يقول عن شعره حين سئل عنه : « شذرة وبعرة» .

ولكن بشاراً استطاع ان يتجاوب مع عصره أشد التجاوب وأبعده مدى . ويعبر عن روح الشعب أصدق تعبير . ومن ذلك ظفر بتلك الشعبية الواسعة .

ذلك هو ما تعنيه كلمة « الشعبية » في الشعر

وتلك الشعبية هي التي نفترض أنها الخاصة التي اظفرت رفيقاً بهذه المنزلة .

ونحن حين ننظر فيما أيدينا من شعر رفيق لا نشك في أنه من طراز الشعراء المطبوعين الذين يمثلهم من الشعراء المتقدمين بشار وأبان وأبو نواس ، كما يمثلهم من الشعراء المعاصرين عندنا ابراهيم ناجي .

فرفيق شاعر مطبوع بكل ما في هذه الكلمة من معنى . ومظاهر الطبع في شعره واضحة . فهو شاعر مكثر فياض الشاعرية شديد التأثر بمظاهر

الحياة المختلفة . جادة وهازلة . سريع الاستجابة لها والتعبير عنها تعبيراً استطاع ان يوفق فيه بين الديباجة العربية والروح الشعبية ، وان يطعم الفصحى بروح العامية ، وبذلك كان أقرب الشعراء الى الشعب وآثرهم عنده ، كما قلنا .

ومما قد يبدو لأول وهلة ـ انه من المفارقات التي تثير العجب وتبعث على التساؤل ان هذا الشاعر الذي آثره الشعب الليبي هذا الإيثار . لقربه منه ، وشدة امتزاج شعره به وقوة تعبيره عنه في حالاته المختلفة ، لم يقم بين هذا الشعب قدر ما أقام بعيداً عنه ، فهو لم يكد يبلغ الثالثة عشرة من عمره حتى كان عليه ان يترك ليبيا الى مصر ، فأقام في الاسكندرية فترة صباه وشبابه الأول . ثم عاد اليها بعد نحو سبع سنين . وكانما عاد اليها ليتاهب للرحيل عنها . فرحل إلى تركيا وظل بها تسع سنين ، فإذا دعته بعد ذلك بعض الدواعي الى مراجعة ليبيا ، فإنه لا يكاد يعود اليها حتى يفارقها مرة أخرى الى تركيا ليقيم فيها عشر سنين متصلة . ثم لا يعود بعد إلى بلاده الا وهو شيخ ناهز الخمسين .

ذلك ما قد يبدو للوهلة الأولى انه مفارقة عجيبة ، ولا أراها كذلك بالقياس إلى شاعر مثله . فما أحسب أن رفيقاً ترك ليبيا قط ، أو بعد عن معاهدها ، أو فارق هذا الشعب الذي أحبه ، وإن هاجر إلى تركيا وأقام فيها نحو العشرين عاماً . ذلك أن الشاعر الحق لا يحيا كما يحيا سائر الناس ، فله عالمه الخاص يحمله معه أينما ذهب ، ويعيش فيه حيثما كان ، لا يصرفه عنه ما يغمر حياته الظاهرة .

وكذلك كان رفيق . لم يكد يستقر في ليبيا بعد أن زين له بعض أهله العودة من الاسكندرية اليها حتى تبين له ان الإقامة فيها ضرب من المحال ، فقد كان العسف الايطالي والطغيان الاستعماري اكثر مما يستطيع ان يتحمله شاب مثله ، متوثب النفس متطلق الروح ، ممتلىء القلب بالمثل الوطنية الرفيعة ، فهاجر إلى تركيا ، حيث كان أبوه وأخوه قد سبقاه اليها . وكانت تركيا في ذلك الوقت قد أخذت تتنكر لجميع الصلات التي كانت

تربطها بالإسلام والعربية . وما كان أشق ذلك على رفيق . فما هكذا كان يحسب انه واجد هذه البلاد التي لجأ اليها . فراراً بدينه وعروبته من طغيان المستعمر . ولكن لا بد مما ليس منه بد ، ولا بد من أن يتحمل الإقامة فيها ، على ضيقه بها وتبرمه ببعض صور الحياة فيها . فظل بها تسع سنين عدداً . وهو في غضارة السن ونضرة الشباب وتفتح النفس للتأثر بما حولها ، والانطباع بالصور الجديدة التي تحيا فيها . ولكنه جاء الى تركيا يحمل معه عالمه ، عالم الذكريات ، ذكريات السنوات القلائل التي امضاها في ليبيا ، منذ عاد من الاسكندرية حتى هاجر الى تركيا .

عاش في هذه الذكريات التي ظلت حية نابضة في وجدانه ، تغمر حياته ، وتغاديه وتراوحه . وتمثل له في كل خطرة تخطر له . وبذلك ظل متصلاً اوثق الصلة بالوطن الذي هاجر منه . والبيئات التي عاش من قبل فيها . والرفاق الذين كان يعاشرهم ، وصور الحياة التي كان يحياها معهم . وكان له من حسه المرهف وشاعريته الصافية ما أعانه على أن يحيط نفسه بهذه الصورة وزينها له ، فهو لا يكاد يحيا حياته الخاصة الشعرية الا فيها . كما أعانه على ذلك ما أنكرته نفسه منذ دخل الى تركيا من هوس شديد في التنكر للعروبة . مما نستطيع أن نتمثل شيئاً منه في هذين البيتين الذين قالهما عندما فاجأته تركيا بذلك .

جئنا الى الترك كيما نستجير بهم   فأكرهونا على لبس البرانيط
كيف السبيل ؟ وما جئنا الى بلد   إلا ابتلينا بأولاد الـ . . .

أو في مثل هذه الأبيات التي قالها بعد ان مضى العام الأول منذ هاجر :

تكامل حول منذ فارقت اوطاني   فما نلت في اثنائه غير أحزان
نوى قذف زمت ركابى ، ولم تزل   تقلقل بي حتى أتت أرض جيحان
فألقت عصا التسيار في شر بقعة   تألب في أرجائها شر سكان
تركت بلادي اذ شعرت بأنني   سألقي صغاراً منه يأنف وجداني

وسرت لأرض غير أرضي مؤملاً لعز ، فكانا في المصيبة سيان

أو قوله من قصيدة طويلة جعلها في صورة رسالة بعث بها إلى أحد اصدقائه في ليبيا وهو الشيخ أحمد بن موسى البرعصى :

قررت بالنفس لا من أجل عيشتها لكن مخافة الحاق الإهانات
حتى استجرت ،ولكن كنت من نكدى كالمستجير بمعرو في الملمات

فهو لم يستطع إذن أن يلائم بين نفسه وذلك المجتمع الذي يعيش فيه ، فكان نوعاً من العزلة ، ولم يكن ثمة ما يستطيع أن يأنس اليه ويحيط نفسه به غير تلك الذكريات الحبيبة ، وتلك الصور التي مازالت تتبرج له وتفتنه وتثير شاعريته ، فتنطلق هذه الشاعرية معها مرددة تلك الذكريات مستحييه تلك الصور ، في مثل هذه القصيدة التي بعث بها الى صديقه موسى البرعصي ، والتي تمثل لنا شاعريته المطبوعة ، وقد ترسل فيها مسترسلاً الى ذكرياته ، وبدأها بقوله :

بعد السلام وتقديم احتراماتي اليك يا سيدي موسى تحياتي
وأشتكي حر أشواقي اليك ، فقد أذكاه في خاطري بعد المسافات
فارقتكم وفؤادي لا يفارقكم قيدتموه بأسباب وثيقات

وتقدم لك هذه القصيدة طائفة من صور الحياة التي كان يحياها رفيق في بنغازي ، منذ عاد من الاسكندرية الى أن هاجر الى تركيا ، في مجالسه التي كان يجلسها الى أصحابه ، في الفويهات والبركة وجليانة وقهرة الشط وجنان المحيشى . كما تقدم صورة من العنيت الذي كان يلاقيه من المستعمر وأعوانه ، كما يقول في عقب تلك الصور الناعمة :

تغافل الدهر عنا فينة فلتت عادت علينا بأنواع الأذيات
ذقنا بأعقابها مر الحياة وما شق المرائر من تلك المرارات
أغرى الزمان بنا اعداؤنا فسعوا لزجنا في مهاد من غيابات
تأثرتني عيون القوم ترصدني تحصى خطاي فتحصيها خطيئاتي

وما جنيت سوى إنكار منكرهم بمذودي فتغالوا في معاداتي
أعانهم كل نذل من بني وطني بما يبلغ عني من وشايات
وتلك شنشنة صار اللئام بها مقدمين على أهل البيوتات

ويعود رفيق الى ليبيا بعد سنوات تسع ، وقد دعته اليها بعض الدواعي العائلية ، يدفعه الحنين ويغمره الشوق ، وتحفه به الذكريات ، وأمضى بها ثلاث سنوات حافلة . ولكنه لم يلبث ان وجد نفسه مضطراً الى مغادرتها ، وكان يقدر أنها مغادرة لا رجعة له بعدها . فودعها بقصيدتين من أروع شعره يمثلان الحنين في أروع صوره وأقوى معانيه .

ثم يعود رفيق مرة أخرى يراجع تلك الحياة التي أمضاها من قبل في تركيا تسع سنين . وعادت اليه تلك البطانة من الذكريات تراوحه وتغاديه . وعادت شاعريته تأنس الى هذه الذكريات التي تغمر حياته ، فلا تلبث أن تتمثل صورا فنية وقصائد شعرية ، يبعث بها إلى احبابه ورفاقه وأصحاب مجالسه تلك ، وهي تنضح بمشاعر الحنين والحب والشوق . كقوله في هذه القصيدة :

يا أحبائي شجاني بعدكم حزن طويل
اذكروني كلما لا ح لكم وجه جميل
أنا لا زلت على عهدكم ذاك الخليل
لست بالناسي لذكرا كم وان شط الرحيل
كيف والقلب لديكم ما له عنكم بديل
فاذكروني كلما لا ح لكم وجه جميل

ثم ينثني الى حياته التي يحياها في « جيحان » من تركيا فيصورها بقوله :

صرت في جيحان كالمجنون سلواه العويل،
ليس لي خل كأني بين أهليها أبيل

من رآني قال : مجنون غريب أو عليل
مـالـه منفـردا ليس لـه منـا خليـل
قلت هذي حال من كان له « بخت رذيل »
إن من يمنى بتقريب ، وإن عز ، ذليل
فـإليكم يا أحبـائي وقـد حـار الـدليـل
أشتكي حزنا طـويلا زاده شـوق طويـل
فـاذكروني كلمـا لاح لكم وجه جميـل

وهكذا نرى أن رفيقاً عاش طوال فترة اغترابه متصلاً بليبيا أوثق صلة ، وعاشت ليبيا متغلغلة في روحه ومشاعره ، وعاش الشعب الليبي متجاوباً معه أصدق التجاوب . وان كان لم يقض بينه حتى عاد اليه أخيراً سنة ١٩٤٦ الا قدراً من السنين قليلاً ، بالقياس الى الزمن الذي أمضاه بعيداً عنه .

ولكن إذا كان قد فات رفيقاً الاتصال المادي الواسع بوطنه ، فإن شاعريته قد أتاحت له صلة قوية عميقة متغلغلة ، وإذا كانت الغربة الطويلة قد حالت بينه وبين أن تمتد هذه الصلة طولاً وعرضاً فإنها مكنت لهذه الصلة ان تعمق وتمتد الى الأصول البعيدة والجذور الراسخة ، وان تتكون من العناصر النفسية والروحية ، وهي العناصر القوية الخالدة .

وبعد ، فهذه كلمة سريعة أردت ان أفسر بها ما يتمتع به « رفيق المهدوى » من شعبية كبيرة ، تفسيراً مقارباً . ولعل ما أردته من ذلك يمكن أن يتجلى في صورة أوضح وأكثر تفصيلاً فيما أرجو أن يتاح لي من دراسة جوانب شاعريته ، ان شاء الله .

أحمد رفيق المهدوي شاعر الوطنية الليبية في مراحل حياته الأولى

- ١ -

ما زلت أحس نحو هذا الشاعر ، وما يمثله من حياة أدبية في ذلك الأفق من آفاق الوطن العربي ، بما يشبه أن يكون ديناً له ، يقتضيني في أعماق قلبي الوفاء به ، إمعاناً في درسه ، وتعريفاً بجوانب شاعريته ، وتبياناً لمكانته الأدبية في العالم العربي عامة ، وفي ليبيا خاصة . فقد كان أول شاعر في تلك البلاد التي كان الاستاذ فريد أبو حديد يسميها (جارة الوادي) عرفته فعلقت شعره ، منذ حللت بها في الأيام الأولى من عام ١٩٥٦ ، بين الأساتذة الجامعيين الذين أوفدتهم مصر إليها ، ليشاركوا في وضع أسس جامعتها ، ويكونوا النواة الأولى لهيئة التدريس بها ، ويحبطوا بذلك ما كان الاستعمار أخذ في تدبيره وتخطيطه لمسخ عروبتها ، وتمزيق العلاقة الوثيقة التي كانت تربطها بمصر خاصة ، وكانت تزداد على الأيام والأحداث وثاقة وقوة . فقد كان اسمه على كل لسان ، وكان هتاف كل قلب . لا فرق في ذلك بين الخاصة والعامة ، وبين الشيوخ والناشئة ، وبين أهل الحاضرة وأهل البادية ، فإذا أنا مقبل على شعره التمسه في شتى مظانه فقد كان مبدداً مشتتاً لم ينشر منه غير قليل هنا وهنا . وإنما هو في معظمه بقايا مقطعة الأوصال في صدور بعض الرجال ، وأثارات شتى في أوراق عدا عليها البلى ، بعد أن استطاعت أن تنجو من تعقب المستعمر الايطالي .

وقد راعتني هذه الشعبية التي ظفر بها هذا الشاعر بين قوم كانوا ، في جملتهم ، لا يكادون يعبأون بغير الشعر الشعبي الذي يقوله أهل البادية ومن هم بسبب منهم ، وقد سجلوا فيه وقائعهم مع العدو الايطالي ، ورسموا فيه بعض صور حياتهم ومشاهدهم في تلك الحقبة خاصة . وقد حاولت ، في فصل كتبته في مجلة (المجلة)، أن أفسر هذه الظاهرة . كما حاولت ، في موضع آخر ، أن أتمثل حياته ، ومبلغ تعبيره عن الوطنية الليبية ، حتى بلغ هذه المنزلة . وحتى أطلق عليه لقب (شاعر الوطن)، لا لأنه كان يخص بشعره جريدة (الوطن) التي كان يصدرها الأستاذ مصطفى بن عامر ، أطال الله بقاءه وبارك في حياته ، بل لأنه كان ، بحق شاعر الوطنية الليبية ، في جميع صورها ونوازعها ، وفي كل أدوارها ومراحلها . وذلك فيما خصصته في الكتاب الذي صدر سنة ١٩٦٢ ، عن معهد الدراسات العربية العالمية ، باسم (الحياة الأدبية في ليبيا) وقصرت الكلام فيه على الشعر .

ومع ذلك فأنا ما أزال أحس احساساً قوياً أني لم أوف هذا الشاعر حقه علي ، بما فتح لي شعره من آفاق ، وما أتاح لي من نشوة فنية ، ولم أوف مشاعري نحوه ما تقتضيني اياه ، وخاصة في هذا الوقت الذي تغلبني فيه الخشية من أن تكون الطفرة التي منيت بها الحياة في ليبيا ، فأخلت بكثير من موازينها ، وطاش بها الكثير من قيمها ، وانعكست آثارها على جميع وجوهها ، قد أخذت تطوي هذا الجانب المشرق من تاريخها الأدبي وتطمس معالمه ، حتى يعود كأن لم يكن . وإن هذا الصخب وتلك الجلبة التي تموج بها الأجواء الليبية ، وهذه القذائف المشتعلة المترامية هنا وهنا قد أوقرت الآذان وأصابت الأبصار بالبهر ، فإذا ما (قبل عصر البترول) كما كان يروق لبعض النابتة أن يسموه ، أو ما (قبل ثورة الفاتح من سبتمبر)، كما صارت توسم به هذه المرحلة ، قد أصبح ، أو هو موشك أن يصبح ، عهداً من العهود البائدة ، التي طويت صفحتها ، وغابت في ظلمات التاريخ معالمها ، وقد طمرتها هذه الأعاصير الهوجاء بما راكمته عليها .

عاوتني هذه المشاعر وألحت علي واستبدت بي ، وأنا في إحدى

حالات الضجر التي تنتابني وتسيطر علي كثيراً في هذه الأيام ، فأحاول الانفلات منها بالارتداد إلى بعض فترات حياتي الماضية ، استروح بتأمل معالمها ، والتسكع في دروبها ، والتماس ما يضيء هذه المعالم ويزيدني استغراقاً فيها ، وإحساساً بنبضها . فكان من ذلك أن وجدت بين يدي (ديوان شاعر الوطن الكبير ، أحمد رفيق المهدوي)، وقد عنيت بجمع مادته وتنسيقها لجنة ألفت له خاصة ، فأخرجته في جزءين ، صدر ثانيهما سنة ١٩٦٥ ، وصدر أولهما بعد ذلك بست سنوات ، سنة ١٩٧١، في أبان الاحتفال الذي نظمته ودعت إليه كلية الآداب بالجامعة الليبية ، لمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة ذلك الشاعر . ولم تكن الأعاصير الهوجاء أخذت بعد تهب من هنا وهنا ، ثائرة مزمجرة ، عاصفة مدمرة ، لا تريد أن تبقى على شيء .

ها هي ذي أطياف الماضي تطوف بخيالي ، تتبرج له وتستثير كوامنه ، وتهيج مشاعر الحنين في نفسي . ثم هأنذا أقبل على هذا الديوان مستغرقاً فيه وفي الخواطر والصور التي تمثل منه إزائي . ثم لا ألبث حتى أراني وقد عدت إلى أوراقي وذلك الحطام من تلك الفترة من حياتي ، فيضاعف ذلك كله حنيني ، ويذكرني ديني نحو هذه الفترة . وقد كانت ـ وخاصة حين أراجعها الآن ـ من أنضر فتراتها وأحفلها بالمثل الرفيعة والحماسة المشبوبة لها ، ونحو هذا الشاعر الذي كان يمثل صورة من أروع صورها وأمجدها ، ويقتضيني وعدي الذي كنت واعدته نفسي .

وأنا أرجو أن أكون بهذا الذي اتهيأ له اليوم وأشرع فيه قد استجبت لهذا النداء ، ولعل الله يتيح لي أن أمضي قدماً في سبيل الوفاء بذلك الوعد واداء ذلك الدين ، فاتجاوز هذه المراحل الأولى التي ابدأ بها حديثي عن الشاعر إلى ما وراءها .

أما هذه المراحل التي هي موضوع هذه الدراسة فهي مراحل حياة الشاعر منذ خرج إلى الوجود ، إلى أن ترك موطنه وأخذ سبيله إلى تركيا مهاجراً . وهي مراحل ثلاث تقع أولاها في أواخر العهد التركي وأوائل

العهد الايطالي . أما الثانية والثالثة فتقعان بعد ذلك . وقد أمضى أولاهما في مدينة الاسكندرية ، وأمضى الثانية في مدينة بنغازي من أقليم برقة .

وأولى هذه المراحل هي مرحلة النشأة الأولى ، في ذلك الاقليم الجبلي الذي يطلق عليه اسم (جبل نفوسة)، في أقصى الغرب الليبي ، متاخماً لتونس . ثم في اقليم طرابلس ، على شاطىء البحر المتوسط . وبذلك نرى أن نشأة شاعرنا هذه كانت في مستهلها نشأة جبلية ، اعقبتها نشأة ساحلية بحرية . فمن الجبل كان أول اطلاله على الحياة ، وفيه تنسم نسماتها الأولى ، وعلى ذراه تفتحت مشاعره وتنبهت مداركه ، وعلى ساحل البحر استأنف بعد ذلك حياة اسلافه في المهدية ، وربما في جزيرة صقلية .

وإلى هؤلاء المهدويين الذين يبدو أن تنكر النورمانديين لمسلمي صقلية وسوء معاملتهم لهم قد الجأهم إلى العدوة الأخرى ، بالساحل الافريقي ، كان ينتسب رفيق . ثم كان لهم في أواخر عهدهم عمادة بلدية بنغازي ، في برقة . وكان منهم ، في أواخر القرن التاسع عشر جد أبيه (سيدي الحاج محمد المهدوي ، شيخ البلدية) ، كما يذكره محمد بن عثمان الحشائشي التونسي في رحلته . وكان قد نزل به في مروره بمدينة بنغازي ، سنة ١٨٩٥ ، كما كان منهم جده الحاج أحمد المهدوي .

أما أبوه ، محمد أمين المهدوي ، فكان أحد موظفي الدولة العثمانية الذين يتولون شؤون الادارة والحكم في ليبيا من قبلها .

كان عند مولد ابنه (أحمد رفيق) قائم مقام مدينة (فساطو)، إحدى مدن جبل نفوسه ، وأحد مراكزه الدينية والثقافية ، ومنبت كثير من الشخصيات الكبرى في الحياة الليبية : علمية وسياسية وأدبية ، كشيخها الشيخ عبد الله بن يحيى الباروني ، وابنه سليمان الباروني ، كبير زعماء الجبل ، وأحد قادة الجهاد ضد الاستعمار الايطالي ، كما كان ممن ينتمون إليها الشيخ أحمد الفساطوي ، أحد أعلام الصحافة الليبية ، وصاحب

جريدة المرصاد التي سنعرض لها بعد قليل ، ثم رئيس المدرسة الاسلامية العليا بطرابلس ، في عهد الحكم الايطالي .

وقد ذكر رفيق (فساطو) في شعره ، منوهاً بها ، مشيراً إلى ولادته فيها ، في قصيدته التي رثي بها ذلك الشيخ ، عندما وافاه أجله عام ١٩٣٦ ، إذ يقول :

ذهبت بالصيت (فساطو) ، وان لم يدعها غيرها أن تستقل
شمخت فارتفعت عن غيرها في ذرى طود على الكل أطل
عبثا لم تتربع شاهقا مربأ الشاهين في رأس القلل
لي اليها نسبة تجعلني بكما أعلن اعلان المدل
مسقط الرأس ، لها في عنقي من اياديها ، وفي القلب ، محل

ففي هذه المدينة الجبلية الشاهقة التي تحيط بها غابات الزيتون ، والتي تشرف على بعض الوديان الخصيبة ، كان مولد رفيق « سنة ١٨٩٨ الموافق سنة ١٣١٥ هجرية ، في ليلة شاتية ذات برق ورعود وأمطار »، كما يذكر هو عن نفسه ، وعلى مشاهدها الجميلة ، وصور الطبيعة الصريحة العارية بها تفتحت عيناه ، ومن نسماتها الطاهرة العاطرة بأريج الاشجار والزروع حولها امتلأت رئتاه ، وبين أهلها الأمجاد الانجاد كانت نشأته الأولى ، وعلى ترانيم والدته التي كانت تنيمه بها تكونت حاسته الفنية الموسيقية ، وهي الترانيم التي يقول عنها ، وهو كبير ، إنه ما يزال يذكر عذوبة صوتها وكلامها الموزون على حركة الأرجوحة ، وأنها كانت منشأ شاعريته .

على أن أباه لم يلبث أن انتقل من (فساطو) إلى مدينة أخرى من مدن الجبل ، وهي مدينة (نالوت)، فينتقل إليها بانتقاله ، ويتابع فيها خطى التعليم الأولى التي ربما كان بدأها في (فساطو). وقد اشتد عوده وازدادت مداركه تفتحاً . « فمكث فيها سبع سنين وشهوراً ، قرأ فيها القرآن ». فكان منه لحاسته البيانية مدد جديد .

وبعد هذه الفترة انتقل ابوه من أقليم الجبل إلى أقليم طرابلس . وبذلك انتهت هذه المرحلة الجبلية التي كان لها ـ ولا ريب ـ أثرها في تكوينه ، وفي غلبة النزوع الفطري عليه ، وهو نزوع لازمه ـ فيما نعرف ـ طيلة حياته . وكان له أثره في توجيه شاعريته .

ولا يختلف اقليم طرابلس الساحلي عن أقليم الجبل ، أو ما كان يسمى (لواء الجبل)، بطبيعته الجغرافية فحسب ، ولكنه يختلف عنه من ناحية أخرى ، وإن كانت ترجع في أكثرها إلى هذه الطبيعة ، بأنه كان مسرح العوامل الأجنبية ، ومظاهر النفوذ الفرنسي والايطالي ، يتنافسان ويتدافعان ، يحاول كل أن يمكن لنفسه حين تحين الفرصة للوثبة ، مجاهراً حيناً ، ومصطنعاً أسلوب المواربة والمخادعة حيناً آخر ، ولكنه ماض في سبيله ، وفي تحقيق ما أضمره وخطط له . وكان لذلك ـ ولا ريب ـ آثاره التي جعلت تتغلغل في نواحي الحياة الليبية ، في ذلك الاقليم خاصة : ثقافية واجتماعية واقتصادية ، كما كان له ، بطبيعة الحال ، اصداؤه المختلفة التي جعلت تغمر مجالس الخاصة وتسود أحاديثهم ، مثيرة في نفوسهم ألواناً من القلق والتوجس والخوف ، يذكيها ما كانت تنشره الصحف التي تصدر في طرابلس وخاصة جريدة (المرصاد)، من مقالات وتعليقات تكشف القناع عن دسائس هؤلاء الأجانب الاستعمارية ومؤامراتهم ، وتنبه إلى أساليبهم الملتوية وطرقهم المموهة في التوسل إلى غاياتهم والتمهيد لسلطانهم والتمكين لأنفسهم ، وتلفت الأنظار إلى ما عرف عنهم من جبروت لا يقف عند حد ، وطغيان لا يزال ينمو ويشتد ، حيثما حلوا في هذا الاقليم أو ذاك من أقاليم العالم الاسلامي التي تسللوا إليها ثم أناخوا عليها ، وتهيب بالمواطنين أن يأخذوا حذرهم من وجوه النشاط المريب الذي يقوم الايطاليون به ، في نواحي الحياة المختلفة .

وكانت جريدة المرصاد التي تتقدم هذه الحركة قد انشأها شاب ليبي من أهل الجبل قدم حديثاً من مصر ، حيث كان يتلقى العلم في الأزهر ، ويتابع ما كانت تنشره المؤيد واللواء والدستور من فصول تهاجم الاستعمار

وتكشف خططه ، كما كان يشارك في تحرير مجلة (الأسد الاسلامي) التي كان يصدرها في القاهرة مواطنه وابن بلده الشيخ سليمان الباروني . ذلكم هو الشيخ أحمد الفساطوي الذي سبقت الاشارة إليه منذ قليل . فلم يكد يعود إلى ليبيا . وهو متقد النفس حماسة وغيرة ، حتى اتخذ من مدينة طرابلس مقاماً له ، ثم لم يلبث أن أخرج هذه الجريدة ، جريدة المرصاد ، يرصد بها الأحداث التي قد يخفى على عامة الناس مغزاها ومرماها ، فيحللها ، ويكشف عما يراه كامناً فيها ، ويذيع على الناس ما تنطوي عليه من محاذير ، وما تضمره من شرور ، وما تنذر به من مصير حالك متجهم ، تقاد البلاد إليه وتوجه نحوه .

كان هذا هو الجو الذي يسود مدن طرابلس ، في الوقت الذي حل بها فيه السيد محمد أمين المهدوي مع أسرته وابنه الصبي رفيق . وكان ذلك في عهد ولاية الوالي العثماني حسن حسني افندي ، « وكانت الولاية في زمن هذا الوالي في ركود »، كما يقول أحد المؤرخين الذين عاصروا هذه الفترة . وهو يعني ركود نشاط الحكم العثماني المتمثل في هذا الوالي ، وعدم اهتمامه بشئونها . وكان ذلك ـ ولا ريب ـ مما مكن للنفوذ الاستعماري أن يتغلغل وتشتد قواه ، كما جعل ذلك الجو الذي يسود الحياة الليبية أشد قتامة وتفجراً .

ونزل رفيق مع أبيه وأسرته ـ أول ما انتقل إلى أقليم طرابلس ـ بمدينة مصراته ، إحدى المدن الساحلية التي تقع إلى الشرق من مدينة طرابلس . وكانت ـ كما يصفها ذلك المؤرخ المعاصر لهذه الفترة ـ « تأتي بعد مركز الولاية في العمران والرواج التجاري وكثرة النفوس ». وفيها استأنف رفيق تعليمه ، ولكن بأسلوب يختلف عن الأسلوب المتبع في الجبل والذي بدأ به ، فهنا مدارس نظامية أقامها الحكم التركي ، فالتحق بها . وكان أبوه يرى فيه من مخايل النجابة ما جعله يرغب في أن يتعلم الفرنسية إلى جانب برامج هذه المدارس ، فألحقه بمدرسة خاصة تعني بهذه اللغة ، كان يديرها من يسميه (الاستاذ العنقودي).

وقبل أن ينتهي من هذه المرحلة التعليمية نقل أبوه إلى مدينة (الزاوية) التي تقع إلى الغرب من مدينة طرابلس . وينوه محمود ناجي ، مؤرخنا الذي أشرنا إليه منذ قليل ، بمدرستها الابتدائية جميلة المنظر . وبهذه المدرسة التحق رفيق ، وبها أتم تعليمه الابتدائي ، العربي والتركي ، وجعل يتهيأ للمرحلة التعليمية التالية ، فيلتحق بالمدرسة الاعدادية في مدينة طرابلس .

ولكن ايطاليا كانت قد انتهت في ذلك الوقت من الاعداد لغزو ليبيا والاستيلاء عليها . فقبل مباشرة الدروس ، على حد قول رفيق ، أي قبل بدء العام المدرسي كان الاستعمار الايطالي قد بدأ في تحقيق حلمه وتنفيذ خطته ، واحتلت الجيوش الايطالية مدينة طرابلس ، فحيل بذلك بين رفيق وبين ما كان يتهيأ له من متابعة دراسته . وبدأت بذلك مرحلة جديدة في حياته استمرت نحو عامين كانت الحياة الليبية قد توقفت تقريباً فيها عن كل شيء ما عدا مدافعة ذلك الغزو الايطالي ومقاومته ، ولا ريب عندنا في أنه كان لهذه الفترة أثرها في انضاج شخصيته ، فقد تلقت فيها مداركه ومشاعره أشياء لا تتلقى في المدارس .

ففي مدينة (الزاوية) دوت في أذنيه الغضتين أحداث الغزو الايطالي الذي ابتدأ بقصف مدينة طرابلس التي كان يزمع الانتقال إليها ، للالتحاق بمدرستها ، بقذائف الاسطول ، سنة ١٩١١ . وكان إذ ذاك صبياً يافعاً في الثالثة عشرة من عمره ، في المرحلة التي يدق فيها الحس ويرهف الشعور ويخصب الخيال ، فكانت أصداء هذه الأحداث تتردد في نفسه عنيفة متداركة ، وقد خلع عليها خياله ما جعلها أكثر اثارة لضغنه وغيظه وحماسته جميعا .

ثم لا يكاد يمضي يوم حتى تمتلىء اذناه وتضطرب مشاعره باخبار المناكر البشعة التي جعل الغزاة الايطاليون يرتكبونها هنا وهنا ، كمذبحة المنشية التي أبيحت فيها هذه البلدة لعدو مخمور متغطرس ، حتى لم يكد ينجو فيها شيخ أو طفل أو امرأة ، فيربو قلبه غضباً وحقداً وضغينة . ثم ها

هو ذا يستمع مرة أخرى إلى الوقائع التي تصدى فيها مواطنوه لهؤلاء الغزاة ، وأبلوا فيها بلاء حسنا ، كموقعة بن قشير ، وبير طبراس ، وبتمثل جماعات المقاتلين ، وقد جعلوا يتدفقون على ساحات القتال من فساطو وفالوت وغيرهما من مدن الجبل وقراه ، وما أخذوا ينالون به من هذا العدو ويكبدونه من خسائر في الأرواح باهظة ، فتهتز نفسه الفتية حماسة وحمية .

لقد كان يعيش إذ ذاك من مدينة (الزاوية)، ومن بيئته الخاصة ، في جو المعركة مع العدو الغاصب. فقد كانت (الزاوية) مركز الجهاد في طرابلس ، يتجمع فيها المجاهدون ، ويوجهون منها إلى ساحات القتال ، كما كانت (فساطو) مسقط رأسه ومسرح طفولته في الجبل . وكما كان في فساطو سليمان الباروني ، يتولى أمر ذلك المركز ، إذ يعد فيه المقاتلين ويوجههم منه ، كان في الزاوية رجل عربي من أبنائها ، مثقف غيور محنك ، يدعى فرحات بك ، أخذ على عاتقه تنظيم عمليات الجهاد والتنسيق بينها ، بمعونة حاكمها ، محمد أمين المهدوي ، والد رفيق . وقد كان له في ذلك دوره الذي يشير إليه ويحكي صورة منه أحد شهود العيان ، وهو الشيخ طاهر الزاوي ، في الفصل الذي كتبه في كتابة (اعلام ليبيا) عن رفيق ، إذ يقول : « ولما احتلت ايطاليا طرابلس ، سنة ١٩١١ ، كان والده موظفاً عندنا بالزاوية ، برتبة قائم مقام . وكأني أنظر إليه ، وهو واقف أمام قصر الحكومة ، يشرف على تجميع المجاهدين ، وإرسالهم إلى منطقة الجهاد ».

وفي خلال ذلك كانت الاخبار تجيء من المنطقة الشرقية ، من أقليم برقة ، حيث يقيم جده وسائر أسرته ، تحمل صور ذلك الغزو الذي تعرضت له مدينتنا (درنة ، وبنغازي)، كما تحمل صور المقاومة المجيدة التي تصدت له ، وكبدته ما كبدته ، وإن لم تستطع بطبيعة الحال رده ، فقد كانت ايطاليا حشدت لهذا الغزو الالآف المؤلفة من جنودها ، وأمدتهم بأشد أدوات الحرب فتكا وتدميراً . إلى جانب ما ملأت به نفوسهم من أخيلة ما هم مقبلون عليه في هذه الأرض التي يقتحمونها من حياة ناعمة ،

يستردون بها ، في الوقت نفسه ، لروما مجدها القديم .

لم يعد معنى الوطن في مشاعر رفيق ومداركه هو ذلك الاقليم الجبلي الذي ولد به ونشأ فيه ، كما كان يتصوره حتى الأمس القريب ، ولم يعد ـ مع ذلك الأقليم ـ أقليم طرابلس الذي انتقل اليه ، وتلقي فيه تعليمه النظامي ، ونال فيه شهادته ، والذي منيت فيه مشاعره بتلك الكارثة التي حاقت به ، وفجرت فيه أحاسيس السخط والقلق والغيظ والتوثب والرجاء والخوف تتناوبه وتؤرقه وتسري في فكره ، فقد جعلت هذه الأحداث التي جاءت أنباؤها من برقة تبسط من معنى الوطن في مداركه ، ليشمل مسرح هذه الأحداث جميعاً ، جبلاً وسهلاً ، غرباً وشرقاً .

وتتجاوب أرجاء البلاد العربية بأصداء ذلك الغزو ، وتثور فيها مشاعر الغضب فوارة مدمدمة ، ويتخذ هذا الغضب مظاهره المختلفة في شعر الشعراء ، وخطب الخطباء ، ومقالات الكتاب ، ومظاهرات الجماهير . وفي الدعوة إلى المشاركة في الجهاد المقدس لرد هذا العدوان ، وتنظيم العمل لتحقيق ذلك . كأنما كان كل منها يرى هذا الغزو غزواً له ، ويعتبر هذا العدوان عدواناً عليه . وتتردد أنباء ذلك في البيئة التي يعيش فيها الصبي ، وتختلط بمشاعره المتقدة وأحاسيسه المتوثبة ، فإذا بمعنى الوطن ينبسط ويمتد في مشاعره ومداركه إلى ما وراء برقة من البلاد العربية .

ومهما يكن من أمر هذه المشاركة على اختلاف صورها ، ومهما يكن من أثرها في الروح المعنوية ، وفي تقوية عزيمة المجاهدين وتسديدها في سبيل المقاومة والاستبسال فيها ، فإنها لم تكن لتملك ـ بطبيعة الحال ـ إزالة هذه القتامة التي جعلت تسود مشاعر الناس وتثير قلقهم . وقد كان طبيعياً أن تتعلق آمالهم بالدولة العثمانية التي تتزعم المسلمين عامة ، وتحكم هذا البلد وتتحمل تبعة الأمور فيه . فاليها طمحت أبصارهم وبها انعقد أملهم أن تقف من هذه الكارثة التي حلت بهم وقفة حاسمة ، وأكبر الظن أن رفيقاً كان يعيش ، في بيئة مثل بيئته ، في ظلال هذا الأمل ، فقد

كان أبوه أحد موظفي هذه الدولة التي لم يلبث جيشها الصغير الذي لم يكد يتجاوز أربعة آلاف جندي أن خارت قواه وتعطل نشاطه . وإنما هي المقاومة الشعبية التي ظلت تناوش العدو هنا وهنا في بسالة واستماتة ، ريثما يجيء المدد من تركيا .

ولكن هذه المقاومة التي استطاعت أن تعترض العدو في غير موطن ، على الرغم مما كانت تواجهه منه من قوى جبارة يسيرها تدبير محكم ، ومما كان يتهددها من القحط والجوع ، بما دمر الايطاليون من مخازن المؤن ، وما أحرقوا من الزروع والضروع ، وهي المقاومة التي كان رفيق يعيش في غمرة المشاعر المنبعثة منها ، لم تلبث أن تعرضت لما فثأها وفل غربها ، وذلك بخذلان الدولة العثمانية لها ، وتخليها عنها ، وهي التي كان الأمل ما زال معقوداً بها .

ولم يكن أحد يتوقع أن ينتهي بتركيا موقفها في البلقان إلى أن تعقد مع ايطاليا معاهدة تتخلى فيها عن ليبيا ، بل تسلمها إليها ، إذ تنهي بها حربها معها ، وتستسلم لعدوانها عليها . ولكن النذر التي كانت تلوح لتركيا في الأفق جعلتها تؤثر السلامة ، وحملتها على أن تعقد هذه المعاهدة في الثامن عشر من أكتوبر سنة ١٩١٢ ، وقد تعهدت فيها أن تقطع كل صلة تصلها بليبيا . وكان من ذلك أن سحبت جيشها فيها ، واستقدمت موظفيها بها ، ومنهم السيد محمد أمين المهدوي ، والد رفيق .

لا جرم كان لهذه الصدمة التي أصابت المشاعر الليبية آثارها في موقف المجاهدين الليبيين . كما كان لهذه الخيبة التي منيت بها الآمال الوطنية اثرها في تسرب أحاسيس اليأس والقنوط في المجتمع الليبي . وكان من ذلك أن بدأت حركة هجرة إلى مصر والشام وبعض البلاد الاسلامية الأخرى ، وكان من هؤلاء المهاجرين أسرة رفيق ، وقد ولت وجهها شطر مصر ، هذا القطر الذي تربطه بليبيا روابط كثيرة وثيقة ممتدة على مدى التاريخ ، والذي شاركها في محنتها الأخيرة مشاركة لها خطرها ،

والذي كان ما زال يبذل كل ما يستطيع من جهد في محاولة تخليصها من براثن الاستعمار التي نشبت بها .

وفي مدينة الاسكندرية استقرت هذه الأسرة ، بين كثير من الليبيين الذين هاجروا إليها ، والذين كانوا قد اتخذوها من قبل مقاماً لهم

- ٢ -

في الاسكندرية

ها هو ذا رفيق قد غادر موطنه الذي دفعته عنه الأحداث التي عرضنا في الفصل السابق بعض صورها ، واستقر في الاسكندرية ، يستقبل فيها حياة جديدة غير تلك التي عرفها طفلاً في (فساطو) و (نالوت)، وصبياً في (مصراطة والزاوية).

وبذلك بدأ مرحلة جديدة في حياته امتدت نحواً من ثمان سنين ، من سنة ١٩١٣ ، إلى سنة ١٩٢١ ، أي ما بين الخامسة عشرة من عمره والثالثة والعشرين . ومثل هذه المرحلة من أخطر المراحل في حياة الانسان عامة ، وابلغها أثراً في توجيهها ونسج خيوطها ، إذ هي مرحلة التطلع العقلي ، والتوثب الوجداني ، وتحقيق الكيان الشخصي . فلا جرم كانت مستقر كثير من العناصر الأولى في شخصية رفيق ، ففيها ينبغي أن تلتمس .

وإلى جانب هذا تمثل هذه المرحلة في تاريخ الاسكندرية فترة متميزة ، في طابعها وصفاتها ، بما صاحبها في أولها من نذر الحرب وارهاصاتها ، وليست الاسكندرية في ذلك كغيرها من مدن القطر ، إلى نشوب هذه الحرب بين دول تتمتع كل منها بمكان بارز فيها ، وبجالية واضحة الشخصية بها ، وما يكون من ذلك من مشاعر مضطربة مختلطة متعارضة ، مدوية حيناً ومكبوتة حيناً آخر ، ومن أحاسيس التوجس والقلق والخوف والحذر والتربص والأمل المختلف الوجوه ، يتحسس في الظلام طريقه ، ويرصد البوارق بين ركام السحب المتدجية ، ثم تنتهي هذه

المرحلة بقيام الثورة المصرية في عقب انتهاء الحرب ، وقد تفجرت فيها المشاعر الكامنة ، وانطلقت فيها الأحاسيس المكبوتة ، تغمر جو الاسكندرية .

أحداث خطيرة تميزت هذه المرحلة بها ، وكان لها في الاسكندرية خاصة ، بحكم موقعها ، وبطبيعة مجتمعها ، وقعها الخاص ، وما نشأ عنه من جو تنفرد به .

لقد كان مجتمع الاسكندرية مجتمعاً شديد الحساسية ، بما بين عناصره المتعددة من خلاف في المزاج ، وتباين في الاتجاه ، وتعارض في المسلك ، وتنافس على المكانة ، وتسابق إلى المنفعة ، وبما بين الأجانب عامة والوطنيين خاصة من خصومة ظاهرة وباطنة . فإذا نشبت الحرب العامة ، ورددت جنبات الاسكندرية أصداءها ، وتجاوبت بأنبائها ، وغمرت جوها ، فقد تضاعفت هذه الحساسية وأرهفت ، وتنوعت مظاهرها ، بما أبرزت من أسباب الخلاف ، وما أظهرت من كوامن الخصومة ، وبما فرضت على الناس من تدابير خاصة ، في صور متعددة ، وما ألزمتهم به واخضعتهم له من قيود مختلفة ، وما أخذتهم به من تسليط الأرتياب عليهم ، وتحكم الشبه فيهم . وما أشاعت بينهم من فساد خلقي ينبعث عن الخوف والحذر وسوء الظن ، والرغبة في انتهاز الفرص والتكالب على حظوظ الحياة الدنيا ، وما ساد بينهم من اضطراب أسباب العيش وارتفاع تكاليفه ، وما صاحب هذا كله من اختلال موازين المجتمع اختلالاً بعيد المدى .

ذلك هو الجو العام الذي كان يسود المجتمع السكندري في هذه الفترة . وربما اختلفت انعكاساته وتباينت آثاره ، فيكون في بعض الحالات مدعاة توتر ، ويستتبع في أخرى نوعاً من الاسترخاء والاستخفاف . وربما ذهب بقوم مذهباً في الحياة وبآخرين مذهباً آخر شديد المخالفة له . ولكن ذلك لا يغير من جوهره . فهو ، في جملته ، وعلى كل حال ، جو يثير الانتباه ، ويرهف المشاعر ، ويوقظ النوازع الغافية . وما نكاد نشك في أنه

كان ، بهذا ، له أثره على ذلك الفتى الذي يجتاز فترة ما بين الصبا والشباب ، والذي قدم الاسكندرية ممتلىء النفس بما شهد في طرابلس من محن أنضجت مشاعره وأرهفت حسه . فما إن استقر بها حتى استغرقته ، تلك الحساسية الشديدة المسيطرة على المجتمع السكندري ، فإذا هو ، في حدود ظروف حياته ، مقبل عليه ، متفتح العين والوجدان .

وقد كانت الاسكندرية جديرة ـ ولا ريب ـ بإرضاء ما كانت نفسه منطوية عليه من طموح عقلي وتطلع وجداني .

كان بها من مشاهد الجمال الطبيعي والمصنوع ما كان جديراً أن يبتعث كوامنه وينبه مشاعره ويتغلغل إلى أعماقه ، كما كان بها من النشاط الأدبي المختلف الصور والألوان والاتجاهات والمنازع ما هو خليق أن يفتنه ويثير مواهبه ، فيجتذبه إليه ، ويقبل به عليه .

وقد كانت الاسكندرية منذ أواخر القرن التاسع عشر مركزاً أدبياً له خطره في تاريخ الحياة الأدبية في مصر ، بما اتيح لها من ظروف وما انفردت به من خصائص . فكان لها ادباؤها وعلماؤها الذين يعتزون بانتمائهم اليها ، وقد تركت من طابعها على انتاجهم ما تميز له ، وكان لها صحافتها السياسية والأدبية ، كما كان لها مطابعها التي تصدر عنها صور نشاطها ، وجمعياتها العلمية والدينية والأدبية ترعى ذلك النشاط وتؤازره .

وليس بنا في هذا البحث أن نتقصى أسباب هذه المكانة الأدبية التي صارت اليها الاسكندرية في هذه الفترة . ونتعرف أصولها الأولى وملابساتها الطارئة ، فلذلك موضع هو أخص به وأفسح له . وإنما الذي يعنينا هنا هو أن نتبين شيئاً من صور ذلك النشاط الأدبي الذي لابس حياة رفيق فيها ، والذي تعرض لتأثيره ، فكان له ـ بطبيعة الحال ـ أثره في شاعريته ، أيا كان ذلك الأثر ، وفي أي وقت كان ظهوره .

وقد كان لهذا النشاط فنونه المختلفة التي تبدو ـ في جملتها ـ فيما كان يصدر عن الاسكندرية من صحف ومجلات ، وربما كان الشعر أقرب

ما يعنينا من هذه الفنون . وكانت تتمثل فيه مذاهبه المختلفة من الاتباعية إلى الاتباعية الجديدة إلى الابتداعية ، كما كان يمثل اتجاهية الرئيسيين : الاتجاه الذاتي الذي لا يكاد يرى فيه إلا أنه تعبير عن خواطر الشاعر المجردة ، وتأملاته في الحياة عامة ، والمثل العليا التي تتخايل له ، دون أن يعرض للأحداث التي تدور حوله . وصور المجتمع الذي يعيش فيه ، إلا بما لعله يرفد هذه التأملات ، والاتجاه الاجتماعي الذي لا يكاد يعبأ بشيء من ذلك ، إذ يرى أن رسالة الشعر الأولى ينبغي أن تتجه إلى ذلك المجتمع ، تتبين حقائقه ، وتصور عيوبه ونقائصه ، وتدعو إلى اصلاحه بما يملك من قوة العبارة الشعرية .

وكان يمثل الاتجاه الأول طائفة غير قليلة من شعراء الاسكندرية إذ ذاك ، منهم عبد الرحمن شكري ، وخليل شيبوب ، وعبد اللطيف النشار وزكريا ابراهيم جزارين . وعبد الحميد السنوسي ، أما الاتجاه الآخر فكان من أول ممثليه عبد الرحمن سالم وبيرم التونسي .

وربما كان من عوامل الاتجاه الاول ـ ويبدو أنه كان الاتجاه الأغلب ـ أو من حوافزه ، تلك الحالة التي سيطرت على الحياة السكندرية خاصة ، والتي عرضنا لبعض خطوطها ، إلى جانب الأصول العامة التي تذكر في شيوع الرومانسية في ذلك الوقت . وذلك أن اللجوء إليه هو ، في بعض اعتباراته ، نوع من التخلص من تلك الحالة والتهرب من مواجهتها ، بالتحول إلى احناء النفس الخفية ، والتسرب إلى مساربها ، ومناجاة خواطرها ، ومناغاة تأملاتها وأحلامها . وبذلك يتفادى شعراء هذا الاتجاه معاناة تلك الحياة المريرة ، أو التعرض للريب والشبهات ، كما قد يربحون بذلك نوعاً من الشهرة بالامتياز الفكري والارستقراطية الفنية .

وأكبر الظن أن هذا الاتجاه لم يكن يجد من جمهرة المجتمع السكندري ترحيباً به أو تجاوباً معه ، ولم يكد هذا المجتمع يأذن له أن تتردد فيه أصداء ما يصدر عنه . وقد كان أكثر ما يصدر عن مجلات القاهرة ،

كالمقتطف والهلال والسفور . كأنما كان يحس نبوه عن المجتمع السكندري .

أما الاتجاه الآخر ، فإذا كان من أسبابه أيضاً ما كان يسود المجتمع السكندري إذ ذاك من اضطراب القيم واختلال الموازين ، وألوان الفساد المختلفة ، فإنما كان ذلك من حيث مواجهتها والانفعال بها والتأثر بنتائجها ، كما أن هذه الشرور التي امتحن بها هذا المجتمع كانت مما مكن لهذا الاتجاه . وكذلك كانت معاناة الناس لها مما جعل اصداء ما يصدر عنه تتردد في جنباته ، إذ كان الناس يرون فيها أنفسهم ،ويحسون فيها التعبير عن مشاعرهم ، ويتمثلون فيها ألوان حياتهم وصور معاناتهم .

وطبيعي ان ذلك كان مما أتاح لهذا الإتجاه مكاناً ظاهراً في النشاط الأدبي في الاسكندرية . كما جعله يتخذ صورة صريحة قوية ، لا تمتمة فيها ولا مواربة ولا مداورة ، على النحو الذي يمكن أن نراه في هذه القطعة من الشعر التي نشرتها جريدة الأهالي السكندرية ، في شهر مارس سنة ١٩١٥ ، للشاعر السكندري عبد الرحمن سالم ، إذ يعرض فيها الفقر بصورة عارية ، ولا يتحرج من أن يدعو فيها الفقراء ، دعوة سافرة لا إبقاء فيها ولا تجمل ، إلى الثورة على الأغنياء ، وهي ـ فيما نحسب ـ اول مشاركة شعرية في مصر تحمل هذا الطابع :

برح اليوم بالظهور الخفاء … فكلوا الأغنياء يا فقراء
دخل البؤس والشقاء علينا … إذ سكتنا وخلفه البؤساء
امضغوهم وعلقوا الإثم في … جيدى ، فهم بانتحارنا الأثماء
وابلعوهم ، وكلكم مستعد … لابتلاع الأحجار لولا الحياء
واميتوا عواطف اللين ان لا … نوا ، فماذا افادنا الأحياء
ودعوني لمن عصاكم ، فإني ال … كفء ، والظن انكم اكفاء
واخطفوهم برا كغواصة البحر … ففي البر والبحار البلاء

ومهما يكن من ضآلة معارفنا عن هذا الشاعر ، فإن لهذا الشعر دلالته

على بعض وجوه هذا الإتجاه ، وخاصة حين نرى شاعراً لم يلبث أن ذاع اسمه ، ورددت الاسكندرية إذ ذاك اصداء شعره ، وهو محمود بيرم التونسي ، يضرب على هذا الوتر ، وتر التنديد بالفقر ، وبيان مقابحه ، ووصف مكان الفقراء من الأغنياء ، وأثارتهم عليهم ، في مثل هذه القطعة من الشعر التي نشرها في الجريدة نفسها ، في ديسمبر سنة ١٩١٦ :

ايهذا الفقير كن جلدا   راضياً بالقضاء والقدر
لك ثوب يميت لابسه   واهن لا يخاط بالإبر
فتنفس اذا بكيت ، عسى   تصطلى فيه نار مستعر
كان يكسوك اغنياؤك لو   كنت في عرفهم من البشر
فدواب الغنى رافلة   في كريم الدمقس والحبر
أنت للقاصفات مستمع   وهو يصغي لرنة الوتر
فاخر الخز ليس يقنعه   فاقتنع بالتراب والمدر
وهو ان يفترش اريكته   فافترش انت هاطل المطر

ومن ذلك الاتجاه الذي استطاع بيرم ، بروحه الساخرة ، ونظراته الثاقبة المتغلغلة ، وامتلاكه زمام العبارة المؤدية الموحية ، أن يحقق فيه نجاحاً رائعاً ، وأن يحتل به في المجتمع السكندري مكاناً مرموقاً ، قصيدته الساخرة السائرة التي ظلت جنبات الاسكندرية تتجاوب بأبياتها زمناً غير قصير ، عن المجلس البلدي .

قد أوقع القلب في الأشجان والكمد   هوى حبيب يسمى المجلس البلدي

ومن ذلك أيضاً قصيدته الساخرة العابثة التي رسم بها صورة (فران) من أغنياء الحرب ، مثلاً من أمثلة اضطراب القيم واختلال الموازين ، في سياق قصصي بارع . وهي قصيدة وددت لو اتسع هذا الفصل لها ، فأوردتها فيه بتمامها ـ وعدة أبياتها خمس وثلاثون ـ لا لدلالتها على بعض وجوه هذا الإتجاه الفني في الشعر السكندري وبعض مناشئه فحسب ، ولكن لما نلمح في صنيع بيرم فيها من صلة بشاعرية رفيق وأصولها .

وهي صلة أرجو أن أعرض لها بشيء من البيان ، بالقياس الى قصيدة بيرم هذه وسائر شعره في هذه الفترة ، إذا قدر لي ان أحقق ما أرجو من الكلام عن شاعرية رفيق : نشأتها وعوامل تطورها وملابساتها .

فهذان هما اتجاها الشعر في الاسكندرية في فترة مقام رفيق بها . فأيهما كان أدنى صلة به ، وأكثر تجاوباً معه ، وأبعد أثراً فيه ؟

لقد استظهرنا ان الاتجاه الأول كان ضئيل الحظ في المجتمع السكندري . بالقياس الى الاتجاه الثاني ، إذ كان اتجاهاً أقرب إلى التجديد ، وأبعد عن الحياة الظاهرة التي يحياها عامة الناس ، وإذا كان يمثل بذلك لوناً من ألوان الترف العقلي ، فلا جرم كان بذلك أبعد شيء عن مثل هذا الشاب الناشىء المبتدىء الذي أخذته الحياة منذ صباه بما يجعله واقعياً يعيش في الواقع ، مواجهاً أحداث الحياة منفعلاً بها ، متأثراً بنتائجها . وبذلك ينبغي أن تكون مثله الفنية فيما يصدر عن هذا الواقع ويصوره . مما يتجاوب به المجتمع الذي يعيش فيه . وذلك ما يحملنا على افتراض ان الاتجاه الثاني كان هو الذي انبعثت اليه مشاعره الفنية الكامنة . واستحوذ على ميوله الأدبية .

ويخيل إلى أن ميله الى هذا الاتجاه ، وإعجابه به ، وتجاوبه معه ، كان من أقوى الأسباب التي وصلت بينه وبين إمام ذلك المذهب وكبير شعرائه السكندريين في ذلك الوقت : محمود بيرم التونسي . فعقدت بينهما نوعاً من الصداقة أو الزمالة التي اتخذت من بعض مساجد المدينة مجالاً لها . كما سنرى ذلك بعد قليل ، كما كان لها أثرها ـ فيما نحسب ، وكما سبقت الإشارة اليه ـ في شاعرية رفيق . فقد كان من الطبيعي ان يكون شعر بيرم ـ وكان يكبر رفيقاً بنحو خمس سنوات ـ من أول النماذج الأدبية التي عرضت له وألحت عليه ، لمكان هذه الصلة ، ولقوة تعبيرها عن الواقع الذي يعيش فيه . ولا ندري ان كان حاول في ذلك الوقت ان يحاكيها . . ولكن الفرض الذي يفرض نفسه هو ضرورة ان يترك شعر بيرم أثره في شاعريته . لمكان الصلة التي تصل بينهما ، والحياة المشتركة التي

يعيشانها ، إلى جانب ما نلمحه من اتفاق في بعض الملامح النفسية او المزاج العقلي .

تلك هي بعض الخطوط الكبرى التي يمكن أن نتمثل فيها شيئاً من اتجاهات النشاط الشعري في الاسكندرية في هذه الفترة . فإذا تركنا هذا الوجه من وجوه النشاط الثقافي لنلقي نظرة على الحياة الثقافية عامة ، وجدنا حياة حافلة نشيطة ، على الرغم من كل ما فرضته عليها الحرب من قيود ، وما ضربته عليها من حدود .

وإذا كانت الاسكندرية تعد في تاريخها الإسلامي القديم ثالث مراكز مصر العلمية ، بعد القاهرة وقوص ، فقد أصبحت في هذا العصر تلي القاهرة ، من حيث معاهد التعليم ومجالس الدرس ومواطن الثقافة . وقد نشأ فيها ، منذ سنة ١٩٠٤ . إلى جانب جامع الشيخ وما إليه من مساجدها التي كانت حلقات الدرس ما تزال منعقدة بها . المعهد الديني الذي انبثق عن الأزهر ، وما أسرع ما أثبت وجوده . وحقق في حياة الاسكندرية الثقافية مكانة ظاهرة لها سماتها الخاصة ، ولا سيما منذ تولاه في هذه الفترة أحد الأعلام الذين يمتازون في تاريخنا الثقافي بسعة الأفق ، وثقوب النظر ، والإخلاص للعلم ، والوطنية الصادقة ، والشخصية القوية، وهو الأستاذ الشيخ محمد شاكر .

كما قامت فيها إلى جانب مدرستي الدولة : مدرسة رأس التين والمدرسة العباسية ، المدارس التي عنيت بإنشائها والإشراف عليها الجمعية الخيرية الإسلامية ، وهي جمعية سكندرية النشأة أنشأها سنة ١٨٧٨ دعاة الوطنية المصرية والروح الإسلامية، ومدارس جمعية العروة الوثقى . تنشىء ابناءها على مبادىء الدين . وتغرس في نفوسهم مثل الوطنية بصورها المختلفة .

وكذلك كان من مظاهر الاتجاه الوطني في مجالات الحياة الثقافية صدور طائفة من الصحف والمجلات يصدرها ويحررها ابناء الإسكندرية .

متميزة باتجاهاتها الخاصة بها ، إلى جانب ما كان يصدره الوافدون عليها من ابناء سوريا ولبنان . ومن ذلك أيضاً ما كانت تحفل به من المجالس العلمية والأدبية المختلفة ، تنعقد في دور بعض العلماء والقضاة والسراة وكبار الموظفين ، وفي بعض الأماكن العامة .

حياة حافلة بألوان الفكر والأدب والتيارات السياسية وجد رفيق نفسه فيها . ولم يلبث أن تبين بعض ملامحها بعد ان استقر في الاسكندرية مقامه ، وقد جعل يلتمس مقومات شخصيته في معاهدها وفي مجتمعها ، وفي مظاهر نشاطها المختلفة ، يتمثلها ويمتح منها ، قدر ما يمكن أن يتاح لمثله . ولكن كان عليه أولاً أن يستأنف تعليمه الذي كان بدأه في ليبيا ، على النحو الذي رأينا صورة منه .

وقد رأينا أن تعليمه هنالك اتخذ انماطاً مختلفة . كان أولاً تعليماً دينياً يعتمد على حفظ القرآن ، عندما كان في نالوت ، فإذا ترك الجبل الى طرابلس فهو تعليم مدني ، عربي تركي ، في المدارس الرسمية التركية ، وإلى جانبه نوع اضافي من التعليم أراده له أبوه في بعض المدارس الخاصة التي تعنى باللغة الفرنسية .

وقد تمثلت هذه الأنماط الثلاثة فيما استأنف من التعليم بالاسكندرية . كان اول ما وجه اليه فيها هو بعض المدارس الفرنسية ذات الصبغة الدينية ، ولكنه ، لأمر ما ، لم يلبث ان انقطع عنها ليتابع خطاه في المدارس المصرية . فالتحق بإحدى المدارس الابتدائية في رأس التين ، ليحصل منها على الشهادة الابتدائية التي تأذن له أن ينتظم في سلك التعليم الثانوي .

وكان في تقديره ، أو في تقدير من كان يتولى في الاسكندرية أمره من ذويه ، ان يلتحق بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية . وإذ لم تكن الموارد المالية المتاحة لأسرته تأذن بأداء الرسوم المفروضة له ولأخيه معاً ، ولم يكن نظام المجانية في هذه المدرسة يتسع لكليهما في وقت واحد ،

فقد أفسح المكان لأخيه ، واتجه هو الى المعهد الديني . وكأنما مكن له من الالتحاق به ما كان بدأ به حياته التعليمية من حفظ القرآن . فانتظم بين طلاب السنة السادسة ، وبقي فيه سنتين تلقى فيهما دروس الفقه والتفسير والحديث والنحو والبلاغة . ولعل ذلك كان من التقدير الخفي لامداده بما تحتاجه شاعريته الكامنة من فنون الثقافة الإسلامية العربية التي أتاحت له دراسته في هذا المعهد ، في أبان ازدهاره ، أن يتصل بها ويمرن على ممارستها ، في صورها التقليدية .

وفي خلال هذه الفترة اتيح له من بين المهاجرين الليبيين شيخ من شيوخ العلم ، يدعى الشيخ السنوسي الساقزلي ، تمثلت له فيه صورة النقاء والطهر ورقة القلب . تتألق في ثنايا حديثه ، فأقبلت به عليه روح الحنين التي كانت ما تزال غالبة عليه ، والتطلع الى هذا الأفق من آفاق المعرفة الإسلامية ، طيلة العامين اللذين امضاهما هذا الشيخ في الإسكندرية ، فكان في ذلك ما أضاف عاملاً جديداً في علاقته بهذه العلوم التي يتلقاها في المعهد .

ولكنه كان ، مع هذا ، ما يزال طامح البصر الى التعليم المدني ، وإلى مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية التي رد عنها . فما أن اتيحت له الفرصة للإلتحاق بها حتى بادر اليها ، فانتظم بين طلابها ، وظل بها الى أن قارب ان يحصل على شهادة البكالوريا ، لولا ما أعجله عنها من دوافع دفعته الى العودة الى ليبيا قبل أن يظفر بها .

ذلك هو الطريق الذي سلكه رفيق في مجال التعليم النظامي . ولم يكن يمثل الا مصدراً واحداً من مصادر ثقافته ، وعنصراً واحداً من عناصر تكوين شخصيته . ذلك أن طموح الشباب الذي انضجته الأحداث ، وما صاحبه من تفتح عقلي ووجداني في هذه البيئات الجديدة التي أثارت كوامنه ، والتي كانت تعج بوسائل الثقافة المختلفة ، كان ما يزال يثير شهيته اليها ، ويحفزه الى ورود مناهلها ، في شتى صورها ، كما كان ما يزال يدفع به الى تلك الحلقات العلمية التي كانت تنعقد في جامع الشيخ ،

وفي غيره من مساجد الحي الذي يقيم فيه ، والتي يختلف اليها بعض اصحابه ومواطنيه .

وكان من شأن هذه المجالس ان تخلق له انواعاً من الصداقات ، وتنشيء له صنوفاً من الصلات ، وتعرض له الواناً من المعرفة ، كما كان جديراً بها ان توثق صلته بالمجتمع السكندري توثقاً يدمجه فيه . فيجعله يشاركه في أحاسيسه وإن كنا لا نستطيع القطع بمبلغ ما أصاب من ذلك .

ومن الصداقات التي أتاحتها له هذه المجالس الصداقة التي انعقدت بينه وبين محمود بيرم التونسي ، فيما حدثني به رحمة الله . وكان من المشاركات التي اتخذتها هذه الصداقة ان كانا يتدارسان معاً بعض الآثار الأدبية ، ومنها رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، في نشرتها الأولى التي كانت قد صدرت عن مطبعة أمين هندية منذ نيف وعشرة أعوام . فكانا يعكفان عليها في ناحية من مسجد الأباصيري ، يخلوان اليها ويجتليان روائعها ، كما يعانيان معاً مغاليقها ورموزها . ولم يكن اتيح لها من التبسيط ومن الشرح ما قربها من المتأدبين بعد .

ولمثل هذا دلالته الواضحة على اتجاه رفيق في تلك الفترة الى تكوين شخصيته الأدبية بالآثار الجادة الرفيعة . وقد كنا نود لو اتيح لنا أن نعرف جملة قراءاته ودراساته فيها ، وان كنا نستطيع القول ، قياساً على ذلك ، في غير تحرج علمي ، انه اخذ منذ ذلك الوقت في قراءة دواوين كبار الشعراء ودراستها وحفظ الكثير من قصائدها ، كما لا نكاد نشك في أنه أقبل كذلك على أمهات الكتب الأدبية ، قارئاً دارساً متذوقاً ، كما نرى أثر ذلك فيما اتيح لنا أن نقرؤه له من فصول ادبية .

كما كنا نود لو استطعنا ، ونحن بصدد أن نتمثل حياة رفيق في هذه الفترة ، ونتعرف ما تعرض له من عوامل وملابسات، ان نعرف معرفة واضحة الأشخاص الذين خالطهم وتأثر بهم من اصدقاء وأساتذة . ولكن معارفنا عن حياته هذه قليلة نزرة ، مبهمة غامضة ، على خطر شأنها في مثل هذه

الدراسة التي لا بد ان تجيء موسومة بكثير من وجوه النقص ، حتى يتاح لنا ، أو لمن يعرض بعد لها ، من التعقب الدائب والتتبع المستقصي ، واصطياد كل شاردة تسنح ، واستخدام كل وسيلة ممكنة ، ما يمكن أن يقودنا الى تمثل هذه الحياة ، وتعرف ما كانت تضطرب به من تيارات ، وما كان يتخللها من احداث، وتبين الصلات التي كانت تصل رفيقاً بمن حوله وكنه كل منها . وذلك كله مرهون بما لا نكاد نملكه الآن . ولولا ذلك الخبر العابر الذي جاء عرضا في بعض حديث رفيق الى ، في احد لقاءاته في بنغازي ، وهي قليلة ، عن تلك الصلة التي نشأت بينه وبين بيرم التونسي في الإسكندرية ، لما أتيح لنا ـ في أغلب الظن ـ أن نعرف شيئاً عنها ، ولما اتيحت لنا هذه الومضة الخافتة التي تكشف لنا عن نوع من الصلة الفنية بين الرجلين ، كما سبق القول ، وكما نرجو أن نبينه بعد ، إن شاء الله .

وأحسب ، مع ذلك ، ان دراسة الأدب الليبي الحديث . وبخاصة ما كان منه معاصراً لهذه الفترة دراسة واعية مستقصية ، تربط بين اجزائه المختلفة . وتتغلغل الى الجزئيات لتضعها في الإطار الكلي ، جديرة ان تضيء بعض المواطن التي تبدو غامضة ، وتملأ بعض الفجوات التي تقطع سياقه التاريخي .

وقد أتيح لي ، في قراءتي ديوان احمد الفقيه حسن الذي صدر في طرابلس سنة ١٩٦٧ ، ان المح شيئاً من الصلة التي نشأت بينه وبين رفيق في الإسكندرية . وكان قد هاجر اليها مع بعض اسرته ، سنة ١٩١٤ . وذلك في قطعة من الشعر وجهها الى رفيق . وكان رفيق كتب اليه يعزيه في وفاة والدته . فأبطأ في الإجابة على هذه التعزية . ثم كتب اليه هذه القطعة معتذراً اليه عن هذا الإبطاء ، مشيراً الى (رقيم) العزاء الذي خفف عنه ما لقى من الأسى . أما أن ذلك كان في الاسكندرية فيدل عليه ما يذكره في تقديمه بعض شعره في رثاء والدته من أنها « توفيت صباح الجمعة ١٨ صفر ١٣٣٧ هـ ، ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ ، ودفنت بمقبرة العمود بالاسكندرية ، بتربة الجوادي »

وهكذا نرى أن الإسكندرية جمعت بين هذين الشابين في هذه الفترة ، وان صلة ما نشأت بينهما .

ولكن ماذا كانت طبيعة هذه الصلة في ذلك الوقت ؟ أكانت صلة صداقة ، أم كانت مجرد معرفة بين مهاجرين جمعت بينهما دار الهجرة ؟

والذي يبدو لنا ، في أول نظرة ، ان الأمر بينهما لم يكن أمر صداقة مؤكدة ، بل كان أدنى الى المعرفة العادية . وإلا لما اتخذ عزاء رفيق صورة رسالة يبعث بها اليه ، وهما في بلد واحد ، بل أغلب الظن ، في حي واحد ، إلا أن تكون النزعة الأدبية هي التي بعثت رفيقاً على أن يتخذ من الرسالة أداة للتعبير ، عن مشاعره في هذه المناسبة .

على أنا نلاحظ ، فوق هذا ، أن أحمد الفقيه حسن يبدأ شعره الذي يجيب به رفيقاً بقوله :

رفيق ، اتئد ! ان لم أجبك بسرعة   ففكري من الخطب العظيم عقيم

فكلمة (اتئد) هنا لا معنى لها ، إلا أن يكون ـ فيما يخيل الينا ـ قد بلغه أن رفيقاً قد استخفه الغضب لتأخير جواب تعزيته ، فهو يقول له : ترفق ولا تسرع الى الغضب .

ومهما يكن من أمر فإن علاقة ما بين هذين الشابين اللذين كانت تفرق بينهما بضع سنوات يكبر بها أحمد الفقيه حسن صاحبه ، لم تلبث أن صارت صداقة وثيقة ، ما يزال أولهما يترنم بها ، ويراجع ذكرياتها . في المناسبات المختلفة ، كما يدل على ذلك ديوانه . كما كان من مظاهرها أن جعلت رفيقاً يستجيب لأشواقه اليه ، بعد أن فارقا الاسكندرية وعادا الى ليبيا ، ففرقت بينهما هذه العودة ، إذ عاد رفيق الى بنغازي وعاد صاحبه الى طرابلس ، فهو يمضي لزيارته فيها ، ويقضيان معاً أوقاتاً طيبة . كما نرى ذلك في قصيدة لأحمد الفقيه حسن قالها يعبر عن مشاعره نحو صديقه ، حينما عاد الى بنغازي ، في نوفمبر سنة ١٩٢٤ :

يا راكب الوابور يقصد برقة ... بالله قف لي واستمع يا راكب
واحمل احاديث الحنين لأحمد ... إذ لم يكن عندي سواه صاحب
يا ليت شعري هل نرى أيامنا ... تصفو ويرجع حسنهن الذاهب
وأرى رفيقاً لي رفيقاً بعد ما ... شط المزار وابعدتـه مآرب

وإذا كانت (أيامنا) في هذه الأبيات تعنى أولاً أقربها عهداً . وهي هذه الأيام التي أمضياها معاً في طرابلس ، فأكبر الظن أن أيام الاسكندرية كانت ماثلة أيضاً في خاطره وهو يقولها . كما كانت هي الماثلة في خياله في قصيدته التي قالها بعد ذلك بنحو ربع قرن . في حفل التكريم الذي أقامه المنتدى الأدبي بطرابلس لرفيق ، في ٢١ مارس سنة ١٩٤٨ ، إذ يقول :

أهلاً رفيق رفيــق أيام الصبا ... أيام كان الدهر مبتسم اللمى
هل تذكر العهد القديم وحسنه ... عهد تصرم قبل أن يتصرما
كنا وكان لنا الزمان مسالماً ... لا نشتكي مضضاً إذا ما أظلما
لله أيــام الشبــاب ! فــإنني ... مــازلت بعد بذكرها مترنما
مضت السنون ، وقد تقادم عهدها ... عندي ، ولم أنس العهود ولا الحمى

وبعد ، فهذه صورة مقاربة من الحياة الأدبية والثقافية في الاسكندرية في هذه الفترة ، ومكان رفيق منها ، قدر ما أمكن لنا أن نعرفه ونقدره . أو هي صورة من حياة رفيق في هذه البيئة الجديدة ، وبين وجوه ذلك النشاط ، في هذه المرحلة من حياته وهي مرحلة من أخطر مراحل الحياة وأشدها توجيهاً لها . وأبعثها للعوامل الخفية الكامنة في الشخصية الإنسانية . ففي هذه المرحلة يكون الإنسان من المرونة والحيوية بحيث يكون أكثر طواعية لما حوله ، كما تكون عناصره الأصيلة الكامنة فيه ، والآتية اليه من خلال الأجيال السابقة المختلفة ، أشد استجابة للعوامل المحيطة به ، وتقبلاً للتأثيرات المستحدثة . ومن جماع هذه وتلك تتكون ملامح شخصيته .

فشاعرية رفيق التي عرفناها فيما بعد مورقة وارفة مزدهرة لا بد أن تكون ـ بناء على ذلك ـ قد تولدت براعمها وتفتحت اول ما تفتحت في هذه المرحلة . ذلك ما ينبغي افتراضه بادىء ذي بدء. فماذا بين أيدينا مما يمكن أن يدعم هذا الفرض ويحرر القول فيه .

لم يبق لنا من هذه البراعم الأولى أو الزهيرات التي تفتحت عنها هذه البراعم الا قلة قليلة . وأما سائرها فقد تبدد وضاع ، شأن معظم ما يصدر عن شاعرية الشعراء في مثل هذه المرحلة ، إذ كان في حقيقته نوعاً من العبث لا يعنون بتسجيله تسجيلاً يكفل له البقاء ، أو انهم اسقطوه بعد ذلك حين نظروا فيه فلم يرضوه ، وإذ كان في أكثر الأمر لا يجد من يعني بروايته لهوان شأنه ، أو شأن صاحبه ، الى غير ذلك من الاعتبارات .

وتتمثل هذه القلة القليلة في قصيدتين استطاع جامعو الديوان أن يظفروا بهما او ببقاياهما في مخطوطتين متآكلتين عدا عليهما البلى ، فأبقوا عليهما ، لحق التاريخ ، على ما هما عليهُ من فجاجة واضطراب وتهافت .

أما أولهما فهي في رثاء الشيخ سليم البشري . وكان شيخاً للجامع الأزهر ، وتوفي سنة ١٩١٧. وأكبر الظن أنه كان لوفاته صدى عميق ، وخاصة في البيئات الأزهرية . وأن رفيقاً كان إذ ذاك يطلب العلم في المعهد الديني. ولعل هذا المعهد كان قد أقام حفل تأبين له ، فجعل رفيق يروض نفسه على قول الشعر في هذه المناسبة . فكان من ذلك هذه القصيدة . وكأنما أراد لها أن تلقى في هذا الحفل . وقد جاءت صورة فجة من تكلف نظم بعض معاني الرثاء المألوفة والمبالغات المبتذلة .

وأما القصيدة الأخرى فيرجع تاريخها الى ما بعد القصيدة الأولى بأكثر من عامين . وكانت مناسبتها قدوم اللورد ملنر الى مصر على رأس اللجنة التي شكلتها الحكومة البريطانية للتحقيق في أسباب الثورة المصرية واقتراح نظام للحكم في دائرة الحماية في السابع من ديسمبر سنة ١٩١٩ والتي بقيت تحاول هذا في مصر نحو ثلاثة أشهر . إلى أن أبحر رئيسها عائداً الى

بلاده في الثامن عشر من شهر مارس سنة ١٩٢٠

وتعتبر هذه الفترة التي أمضاها ملنر ولجنته في مصر من الفترات المتميزة في تاريخ الثورة المصرية . فلم يكد يذيع خبر وصولها حتى اشتعلت نفوس المصريين بالغضب . واتخذ هذا الغضب صوراً مختلفة كان من أولها اعلان مقاطعتها مقاطعة تامة، وضرب الحصار عليها حتى لا تتصل بأحد أو يتصل بها أحد،واضراب الهيئات المختلفة عن العمل اضراباً شاملاً . والمظاهرات العارمة تطوف شوارع العاصمة وغيرها من المدن غير عابئة بتصدي القوات البريطانية لها واطلاقها النار عليها .

وكان من الطبيعي ان يكون الشعر الذي يصدر عن هذه الفترة مصوراً لهذه الثورة ، معبراً عن مشاعر السخط التي تتضرم فيها . ولكن هذه القصيدة تخلف توقعنا ، وتثير دهشتنا للمفارقة الشديدة بين ما بنيت عليه وعبرت عنه . وما صيغت فيه من أسلوب هادىء فاتر ، وبين هذا الجو المحتدم الذي كان يسود مصر ويسيطر على مشاعر المصريين عامة .

فملنر في هذه القصيدة ليس ـ كما يراه المصريون ـ ممثل الاستعمار البريطاني الذي تقاومه مصر الثائرة بكل ما تملك من وسيلة . وإنما هو رجل يمثل الإخلاص لبلده وقومه ، والجد في اتقان ما وكل اليه . وبذلك فهو يستحق التقدير ، وأن يكون مثالاً يحتذيه الشرقي في ذلك .

ومثل هذا الأسلوب في الحديث عن ملنر يدعو الى التساؤل : ترى أكان رفيق يعيش فيما يشبه العزلة عن مشاعر مصر الفائرة الثائرة ، أم أنه تكلف هذا النمط من الكلام استجابة لبعض الإعتبارات ؟

هاتان هما القصيدتان اللتان تضمنهما ديوان رفيق من شعر هذه الفترة . وهما ، على كل حال ، يمثلان تطور شعر رفيق من ناحية الصياغة .

ويذكر الصديق الكريم الأستاذ مصطفى بن عامر ، في رسالة خاصة ، أن لرفيق قصيدة في رثاء محمد فريد ، لم يبق منها الا مطلعها

الذي لا يزال عالقاً بذاكرته ، وهو :

قضيت عمرك في البلاد فريداً وقضيت نحبك اذ قضيت وحيدا

وإن له مما كان يحاول في هذه الفترة قطعاً كثيرة ، وإن كانت صغيرة ، كما أشار كذلك إلى مشروع نشيد وطني ، قال إنه يحفظ شيئاً منه .

ولا ريب أن الحياة المصرية التي عاشها رفيق ، مستجيباً بشاعريته الناشئة لبعض احداثها ، ولبعض التيارات الفنية المتصلة بهذه الأحداث ، كموجة الأناشيد الوطنية التي غزت الحياة السياسية والأدبية ابان ثورة ١٩١٩ ، لم تصرفه عن أن يعيش بوجدانه في الوطن الذي تركه جريحاً يعاني الغزو ويقاوم الغزاة ، وعن متابعة ما كان يجري فيه ، وخاصة في برقة ، وكانت اصداء الأحداث فيها سريعة متلاحقة في مصر عامة ، وفي الإسكندرية خاصة . ومن هذه الأحداث ما كان مسرحه الأرض المصرية . في الصحراء الغربية ، وما كان شديد الاشتباك بالسياسة الانجليزية في مصر . فكانت نفس رفيق ما تزال شاخصة نحو ذلك الأفق ، منفعلة بهذه الأحداث . وكأنما كان ذلك مما شارك في توثيق صلته النفسية بالإقليم الشرقي . وهو أقليم برقة ، مع من كانوا يرافقونه في مهاجره بالإسكندرية من أهل ذلك الإقليم ، كآل المحيشى وغيرهم . وذلك إلى جانب صلته القديمة به . إذ كان موطن اجداده ومستقر أسرته .

حتى إذا آذنت الأمور بأن يعود الى ليبيا بعد هذه السنوات الثمانية كان من الطبيعي ان تكون عودته الى برقة إذ لم تعد تربطه بطرابلس رابطة ذات بال .

وكان التفكير في ترك الاسكندرية والعودة إلى ليبيا بعد إتفاقية (الرجمة) التي ابرمت في اكتوبر سنة ١٩٢٠ . بين الأمير الليبي السيد محمد بن ادريس السنوسي ، وحاكم برقة الايطالي . وهي اتفاقية التقت

عند عقدها رغبة الفريقين : الإيطالي والليبي ، أما ايطاليا فقد ارادت بها أن توفر شيئاً من الطمأنينة لها ، وأن تظفر بوضع شرعي أو شبه شرعي ، يؤمنها . وأما ليبيا . أو برقة خاصة ، فقد أرادت ان تصلح من أمرها وتسترد أنفاسها ، بعد الذي عانته في أثناء الحرب العالمية من الجدب الذي امتحنت بكوارثه أقسى محنة ، وإغلاق الطريق المصري الذي كانت تعتمد عليه في وصول الأقوات والمعونات والإمدادات . فاشتد بهذا وذاك عليها الجوع ، وفشت الأوبئة ، وكثر الموتان ، وفسدت النفوس . فكان ذلك مما مهد لهذه المعاهدة التي كانت في حقيقتها إقرارا لهدنة (عكرمة) التي عقدت من قبل ، سنة ١٩١٧ ، والتي كانت في تقدير الجانبين ضرورة لا معدى عنها .

وقد استطاعت ايطاليا بهذه المعاهدة أن تستشعر شيئاً من الاستقرار وهدوء البال ، كانت في أمس الحاجة اليهما ، بعد خروجها من الحرب منهكة متزايلة . كما شاع بها شيء من الرضا في أعطاف كثير من الليبيين ، لما اتاحته لهم ـ فوق ما ذكرنا ـ من حكم ذاتي ، يتمثل في قانون أساسي ، ومجلس تمثيلي ، وحكومة وطنية يرأسها الأمير ادريس ، تدبر شؤون الأجزاء الداخلية من برقة ، وتقيم في اجدابية .

وبذلك وجد من رجالات برقة من لم يروا غضاضة في التعاون مع الحكم الايطالي . وكان من هؤلاء السيد محمد طاهر المحيشى ، الذي اسند اليه منصب عمادة بلدية بتغازى . فما زال برفيق يغريه بالعودة ، ويزين له ترك الاسكندرية ، والإقامة في بنغازي ، ويتوسل لذلك بالعلاقات العائلية التي تربط بين الأسرتين : اسرة المهدوى واسرة المحيشى ، حتى قبل .

وبذلك انتهت هذه المرحلة من حياة رفيق . ليبدأ من بعد في بنغازي مرحلة جديدة ، يواجه فيها حياة جديدة .

٣
في بنغازي

كانت مرحلة الاسكندرية في حياة رفيق التعليمية هي مرحلة النشأة الثانية ، بعد مرحلة النشأة الأولى في جبل نفوسة ومدينتي مصراته والزاوية في طرابلس . وقد فصل بين النشأتين عامان توقفت فيهما الحياة في ليبيا الا من مقاومة الغزو ومدافعة الطغيان ، في ارتقاب المدد التركي ارتقاباً انتهى بالخيبة ، وان كان لهذين العامين أثرهما الذي لا بد ان كان عميقاً في نفس الصبي وكيانه الوجداني .

وهذه النشأة الثانية في مدينة الاسكندرية هي التي أفضت الى المرحلة التالية التي نعقد لها هذا الفصل ، والتي بدأت بانتقال رفيق مع أسرته الى مدينة بنغازي ، سنة ١٩٢١ . وذلك في حركة العودة التي كانت قد بدأت تداخل حياة المهاجرين ، منذ عقد في طرابلس صلح نيادم سنة ١٩١٩ . وقد امتدت هذه المرحلة في حياة رفيق الى سنة ١٩٢٥ . متميزة بما أتيح له فيها من استقلال الشخصية ، وما ألقى عليه فيها من تبعات ، مما كان له أثره في انطلاق قواه وتفتح شاعريته وانبثاقها . وإن تكن في اكثر امرها نتاجاً للمرحلة السابقة ، وقد افضت اليها بكل ما اجتمع له فيها من عناصر ، وما تهيأ له فيها من أسباب وعوامل .

فعن مرحلة الاسكندرية تلقت شاعرية رفيق الكامنة التي يرد هو أصلها الأول إلى ترنيمات والدته وهدهداتها ، عناصرها المكونة لها ، والعوامل التي تهيأت لها وبثت الحياة فيها ، بما تلقى من تعليم في المعهد الديني، وفي حلقات الدرس المختلفة في مساجد الاسكندرية ، وفي مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية ، وما كان يأخذ به نفسه من مدارسة الكتب الأدبية وحفظ االآثار الشعرية ، ثم ما كان يعرض له من مشاهد الحياة وصروفها في هذه المدينة . وما كانت تنفعل به مشاعره من صور

المجتمع والأحداث الجلى فيها. وفي هذه المرحلة تكونت براعم هذه الشاعرية والتفت أكمامها ، وحاولت ان تتفتح عن بعض الزهرات قبل أن يتم نضجها ، فلم تلبث ان ذهبت في أدراج الرياح .

حتى إذا ما انتهت هذه المرحلة بانتقاله من الاسكندرية الى بنغازي . وتحوله الى الموطن الذي ينتمي اليه ، والذي ظل ملء خياله منذ فارقه ، وظلت خواطره تحوم حوله . وقد أصبح رجلاً يستقل بشأنه . ويتحمل تبعات حياته ، فقد تفتحت هذه البراعم وازدهرت ، وتفجرت ينابيع شاعريته ثرة فياضة .

ها هو ذا في بنغازي . يعمل في بلديتها ، سكرتيراً عربياً لها . وقد اختاره لهذه الوظيفة عميدها محمد طاهر المحيشى . وها هو ذا يرى نفسه رجلاً مسؤولاً ، في هذا المجتمع الجديد إلذي نبه مشاعره فيه مسؤولية المواطن في وطنه ، والرجل المثقف الذي أتاح له مقامه في مصر أن يدرك من ألاعيب السياسة الاستعمارية ، ومكايدها الظاهرة والخفية ، ما هو جدير ان يستشف به حقيقة هذا الوضع الذي صار اليه .

وإذا كانت هذه الوظيفة التي اسندت اليه قد أتاحت له أن يعول نفسه . ويقضي بالأجر الذي يناله منها حاجته . فإنه بها ليس الا واحداً من عديد الموظفين الذين استدرجهم الاستعمار الايطالي وعملاؤه ، على تفاوت حالاتهم ودرجات ثقافتهم ، ليحقق بهم الصورة التي أراد أن ترتسم له ، ويلبس بهم اللبوس الذي أراد أن يظهر في هذه البلاد به ، صورة التودد الى المواطنين ومقاربتهم والتجمل في معاملتهم ، وأيهامهم أمورهم صارت لهم ، يديرونها بأنفسهم ، وينفذ بهم الخطة التي اختطها ورأى أنها اجدى عليه في السيطرة على هذه البلاد وبلوغ غايته منها ، باصطناع طوائف من أهلها ، يعمل بهم ، ويمهد سبيله بأيديهم .

ذلك أن ايطاليا . غداة خروجها من الحرب العالمية مجهدة مرهقة

مكدودة ، وقد أسلمت قيادها الى حكومة اشتراكية ، كانت في حاجة الى شيء من الهدوء والاستراواح . وكان من أثر هذه الحاجة عقد معاهدة (بنيادم) بطرابلس ، في يونية سنة ١٩١٩ . ثم معاهدة (الرجمة) في برقة ، في أكتوبر سنة ١٩٢٠ . وكانت هاتان المعاهدتان مظهراً من مظاهر سياسة التفاهم التي أرادت أن تصطنعها لتحقيق هذه الغاية . وقد بدأت على أثر ذلك حركة العودة إلى ليبيا بين المهاجرين الطرابلسيين أولاً ، وكان منهم صاحب رفيق ، أحمد الفقيه حسن ، ثم البرقاويين .

كما كان من أثر سياسة التفاهم هذه أن اصطفى الحكم الاستعماري لنفسه طائفة من الليبيين اراد أن يصطنعهم ، فانخدع بذلك من انخدع ، وتخادع من تخادع ، فجعلهم شيعته وأنصاره ، يبررون سياسته ، ويزينون التعاون معه . وأنشأ لهم ، من أجل إحكام ذلك ، حزباً وسمه بكلمة الدستور الذي يعلم شغف العرب به وتعلقهم بأذياله . وهتافهم بإسمه ، منذ أيام اسماعيل في مصر ، وعهد الخليفة العثماني عبد الحميد في تركيا وامبراطوريته الإسلامية العربية . لأنه المظهر الأول لاستقلال الشعوب ، والأداة الأولى للحكم الصالح . فكان أن سمى هذا الحزب باسم (الحزب الدستوري العربي) . وكأنما كانت هذه النسبة الى الدستور سبيلاً عند الإيطاليين الى مسح الأحقاد التي ولدها الغزو الايطالي منذ عشرة أعوام . وتخفيف آثار المحن التي نشأت عنه ، وإلى أن يتخذوا من خصومهم السنوسيين ومن إليهم اصدقاء للحكم الايطالي يتظاهر بهم في إدارة شؤون هذه البلاد . وكذلك ذهبت ظنون الاستعمار إلى أن الحاق النسبة العربية بهذا الحزب يرضى غرور كثير من الليبيين الذين ضاقوا بالحكم التركي ، وما كان يريد أن يأخذهم به ويرفضه عليهم من صبغة تركية . والذين ثارت نفوسهم لموقف دولة الخلافة منهم ، وخذلانها لهم .

فظاهر الأمر في هذا الحزب أنه جعل أمرهم اليهم ، وحفظ عليهم عروبتهم . وما كان في حقيقة الأمر إلا أداة استعمارية تمكن لسلطان

الاستعمار ، وتوهن قوى الشعب المناهضة له ، وتبث عوامل التخاذل والهزيمة فيه .

وتماماً على ذلك أنشأ النظام الاستعماري لهذا الحزب صحيفة تعبر عنه . وكأنها تعبر عن إرادة الشعب ، وما هي في حقيقتها الا تعبير عن الإرادة الاستعمارية التي انشأت الحزب ، وحسبت انها موهت على الناس به . وأطلق على هذه الصحيفة اسم (بريد برقة) ، وأسند أمر إدارتها وتحريرها الى احد هؤلاء الذين اصطفاهم الاستعمار للدعوة له وتبرير سياسته ، وهو السيد محمد طاهر المحيشى عميد البلدية الذي سبقت الإشارة اليه غير مرة .

كان ذلك ، فيما نقدر ، هو اكثر أحوال برقة لفتاً لنظر رفيق وإثارة لتساؤله ، في إبان عودته ، موظفاً مرموقاً في هذه البلدية ، يحظى برعاية عميدها الذي اختاره لمكانه فيها . ولعله كان يرجوه لما هو اكبر من ذلك منزلة وأبعد نفوذاً . ولكنا لا نكاد نشك في أنه لم يلبث ان انكر مكانه ، وضاق بما أريد له .

لقد شهد الاستعمار الايطالي غازياً منتهكا كل حرمه ، يمثل الوحشية في أعنف صورها وأبشع أشكالها ، وهو في غضارة السن ورهافة المشاعر وحدتها ، وشهد المقاومة الباسلة التي كان أبوه ينظمها ويشرف عليها . ولا شك أن صور ذلك كانت ما تزال ماثلة في خياله ، ثم عاش بعد ذلك في الاسكندرية بين صور الوطنية الصامدة ، والمكافحة المتمردة ، متمثلة في جماهيرها ، وفيما يتغنون به من سير أبطالها ، كمصطفى كامل ومحمد فريد ، رمز التضحية في مواجهته الاستعمار بالعداوة صريحة عارية . ثم شهد الثورة المصرية العارمة التي لم تعبأ بما كان الاستعمار الانجليزي الكاشر عن أنيابه يقابلها ، والتي كشف لها ايمانها بحقها عن كل مناورة تدبر ، او مخادعة تحاك . لقد شهد رفيق ذلك كله ، واحتفظ بصوره ، تثير مقته ، وتهيج حيويته ، حتى إذا اعاد الى وطنه ، وشهد ما كان الاستعمار الايطالي يزينه فيه ، فقد برزت كل تلك الصور ، فكشفت له عما وراء

ذلك التمويه الذي يغشى حقيقته . فإذا هو يحس في أعماقه أنه تورط تورطاً مخزياً في العمل في هذه البلدية، وكأنه بذلك يشارك في هذه السياسة التي رسم الاستعمار خطوطها ، وحشد أعوانه لتحقيقها. وما نكاد نشك في أن مثل هذا الإحساس كان ما يزال يقلقه ويؤرقه ، وإن الرغبة في أن يخلص منه بشيء يرضى مشاعر الوطنية الصارخة في اعماقه كانت ما تزال تنوشه وتسيطر عليه .

ولم يلبث ، وهو يتطلع الى فرصة تعرض ومناسبة تسنح ، أن انفتح لهذه الوطنية باب تستطيع أن تطل منه ، وتحقق من خلاله نفسها مراغمة للاستعمار وتحدياً له . وذلك حين أخذت جنبات ليبيا تردد أصداء ذلك الحدث الجليل الضخم الذي كانت أقطار العالم الإسلامي تموج بالحديث عنه ، في اعتزاز به . وهو النصر الذي أتيح لتركيا المنهزمة بالأمس القريب على اليونان صنيعة الحلفاء المنتصرين المزهوين . وتتويج هذا النصر باسترداد مدينة ازمير ، سنة ١٩٢٢ .

لقد أحست الشعوب الإسلامية احساساً عميقاً غامراً ، غداة ذلك الحدث انه قد رد اليها الكثير من اعتبارها الذي أصابه بالهوان والخزى انتصار الحلفاء بالأمس ، وأن هذا النصر الحاسم الذي أتيح للترك على اليونان . وهذه الهزيمة الماحقة التي الحقوها بما حشدت في الأناضول من آلاف مؤلفة ، وما أمدها به الحلفاء من عون بالغ ، إنما هو ـ في بعض وجوهه ـ نصر لكل منها ، لا على اليونان خاصة ، بل على الحلفاء الذين يقفون وراءها ، ويمدونها بكل ما يستطيعون من مدد ، بل على روح العدوان التي كانت ما تزال سارية ماضية في طريقها ، وقد زادها انتصار الحلفاء غطرسة وعربدة . وكان من مظاهرها ذلك الحشد الذي احتشد في الأناضول لإجهاض ما أحسوا بتكونه هنالك من روح الوطنية الشابة المتوثبة ، ودحر انتفاضة الشباب التركي لاسترداد بلاده وكرامته . وانتزاع هذه المدينة الإسلامية التي أهديت لليونان ، لا إيثاراً لليونان خاصة ، ولا كراهية للترك لأنهم ترك ، بل نكاية في الإسلام الذي تمثله تركيا ، مقر

الخلافة الإسلامية ، وانبعاثاً مع الروح الصليبية الكامنة ، ومضيا مع روح العدوان التي نفخ فيها انتصار الحلفاء ، فأخذها بضروب من التجبر والخيلاء .

هذا هو المعنى الذي أدركته الشعوب الإسلامية،ومن هذا المعنى كان ذلك الشعور الذي غمر جوانحها ، فاهتزت له ، وتجاوبت الأقطار الإسلامية بأصدائه ، مهللة مستبشرة ، وانطلقت معه الشاعرية العربية مشيدة به . متغنية بالأمجاد الإسلامية ، متحدية القوى الاستعمارية على النحو الذي يمكن ان نتمثل صورة منه في القصيدة التي قالها شوقي في هذه المناسبة :

الله أكبر : كم في الفتح من عجب ! يا خالد الترك جدد خالد العرب

فهذا النصر الذي اتيح للترك ليس إلا حلقة من حلقات النصر الإسلامية العربية ، وليس مصطفى كمال قائد ذلك النصر إلا تجديداً لخالد ابن الوليد القائد العربي الإسلامي . بل ان (يوم ازمير) ليثير في خيال شوقي صورة (يوم بدر) فاتحة الانتصارات الإسلامية . وكأنما أمد الله جند هذا اليوم بما أمد به جند المسلمين في (بدر) . وكأن الأرض التي انتصرت خيل الترك فيها هي الأرض التي تلقت الزبد المسكي المنسكب من فرس الرسول ، صلى الله عليه وسلم . ذلك اليوم . وكأنها ، وهي نشوى مرنحة ، تذكرها به ، وما كان لها أن تنساه ، وذلك اذ يقول :

يوم كبدر . فخيل الحق راقصة على الصعيد وخيل الله في السحب
غر تظللها غراء وارفة بدرية العود والديباج والعذب
نشوى من الظفر العالي ، مرنحة من سكرة النصر لا من سكرة النصب
تذكر الأرض ما لم تنس من زبد كالمسك من جنبات السكب منسكب
حتى تعالى آذان الفتح فاتأدت مشى المجلى إذا استولى على القصب

وإذا كان ذلك موقع يوم ازمير ، وما يثير من صورة النصر الإسلامي الأول يوم بدر ، فلا جرم كانت له مظاهر بهجته في مشرق النور المحمدي وكانت له اصداؤه المجلجلة في جوانب العالم الإسلامي . مستعيدة سالف

امجادها . وقد صور ذلك شوقي تصويراً بارعاً في قوله ، مخاطباً الغازي مصطفى كمال :

لما أتيت ببدر من مطالعها ... تلفت البيت في الأستار والحجب
وهشت الروضة الفيحاء ضاحكة ... الى المنورة المسكية الترب
ومست الدار ازكى طيبها وأتت ... باب الرسول ،فمست أشرف العتب
وأرج الفتح ارجاء الحجاز ، وكم ... قضى الليالي ولم ينعم ولم يطب
وازينت امهات الشرق ، واستبقت ... مهارج الفتح في الموشية القشب
هزت دمشق بني أيوب فانتبهوا ... يهنئون بني حمدان في حلب
ومسلمو الهند والهندوس في جذل ... ومسلمو مصر والأقباط في طرب
ممالك ضمها الإسلام في رحم ... وشيجه ، وحواها الشرق في نسب

بهذا الحدث الجلل انفعلت نفس رفيق وتوثبت وطنيته ، تريد أن تعبر عن نفسها ، ومع هذه المعاني والمشاعر المنبعثة عنه تجاوبت شاعريته ، فإذا هي تنطلق بنشيد حماسي . وقد أراد انفعاله هذا ان يتخذ صورة مدوية قوية التعبير تستطيع ان تخفف عنه ما يثقل ضميره وتنفس عما تضيق به نفسه . فرأى ان يدعو لاحتفال كبير يجتمع حول هذا النشيد ، مردداً له ، متغنياً به . وهو موقن انه بذلك انما يتحدى السلطة الايطالية التي لم تكن تخفي انكارها لكل ما يعبر عن الاغتباط بذلك الحدث . إذا كانت ترى في ذلك نوعاً من الشماتة والتشفي ،كما ترى فيه كسراً للحصار الذي أرادت ان تضربه على الشعب الليبي لتحول بينه وبين الحركات الوطنية التي أخذت تتردد في الشرق الاسلامي . وخاصة انها بدأت منذ استيلاء الفاشست على الحكم ، في العام نفسه ، في اكتوبر سنة ١٩٢٢ ، تتنكر لسياسة التفاهم والمسالمة ، وتصطنع خطة جديدة تقوم على القهر والعنف والإرغام .

ولم يصده ما كان يعلم من ذلك عن تحقيق ما كان يدور في نفسه ، بل لعله كان من أقوى حوافزه اليه . وقد استطاع ـ على رغم التهديد والوعيد ، والتعقب والمطاردة ، وجو الإرهاب الشديد الذي أخذ نظام

الحكم الجديد يفرضه في ليبيا ـ ان يقيم هذا الحفل الذي كانت الدعوة اليه قد بلغت كل إنسان ، في الجامع العتيق . اكبر جوامع بنغازي . وقد جعلت ارجاؤه تتجاوب بذلك النشيد الذي تحرى في صياغته وتلحينه أن يكون أقرب الى ذوق الجماهير ومداركها ، فهم يرددونه في حماسة ، تتزايد وتتضاعف ، غير مبالين بسخط المستعمر وضراوته .

وبهذا النشيد الذي ربما كان قد تأثر في فكرته ووضعه بالأناشيد التي كانت تغمر الحياة المصرية في إبان الثورة الوطنية ، وفي المناسبات المتصلة بها ، وبهذا الحفل الحافل الذي دعا اليه ودبره . وبالنجاح الرائع الذي أتيح له ، استطاع رفيق أن يتطهر من أحاسيس القلق التي كانت تساوره ، وأن يبرىء ضميره مما كان يؤزه ، وأن يخلص من هذه الآصار التي كانت تثقله ، ويمزق هذه الخيوط الدقيقة التي كانت تربطه بالسياسة الاستعمارية .

وما إن تطلقت نفسه بما أصاب من ذلك حتى جعل غاية وكده ومنطلق شاعريته مهاجمة الاستعمار في شتى صوره ومختلف وسائله ، متمثلاً حيناً في ذلك الحزب الذي كان يتكىء اليه ويعتمد عليه ، وحيناً آخر في تلك الصحيفة التي كان يصدرها ويتولى تحريرها رئيسه وقريبه ، والتي كانت ما تزال تنشر دعوة المستعمر وتبث سمومه ، كما كان يتمثل في العملاء الذين استطاع ان يستهويهم ويستغل مواطن الضعف فيهم ، فيتخذ منهم أدوات فعالة . في هذا المنطلق مضت شاعريته ، وبملابساته انطبع شعره وتكونت خصائصه .

والذي نعلمه عن شاعرية رفيق في جملتها ، وأنها شاعرية سمحة ثرة سخية ، مما أشرنا اليه وعالجنا بعض نواحي القول فيه في موضع آخر . يجعلنا نفترض في غير تحرج انها كانت في هذه الفترة لسان الوطنية الليبية إزاء الاستعمار الايطالي ، ما تزال تعبر عنها وتؤرثها . وان كل صورة من صور هذا الاستعمار الذي أخذ يكشر عن أنيابه منذ سيطرة الفاشيست على

الحكم الايطالي كانت تهيج هذه الشاعرية . فلا تلبث ان تنبعث منها قصيدة او مقطوعة ، ما تكاد تصدر عنها ، في تلقائية ، وقرب في العبارة ، وتجاوب مع الروح الشعبية ، حتى يتناولها المواطنون ويتناشدونها ويستنسخونها ، إذ يجدون فيها شفاء صدورهم ، والترويح عن غليلهم . وان لم يبق لنا من شعر هذه الفترة الا قلة قليلة ، مما سنعرض له هنا في هذا الفصل ان شاء الله . اما سائره فقد دهمته أسباب الضياع ، في خلال المحن التي تعرضت لها ليبيا في عهودها المختلفة .

وأود هنا أن استأذن الصديق الكريم الثقة ، الأستاذ مصطفى بن عامر ، أطاب الله عيشه ، وأقر اعيننا بلقائه ، في أن اقتبس من رسالته الخاصة التي أشرت اليها من قبل ما كتبه في هذا الصدد ، اذ يقول :

« وإذا عرفنا ان رفيقاً اضطر الى مغادرة بنغازي عام ١٩٢٥ ، فإن ذلك من غير شك كان بسبب شعره الذي كان يناوىء الاحتلال الايطالي . فاين ضاع شعره إذن ؟

ثمة قصة سمعتها في عام ١٩٢٨ من عمي المرحوم محمد بن عامر المحامي . (وكانت تربطه بالشاعر عدة علاقات . منها ما هو عائلي ومنها ما هو عام . وإن كانت له بعائلة بن عامر جميعاً علاقة وطيدة . وكانت أكثر أشعاره ، خصوصاً في الفترة الأولى من اقامته في بنغازي ، عند العم عيسى بن عامر) .

وموضوع القصة : بعد سفر رفيق بعام او عامين ، قبض في روما على شخص كان موظفاً في السفارة المصرية بروما ، (وكان أصله ليبيا) . ووجد يحمل رسائل من بنغازي لبعض المناهضين للفاشيست . ووجد معه بعض قصائد لرفيق ليسلمها لأحد الليبيين في ايطاليا .

ولما وصل الخبر لحكومة بنغازي الايطالية قبضت على من وجد اسمه في الرسائل ، ومن تشتبه فيه ، ومن ضمنهم عيسى بن عامر .

وصاروا يبحثون عن اشعار رفيق . وكان عند السيد عيسى مجموعة كبيرة ، فأريد اعدامها خوف البطش بعيسى . ولكن كان رأي الحاج موسى المذكور[1] هو اخفاؤه في أحد الجدران والبناء عليها . وكان الأمر كذلك . وكنا في انتظار اليوم الذي يطلق سراحها فيه . ثم كانت الحرب ، فذهبت القصائد مع البيت ، بفعل القنابل ، سنة ١٩٤٠ » .

وإذا كانت هذه الفقرة تثبت ـ إلى جانب ما تدل عليه عرضا من اصطناع بعض الليبيين ، في سبيل التخلص من الاستعمار الايطالي او تخفيف حدته ، شيئاً من أسلوب المناورة السياسية ـ ما افترضناه من أن رفيقاً أصبح في هذه الفترة لسـان الوطنية الليبية المعبر عنها ، والمؤرث لها ، بما كان يملك من شاعرية سريعة التجاوب مع صور الحياة في بنغازي ، والانفعال بالشعور العام ، فإنها تدلنا على مبلغ تحفي المواطنين بآثار هذه الشاعرية ، بقدر ضيق الحكم الاستعماري بها وتعقبها ، فهم لذلك يفتنون في الحفاظ عليها . وتجنيبها ما قد يصيبها منه .

وبين حرص الوطنيين على شعر رفيق وحرص الاستعمار على تعقبه ومطاردته ، ومع المحن التي ابتليت ليبيا بها ، ضاع معظم هذا الشعر وتبدد ، حتى لم تبق لنا منه إلا هذه القلة القليلة التي نرجو أن نتبين بها ، على وجه ما ، حياة رفيق الشعرية في هذه المرحلة . وقد أتيح لكل منها ـ ولا ريب ـ ما مكن له من مغالبة عوامل الضياع .

من ذلك قطعة صغيرة ، يسيرة في عبارتها ، قريبة في معناها ، متداركة في موسيقاها ، هاجم بها (الحزب الدستوري العربي) الذي عرضنا لذكره في هذا الفصل ، ورأينا انه كان عميل الاستعمار الأول ، وأنه صورة من هذه الأحزاب التي دأب الاستعمار على إقامتها في البلاد التي يستعمرها . كأنها وجه من وجوه الديموقراطية وإنما هي في حقيقة أمرها

(١) هو الحاج موسى البرعصي احد اصدقاء رفيق وخاصته .

بطانة من أبنائها ، يبث من خلالها سمومه ، ويتخذها أدوات تخذيل وتوهين .

وكأنما أراد رفيق ، وقد صاغ هذه القطعة الصياغة التي نراها بعد قليل ، أن تجرى على كل لسان ، ويهتف بها كل إنسان ، ليكون ذلك أوفى بما أراده بها، وهو تعريه هذا الحزب وإظهار رجاله الذين ينتمون اليه في الصورة التي هم اجدر بها عنده ، بحيث يراها كل مواطن فينكرها ويربأ بنفسه عنها . وسواء أراد ذلك رفيق ، أم أنها بذلك جارية مع طبيعة شاعريته وخاصية شعره ، فلا تكاد نشك في أنه بلغ بها الغاية المرجوة منها . وها هي ذي :

الحزب الدستوري العربي ... ينبوع الباطل والكذب
قد لفق احقر شرذمة ... ما ينقصهم غير الذنب
قالوا : أنا قوم جئنا ... لندافع عن مجد العرب
كذب ! كذب ! كذب ! كذب ! ... متأت من سوء الأدب
ما أنتم للطليان سوى ... بقر للخدمة والحلب
وكلاب ليس لها أمل ... الا في الراتب والرتب

معان ساذجة في عبارة شديدة اليسر بالغة القرب ، ترسم صورة ساخرة عابثة ، سخرية موجعة ما اجدرها بكل عناصرها اللفظية والمعنوية ان تشيع في أوساط الشعب عامة ، وان تجرى على لسان متعلميه وأمييه ، كباره وصغاره ، وتتسلل في يسر إلى قلوبهم . وما أحقها بذلك أن تجعل كل إنسان يتحامى ان يتعرض لمثل تلك المثلبة ، او أن يقع في مثل تلك الشراك المنصوبة ، وان يحس كل من تورط فيها ونشب في خيوطها انه أصبح بين مواطنيه عامة شيئاً منكراً عارياً ، يثير فيهم السخرية منه ، ويشيع فيهم شعور الازدراء له .

(٤)

وإلى جانب هذا الحزب العميل الذي بعث من شاعرية رفيق هذه الصورة ، كانت هنالك من مظاهر العمالة للمستعمر الصحافة التي صنعها لتمهد له سبيله وتبث دعاواه ، وسخر لها بعض الوطنيين ، وقد رأينا أنه انشأ في بنغازي صحيفة سماها (بريد برقة) تتحدث باسمه ، وتروج له ، وتبرر أفاعيله ، وتهون على الناس ما حاق بهم منه. ووكل أمرها إلى محمد طاهر المحيشى الذي أسند اليه من قبل منصب عمادة بلدية بنغازي التي يعمل رفيق بها ، والذي هو ، فوق ذلك ، ابن عمته وأخو صهره فخري الذي ربما عرضنا له بعد . فماذا كان موقف رفيق من هذه الصحيفة وصاحبها ؟

هل استطاعت هذه العلاقات المختلفة التي توثق ما بينه وبين طاهر المحيشى في حياته الخاصة في البيت ، وحياته العامة في البلدية : علاقات القرابة والصهر والعمل ، أن تحول بينه وبين رؤ ية ما تهدف اليه هذه الصحيفة ، وما تؤديه للاستعمار ، أو أن تجعله يغضى عن هذه الصورة من صور العمالة . ويقمع دعاء الوطنية الذي يهيب به ؟ ان وطنية رفيق التي نشأت معه منذ صباه الأول ، وجعلت تربو وتشتد بين مشاهد الغزو الايطالي وحركات المقاومة الباسلة التي كان أبوه يشرف على تنظيمها ، لم تلبث ان مثلت في ضميره في غاية عنفوانها ، بعد عودته من الاسكندرية ، وقد شهد فيها ، في إبان الثورة المصرية ، من بين مظاهر الوطنية حركة الاضراب العامة الشاملة التي لم يعبأ فيها أي موظف أو عامل بما يصيبه من جرائها في مصدر عيشه، كما بلغ من قوة هذه الوطنية ان طغت على جميع الاعتبارات الخاصة ، حتى ليؤ ثر الشخص تلبية ندائها على علاقات الرحم الماسة .

بهذه الروح الوطنية الغلابة وما كان يتألق فيها من مثل رفيعة واجه رفيق ما كان يرى أنه من تبعاته ، منذ عاد إلى موطنه في بنغازي . ومن ذلك تبعته نحو كشف حقيقة هذه الصحيفة والتحذير منها ، على الرغم من كل الصلات التي تصله بصاحبها . لقد أفزعه أن تسري هذه السموم التي تنفثها في هذا

المجتمع دون أن يملك التوقي منها والاعتصام من شرورها . وقد تبلغ يوماً غاية مسراها ، فإذا هي قد تغلغلت في أوصال الشعب الليبي ، فسلبته قوة المقاومة ، وأفقدته مقومات شخصيته .

وكان من ذلك أن انطلقت شاعريته بقصيدة يعرض فيها هذه الصحيفة عارية من كل ما كانت تتستر به ، أو تتجمل باصطناعه ، ويجلوها في الصورة التي تكشف عن حقيقة أمرها ، ويضعها آراء الشعب في الوضع الصحيح الذي عرفه لها . وتلقف الناس هذه القصيدة ، فإذا أبياتها على كل لسان ، وفي كل اذن . يتناقلونها ويتناشدونها ، كما كان شأن أبياته تلك عن (الحزب الدستوري العربي) ، لأنهم أحسوا بها تعبيراً صريحاً قوياً عما كان يلوح أحياناً في خواطرهم ، ويتردد في ضمائرهم ، دون أن يملكوا البوح به . ولعل موقعها هذا من جمهور الليبيين في بنغازي كان مما مكن لها من البقاء ، وأتاح لنا أن نقف عليها ، وأن نتمثل فيها صورة من شاعرية رفيق في هذه المرحلة .

ها هو ذا يبدؤ ها بقوله ، مرددا ما لعله كان يدور بين الناس من تساؤ ل ، حين يلقي الواحد منهم الآخر ، مجيبا عنه بما ينبغي عنده :

ألم يبلغك ما قال (البريد) ؟ هراء لا يضر ولا يفيد
مسيلمة الجرائد ماتنبا وزاد ، فدينه كفر جديد
تملق كي ينال رضاء قوم فما رضي الإله ولا العبيد
فما ربحت تجارته فتيلاً ولا هو في مساعيه حميد
يلفق كل مكذوب وزور وعما كان من صدق يحيد

ويبدو من سياق هذه القصيدة أن رفيقاً كان قد دأب . منذ صدرت هذه الصحيفة ، يتناولها في أحاديثه ومجالسه ، منددأ بها ، مسفهاً لها ، منفراً منها ، وإن هذه الأحاديث كانت تبلغ ـ بطبيعة الحال ـ صاحبها وأصحاب الشأن فيها ، فتعرضه لصنوف من التهديد والوعيد ، لم يكن يعبأ بها ، بل جاءت هذه القصيدة جواباً عليها . وذلك إذ يقول :

نذير الشر ، لا يأتي بخير يهددنا ليرهبنا الوعيد

فلا تتعب فأنا لا نبالي أتانا قبلك الخبر السديد
ودع عنك السياسة لست منها فإنك عن حقائقها بعيد
أينفع عندكم ورق وحبر وما نفع الرصاص ولا الحديد

ثم لا يلبث رفيق بعد ذلك أن يأخذ في تحذير (بريد برقة) ، أو بالأحرى ، في تحذير صاحبها من عاقبة ما هو ماض فيه ، مستسلم له من خيانة ذويه ، وقد ركن إلى العدو واستنام الى إغرائه ، دون أن يدرك أن مسلكه هذا من أهله جدير أن يسمه عند هذا العدو بما يجعله يقف منه موقف الحذر ، وسوء الظن به . وما ينطوي عليه ذلك من تعرضه للأذى يناله منه ، إذا آنس منه موضع ريبة ، دون أن تجدى عليه سوابقه عنده :

ستندم عن ملامسة الأفاعي إذا انقلبت غضابا يا بليد
اذاخان القريب ذويه جهراً بربك كيف يأمنه البعيد
ولكن البصيرة قد اصيبت فليس يفيدك البصر الحديد

ثم يتخذ التنديد بهذه الصحيفة والصد عنها صورة أخرى . فربما وقع في وهم بعض الناس أنها تعرض لوناً من التعبير الأدبي ، فهم يقبلون عليها من أجله ، أو أنها تزجى من الأخبار ما قد يفيدون منه ، فهو ينفى عنها كل ذلك ، فليس فيها ما يمكن أن يحرص عليه أحد . بل كل ما فيها يدعو إلى اهدارها اهداراً تاماً لا إبقاء فيه على شيء منها . وذلك حتى لا يشتريها أحد مهما كانت زهيدة الثمن ، وحتى لا يبقى عليها إذا جاءته عفواً ، بل ينبغي أن يسلمها الى الحريق غير مكتف بالتمزيق :

معان مثل ما يهذى مصاب وإعراب كما نطق العبيد
عجبت ! علام يخرج ؟ لا بيان ولا صدق ولا رأي سديد
كفاك ! فضحتنا ! فاذهب طريدا فيوم فراقك اليوم السعيد
متى تأتي لنا البشرى بأن قد توفي قبل نشأته الوليد
لعمرك جاهل من يشتريه حرام ذلك الثمن الزهيد

فلا تسرف ، ولا تأمنه يوماً فيستهويك شيطان مريد
إذا جاءوا اليك به فعجل إلى الكانون يصحبك (الوقيد)
ولا تقنع بتمزيق ، فيبقى له في الناس مكذوب شديد

ويبدو من تمنيه في هذه الأبيات أن تأتي البشرى « بأن قد توفي قبل نشأته الوليد » ان هذه القصيدة كانت أيضاً من أوائل شعر هذه المرحلة ، إذا علمنا أن (بريد برقة) صدرت سنة ١٩٢٢ ، وأنها كانت لا تزال عند قول هذه القصيدة توصف بأنها وليد .

ويمثل قيادة رفيق الاحتفال بانتصار الأتراك في الأناضول واسترداد ازمير ، بالصورة التي قصصناها ، وهاتين القطعتين من الشعر ، وما يدل عليه ذلك من قدرة على التصدي للسلطات الاستعمارية الفاشية ، وتحدي الظروف الخاصة التي يعيش فيها ، وقدرة على التعبير الفني بما يتجاوب مع مشاعر الجمهور الليبي ، استطاع أن يثبت في ذلك المعترك شخصيته الوطنية الشعرية . واستطار بذلك صيته بين مواطنيه الذين جعلوه موضع فخرهم ومناط اعتزازهم ، وخاصة لأنهم وجدوه مثالاً يكاد يكون منقطع النظير إذ ذاك للتأبي على السلطان ، والامتناع عن المغريات التي خضع لها الكثيرون .

ومن هؤلاء الكثيرين من كانوا يمثلون صورة أخرى من صور العمالة للمستعمر ، شديدة القبح في عيني رفيق ، شديدة الإثارة لشاعريته وهم بعض من يدعون برجال الدين . من ضعاف النفوس . وخفاف الأحلام ، وفاسدي الضمائر .

وكان المستعمر الايطالي استطاع أن يستهوي هذه الطائفة ، بعد معاهدة (الرجمة) ، واتفاقه مع السنوسية . ولعله استغل لذلك ما فيها من مزايا منحت لها ، فوسوس بها لبعض أتباعها ومريديها حتى استمالهم بها ، فركنوا اليه ، وكانوا قد عانوا من ضراء الحياة وضراوة العيش في سني الحرب قدراً غير قليل لم يكادوا معه يلمحون شبح اليسر يلوح لهم ، حتى انصرفوا اليه ، وأعطوه صفقة أيديهم .

وكان من هؤلاء من ذهبوا الى مصر مهاجرين ، وجلسوا الى بعض حلقات العلم في الأزهر ، وعانوا في مهاجرهم من متاعب العيش ووحشة الاغتراب ما أمضهم . حتى إذا كانت معاهدة الرجمة وسياسة التفاهم والموادة التي اصطنعتها ايطاليا بعد الحرب ، والدعاية الواسعة البارعة المفتنة التي أحاطتها بها في أوساطهم ، والدعوة الى العودة في ظلها ، تبرجت أمامهم صور فاتنة من الحياة الناعمة والمراكز المرموقة ، فما لبثوا أن بادروا بالعودة ، ليتولوا مناصب القضاء وما إليها . وكان مما نصت عليه معاهدة الرجمة تكفل الحكومة الايطالية بوضع « جميع المواطنين : القضاة وغيرهم ، من الذين يقومون بأعمال مختلفة ، على كشوف المرتبات الايطالية» .

وكان هذا الانتقال من الإعسار الى الميسرة ، ومن الضيق الى السعة . ومن الحياة المغمورة الى حياة مذكورة ، مما كان له أثره في أن جعل بعض هؤلاء الذين كانوا يتسمون بسمة الدين . من القضاة والمريدين ومن إليهم ، يتصاغرون ويتضاءلون أمام الحاكم الاستعماري . وكأنما كانوا يحسون أنه ، بما بسطه لهم ، ولي نعمتهم، وأنه بذلك ولى الأمر في امتهم .

فإذا انتهت سياسة التفاهم والمسالمة . لتحل محلها سياسة القهر والقمع ، فقد كانوا قد طوعوا تمام التطويع لما أريدوا له ، فزادوا قماءة وضآلة . وبلغوا من الطواعية والخنوع والذلة مبلغاً بعيداً .

وقد مثلت ولا ريب أمام عيني رفيق الثاقبتين اللماحتين هذه الصورة ، شديدة البشاعة . ولعله تذكر بهم موقف بعض رجال الدين في مصر ، في إبان الثورة ، وما كانوا يعرفون به من مصانعة المستعمر الإنجليزي ، وما كانوا يتعرضون له بذلك من سخط الناس عليهم وازدرائهم لهم ، وانتصاب بعض الشعراء ، ومنهم صاحبه بيرم ، لهجائهم والتشهير بهم ، على الرغم من مناصبهم الرفيعة في المجتمع المصري الرسمي . فكان في ذلك ما هو جدير أن يهيج نقمته ، ويثير شاعريته .

وهذا إلى أن رفيقاً كان سيء الرأي في هؤلاء المحترفين للدين ، على جهل بأصوله وخصائصه ، مع ضيق آفاقهم ، واتخاذهم إياه مطية إلى مآربهم ، كما نعرف هذا في مواضع غير قليلة من شعره ، في سياق ما يعرض له أحياناً من بيان مفهوم الدين عنده ، أو في بعض ما يذكر به طوائف منهم . وذلك في مثل قوله موجهاً خطابه الى الوطن في حديثه عنهم :

ظلموك باسم الدين جهلاً . ما لهم   علم سوى التقليد والإغراق
الدين يبرأ من أمور خالفت   حكم العقول وسالم الأذواق

وقوله في هذه القصيدة أيضاً منكراً ما اعتادوا اصطناعه في مجالسهم واجتماعاتهم من طقوس وسموها بسمة الدين ، وما هي من الدين في شيء :

روح العبادة محض إخلاص ، له   بالشرع كل تطابق ووفاق
تلك العبادة في خشوع ، لا التي   يأتونها في ضجة ونهاق

أو في مثل قوله ، يذكر ما آل اليه عند هؤلاء أمر الدين وما يدعونه من علم :

العلم فينا حديث عن مثالبنا   والدين فينا نسيج من خرافات
دارت عليه زوايا السوء فالتصقت   به الإهانات من زور الكرامات

ومن هذا القبيل ما يقوله في قصيدة له عن جهاز (الراديو) استوحى فيها هذا الاختراع طائفة من الخواطر ، معرضاً بهذه الطائفة من رجال الدين :

ان قلت : هذا الكشف معجزة الورى   ثارت على عمائم الفجار
نظروا بغير تفكر ، فعيونهم   (في جنة وقلوبهم في نار)

بل أنه لا يتحرج أحياناً من أن يتناول هؤلاء الفقهاء او المتفاقهين بأسلوبه العابث الساخر . فيصورهم تصويراً يثير الضحك ، ويعرضهم في معارض تبعث على الهزؤ ، كما نرى ذلك في قصيدة بعث بها إلى الأستاذ محمد بن عامر ، وتعرض في سياقها لطائفة منهم كانت قد أثارت ضجة نقد وتحامل على كتاب له في الفقه .

وذلك إذ يقول :

منهم (فقيه الرز) ، ما في عقله　　المنحوس الا الكرش والنفاح
أبداً تراه على الموائد حائما　　للإزدراد كـأنـه تـمـسـاح
والآخـرون ، ومنهم الـزمـزاك　　والحبراك والشوماء والصياح[٣]
تبعوا الهوى فأضلهم ورماهمو　　بفضيحة . إن الهوى فضاح

هؤلاء الذين اتخذوا عند رفيق هذه الصورة ، وساء رأيه فيهم على هذا النحو ، كان منهم هذه الفئة التي اصطنعها الاستعمار في هذه المرحلة ، واتخذ منها عملاء له ، يعملون لحسابه ، ويأتمرون بأمره ، ويزينون أفاعيله أو يبررونها ، ولهم من الصبغة الدينية التي اصطبغوا بها ما يجعلهم انكى أثراً واشد نكراً . فكانوا بذلك هدفاً لشاعريته ، فلم يلبث ان هاجمهم هجوماً سافراً موجعاً ، بأسلوبه العابث ، وتصويره الساخر .

وبين أيدينا ذلك قصيدة طويلة ، ربما كانت من أواخر شعره في هذه المرحلة ، يبدؤها بالشكوى مما يلاقيه في مقامه ، بين عدو يسوم الناس الضيم والسجن والأغلال ، وهؤلاء الذين اصطنعهم هذا العدو ، فانصاعوا له ، وأتمروا بأمره ، فيما يصدرون من أحكام يلبسونها لبوس الدين ، وما يقضون به من فتيا ، إذ يقول :

---

(٣) القاب ساخرة بالعامية الليبية كانت تطلق ، أو ان الشاعر هو الذي اطلقها ، على هؤلاء المتفاقهين . وليس بين أيدينا الآن ما يعين المعنى الذي تدل عليه من كلمتي الحبراك والشوماد . اما كلمة (الزمزاك)، فالزمزكة ، كما في هامش احدى قصائد الديوان (٢ : ٨٥) : « كلمة دارجة معناها التملق ومسح الجوخ ، كما هو في الاستعمال الدارج في مصر » .

كيف السبيل الى إصلاح حالتنا ونحن بين (ابن منحوس) و(ختال)
قاض قضى الدهر ان تشقى البلاد به من جور حكم وإغفال وإهمال
يرضى بما يغضب المولى ويسخطه ان كان في ذاك ما يرضى به الوالي
يكاد يسجد للحكام مرتعداً من جبنه ، بين ترحيب وإجلال
لو أنهم أمروه أن يبيح لهم نساءنا لأتى بالنص في الحال
تلاعبوا بأمور الدين عن يده فكان عوناً لهم في كل أعمال

وهذا القاضي الذي كان يدعى (ابن منحوس) ، والذي وضع نفسه في خدمة الحاكم الإيطالي ، فتلاعب بالدين عن يده ، بلغ من استخفافه بحكم الدين ، وإغفاله حق الوطن عليه ، في سبيل إرضاء هذا الحاكم ، أنه لم يجد حرجاً في أن يعين جنده المرتزقة من المسلمين الذين كان يستعين بهم في الحرب التي يشنها على المقاومة الليبية . وذلك بما أصدر من فتوى يبيح لهم بها الفطر في رمضان . كما لم يجد حرجاً في أن يصد عن الإسلام من جاءه يعلن اعتناقه له ، فلم يقبل ذلك منه . لأنه يجتلب بذلك رضاء الحاكم المسيحي :

افتى بفطر لأشرار تقاتلنا مع العدو ، وباع الدين بالمال
يفتى بوجه (صحيح) غير مستند لمذهب او لدين او لأقوال
رد الذي جاء للإسلام معتنقاً فراح منه حزيناً كاسف البال

حتى إذا فرغ رفيق من رسم صورة هذا القاضي بما يمثل عمالة هذه الفئة وجهالتها ، وما يبعث الاحتقار والمقت ، ينتقل الى فن آخر من التصوير يثير الضحك والسخرية ، إذ يعرض هذا القاضي وصاحبيه : الوسيع والختال ، في بعض الصور الكاريكاتورية البارعة التي نستطيع ان نرى فيها هذا اللون من الوان فن رفيق الشعري في أولى خطواته ، وهو لون يمكن اعتباره من الملامح الأصيلة في هذا الفن ، يستمد وجوده من وضوح الرؤية وروح السخرية معاً . وها هي ذي هذه الصور التي جعلها تماماً على ما رسمه قبل :

قد أذهب الطيش عنه كل هيبته   فصار كالقرد يجري بين اطفال
يهز لحيته في كل مجتمع   كالتيس غطى على قرنيه بالشال
يظل في الشمس كالحرباء منتصبا   يلوح ممتهناً في البرنس البالي
ترى (الوسيع) يحاذيه ، وجبته   كطيلسان ابن حرب ذات اذيال
مذبذب العقل كالخفاش ، مدعياً   للعلم ، وهو جهول بين جهال
في كل يوم تصيب الدين سيئة   يظنها حسناً من عقله الخالي
اعمى ، أصم ، أناخ الدهر كلكله   عليه ثم كساه ثوب اعلال
قد أذهب الله عنه كل طيبة   ولم يدع غير وسواس وأبوال

لقد كان وجود هذه الفئة ظاهرة من ظواهر الفساد الذي كان يعانيه المجتمع الليبي في بنغازي في ذلك الوقت ، والذي ضاق به رفيق أشد الضيق . فقد كان مجتمعاً تسوده الجهالة . وكان من رأيه ان هذه الجهالة السائدة هي التي مكنت لمثل هذا القاضي أن يتولى منصب القضاء فيه ، وأن يمارس فيه ، بمساندة الاستعمار ، سلطات ما كان له أن يمارسها ، فهو ـ كما يقول ـ « جهول بين جهال » ، وخاصة بعد أن انطفأت البقية الباقية من أقباس العلم ، كما كانت تتمثل في إمام بنغازي وكبير قضاتها محمد بن عامر ، فساد الظلام ، وخلا الجو لمثل هذه الفئة . فإذا تناولهم رجل مثل رفيق بلسانه الحاد ، وقريحته المتفتحة ، وحيويته الدافقة ، وجرأته المندفعة ، فقد اندرءوا عليه ، وأخذوا في الكيد له ، وفي هذا يقول في ختام هذه القصيدة :

كان ابن عامر ، يا شيطان ، من شهب   لله تصليك ناراً ذات أهوال
اخفتك طلعته عنا ، فكنت ترى   في قيمة الكلب ، بل في شر أحوال
حتى أتى زمن سادت اراذله   فكنت من بين أوباش وأرذال
اليك عني ، ودعني . انني لسن   تؤذى ، كلسع شواظ النار ، أقوالي
وليس هجو عباد الله من خلقي   لو أنهم تركوني حيث اشغالي

ولم تكن الجهالة السائدة التي أعانت على ظهور هذه الفئة فيما نرى

هي وحدها مظهر ذلك الفساد الذي كان يسود ذلك المجتمع ، فقد كانت هنالك صنوف أخرى من الانحراف عن مبادىء الدين والتحلل من قيود الخلق جعلت تنخر فيه ، كما يمكن ان نرى في قطعة من الشعر قالها أول مقدمه بنغازي ، سنة ١٩٢١، وقد حلت بها في ذلك العام نكبة شديدة الوقع بالغة الأثر ، إذ شب في أكبر أسواقها ، وأحفلها بالسلع المختلفة ، وأعظمها تمثيلاً لثروتها التجارية ، وهو سوق الظلام ، حريق دمره وأتى على كل شيء فيه ، كما أتى الجفاف وتخلف الغيث ، في هذا العام نفسه ، على الزروع والضروع التي هي قوام الحياة في ليبيا ، والتي تمثل ثروتها الزراعية . ولم يكن تأويل هذه النكبة المضاعفة عند رفيق إلا أنها جزاء وفاق لهذا الفساد وارتكاب، ما حرمه الله ، وذلك إذ يقول :

سوق الظلام وزرع هذا العام ... رمياً من المولى بذات ضرام
تركتهما للعين قاعاً صفصفاً ... وكذا تكون عواقب الآثام
سوق الظلام ولم تزل انقاضه ... يرتد ناظرها بقلب دام
لم يندمل جرح اصاب قلوبنا ... حتى تلاه انكأ الآلام
زرع نما حتى إذا فرحوا به ... اضحى كأن لم يغن بعد تمام
هذا جزاء اقل شيء فعلنا ... ما كان جل الله بالظلام
لا يفلح المال الذي لم يجتمع ... إلا بفحش من ربا وحرام

وبعد ، فهذا وجه من وجوه حياة رفيق الشعرية في هذه المرحلة ، قدر ما أتيح لنا أن نتبينه ، ونرجو أن نتم الحديث عن سائر هذه الوجوه في الفصل التالي ، ان شاء الله .

(٥)

كانت حركة الهجرة من المدن الليبية التي امتحنت بالغزو الايطالي والوحشية العسكرية . ثم لم تلبث مشاعر أهلها ان امتحنت محنة قاسية بنكوص الخلافة العثمانية إزاء ذلك الغزو ، ثم ما أصاب المقاومة الليبية في أثر ذلك من وهن وخيبة أمل . كانت هذه الحركة قد حملت في تيارها ـ بين

ما حملت ـ لفيفاً من علماء الدين الذين آثروا النجاة بأنفسهم ، والخلوص بدينهم من هذه المحنة التي لاح تهديدها لهم ، حتى لم يكد يبقى في هذه المدن منهم غير قلة قليلة ، ربما كانت الشيخوخة هي التي أقعدتهم ، وربما كان الذي امسكهم هو ثقتهم بأنفسهم ، واطمئنانهم الى قدرتهم على الاستعصام من كل ما قد يعرض لهم من جبروت المستعمر وفتنته ، وإيمانهم بما يفرضه عليهم المكان الذي يقومون به في المجتمع من حماية له بكل ما يملكون من أسباب الحماية ، ومن حياطة المثل الدينية التي يقوم عليها ويتمثل بها من كل ما قد يعرض لها ، ويحاول أن يقتلعها أو يوهنها .

ولا ريب عندنا أن هذه القلة المؤمنة استطاعت ان تصمد ـ الى حد كبير ـ في هذا المعترك ، وأن تحول ـ إلى حد غير قليل ـ دون ما هو من دأب الاستعمار ان يعمل له ، ويبذل فيه غاية جهده ، من مسخ شخصية الشعوب التي يسيطر عليها ، وفصم العرى الوثيقة التي تربط هذه الشعوب بتلك القيم التي تحنظ لها كيانها ، ولعل هذا الاستعمار الذي أناخ بليبيا كان يرى ان هذه القلة التي آثرت البقاء لا تلبث ان تقضي نحبها ، فلا بأس عليه في أن يصبر عليها . وقد جعل ، في الوقت نفسه ، يعد طائفة من الأغرار ليحلوا من بعد محلها ، ويستخدمهم في تحقيق ما كان يديره في نفسه ويدير أسبابه من أهداف السياسة الاستعمارية .

وقد أدرك رفيق في عودته الى ليبيا واستقراره في بنغازي هذه الطبقة من العلماء التي كانت تعيش آخر أيامها ، وأنس بمن اتيح له منهم ان يصل به اسبابه ، وقد وجد فيه ما لعله كان يسرى عنه ، ولكنه لم يلبث ان رأى الموت يتخطفها ، وأسدل بذلك الستار على هذه الفترة الأولى في مقامه الجديد ، ليرتفع عن تلك الطائفة الأخرى التي كان الاستعمار يعدها ليشغل بها مكان اولئك ، ويحقق بها أول أهدافه . وشتان ما بين الطائفتين .

فإذا كانت الأولى تمثل قوة الايمان وعزة النفس ووثاقة الخلق وسعة العلم ، والوقوف عند حدود الدين وحقائقه ، والتزامها به في كل ما

يعرض ، لا تداهن ولا تمالىء ولا ترائي ، فقد كانت الطائفة الأخرى خواء من ذلك كله ، لا معنى له عندها . إنما هي الانتهازية الذليلة ، والشخصية الضحلة الضئيلة . وقد اتخذت من الانتساب الى الدين زوراً ، وانتحال اسمه دون تحقق به ، وسيلة تقربها من الحاكم الايطالي ، وقد اصبحت من عملائه . وكانت جمهرتها من هؤلاء الذين يحترفون الدين بين العامة ، من بعض أرباب الطرق ، ممن دأب الاستعمار على احتضانهم واتخاذهم صنائع له ، ومن هؤلاء الذين كان مد الهجرة قد حملهم ، وفيه غثاء كثير ، فلقوا في مهاجرهم من شظف العيش وعنت الأيام ومضاضة الاغتراب ما لم يصبروا عليه ، وإنما يتخذون من بعض مواطن العلم وحلقات الدرس علالة يتعللون بها ، حتى يقضي الله امراً كان مفعولاً ، فما إن ابرمت اتفاقية الرجمة التي أشرنا قبل اليها ، حتى جعل بريقها يومض في آفاقهم ، فيخطف أبصارهم ، ويثير مطامعهم ، فما لبثوا ان بادروا بالعودة ، دون أن يصيبوا من العلم الا قليلاً لا طائل له ولا غناء فيه . ولكنه كان كافياً عند المستعمر لأن يضعهم في مناصب الإمامة والفتيا والقضاء والتعليم ، وأن يدر عليهم ما تكفلت به تلك الاتفاقية ، وأن يحقق بهم سياسته المرسومة في نقض العرى التي يستمسك الشعب الليبي بها .

وهؤلاء هم الذين امتحن بهم رفيق ، فتصدت لهم شاعريته بمثل ما رأينا في الفصل السابق .

أما تلك القلة المؤمنة الصابرة الصامدة التي طيب وجودها خاطره وآنس وحشته ، أول عهده بمقامه الجديد في بنغازي ، والتي لم يلبث أن فقدها ليبتلى بهذا النمط من المتفاقهين المستذلين ، فقد كان أكبر من يمثلها هنالك شيخ آل عامر الذي أشار اليه في القصيدة التي هجا بها ابن منحوس وصاحبيه، والتي أشرنا اليها من قبل . وقد رأينا أنه كان يتمثله في صورة شهاب من الله ، وأنه كان يستحضر به صورة تلك الشهب التي ملئت بها السماء في إبان البعثة النبوية ، لتكون رجوماً للشياطين ، تطردهم عن ملكوت السماء ، وتصدهم عما كانوا يتسللون له . ويقعدون منه مقاعد

للسمع . فكذلك ، فيما كان يتمثل ، شأن ابن عامر من هؤلاء الذين وضعهم المستعمر في مواضعهم ، وبوأهم مقاعدهم ، كيدا للإسلام ، وتحليلاً لعقده الوثيقة . وقد استطاع ان يحجبهم ويصدهم عما اريدوا له ، وما كانوا يتطلعون اليه ، الى أن قضى نحبه ، فخلا لهم الجو يبيضون فيه ويصفرون .

وربما كان ابن عامر هذا هو البقية الباقية في برقة من هذه القلة المؤمنة الصامدة . على أنا لا نكاد نشك في أنه كان رمز المقاومة الليبية التي كانت تتصدى للغزو الايطالي وتقاومه بالمجاهدين في ميادين القتال . وبأمثاله في الحواضر والقرى ممن كانوا يمثلون بروحهم العالية عنصر الثبات والصمود ، في هذه الفترة التي آذن فيها كثير من القيم بالتزايل والتهاوي ، وآذنت فيها المقاومة القتالية بالتراجع والنكوص ، لولا ذلك الطراز من الرجال الذي كان يتمثل في رجل كابن عامر ، فكان هو المعتصم الذين تلوذ المقاومة به وتتشبث بأهدابه . وتستبقي به روحها الكامنة ، سواء بين المقاتلين من أهل البادية الذين لم يلبثوا أن أخذوا يجمعون صفوفهم ، وينظمون معسكراتهم ، وبين المدنيين الذين استعصوا على كل ما كان الاستعمار يأخذهم به ، باللين مرة ، وبالعنف والطغيان مرارا .

وهنا لا أرى بداً من أن أستأذن ، مرة أخرى الصديق الكريم والوطني العظيم ، الأستاذ مصطفى بن عامر ، في أن أنقل من رسالته التي تفضل بكتابتها إلي في شهر نوفمبر سنة ١٩٧١ ما جاء بها خاصاً بالشيخ محمد بن عامر الكبير ، تعريفاً به ، وبياناً لبعض سمات شخصيته ، قال حفظه الله وبارك في حياته :

« هو محمد بن عامر بن عبد الرحمن الأطرش ، (وهو اسم العائلة بمصراطة حتى الآن) . وفي بنغازي سمى باسم (الأسمع) ، وهو المعروف به ، وإن كان اسم (بن عامر) هو الغالب على اللقب الأول ، ولد في مصراطة ، سنة ١٨٣٤ ، وانتقل إلى بنغازي مع والدته وأخته ، ولم

يتجاوز السادسة عشرة من عمره . وكان الغرض من انتقاله هو أن يكون مع عمه الحاج حسن الأطرش .

درس في مصراطة دراسته الدينية وما يتعلق بها . ثم انتقل إلى بنغازي ، واشتغل بالتجارة وطلب العلم . ثم جلس للتدريس . وأخيراً عين مفتياً لولاية برقة ، أو بنغازي ـ كما كانوا يسمونها ـ وأصبح يحكم منصبه عضواً في مجلس الإدارة (للولاية) ، كما هو الحال في الولايات العثمانية . ومهمة هذا المجلس مساعدة الوالي في إدارة شؤون البلاد .

وبعد الاحتلال الإيطالي ، عام ١٩١١ م ، أصبح قاضياً لبنغازي . ويعتبر كبير القضاة في ذلك الوقت . وظل قاضياً حتى عام ١٩١٨ ، حيث أحيل على المعاش ، لتجاوزه السن القانونية ، ولازم البيت حتى وفاته سنة ١٩٢٢ .

كان يمتاز بالشدة . وقد ظهرت واضحة من مواقفه مع الإيطاليين مدة حكمهم . وكثيراً ما كان يهدد بالاستقالة عندما يرى أن الحكومة تريد التدخل في الشؤون الإسلامية . وكانت تقدر مركزه ، وتحترم آراءه ، وما طأطأ رأسه أمام حاكم طيلة حياته . برز ذلك واضحاً عندما طلبت منه الحكومة إباحة الفطر للجنود الذين تطوعوا مع إيطاليا في رمضان ، وكانوا خليطاً من الصوماليين واليمنيين والمواطنين ، فرفض الموافقة على ذلك . وكذلك الحكم بجواز شراء ما كان يغنمه الايطاليون من المجاهدين ، وفضل المصادمة على المساومة ، ومثل هذا كثير . .

ثم في عام ١٩١٥ م أو ١٩١٦ م (أثناء الحرب العالمية الأولى) حدثت مجاعة في ولاية برقة ، حيث اضطر كثير من سكان البادية الى النزوح الى المدينة . وكان يسكنها وطنيون وأجانب . وهذا دعا إلى التفكير فيما يترتب على ذلك من مآس اخلاقية . ولذلك فكر في تأسيس جمعية خيرية لحفظ البنات المسلمات . وكان يعاونه في ذلك كثير من أبناء البلاد ، واستطاع في ذلك الوقت أن ينتزع موافقة من الحكومة الايطالية

على فكرته . وفعلاً بدأ بوضع البنات المسلمات في محل انشىء لهذا الغرض كملجأ . ولا تخرج البنت من الملجأ إلا بزواج . ووضع عليهن فيما ومعه زوجته . وقد ظل ذلك حتى زالت الأسباب في عام ١٩١٨ .

وقد كان لهذا العمل صدى كبير وتقدير حسن .

وبالجملة فقد عاش الرجل محبوباً ومحترماً ، ولازال الكثير يذكر مآثره الوطنية والعلمية ، ووقوفه أمام القوة الحاكمة موقف المناضل » .

هذا هو ابن عامر الذي كان يمثل القلة القليلة التي آثرت البقاء في ليبيا من علمائها ، والتي كانت تمثل القيم الإسلامية والغيرة عليها والحرص على حياطتها . وكان وجوده في بنغازي في إبان انتقال رفيق اليها مبعث أنس له ، أشرقت به ـ ولا ريب ـ بعض جوانب نفسه ، في وسط ما كان يحتوشهامن ريب ، وما كان يؤزها من وساوس ومخاوف وأحاسيس ندم .

ولكن هذا الشيخ الذي كان قد تجاوز الثمانين لم يلبث ان وافته منيته بعد عام واحد من بلوغ رفيق بنغازي ، سنة ١٩٢٢ ، فانطفأ بموته ذلك النور الذي كان يشع منه ، فيغمر نفس رفيق رضا وغبطة . ثم كان لما اطبق على المدينة من وجوم وحزن ما ضاعف من إحساسه بالفجيعة ، وكثافة الظلمات في آفاق حياته ، ولم يعزه عنه أنه كان يعيش من آل عامر جميعاً في جو صداقة ومودة ، فقد كان الشيخ هو الإشراقة التي بقيت لأهل بنغازي في هذه الحياة التي يحيونها وقد أطبقت عليها كتائب الظلام ، تسري في خللها شياطين الظلم والطغيان ، وكان الأمل الذي يومض لهم في دياجير اليأس والقنوط التي تأخذ بأكظامهم ، والبقية الباقية من ذلك العهد الكريم الذي قضى عليه الاستعمار الايطالي ، وتركهم منه بين الحسرة عليه تمزق قلوبهم ، واللهفة على كل ما عسى أن يمثله أو يذكر به .

وبذلك كان موت هذا الرجل فجيعة وطنية عامة فجرت مشاعر رفيق الوطنية ، فوق ما زلزلت من أحاسيسه الشخصية . فلم تلبث شاعريته التي كانت ما تزال تتحسس طريقها أن انبعثت بقصيدة رثاء ، كانت مما بقى لنا

من شعره في هذه المرحلة ، وهي قصيدة طويلة تبلغ نحواً من أربعين بيتاً ، بدأها بترديد ما كان الناس عامة يهتفون ، ولا بد ، به ، من عظم الخطب وفداحة المصاب . وقد جعل يبنى على ذلك حديثه عن الصبر ، وأنه لا تثريب على أحد أن هو لم يتجمل به ، فانطلق مع جزعة وإشفاقه على الدين الذي كانت بوادر الفساد اخذت تتدسس اليه ، باكياً معولاً ، وقد انتهى ما كان الناس يتشبثون به من أمل في تداركه :

الخطب أعظم ! والمصاب جليل ! والصبر في غير الملمّ جميل
فلكل عين حق أن تبكي دما ولكـل نفس لـوعـة وعـويـل
إن البكاء اليوم فرض واجب حتى ولو لم يشف منه غليل
من كان يبكي الدين خوف فساده فـالآن بـادر خـوفـه التعجيـل
مات الذي كانت به أوطـاننا في الدين يدرك عندها التأميل
مات ابن عامر ، فالأنام مزعزع خوفي عليه عن الرشاد يميل

وقد تمثل إحساس الناس بما فجعهم به موت ابن عامر في موكب الجنازة ، كما صوره رفيق : حشد هائل من الناس يسيرون خلف الجنازة مطأطئي الرؤوس ، دامعي الأعين ، وقد انطلقوا من كل صوب .

فكأنما ، لجلال موكبـه ، بدا بـالنفخ يـوم الهول اسـرافيـل

ولكن هذا الموكب بهذه الصورة إنما هو فيما يراه الناس بأعينهم ، أما عند رفيق ، وما كان يستشعره في باطنه ، فإن هنالك ما لا يراه الناس الذين خفض الخشوع رؤوسهم ، وغشى الحزن بالدمع أبصارهم ، فلم يروا الملائكة التي كانت تحوم على النعش وتحلق فوقه :

حفت مـلائكـة الإلـه بنعشـه من ذكـرها التسبيـح والتهليـل
لو من وراء النعش أبصر فوقه لرأي الملائـك بينهما جبـريل
لكنما خفض الخشوع رءوسنا والدمع من بين الجفون يسيل

لقد كانت هذه الجنازة الحاشدة هي الخاتمة الطبيعية لتلك الحياة

الطويلة الحافلة بالجهاد في سبيل الدين وتوطيد سلطانه والدفع عنه ، في جرأة متوثبة ، غير متخذ غير سنة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، سلاحاً ، ولا مائل إلى شيء من طرائق السياسة التي لم تفتنه ببريقها المضلل ، ولم تصرفه عن مكانه في مجالس القضاء وحلقات العلم .

في الله عمرا في الجهاد فضيته ... كالليث أنت ودين ربك غيل
لم تأل جهداً في الدفاع بهمة ... فاقت شبا الصمصام وهو صقيل
ما من سلاحك غير سنة أحمد ... ان السياسة سبكها تضليل
نقل الكرام الكاتبون صحائفاً ... لـك ملؤهن البر والتبجيل
مملوءة عملاً أذبت لأجله ... جسداً تقضي العمر وهو نحيل

وكما نستطيع أن نتمثل في هذه القصيدة ذلك الجانب من جوانب الحياة الدينية في بنغازي في هذه الفترة ، قبل أن يسودها أمثال الختال وابن منحوس والوسيع ، ومشاعر رفيق فيها ، فأنا نستطيع أن نرى فيها المدارج الأولى التي جعل يدرج فيها فن رفيق الشعري ، وخاصة حين يتجه إلى إطالة القصيد وتوليد المعاني والصور ، وما كان يصاحب هذه الأولية من بعض مظاهر التعثر والتعسر والتهافت والتكلف في الصياغة الشعرية .

وكما كان ابن عامر يمثل القلة الصابرة الصامدة ممن آثر من علماء ليبيا البقاء في الوطن الليبي ، فقد كان يمثل من هاجر منهم استاذه في الاسكندرية الذي ذكرناه من قبل : الشيخ السنوسي الساقزلي . وكأنما كان على موعد مع ابن عامر في مغادرة الحياة الدنيا . فلم يمض غير قليل على وفاته حتى جاء نعي هذا الشيخ ليفجر احزان رفيق مرة أخرى .

وكان السنوسي الساقزلي رجلاً من ذلك الطراز الذي كان يمثله في برقة الشيخ بن عامر وبقية تلك الجماعة التقية الورعة التي لم تذهب الأحداث التي أناخت على ليبيا بصوابها ولم تمح شخصيتها . كان مع ابن عامر في محكمة بنغازي الشرعية وكيلا له . حتى إذا احيل الشيخ الى المعاش لم يطب له المقام في منصبه بعده ، بعد أن فقد الركن الذي كان

يركن اليه فيه ، فأزمع الهجرة الى الحجاز ، يؤدي فريضة الحج ، ويزور قبر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ويقضي بقية أيامه في تلك الرحاب الطاهرة . ولكنه ما إن بلغ الاسكندرية ، وفيها جماعة غير قليلة من مواطنيه ، حتى عن له أن يتلبث فيها ، فأقام بها عامين أو أكثر . وفي خلال مقامه هذا اتصل به رفيق وتلمذ له وقرأ عليه وسمع منه ما كان يتحدث به ، ولا ريب ، عن بنغازي وعن شيخها بن عامر ، ثم مضى الشيخ الى غايته التي خرج من أجلها ، فألقى بالحجاز عصاه ، وترك في قلب رفيق صورة من العلم والتقوى تحف بها هالة من الحب لا تزال تذكره به ، وتشعره بالحنين اليه . وقد ظل مقيماً بالحجاز ، حتى وافته منيته به في ذلك العام ، عام ١٩٢٢ .

ولا ريب ان نبأ موته قد اهاج أحزان رفيق وأثار اشجانه ، مختلطة بذكريات جلوسه اليه وتلقيه عنه وصحبته له في الاسكندرية ، بعد أن كان حزنه على ابن عامر قد هدأ . ولم تلبث هذه الأشجان والذكريات أن انبعثت في قصيدة طويلة لحس فيها اللوعة الصادقة والوفاء الحق . وقد بدأها ، كما بدأ قصيدة الرثاء الأخرى ، بذكر الصبر وامتناعه ، وذكر أيادي الشيخ التي لا سبيل الى نسيانها ، وهو المفطور على الوفاء :

أرق دمع عين كان بالأمس راقيا ... وثجج دما حتى تخد المآقيا
فما الصبر في كل المواطن ممكنا ... ولا القلب عن كل الأحبة ساليا
ولا كل من يولى الجميل ، إذا مضت ... عليه ليالي الدهر ، أصبح ناسيا
أأنسى أياد طوقتني بعرفها ... أبحت لها رقي ، وما كنت جازيا
إذن لست للمعروف أهلاً وموضعاً ... ولا كنت تلميذاً لمولاي وافيا
فيا قلب ذب حزناً ، ويا نفس حسرة ... ويا جفن لا ينفك دمعك جاريا

فإذا ما انتهى بعد ذلك من رسم ملامح الشيخ النفسية ، كما وقرت في خياله ، ومن التنويه بصرامته في التفريق بين الحق والزيغ ، وبسعة صدره وقوة أيده في الانتصار للمظلوم ومد يد العون الضعيف ، وبلين جانبه ، وزهده الصحيح ، وما حمله ذلك عليه من الرحلة التي تجشمها

حمية للدين واباء للضيم ، وما أكرمه الله به من أيوائه إلى بيته ، وثوائه في جواره هانئاً راضياً ، وقد سلس لرفيق في ذلك كله أسلوبه ، وتخلص - الى حد بعيد - من مظاهر التكلف . إذا انتهى من ذلك اتجهت شاعريته الى الحديث عن هذه البلاد التي امتحنت بالأمس بفقد ابن عامر ، وها هي ذي تمتحن بعد قليل بفقد صاحبه ، فقد فقدت بموتهما فرقديها النيرين ، وخلت بذلك أرضها من خير من كان يحمي حماها ، ولم يعد للشرع الشريف بها من يقيم بناءه ويعمره :

ألا أيها القطر النحيس ، لقد عدت ... عليك الرزايا واعتدى الدهر باغيا
أصبت بجرح قاتل ، بعد قاتل ... مضت عنه أيام ومازال داميا
فبالأمس من خطب ابن عامر لم تزل ... كئيباً ، وذا خطب السنوسى تاليا
هما فرقدا هذي البلاد وقد خلت ... سماء لها من ساطع كان بادياً
الا أيها الشرع الشريف بقطرنا ... عليك سلام الله ، أصبحت خاوياً
سلام على قطان برقة بعد ما ... خلت أرضها من خير من كان حامياً
إذا فارق الليث الهصور عرينه ... ايحرسه ذئب ، ولو كان ضارياً ؟

وإذا كان لهذه القصيدة دلالتها ، كالقصيدة السابقة ، على جو الحياة الدينية في هذه الفترة ، ومدى التوجس الذي كان يسيطر على مشاعر الناس من هذه الناحية ، فإن لها ، هي أيضاً ، دلالتها على تطور شاعرية رفيق في هذه المرحلة ، إذ نراه فيها أشف عبارة ، وأكثر تخلصاً من مظاهر الفجاجة والتكلف .

هذه صورة من حياة رفيق ونشاطه الشعري في بنغازي ، أوائل مقامه فيها ، بين ما كان يطيب خاطره ويسرى عنه ، وما كان يثير أشجانه ، ويبعث أحاسيس التشاؤم في نفسه ، قدر ما تدلنا عليه هذه الأثارات القليلة التي بقيت لنا من شعره في هذه الفترة .

على أنه لم يلبث - على الرغم من ذلك كله - ان جعل ، بحيوية الشباب الدافقة ومزاجه المنطلق ، يروض نفسه على الاندماج في هذا المجتمع الجديد الذي فتح له ذراعيه مرحباً به ، فكان له اصدقاؤه وأصفياؤه الذين

يخلص اليهم ، ويأنس بهم ، ويستروح بمصاحبتهم والحديث اليهم في غير تحرج ، ومشاركتهم بعض ألوان حياتهم . وقد كان علينا ـ ونحن نحاول أن نؤرخ لهذه الفترة من حياته ـ ان نتقصى هؤلاء الأصدقاء ونتعرف اليهم . ولكن لم يتح لنا من ذلك الا القليل ـ وقد سبقت الإشارة الى رجلين منهم : أحدهما عيسى بن عامر ، أحد أفراد آل عامر الذين كانوا جميعاً ـ فيما يظهر ـ من أوداثه وخلصائه ، منذ بلغ بنغازي ، والآخر هو : موسى البرعصى .

وقد ترجمت لجنة الرفيقيات التي عنيت بجمع قصائد الديوان ونشره لموسى البرعصي هذا في هامش احدى قصائد الجزء الثاني ، بقولها :

« هو الشيخ موسى بن أحمد البرعصي . ولد سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م تقريباً ، في بنغازي . بعد دراسته الأولية ارسله والده لمعهد الجغبوب . ولما أتم دراسته الدينية وما يتبعها عاد إلى بنغازي ، وتولى عدة وظائف ، وأخيراً احترف المحاماة الشرعية في سنة ١٩١٥ م . وتوفي سنة ١٩٤٠ .

كان أديباً ، شاعراً ، عاقلاً ، ظريفاً ، لم تفارقه فكاهاته حتى آخر حياته . أما اتصاله بالشاعر فكان وثيقاً ، تجمعهما حرفة الأدب . ولرفيق معه مساجلات لطيفة . لا يترك فرصة إلا ويتحفه بقطعة أدبية ـ وما أكثرها . وسنرى منها قطعاً . . وكان رحمه الله من الرجال المعدودين . »

ولعل أول ما يلفت النظر في هذه الصداقة التي نشأت بين رفيق وموسى البرعصى في هذه الفترة هو هذا الفارق الزمني الكبير بينهما ، فرفيق شاب في عنفوان شبابه ، لم يبلغ بعد الثلاثين من عمره ، والبرعصي شيخ في العقد السادس . ومع ذلك فقد كانت علاقة ما بينهما من أقوى علاقات الصداقة التي لا تكلف معها ، ولا تحرج فيها .

ولعله كان من أول من عرض لرفيق في بنغازي من أهل الأدب والظرف والفكاهة . وأكبر الظن ان الذي أتاحه لرفيق هو صلته بآل المحيشي الذين كانوا يحتضنون رفيقاً إذ ذاك . وهي صلة نحس بها في سياق حديث

(الطيب الأشهب) في كتابه (برقة العربية) عن الحفل الذي أقامته بلديه بنغازي للأمير أدريس السنوسي قبيل زيارته ايطاليا ، أواخر سنة ١٩٢٠ ، فقد كان أحد الرجال المذكورين المنوه بهم في هذا الحفل ، وكان من أبرز خطبائه الى جانب عميد البلدية محمد المحيشي وأخيه عمر المحيشي .

فما إن لقى كل منهما الآخر حتى تجاوبت نفساهما . فكل منهما يعشق الأدب ويحب النادرة ويميل الى المزاح والفكاهة . وما كان أشد حاجة رفيق القادم من الاسكندرية الى مثل هذه الشخصية تؤنس وحشته وتستجيب الى نوازعه ، كما لا نكاد نشك في أن البرعصي وجد في شباب رفيق الدافق ، ومزاجه المنطلق ، وروحه المرحة ، طرازا لعله كان يفتقده كثيراً في البيئة التي يعيش فيها . وبذلك اقبل كل منهما على الآخر دون أي اعتبار لفارق السن .

ومن ذلك كانت هذه المساجلات الأدبية التي أشارت اليها الترجمة التي أوردناها منذ قليل وإن لم يبلغنا شيء منها . وكل ما بلغنا من الآثار الأدبية التي صدرت عن هذه الصداقة ، في هذه الفترة ، قصيدة بعث بها رفيق إلى صاحبه ، في حالة مرض ألـم به ، يعتذر فيها عن تخلفه عن عيادته . وقد استهلها بقوله :

نبئت انك تشكو وطـأة الألم   عافاك مولاك في الدنيا من السقم

وبأسلوب يخلط فيه بين الجد والهزل والحكمة والمزح يأخذ في التسرية عنه ، ثم يتطرق منه الى الاعتذار . وفي مساق هذا الاعتذار يرسم صورة مما صارت اليه الحياة في بنغازي ، بعد استيلاء الفاشست على الحكم. في أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وما تبع ذلك من تغير السلوك الاستعماري ، وإعلان الوالي الايطالي في برقة « ان جميع الاتفاقات التي عقدتها الحكومة الايطالية مع السنوسيين باطلـة وملغاة » ، وقد أخذ يكشر عن أنيابه .

وكان على الوطنيين أن يقابلوا ، من جانبهم ، هذه السياسة الجديدة

بما تقتضيه ، فأخذوا في الإعداد للحرب وتنظيم معسكرات الجهاد في البادية . وبذلك اصبحت برقة منطقتين متميزتين : المنطقة الساحلية ، وهي خاضعة للإدارة الايطالية متركزة في مدنها ، ومنطقة البادية التي تقع وراءها . وهي مقر الثوار ، وموطن معسكرات المجاهدين . وكان هؤلاء المجاهدون لا يفتأون يغيرون على أطراف المدن ، يتصيدون بعض الجنود الايطاليين أو يسلبونهم أسلحتهم . فكان على الادارة الايطالية ان تواجه هذه الحالة بما يقطع السبيل على هؤلاء الثوار فكان مما اصطنعته من أجل ذلك في بنغازي أن قسمت المدينة الى قسمين : شمالي وجنوبي ، وأقامت بينهما سوراً ، « بحيث لا يمكن الانتقال من شمال المدينة إلى جنوبها الا بعد الحصول على جواز مرور » .

وإذ كان موسى البرعصي يسكن في القسم الجنوبي ، ورفيق ينزل في القسم الشمالي ، فقد كان عليه ان يتخذ احدى خطتين ، أولاهما أن يحصل على جواز مرور ، يستطيع به أن يعبر السور ، ولم يكن ذلك ليتاح له ، بعد هذا الذي دأب عليه من مهاجمة الاستعمار الايطالي وعملائه ، وتحدي الإدارة الايطالية فيما يقوله من شعر ، وما يتحدث به ، حتى انقطعت صلته بالبلدية ، ترك عمله فيها وأقصى عنها . وإذ كانت هذه الخطة متعذرة أو مستحيلة فليس أمامه إلا الخطة الأخرى ، وهي أن يغامر بمحاولة عبور السور ومواجهة الجند الايطالي القائم عليه مواجهة لا قبل له بها ، وبما لا بد أن يتعرض له فيها من أذى وهوان .

ذلك كان موقف رفيق من عيادة صاحبه موسى في مرضه ، وبذلك انعكست صور ذلك السور ، من قيام الزبانية عليه ، وأحاطة الأهوال به ، في قصيدته التي وجهها اليه ، شارحاً عذره في تخلفه عنه :

إني ليمنعني من أن أزوركم ،   على اشتياقي ، هموم داهمت هممي

وقد أحاطت بأكنافي ممانعة   إحاطة السور بالحراس والخدم

سور ، على كل باب مالك ، وله   فيه زبانية التعذيب بالقدم

لا تسلك الريح إلا وهي واجفة   مما ترى من عذاب غير منفصم

لو استطاعوا لسدوا عن مداخله .   إذا أتت في حماهم ، هبة النسم
سور كظاهره ويلات باطنه   ما فيه مرحمة حتى لذي رحم
ما في المرور على حد الصراط كما   في باب ذا السور من هول لمقتحم
كأنه سد يأجوج ، ونحن به   نموج في الهم موجاً غير منتظم
كيف السبيل اليكم ؟ ان ربعكم   يخاف طيف الكرى مرآه في الظلم

على ان رفيقاً لا يقتصر في اعتذاره على هذا الوجه ، بل يعززه بوجه آخر يرجع إلى سوء حالته المالية ، كأنه يقول إنه لو استطاع ، بصورة ما ، أن يحصل على جواز المرور ، أو يحتال لاجتياف السور ، لكان هنالك من ضيق ذات يده ما يحول بينه وبين عيادة صاحبه . إنه يكابد حياة صعبة ، منذ ترك عمله في البلدية ، وفقد راتبه منها ، فقد أصبحت موارد عيشه نزرة مضطربة لا تأذن له ، مع حيائه ، ان يقدم بين يديه ما اعتاد الناس أن يقدموه حين يعودون مريضاً ، وخاصة حين يكون هذا المريض صديقاً قد اجتمع عليه ـ كما يقول هو في هذه القصيدة ، وان يكن في سياق الدعابة والعبث ـ « سقم بجسم وإفلاس بذات يد » .

وقد عبر عن هذا الوجه من وجوه الاعتذار ، وهذا اللون من ألوان همومه التي داهمت همه ، بقوله ، مستحضراً ـ فيما يبدو ـ قول أبي الطيب المتنبي : « فليسعد النطق ان لم يسعد الحال» :

إني ليمنعني من أن أزوركم ،   على اشتياقي ، حياء يستفز دمي
فراغ كف ، وعجز عن معاونة   لا خير في الود لم يثمر ولم يدم
إن الصديق بلا جدوى ومنفعة   لا خير فيه ، كما لا خير في الصنم
لكنني موقن أني سيشفع لي   لديك علم بحالي غير مكتتم
لما رأيت قصوري في مودتكم   وبان عدمي لكم اهديتكم كلمي
شعراً ، وإن كان لا يرضى الغبي به   فالشعر احسن ما يهدى لذي فهم
فأقبله من صاحب مازال في خجل   مما جنته عليه حرفة القلم

ولعلنا نرى في هذه القصيدة ، فوق دلالتها على هذا الوجه من وجوه

حياته في هذه الفترة ، وعلى تلك الصورة من صور الحياة في بنغازي ، انه قد تقدم فيها مرحلة أخرى من ناحية الصناعة الشعرية . وإن ملامحه الفنية أخذت تبدو فيها أكثر جلاء ووضوحاً .

ويمثل موسى البرعصي هذا من الأصدقاء الذين اتيحوا له في بنغازي كانت له حياته العابثة اللاهية ، الى جانب هذه الحياة الجادة التي كان يتصدى فيها لصور الاستعمار وأساليبه ، والتي جرت عليه من متاعب العيش ، على الصورة التي نرى بعض أصدائها في قصيدته هذه ، ما كان لا بد لمثله ان يستعين على مواجهته بشيء من اللهو والعبث .

وهذا إلى أن رفيقاً كان ، إذ ذاك ، شاباً في مطالع شبابه ودافق حيويته ، كما كان من أصحاب المزاج المتفتح المنطلق ، فكان من الطبيعي ان تكون له حياته الخاصة التي تلائم شبابه هذا وحيويته ، وتتجاوب مع مشاعره المنبثقة عن هذا الشباب وذلك المزاج ، وقد كانت بنغازي تتيح له ، بمجالسها الخاصة في دورها وبضواحيها وشاطئها وجنانها وقهواتها ان يرضى ذلك الشباب المشبوب ، ويستجيب لتلك الحيوية الدافقة .

وما تشك في أن شاعريته وجدت في ذلك كله ما هو جدير أن يثيرها ويضرب على اوتارها ، فتنبعث معه مترنمة ، معبرة عن اهتزازاته الوجدانية قبله ، وان لم يبلغنا من ذلك شيء يرجع الى هذه المرحلة من حياته .

- ٦ -

وإذا كان هذا الشعر قد تبدد فيما تبدد من آثار المرحلة ، فضاع بضياعه هذا الوجه من وجوه حياته الفنية فيها ، وإذا كان من أغراضنا في هذا الفصل أن نتبين ـ قدر الطاقة ـ صور حياته عامة ، فنتعرف كيف كان ينفق هذه الحياة ، وكيف كان يضطرب بين المواطن التي يستجيب فيها لعواطفه المشبوبة وحيويته العارمة ومزاجه الحاد ، فإنا ظافرون بشيء من ذلك في بعض ما بلغنا من شعره الذي قاله في الفترة التي اعقبت هذه

المرحلة . وقد جعلت ذكرياتها تمثل لخياله ، وتهيج حنينه ، وتثير شاعريته ، فلا يملك الا أن يرسم بعض لوحاتها فيما يقول من شعر . ومن ذلك قصيدة طويلة مسترسلة جعلها رسالته إلى صديقه موسى البرعصي ، بعد أن بلغ دار هجرته الثانية في تركيا ، وألقى عصاه في مدينة جيحان ، على مقربة من الحدود السورية . وقد بدأها ، كما تبدأ الرسائل عادة ، بقوله :

بعد السلام وتقديم احتراماتي   اليك يا سيدي موسى تحياتي
واشتكى حر أشواقي اليك ، فقد   أذكاه في خاطري بعد المسافات

حتى إذا فرغ من ازجاء تحياته ، وبث أشواقه ، ومراجعة الظروف التي حملته على مغادرة أصحابه ، وفصم سياق حياته ، أخذ في عرض بعض صور هذه الحياة التي كانت دائمة الإلحاح عليه . فوصف مسارح شبابه في بنغازي ، ومعاهد سمره ومتعته ولهوه في جنباتها مختلفة الألوان .

فمنها ما كان من طراز (مرابع بني عامر) كما يسمى دورهم ، حين يذكر من هذه المعاهد (البركة) إحدى الضواحي الجنوبية لمدينة بنغازي ، وذلك إذ يقول :

واذكر بها (البركة) الفيحاء زينها   وقت الغروب وهبات النسيمات
إذ كنت اقصدها ، والنفس ناجية   وخاطري سالم من كل آفاتي
الى بني عامر ، أهل السماح ، لهم   بي انشراح وبشرى في زياراتي
أقضي سويعات أنس في مرابعهم   معززاً ، يا لدهري ، من سويعات

ولعل سويعات الأنس هذه التي كان يقضيها بها كانت تمتاز بالمذاكرات العلمية والمطارحات الأدبية والأحاديث البارعة المفتنة حول القضايا المختلفة التي تشغل اذهان المواطنين .

وربما كان يشير في البيت الثاني إلى الفترة التي كان يقصدها فيها ، قبل أن يحال بينه وبين القسم الجنوبي من بنغازي ، وفيه تقع البركة هذه ،

كما تقع (الفويهات) التي تلي (البركة) من ناحية الجنوب . وقد ذكرها في هذه القصيدة بقوله :

إذا تذكرت أيام الربيع ، وقد كسا الروابي بـألوان النبـاتات
وفتـح النور ، أفـواهـاً معـطرة سكرت من نفح هاتيك (الفويهات)

وفيما عدا هذه المنطقة المحرمة كانت لرفيق مجالسه وجولاته التي يذكرها ، بلهجة الحنين البالغ ، في قصيدته هذه ، وهي : جنان المحيشي ، وقهوة الشط ، وجوليانة .

أما جنان المحيشي فهي ـ كما يذكر في أحد هوامش الديوان ـ : « بستان تملكه عائلة المحيشي الشهيرة . كان متعة من المتع بأزهاره وثماره ، بين الشرق والجنوب من بنغازي (على مسافة ١٠ كيلو مترات) . وللشاعر فيه ذكريات وأي ذكريات » .

فمجلس رفيق فيه ، كما توحي به هذه العبارة الأخيرة ، يختلف اختلافاً تاماً عن مجلسه في مرابع بني عامر ، انه مجلس طرب وشراب ، وزمر وغناء ، وصيحات إعجاب وانتشاء ، كما يذكره به في هذه القصيدة ، اذ يقول :

وأذكر جنان المحيشى حين يجمعنا مع (الحبيبين) ليلاً في مسرات
تـظل ارواحنا بـالـراح رائحـة تميل ، لكن على وفق النغيمات
زمـارنا بـارع ، فاقت بـراعتـه كـادت يراعته تـأتي بـآيـات
يوقع اللحن موزونا ، فيسلبنـا البـابنـا ، بين تصفيق وآهـات
هنالك العيش ، مخضراً جوانبه ظل ، وريف ، وأرض ذات خيرات

وأما قهوة الشط فهي ـ كما يعرف بها هامش الديوان ـ : « مقهى في بنغازي ، على شاطىء البحر شمالاً . . كان المكان المفضل الشاعر ، حيث قضى مع اصحابه اكثر الوقت .

(وقد زال المقهى ولم يبق منه سوى ذكريات الشاعر في قصائده)

ومن هذه الذكريات ما يذكره في هذه القصيدة بقوله :

وقهو الشط ، ما أحلى الجلوس بها   بين الأحبة في تلك العشيات
إذا جلسنا تجاه الغرب ، ننظر في   صاف من الماء ، ألوان السحابات
ومدت الشمس فوق اليم عسجدها   وشنف السمع تكرار المويجات
نمتع الطرف في بحر وفي شفق   حتى تمر جميلات الفتيات
وللظباء سنوح عن ميامننا   وعن شمائلنا تمضي زرافات

ولكن رفيقاً لم يكن يكتفي من البحر بما تتيحه له هذه الجلسة من مشاهده ، وإنما كان يمضي أكثر أيام الصيف ، مع أصحابه ، إلى شاطىء (جوليانه) ، شاطىء الاصطياف في بنغازي . فيقضي به ما يتاح له من وقت فراغ ، مستمتعاً بمفاتنه المختلفة التي صور طرفا منها فيما عرض له من ذلك في هذه القصيدة :

واذكر بجليانه الحمام . إن له   ذكرى تحرك مكنون الصبابات
فيه الجمال تجلى غير محتشم   يسبى النهي في تثن والتفاتات
يبث اسرار ما تخفى المآزر من   خلف الظباء وقدام الظبيات
لا بوركت حلل الصيف التي فتنت   بما وشت من بدور بين هالات
ما خلف الصيف غير الحر في كبدي   ولا الملاح سوى مر ادكارات
غيد . سهام الهوى منها مفوقة   كل القلوب لها صرعى اصابات
يجرحن افئدة النظار في لعب   ولا قصاص على تلك الجراحات
دع ذكر جوليانه الغراء . ان لها   عن الغرام طويلات الروايات

هذه بعض صور الحياة التي كان يحياها رفيق في بنغازي ، في هذه الفترة ، كما جعلت تعرض له في أعقاب رحيله عنها ، مثيرة اشجانه ، باعثة حنينه ، وكما صورها في هذه اللوحات التي تنفح بهذه المشاعر . وقد عقب على كل لوحة منها بقوله :

معاهد لبلادي ، كنت آلفها   خلفت وا أسفي فيها لباناتي

هذا ، وإذا كنا في هذا الفصل نحاول ان نستجلي وجوه حياته

المختلفة في هذه الفترة ، فقد بقي علينا ، مما ينبغي الا تفوتنا محاولة تبينه واستجلاء صوره ، صور حياته في بلدية بنغازي موظفاً فيها ، ولسنا ندري إذا كانت هذه الصور قد انعكست في شعره أم لا . وقد استظهرنا من قبل ، بما بقي لنا من شعره في بعض عملاء الاستعمار من أولى الأمر في هذه البلدية ، انه لم يلبث أن أحس بالضيق والبرم ومس الندم لما تؤذن به هذه الوظيفة التي سيق اليها ، من تقبل لسياسة التفاهم ، أو ما تتضمنه من مشاركة ، بصورة ما ، في الإدارة الايطالية . ولا نكاد نجد بداً من افتراض ان هذا الإحساس الذي كان يمضه قد انعكس في شاعريته ، فانبعثت بما يعبر عنه ، وينفس به عن نفسه ، وإن ما صدر عنه من ذلك كان من جملة ما ضاع من شعر هذه الفترة .

على أنا نستطيع أن نستعيض عما فاتنا من ذلك ، على نحو ما وبشيء من التجاوز ، ببعض ما عرض له بعد في شعره عن الوظيفة والموظف ، وذلك في قصيدة له قالها بعد هذه الفترة بأكثر من عشرة أعوام . وقد عرض فيها للكلام عن التجارة التي يبدو انه كان يمارسها إذ ذاك ، مقارناً بينها وبين الوظيفة وما تحمل الموظف عليه وتأخذه به . فأكبر الظن أنه ، وهو الذي كان دائم الاستحضار لحياته في بنغازي ، استحضر فيها ما كان يداخل حياته من أحاسيس ، وما كان يسودها من اضطراب نفسي ومادي ، أثناء ارتباطه بتلك الوظيفة ، في تلك الفترة من حياته ، وإن اصداء تلك الحياة جعلت تتردد في خلال ما عرض له من حياة الموظف ، وما صور من معاناته . وخاصة انه يصرح عقب أيراده لها انه فيما يصور من ذلك يصدر عن تجربته الخاصة التي كابدها من قبل . وذلك إذ يقول :

هذه بعض حالهم ، وهي حالي عندما كنت مثلهم في الإمارة
فعفــا الله بعـد بذل شبــابي فدية ، أي فدية ! يا خسارة
غير أني ربحت علما بما جر بت ، فأحفظه حكمة مختارة :
بائع الفول ربما عاش في أهـ ـنأ عيش من كاتب في الوزارة

فنحن ، بهذه الأبيات ، نستطيع في طمأنينة ، أو في غير كبير

حرج ، أن نرى في بعض الصور التي رسمها للموظف فيها صوراً من حياته خاصة ، عندما كان يعاني حياة الوظيفة في تلك الأيام ، مع ملاحظة أثر الزمن في محو بعض التفاصيل ودروس بعض المشاعر ، ثم ما تقضي به الصناعة الشعرية احياناً من مبالغة ، وما تقضي به روح السخرية والعبث عند رفيق من تجاوز في العبارة ، وذلك في مثل قوله :

فتأمل حال الموظف ، كان الله   في عونه ، وفك أساره !
لا يزال المسكين في رجفة الفأ   ر مع الهر ، يتقي أظفاره
فإذا غاب برهة جاء كالسا   رق في رهبة من النظارة
وإذا لم يجىء بكاذب عذر   (طيحوا سعده) وأشقوا نهاره
ولهذا تراه من وجع البطـ   ـن ، افتراء ، ملفقاً اعذاره
شارد العقل ، ذاهلاً في اختلا   ق الزور ، مستعملاً ضروب الشطاره
يحسب الشهر بالدقيقة لا السا   عة ، يرجو بغير صبر سراره
جاعلاً همه معاشاً هو القو   ت الضروري . حددوا مقداره
لا يوفي ديونه ، فهو في الخا   مس في الشهر ليس يملك بارة
خاوى الجيب ، يحلق الذقن   بالدين ، وبالدين علبة السيكاره
يتوارى من بائع اللحم   والخبز ويخشى مطالب (الخضارة)
فإذا جاءه غريم تلقاه   بوجه يصفر مثل العراره
نقده المطل ، أو فرار فلا تلحق   سيارة (الفيات) غباره
مع هذا له غرور ، وإن كانت   له رتبة ، كشيخ الحارة
فتراه كأنما هو في النفخة   قارون : بهجة ونضاره .
في برود كأنها ذنب الطاووس   تزهو ألوانها المختارة
هيكل في ثياب صاحب مليون .   وفي بيته تجوع الفاره

فإذا نحن تجاوزنا عن المبالغات الشعرية في هذه الصور ، وعن روح العبث والسخرية التي أضفت عليها ذلك الطابع الكاريكاتوري . وجردناها منه ، استطعنا القول بأن وظيفة (السكرتير العربي) التي كان يشغلها رفيق

في البلدية لم توفر له أسباب الحياة الراضية ، فوق ما كانت تثقل به على ضميره .

وهكذا اجتمع على رفيق ، في هذه الفترة ، ألوان من المعاناة ، منذ حل بنغازي ، مستجيباً إلى صهره محمد المحيشى ، مرتبطاً بهذه الوظيفة التي اختاره لها وزينها له ، وذلك بما فرضت عليه من قيود ، وما ألزمته من حدود ، وما ارادت أن تأخذه به من سلوك لا يرضاه في قرارة نفسه ، ولما عرضته له من احساس بالخزي والندم لقبوله المشاركة في إدارة يسيطر المستعمر عليها ويرسم سياستها . ولعله كان يرى أن المقاطعة هي السياسة المثلى إزاءه . وقد شهد من قبل في مصر ضروباً رائعة منها اقلقت المستعمر وأفزعته. ثم معاناة هذا المستعمر نفسه الذي مازالت ذكرياته البشعة الأولى ماثلة في خياله ، والذي كان يعد مجرد وجوده ، مهما يكن مسالماً ، أهداراً لكرامته ، بقدر ما هو اهدار لكرامة وطنه . ثم معاناة ما أخذ هذا المستعمر يسلطه على الناس من كبت وعسف ، ومن اعتداء على الحريات وانتهاك الحرمات . وفوق هذا كله معاناة لعملاء المستعمر الذين عرفنا بعض صورهم : ورأينا موقفه منهم .

وقد كان هؤلاء العملاء ما يزالون يكيدون له ويأتمرون به ، يترصدون حركاته . ويتابعون خطواته ، ويتحسسون خطراته ، ويتقربون بهذا إلى سادتهم الذين يصطنعونهم .

وقد مثلت صورة هؤلاء العملاء في قصيدة الذكريات هذه ، فلم يكد يفرغ من تلك الصور التي كان يلتمس السلوى والمتعة باستعادتها ، حتى مثلت في خياله صورة هؤلاء العملاء ومسلكهم منه ، على هذا النحو :

تغافل الدهر عنا فينة فلتت عادت علينا بأنواع الأذيات
ذقنا بأعقابها مر الحياة وما شق المرائر من تلك المرارات
أغرى الزمان بنا أعداؤنا فسعوا لزجنا في مهاو من غيابات
تأثرتني عيون القوم ترصدني تحصي خطاي فتحصيها خطيئاتي
وما جنيت سوى إنكار منكرهم بمذودي ، فتغالوا في معاداتي

أعانهم كل نذل من بني وطني ... بما يبلغ عني من وشايات
وتلك شنشنة صار اللئام بها ... مقدمين على أهل البيوتات
يجلهم قومنا ، يا للشقاء ! وهم ... أدنى لعمري من قدر الحشيرات
قوم على ما بهم من عيب أنفسهم ... عرج وعور وطرش : أهل آفات
بمثلهم يستعين الغاصبون لنا ... فيقدمون على فعل الشناعات

وتستدرجه هذه الصورة الى تمثل ما آل أمر الوطن إليه ، من غلبة الجهالة عليه ، ومسخ كل قيمه الرفيعة ، فيقول :

العلم فينا حديث عن مثالبنا ... والدين فينا نسيج من خرافات
دارت عليه زوايا السوء فالتصقت ... به الإهانات من زور الكرامات
فضائح يفرح المستعمرون بها ... إذا رأوا أنها في الاعتقادات
يسرهم أننا مثل البهائم أو ... أقل مرتبة ، مثل الجمادات
أهم أسلحة المستعمرين إذا ... سادوا على أمة نشر الجهالات
وبعد تفريق ذات البين يتبعه ... قهر وإفساد أخلاق وعادات

وبهذه الألوان المختلفة من المعاناة ، طوال هذه السنوات الأربع ، فاضت نفس رفيق ، على الرغم من كل ما كان يصطنعه من صنوف التسرية . وما اجتمع له من صداقات بريئة خالصة من مؤونة التكلف . وبذلك أخذ شبح الهجرة يلوح له ، ليلحق بأبيه وأخيه وسائر أسرته التي استقرت في تركيا ، منذ الهجرة الأولى .

ولكنه يقف من هذا الشبح الذي يتخايل له متردداً بين الإذعان له والتأبي عليه . أيمضي مع إغرائه ، فيترك وطنه فراراً بنفسه من هذه الحياة . بين عدو يتربص به ، وسفلة من المواطنين يأتمرون به ، ويسعون للنيل منه والكيد له ، ومجتمع تدب فيه عوامل المسخ والفساد ، ام يصبرها على المقام به ، وفاء له ولمعاهد أنسه . وأصدقاء شبابه ، وعلاقاته

وقد تحيرت في أمرين ما فتئا ... ينكدان حياتي في مناجاتي
حب يجاذبني قلبي وتدفعني ... نفس تربت على حب المساواة

ولكن حيرته هذه لم تطل ، فلم تلبث عوامل الهجرة ان غلبت أسباب الإقامة ، فأزمعها ومضى يعد العدة لها ، وهو يردد بينه وبين نفسه أنه لم يؤثر الخروج من وطنه رغبة عنه ، أو سعياً وراء عيش هنيء وحياة رخية . إنما هو الحفاظ على كرامته . والأنفة من أن يتعرض للإهانة :

والله ما باختياري ان أفارقـه   لو لم ينغصه حكم الظالم العاتي
فررت بالنفس ، لا من أجل عيشتها   لكن مخافة الحـاق الإهانـات

وهكذا ترك رفيق بنغازي مطوى القلب على الأسى والوجيعة ، مغرورق العين بالدموع ، بعد هذه السنوات الأربع التي شهد فيها من المناكر ما أثار غضبه وهاج حفيظته . ولكنه نعم فيها ، مع ذلك ، بطائفة من الصداقات ملأت قلبه غبطة ورضا ، كما نمت فيها شاعريته وتفتحت تفتحاً ملحوظاً ، ومازال يوم خروجه من بنغازي ماثلاً في خاطره ، يثير في قلبه الحنين ، ويبعث من ذخيرة الذكريات ما رأينا صورة منه . وقد ذكر هذا اليوم في قصيدته هذه بقوله :

إني لأذكر يوم البين ، إذ هملت   مدامعي فوق خدي مستهلات
خرجت من وطني مثل الطريد ، فما   ودعت خلا ولا أدركت ثاراتي

وكان رحيله ـ كما وجد ذلك بخطه ـ في الساعة التاسعة من مساء يوم السبت ٢٠ يونية سنة ١٩٢٥ .

وبهذا الرحيل انتهت هذه المرحلة من مراحل حياته الأولى التي حاولنا أن نجلو صورها ، وأن نتبين ملابساتها، وأن نتعرف الى مولد شاعريته فيها ، وبعض المظاهر الأولى لنموها ، قدر الطاقة وقدر ما بقي في أيدينا من بقاياها .

الحياة الأدبية في ليبيا

مقدمة

كان القرن التاسع عشر عصر الانبعاث الإسلامي العربي ، واليقظة التي أخذت تخرج العالم الإسلامي من حالة الركود الطويلة الثقيلة التي غشيته وأطبقت عليه وسلبته مشاعر الحياة المريدة المفكرة ، وتركته حبيس عالمه الضيق في الزمان والمكان جميعاً ، إذ قطعت ما بينه وبين ماضيه الحافل المجيد ، فليس له من هذا الماضي إلا صور ناصلة ممسوخة ، كما حالت بينه وبين التطلع إلى مستقبل يجري فيه مع الأمم الناهضة التي كانت تترامى إليه أطراف من أنبائها ، يستقبلها كما يستقبل النائم المثقل خيالات عالم سحري ، فما تزيده إلا استسلاماً للرقاد ، واستنامة إلى تلك الغيبوبة المطبقة .

تلك كانت حال العالم الإسلامي في نهاية القرون الخمسة التي أعقبت الحروب الصليبية . فمنذ فرغ المسلمون من هذه الحروب ، ونفضوا منها أيديهم ، أخلدوا إلى الراحة ، وركنوا إلى الدعة . وكأنما كانت هذه الحروب قد أرهقتهم وأنهكتهم واستغرقت جميع قواهم ، فما إن أتيح لهم الظفر فيها ، ورأوا آخر معاقل الصليبيين يسقط في أيديهم ، في نهاية القرن الثالث عشر ، حتى تنفسوا الصعداء ، ورأوا في ذلك نهاية

المطاف ، والغاية التي ليس وراءها غاية ، فقنعوا بما أصابوا ، وشغلت كل جماعة منهم بخاصة نفسها ، لا تكاد تمد بصرها إلى ما وراءها . وفي خلال ذلك كان خصمهم الذي غلبوه على أمره أخذ يجمع قواه ، ويتهيأ لمرحلة جديدة .

حتى إذا جاء العثمانيون فزحفوا على دول العالم الإسلامي واستولوا عليها ، وأصبح إليهم تصريف أمورها ، استنام المسلمون إلى هذه القوة الإسلامية الجديدة ، وركنوا إلى ما تبسطه عليهم من حماية ، فلم يلبثوا أن أخذهم النوم وغلب عليهم ، وتألبت القوى الصليبية على هذه القوة الإسلامية ، تنتاشها وتكيد لها ، فأخذت تضعف وتتهاوى ، والمسلمون لا يكادون يحسون بما تتعرض له من محن قاتلة ، وما يصيبها من انحلال وتفكك . فإنما هي أحلام القوة القديمة لا تزال تداعب مشاعرهم ، وتزيدهم إغراقاً في النوم ، واستنامة إلى الدعة .

وما زالوا كذلك حتى حدثت القارعة الأولى التي هزت العالم الإسلامي هزة عنيفة ، باستيلاء فرنسا على مصر في نهاية القرن الثامن عشر ، دون أن تغني عنه أقل غناء هذه القوة الرابضة هنالك على ضفاف البوسفور ، فنبهته هذه القارعة وأثارت كوامنه ، فها هو ذا يواجه مرة أخرى ، بعد خمسة قرون ، حرباً صليبية جديدة ، متنكرة في لبوس مختلفة . فلا يلبث حتى ينهض من رقدته ثائرا عليها ، وقد اجتمعت له قواه الكامنة ، ثم إذا هو - في نهاية الأمر - منتصر عليها قد ردها على أعقابها ، وخلص من مخالبها .

وهذا الانتصار الذي أتيح للمسلمين في مصر على فرنسا هو - فيما نرى - مبدأ النهضة الحديثة .

كانت الحملة الفرنسية إذن هي القارعة التي نبهت العالم الإسلامي وأثارته من نومه وبعثته من ركوده واستسلامه ، ثم ما زالت به منذ وقفته تجاه عدوه تستدر قواه الكامنة في أعماقه البعيدة . ولكن النصر الذي أتيح

للمسلمين في أعقاب هذه القارعة هو الذي جعلهم يدركون ذاتهم ويؤمنون بأنفسهم ، كما أخذهم بتحقيق شخصيتهم ، وذلك هو مبدأ النهضة . وبذلك كان هذا النصر هو الذي بعث العالم الإسلامي في تلك السبيل التي مضى فيها خلال القرن التاسع عشر .

وذلك عندنا هو الأصل في اعتبار الحملة الفرنسية مبدأ للنهضة ، لا أنها جلبت معها طائفة من العلماء يبحثون وينقبون ويسجلون نتائج أبحاثهم ، ولا أنها أثارت بأساليب هؤلاء العلماء دهشة المسلمين ، ولا أنها فتحت لهم سبيل الاتصال بأوروبا ، فما كان لشيء من ذلك أن يغني أي غناء لو أنه تحققت للحملة الفرنسية غايتها ، فأخضعت مصر للاستعمار الفرنسي وقضت على مقوماتها ، وسلبتها إحساسها بنفسها وتقديرها لشخصيتها .

فمرجع الأمر في أثر هذه الحملة الفرنسية إنما هو فيما انتهت إليه من فشل ، وما أتيح للمسلمين من ظفر ، أدركوا به ذاتهم ، وحققوا شخصيتهم ، وشق لهم سبيلهم ، فبعثهم ذلك إلى أن يلتمسوا ما يحقق لهم غايتهم ، من تحقق بالعلم وأخذ بأسباب القوة . فليست الحملة الفرنسية في ذاتها هي التي أتاحت للمسلمين أن يبدءوا هذه المرحلة الجديدة في حياتهم ، ولكنه انتصار المسلمين عليها ، وردها على أعقابها .

وإذا كانت هذه الحملة إنما وقعت في مصر ، وفشلت فيها ، فلا ريب أن أصداءها لم تلبث أن انتشرت وتجاوبت في العالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة ، وذلك بحكم موقع مصر في هذا العالم ، ومركزها الأدبي فيه ، وبحكم وجود الأزهر بها . والأزهر هو الجامعة الإسلامية العريقة التي تتمثل فيها الشعوب الإسلامية المختلفة . ونحن نعلم الدور الذي قام به الأزهر في مقاومة الغزاة ، كما نعلم مدى مشاركة الشعوب المختلفة الإسلامية في هذه المقاومة ، مما يتمثل في مقتل كليبر بيد سليمان الحلبي ؛ والعناصر التي شاركت في تدبير مقتله تمثل أكثر من شعب من الشعوب الإسلامية .

ومنذ ذلك الوقت أخذ الصراع بين المسلمين وأوروبا يأخذ صوراً مختلفة ، وبذلك أخذت اليقظة تفرض نفسها على الشعوب الإسلامية ، بأقدار مختلفة ، حسب ظروف كل منها وملابساته .

وكان من نتائج هذه اليقظة أن أخذ العالم الإسلامي يتجه إلى ما يثبت شخصيته ويمد كيانه ، وإلى ما يقوى به على الصمود في هذا المعترك الذي يقف فيه ، ومواجهة الخصم الذي ما زال يناوشه ويتربص به . وقد كان هناك ـ في موقفه هذا ـ تياران يتجاذبانه في سبيل هذه الغاية : أما أحدهما فالرجوع إلى قديمه الأول ، يأخذ نفسه بمبادئه ومثله ، نقية من كل شوب خالطها ونكرها في عصور التخلف والضعة ، فتعود الأمة الإسلامية كما كانت أمة قاهرة غالبة ، فإن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها ؛ وأما الآخر فهو التوجه نحو أوروبا الغالبة المتفوقة ، فما غلبت إلا بأسباب ترتبط بهذه الغلبة ارتباطاً وثيقاً ، وما تفوقت إلا بما تصطنعه من علم وأدب وحضارة ، فليأخذ عنها هذه الأسباب ، وليصطنع علمها وأدبها وأسلوب حياتها ومظاهر حضارتها ، ليجري معها في مضمار واحد ، عله يبلغ ما بلغت ، ويصيب من القوة ما أصابت .

وقد دبت هذه اليقظة في الشعوب الإسلامية جميعاً ، فتجاوب القرن التاسع عشر بأصداء الدعوة المتواترة الملحة إلى نفض غبار تلك السنة الطويلة ، وإلى الأخذ بالأسباب التي تثبت للأمة الإسلامية كيانها ، وتحقق لها شخصيتها ، وتقويها على مغالبة ما يعترض سبيلها أو يتهددها ، على نحو ما نرى في مصر والشام والعراق وبلاد المغرب والهند وفارس ، مما كان يدعو إليه في دءوب وإصرار أمثال جمال الدين الأفغاني ورفاعة رافع الطهطاوي ومحمد بن علي السنوسي وخيرالدين التونسي وعبدالقادر الجزائري والسيد أحمد خان ، ممن كانوا في دعوتهم تلك تعبيراً عن هذه اليقظة .

وتختلف هذه الدعوات من ناحية هذين التيارين اللذين ذكرناهما : تيار القديم ، والتيار الأوروبي ، باختلاف بيئاتها وملابساتها . فالدعوة التي

تنشأ في الحضر تختلف بطبيعة الحال عن الدعوة التي تنشأ في البادية ؛ فالأولى قريبة من التيار الأوروبي قرباً يختلف مداه باختلاف ملابساتها ، والثانية بعيدة عنه بعداً يجعلها ضئيلة التأثر به ، كالذي نراه مثلاً في الدعوة السنوسية ، فقد نشأت في البادية ، وقامت على إصلاح البدو ، فكان من الطبيعي أن يكون مبدأ هذا الإصلاح هو الرجوع بهم إلى مقومات الشخصية الإسلامية الأولى ، وأخذهم بالمبادىء الإسلامية بعيدة عما شابها وانحرف بها خلال العصور المتأخرة .

وقد استطاعت هذه الدعوة بوسائلها الخاصة أن تبلغ أهدافها ، وأن تنهض بليبيا نهضة حقة ، وأن تحقق للشعب الليبي ما استطاع أن يقاوم به الغزو الإيطالي مقاومة عنيفة .

ومن هنا يعتبر قيام السنوسية في ليبيا مبدأ تاريخها الحديث .

وكذلك هو مبدأ الحياة الأدبية الحديثة فيها ؛ وهي الحياة التي نحاول أن نعرض بعض وجوهها في هذه الدراسة .

وتقع هذه الحياة في مراحل ثلاث :

الأولى : مرحلة العهد السنوسي الأول ، منذ قيام السنوسية حتى الغزو الإيطالي .

والثانية : مرحلة الاستعمار الإيطالي .

والثالثة : مرحلة ما بعد هذا الاستعمار ، منذ سقوط الحكم الإيطالي حتى اليوم .

المرحلة الأولى

تبدأ هذه المرحلة ـ كما قلنا ـ بقيام السنوسية في ليبيا ، وذلك بإنشاء الزاوية البيضاء ، سنة ١٨٤٠ م ، وتستمر حتى الغزو الإيطالي ، سنة ١٩١١م ، فمدتها نحو من سبعين عاماً .

ولا بد لنا في هذه الدراسة من أن نبدأ بتعرف الدعوة السنوسية

ونشأتها ، والأصول التي قامت عليها ، والملابسات التي لابستها . وإذ كان من الضروري ـ إلى جانب هذا ـ أن نتعرف إلى صاحب هذه الدعوة ، إذ كان منشىء تاريخ ليبيا الحديثة ، في وجوهه المختلفة ، فإنا نؤثر أن نتعرف إلى الدعوة السنوسية في نشأتها ومبادئها من خلال تعرفنا سيرة صاحبها ، وتبين مراحلها والعوامل العاملة فيها ، فنصيب بذلك الأمرين معاً ، إلى جانب ما تؤديه إلينا هذه السيرة من صورة العالم الإسلامي في أجزائه التي تنقل بينها وتأثر بها ، بين المغرب الأقصى والجزيرة العربية .

ـ ١ ـ

صاحب الدعوة السنوسية هو السيد محمد بن علي السنوسي ، وتقع حياته في أربع مراحل ؛ تبدأ في مسقط رأسه ومرباه ومنشئه في الجزائر والمغرب ، وتنتهي في ليبيا ، وتنتقل ـ فيما بين ذلك ـ بين بلاد السودان والمغرب الأدنى ومصر والحجاز واليمن . ولكنها مراحل مطردة ، يسلم بعضها إلى بعض ، حتى تنتهي إلى غايتها .

(أ)

فالسيد محمد بن علي جزائري الأصل والمولد ، ولد في إحدى محلات مدينة مستغانم (في مقاطعة وهران) ، وهي مدينة ساحلية . وفي هذه المدينة نشأ نشأته الأولى . وإذ كانت أسرته من الأسر المعنية بالعلم ، المعروفة بالتقى والورع ، المتجهة إلى الدعوة والإرشاد ، فقد كان طبيعياً أن يكون إتجاهه إلى طلب العلم ، فجلس إلى علماء مستغانم يأخذ عنهم ، وهو يتمثل الغاية التي يود أن يتهيأ لها وينتهي إليها ، من خلال البيئة التي ولد فيها ، والجو الذي كان يتنفسه صغيراً : أن يكون عالماً داعية . وهذا الاتجاه جعله كثير التأمل في حالة المسلمين ، كما كان يتمثلها في هذه المدينة الساحلية ، التي أخذت أنماط من الحياة الأوروبية تتسلل إليها ، كما ضاعف رغبته في أن يحصل من العلم أكثر مما تتيحه له هذه المدينة الصغيرة .

وكذلك اعتزم أن يرحل في طلب العلم ، فكانت رحلته إلى مدينة فاس ، في المغرب .

ويذهب الدكتور محمد فؤاد شكري ، فيما كتبه عنه في كتابه « السنوسية دين ودولة » إلى أن رحلته هذه كانت سنة ١٨٢٢ ، أي في السنة التي توفي فيها « مولاي سليمان » أحد سلاطين الدولة العلوية ، والتي ولى الحكم فيها بعده « مولاي عبدالرحمن بن هشام » .

ولكن الدكتور فؤاد شكري لا يلبث بعد تعيين ذلك التاريخ أن يقول ، في سياق كلامه عن نشاط السيد محمد بن علي في فاس : « . . ولكن دعوته إلى العدل والخير . . . لم تثمر ثمرتها ، بل إن كل ما حدث هو تنبه حكومة السلطان مولاي سليمان إلى هذه الدعوة . . . الخ » . فها هنا إذن تعارض واضح بين ما ذكره أولاً من تاريخ رحلته إلى فاس ، وما ذكره ثانياً من أنه كان هنالك يمارس نشاطه في عهد السلطان مولاي سليمان ، وقد تعرض لريبه ، واعتزم الرحيل عن فاس بسببه . فإما أن يكون السلطان المقصود هو مولاي عبدالرحمن بن هشام لا مولاي سليمان ، وإما أن هذه الرحلة إنما كانت قبل سنة ١٨٢٢ بسبع سنوات على الأقل ، وهي الفترة التي ذكر الدكتور فؤاد شكري أي محمد بن علي أمضاها في فاس ، وذلك هو ما نرجحه ، فالخطأ في تاريخ السنة أكثر احتمالاً من الخطأ في اسم السلطان . وإذا صح ما حكاه الأستاذ الطيب الأشهب في كتابه « السنوسي الكبير » ـ عن مخطوط قديم قال إنه عثر عليه ـ أن توجه السيد محمد بن علي إلى الحج كان في سنة ١٨١٧ (١٢٣٢ هـ) ، وصح أن هذا التوجه إنما كان وهو مقيم بفاس ، كان لنا أن نفترض أن رحلته إلى فاس كانت سنة ١٨١٠ ، وقد تجاوز العشرين من عمره بقليل .

وحين مضى محمد بن علي إلى فاس كان يقصد ـ ولا ريب ـ جامع القرويين فيها ، وهو أعرق الجوامع التي ظلت قائمة بأمر العلم ، وقد كان قبلة العلماء والمتعلمين في المغرب الأقصى ، كما كان جامع الزيتونة في

المغرب الأدنى . وكان علماؤه ما يزالون على إرث السلف الصالح ، من العناية بالرواية وحفظ أسانيدها . وكان مولاي سليمان ، سلطان المغرب في هذه الفترة ، حفياً بالعلماء ، مشجعاً لهم ، معنياً بشؤونهم ، كما كان معنياً بشؤون جامع القرويين خاصة ، كما ترى صورة من ذلك في حديث عبدالرحمن بن زيدان عنه ، في كتابه « الدرر الفاخرة » .

وفي جامع القرويين هذا ، وفي غيره من المساجد والزوايا ، جلس محمد بن علي إلى الشيوخ ، يتلقى عنهم علوم القرآن والحديث والتاريخ واللغة . ومن شيوخه هؤلاء أبو العباس أحمد بن الحاج السلمي ، وقد ذكره عبدالرحمن بن زيدان بأنه ألف في تاريخ الدولة العلوية كتاباً سماه : « الدر المنتخب المستحسن » يزيد على خمسة عشر مجلداً ، ومات قبل إتمامه ؛ ومنهم أبو المواهب الطيب بن عبدالمجيد بن كيران ، وقد ذكره أيضاً في الفصل الذي كتبه عن مولاي سليمان ، في سياق حديثه عن إجلاله قادة العلم وتعظيمه حملة الشريعة ، ومن ذلك حضوره مجالس اختتام العلماء في جملة الطلبة ، فكان مما قال في ذلك : « ففي رابع عشري شعبان عام أحد عشر ومائتين وألف حضر ختم شيخه أبي المواهب الطيب بن عبدالمجيد بن كيران تفسير القرآن الكريم ، بزاوية الشيخ قاسم بن رحمون الشهيرة بالحضرة الفاسية » ، كما ذكره في موضع آخر بشرح الأربعين حديثاً النووية ، وفي موضع ثالث بشرح الخريدة .

ومن هؤلاء الذين عقد محمد بن علي صلته بهم في فاس ، وكان لهم أكبر الأثر في تكوينه وتوجيهه ، العربي بن أحمد الدرقاوي . وكان شيخ الطريقة الشاذلية ، كما كان يعد من أكبر الشخصيات الدينية وأقواها نفوذاً في المغرب ، فقد كان رجلاً مشرق الروح قوي البصيرة ، ولعل صلته به كانت مما سدده في السبيل التي اختارها ، كما كانت هذه الصلة مما وجهه إلى دراسة الطرق الدينية التي كان المغرب يعرف عدداً كبيراً منها ، دراسة متعمقة مستبصرة مستقلة ، جديرة أن تكشف له عن مزاياها وعيوبها .

وقد أمضى في فاس سبع سنين لم يلبث بعدها أن اعتزم الرحيل عنها ، ويبدو أن عزيمة الرجل كانت مقترنة عنده بسببين رئيسيين : أولهما الرغبة في الحج ، والثاني ضيقه بالمقام في المغرب .

أما الحج فأكبر الظن أنه كان مايزال ـ منذ بلغ مبلغ الرجال ـ يشغل باله ويراود خياله ويثير نوازعه . والحج عند رجل المشرق غيره عند رجل المغرب ، فهو عند الأول الركن الخامس من أركان الإسلام فحسب ، وأما عند الثاني فله اعتبار آخر إلى جانب اعتبار الفريضة الدينية . إنه انبعاث الحنين النفسي الغلاب والتوق الروحي الوثاب إلى منبع الدين ومنزل الوحي ، وإلى موطنه الأول الذي عنه صدر ومنه ارتحل . ومن ذلك أخذ الشعر الديني في أدب المغاربة مكاناً لم يأخذه في أدب المشارقة ، واتخذ طابعاً انفرد به عن الشعر الديني في سائر أقطار العربية .

وأما السبب الآخر فهو الذي ذكره الدكتور فؤاد شكري بقوله : « وفي أثناء إقامته بفاس ظهر فضل السيد ، وأقبل عليه تلاميذه ، ونال شهرة علمية عظيمة . ولما كان حبه لمنفعة المسلمين ورغبته في أن يرى العدل باسطاً جناحيه على أهل السلطنة وعلى شعوب الإسلام طراً ، هي كل ما يريد في حياته ، فقد أكثر من الموعظة الحسنة في أثناء دروسه ، وجرب مع الأهلين وأصحاب الشأن في فاس طرق الإرشاد بالحسنى تارة وبالشدة أخرى ، ولكن دعوته إلى العدل والخير وجمع كل المسلمين وتطهير النفوس والابتعاد عن المنكر لم تثمر ثمرتها ، بل إن كل ما حدث هو تنبه حكومة السلطان مولاي سليمان إلى هذه الدعوة وتلمس الخطر من جانبها ، خشية أن تنقلب الدعوة الدينية إلى أخرى سياسية ، فقد تعصف بالسلطنة . . . وعلى ذلك شددت الحكومة في مراقبة السيد ، فوجد ألا فائدة ترجى من بقائه في فاس ، وقرر الارتحال عنها » .

وهكذا نرى أن محمد بن علي لم يحمد مقامه في فاس ، وإن أقام بها سبع سنين ، متعلماً ومعلماً .

لقد وجد فيها ما كان يفتقده في مستغانم من كبار الشيوخ وأئمة العلم . ولكنه كان يرجو أن يجد فيها ما كان يفتقده في الجزائر من عدالة في الحكم وأصالة في الرأي . فقد كان يتولى أمر الجزائر ولاة من الأتراك يسوسونها سياسة خرقاء ، ويحكمونها حكماً يمثل الفوضى وخطل الرأي والطغيان والبطش ، دون أن يرعوا لأهل الدين والعلم ، ممن يسوء فيهم رأيهم ، إلا ولا ذمة ، كما صنع الوالي حسين بك حين قتل أستاذه محمد بن الكندوز . أما المغرب فتلى أموره أسرة عربية استطاعت أن تكسب لنفسها مجداً رفيعاً ، وأن تطبع في قلوب المسلمين صورة جليلة تمثل القوة والنجدة والإباء ، حين أتيح لبعض أفرادها أن يواجهوا الغزاة الإسبان والبرتغال والإنجليز مواجهة حاسمة ، كالمولى إسماعيل الذي استطاع أن يحرر المهدية والعرائش وأصيلاً وطنجة ، ويطهرها من رجس الاستعمار ، ويضع بذلك حداً للأطماع الصليبية .

لكن هذه الصورة الرائعة لم تلبث أن تنكرت في عين محمد بن علي ، فقد وجد أن الأمر في المغرب لا يفضل كثيراً الأمر في الجزائر ، فالسلطان فيها شديد الريبة ، كثير التوجس ، مما يفتح الباب واسعاً للأخذ بالظنة ، والتسلل الأوروبي واضح فيه ، بل لعله أسوأ في ذلك حالاً من الجزائر ، وما تزال شواطئه أجزاء في ربقة هؤلاء الأوروبيين ، يعبثون بكرامتها وإسلاميتها كـ « سبتة » و « مليلة » .

أما المجتمع الإسلامي فأكبر الظن أنه وجد في فاس مجتمعاً أبعد ـ بتعقده وتحلله وتعرضه لفتن الحياة الأوروبية ـ عن روح الإسلام من المجتمع الذي تركه في مستغانم ومحلاتها ، وذلك فيما عدا جامع القرويين الذي وجد فيه جماعة من العلماء الذين ذكرنا بعضهم ، وكان يتشوف إلى لقائهم . ولعل هذا الجامع هو الذي استطاع أن يرضيه ويبعث في نفسه الروح والرضا بقدر ما أسخطه مجتمع العامة ومن إليهم .

وبعد ، فهذه الرحلة الأولى في حياة محمد بن علي ، وفيها تكونت

شخصيته العلمية والدينية بما تلقي عن الشيوخ في الجزائر والمغرب ، وما أداه إليه تأمله في حالة المسلمين والأدواء التي يعانونها ، والأخطار التي يتعرضون لها ، وكان ـ فيما يؤثر عنه ـ كثير التأمل ، مرهف الحس ، مشبوب العاطفة الدينية .

لقد رأى كيف كان الأمر في الجزائر من غلبة الجهالة وسيطرة الخرافة ، وهذه المنافسات السخيفة بين كثير من رجال الطرق الدينية الذين صرفوا الناس عن حقيقة دينهم ، كما صرفوهم عن العمل لدنياهم ، إلى التعلق بطائفة من الطقوس والأشكال ، وصرفوهم عن أن يوحدوا أمرهم لقاء عدوهم المتربص بهم ، إلى أن يقف بعضهم إزاء بعض منافساً مخاصماً .

كما أحسب أنه جعل في هذه المرحلة يحس إحساساً متغلغلاً في أعماق نفسه بالأخطار التي كانت تتهدد هذه البلاد من الدول المسيحية القائمة غير بعيد عنها وما زال بعض الناس يتحدثون عن النكبات التي حاقت بها من هذه الدول منذ قرنين من الزمن ، حين جعل الإسبان يتوثبون عليها ويهاجمونها، وحين أتيح لهم أن يحتلوا أجزاء كثيرة منها ، كالمرسى الكبير ووهران وعنابه وتنس ومدينة الجزائر ومستغانم (مسقط رأسه) ؛ وما زالت صور المنكرات التي ارتكبها هؤلاء الغزاة ، والتي كان يرويها جيل عن جيل ، من القتل الذريع ، والسبي الشنيع ، وإهدار كل حرمة ، وتحويل المساجد إلى كنائس ، ما زالت هذه الصور البشعة تثير الفزع والتوجس في بعض العقول اليقظة والقلوب الواعية ، وأن بعد العهد ـ بعض الشيء ـ بها ، وأخذ الناس في الجزائر يعانون نوعاً آخر من الأذى من هؤلاء الولاة والأتراك ، ومن سوء رعيتهم لما ولوا عليه ، لولا رابطة الدين التي تصل ما بينهم ، ورعاية اليد التي أسداها الترك إليهم حين حرروا بلادهم من أولئك الغزاة الصليبيين وطهروها من رجسهم ، فأنقذوا بذلك هذا الأفق من آفاق العالم الإسلامي من مصير قاتم مدلهم .

كل ذلك كان موضع تأمل محمد بن علي في هذه الفترة ، وبذلك تبينت له غايته التي يجب منذ الآن أن يأخذ نفسه بها ، ويلتمس أسبابها ،

ويسلك السبل القاصدة المؤدية إليها ، وهي الدعوة إلى المبادىء الإسلامية بعيدة عن المدارك التي ألحقتها بها العصور المتأخرة ، مبرأة عن الأوهام والخزعبلات التي أبعدت الإسلام عن حقيقته ، وحجزت بينه وبين أتباعه من أن يحقق لهم ما حققه في عهده الأول من رفعة . وتلك هي الوسيلة الوحيدة التي تمنح المسلمين القوة ، وتمكن لهم من دفع عدوهم عنهم .

كما أن تجربته في فاس ، حين تعرض لريبة السلطان ، وكاد يقع في عقابيل غضبه ، مما حال بينه وبين المضي فيما أخذ فيه ، أقر في نفسه وجوب الاحتياط لهذه الدعوة ، بالبعد بها عن كل ما يعترضها من هذا القبيل . ذلك أجدر أن يمكن لها ، ويمضي بها إلى غايتها .

(ب)

في المخطوطة التي ذكرها الطيب الأشهب ، والتي ذكر فيها بعض التواريخ الكبرى في حياة السيد محمد بن علي السنوسي ، وقد أشرنا إليها منذ قليل ، أنه توجه إلى الحج سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٧ م) ، وأنه دخل الحرمين الشريفين سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ م) ، ومعنى هذا أنه أمضى في طريقه إلى الحج ، منذ اتجه إليه إلى أن بلغ الحجاز نحو ثمان سنين . وهذه عندنا هي المرحلة الثانية في حياته ، مرحلة الرحلة العاملة الجاهدة المتبصرة ، وهي ولا ريب مرحلة بليغة الأثر في تكوينه وتوجيهه وإنضاج شخصيته بما عرضت له من تجارب ، وما فتحت عليه بصيرته من أمور جديدة لها في الدعوة وزنها . وما زالت الرحلة منذ القديم من أول ما يحرص عليه العلماء ، ومن أقوى الأسباب لتحققهم باسم العلم .

وقد أمضى هذه المرحلة في السودان ـ ونعني بالسودان الصحراء الكبرى في جنوب الجزائر ـ وفي تونس وليبيا ومصر .

ولا ندري في حقيقة الأمر السبب المباشر الذي جعله ، وهو يريد الحج بمضي نحو الجنوب بدلا من أن يأخذ الطريق الذي يتجه إلى

المشرق مار بالجزائر وتونس . لعلها الرغبة في أن يرى هذا العالم الذي اتصل ـ في أكبر ، الظن ـ ببعض أهله وهو في فاس ، وترامت إلى أذنه بعض أخباره ، مما جعله يتطلع إليه . فلا بأس أن يجعله في طريقه إلى الحجاز .

ومهما يكن من أمر فقد كان دخوله بلاد السودان ومقامه فيها من العوامل البليغة الأثر في إنضاج شخصيته ، وفي إعداده لما أخذ نفسه به ، فها هو ذا يشهد ذلك العالم الذي يختلف إلى حد بعيد عن العالم الذي عهده في مستغانم وفي فاس ، وها هوذا يرى ميادين جديدة للدعوة والإصلاح تنفتح له ، كما يشهد إمكانيات جديدة لتحقيق ما انطوت عليه نفسه تتاح له .

عالم بدوي بعيد عن صور الحضارة وتعقيداتها ، ثم هو في الوقت نفسه ملتقى الإسلام والوثنية ، الإسلام في صورته المشوهة ، كما فهمه بعض رجال الطرق الصوفية المسيطرة على تلك الجهات ، والوثنية البدائية التي تنحسر شيئاً فشيئاً أمام المد الإسلامي .

ومنذ بلغ محمد بن علي بلاد السودان عقد صلته بأصحاب الطرق الصوفية ، فهم ـ مهما يكن رأيه فيهم أو في الكثير منهم ـ أقرب الناس إليه ، فغايته وإياهم واحدة وهي الدعوة ، وهم ـ على كل حال ـ أصحاب الفضل في انتشار الإسلام بين وثنيي هذه النواحي . وقد عرفنا أن أحد أساتذته وأبعدهم أثراً في تكوينه وتوجيهه ، وهو السيد العربي الدرقاوي ، إنما كان أحد رجال هذه الطرق ، فهو شيخ الطريقة الشاذلية . وقد أتاح له هذا الإتصال بأصحاب هذه الطرق أن يعرف وسائلهم واتجاهاتهم ، وأن يدرس هذه الوسائل والإتجاهات من قرب ، وينتفع بتجارب القوم فيما هو بسبيله ، إذ يتبين ما في أساليبهم من عناصر التأثير ووسائل الإقناع ، وكيف يسوسون أهل هذه البوادي من المسلمين والوثنيين ، ومدى ما أصابوا من نجاح ، ومبلغ انحرافهم عن المبادىء الإسلامية الحقة التي يحرص عليها .

لقد كانت هذه البوادي ، على سكونها وهدوئها ، تضطرب بألوان من الحركات الدينية والاقتصادية ، وكانت الزوايا الدينية التي يقوم عليها أصحاب الطرق الصوفية هي أهم مراكز هذه الحركات ، أو لعلها المراكز الوحيدة لها ، إذ كانت مراكز الدعوة إلى الإسلام والإستمساك بمبادئه ، على صورة ما ، وإذ كان الإسلام ديناً وثقافة ، فقد كانت في الوقت نفسه مراكز تعليم وتثقيف . وكانت هذه الزوايا ، أو هذه المراكز الثقافية ، تقع في الغالب على طرق التجارة التي تربط السودان بالشمال ، وتنتقل بواسطتها السلع في قوافل ما تزال رائحة غادية .

وفي هذه الزوايا يلتقي رجال القوافل القادمون من الجنوب والعائدون من الشمال ، يجلسون إلى شيوخها ، ويستروحون بالتلقي عنهم ، والانغمار في جوهم ، وبتبادل الأحاديث المختلفة عن البلاد التي جاءوا منها أو مروا بها . وبذلك تظل هذه الزوايا على صلة بالعالم الخارجي .

وفي هذه الزوايا كان نشاط محمد بن علي أثناء إقامته في بلاد السودان بين رجالها والقوامين عليها .

ولا ندري مدة هذه الإقامة ، وأكبر الظن أنها امتدت فترة غير قصيرة ، نحو العامين . وقد أتيح له ، بممارسته الدعوة في البادية خلال هذه الفترة ، أن يكتسب من التجربة ما أنضج شخصيته باعتباره داعية ، وما حدد له سبيله ، ورسم له منهجه ، واختار له وسائله وأدواته .

وعندنا أن اتجاهه بعد إلى البادية ، يتخذها ميدان نشاطه ومجال دعوته ، ويخط عليها أسلوبه ، إنما يرجع في أول أمره إلى هذه الفترة ، فقد عرفته إمكانيات الدعوة في البادية ، بعد أن وثق ـ أو كاد ـ منذ غادر فاس ـ أن الدعوة في الحواضر ضائعة مهدرة ، بسبب تغلغل الفساد فيها ، وتعقد حياتها الاجتماعية تعقداً بالغاً ، وسيطرة الأهواء السياسية عليها ، تمسك بزمامها ، ثم بسبب هؤلاء الأجانب الواغلين عليها الذين يزينون لها في مكر خفي ما يأباه الدين وتنفر منه التقاليد الإسلامية العربية ، وأنه

مستطيع في هذه البادية أن يصلح هذه النفوس الساذجة ويردها في يسر إلى الطريق الإسلامي المستقيم ، كما يستطيع في هذه البادية أن يقوم بالدعوة إلى الإسلام بين القبائل الوثنية البدائية ، ويرتفع بهم عن ذلك الدرك الذي يعيشون فيه ، ويؤدي بذلك حق الإسلام عليه .

وبهذا نستطيع أن نرى مبلغ أثر هذه الفترة التي أقامها في السودان في توجيهه ، وفي بناء مذهبه وتكوين طريقته ، حين ربطت بينه وبين البادية ، وأطلعته على القيم الإنسانية الكامنة فيها .

وإذ بلغ من السودان الغاية التي كان يتطلع إليها ، فقد كان عليه أن يستجيب إلى الغاية الكبرى التي خرج من فاس وهي ملء نفسه ، وهي حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر رسوله عليه الصلاة والسلام ، فلم يلبث أن سلك نفسه في إحدى القوافل الذاهبة إلى المشرق ، ومع هذه القافلة دخل تونس من حيث تقع بإزاء السودان ، حيث بلاد الجريد ، ثم مضت به القافلة نحو الشمال ، فدخل مدينة قابس ، ومنها إلى مدينة طرابلس .

وقد ذكرت مخطوطة الطيب الأشهب التي أشرنا إليها أن دخوله طرابلس كان سنة ١٨٢٠ ، كما ذكرت أيضاً ـ كما قدمنا ـ أن وصوله إلى الحرمين الشريفين كان سنة ١٨٢٥ . فها هي ذي خمس سنين بين بلوغه طرابلس ووصوله إلى الحجاز ، أمضى ـ فيما نرجح ـ معظمها في ليبيا . استهوته باديتها كما استهوته بادية السودان ، وإن اختلفت الباديتان بعض الاختلاف . ولا بد أن نذكر هذه الفترة التي أمضاها في ليبيا ، ونحن نقدر الأسباب التي جعلته في آخر الأمر يختار هذه البلاد مركزاً لنشاطه وإقامة نظامه . لقد أتاحت له هذه الفترة أن يخبر هذه البلاد ، ويعرف مدى ما يمكن أن تصيبه الدعوة فيها من نجاح .

ثم مضى بعد في طريقه إلى الحجاز ، وهو لا يكف عن التأمل ومراجعة انطباعاته ، حتى نبلغ مصر .

ولا ريب أنه أقبل على مصر متهلل النفس منفتح الخاطر ، فقد كانت

صورتها في نفسه مما كان يبعثه إلى التطلع إليها ، ويهيج في نفسه الحنين إلى لقاء علمائها ، وشهود مجالسها ، وإلقاء دروسه في أزهرها . ولكن مصر استقبلته بصورة غير التي انطوى عليها قلبه ، فقد كان أمر شيوخها قد فسد ، منذ أخذ أمير مصر في ذلك الحين ، محمد علي ، يضرب بعضهم ببعض ، ويثير فيهم مواطن الحقد والحسد ، وينزع عنهم بذلك رداء الجلال الذي كانوا يرتدونه ويعظمون به في نفوس العامة ، ويسلبهم المنزلة الرفيعة التي كانت تتيح لهم - بزعامة السيد عمر مكرم - أن يصرفوا شؤون البلا بما تقتضيه شريعة الله في قوة وحزم ، والتي جعلتهم ملاذ المظلوم . فقد أصبحوا من بعد ما ألقى بينهم من فتنة ، وما أصيبوا به من فساد ، أدوات في يد الأمير طيعة : يؤمرون فيأتمرون .

دخل السنوسي مصر ، وقد انتهى أمر شيوخها إلى هذا الدرك . ولا ريب، انه اتجه أول ما اتجه إلى الأزهر ، يجعله مثابته وميدان نشاطه ، فأخذ يبث تعاليمه ، ويدعو إلى إصلاح أمر المسلمين ، والأنظار متطلعة إليه ، والنفوس متعلقة به ، لصدق لهجته ، فكان في ذلك ما أثار حوله الريبة من ناحية السلطات الحاكمة ، كما أثار عليه نوازع الحقد والحسد من ناحية الشيوخ ، فلم يطل بمصر مقامه . ولكن ما أتيح له فيها من تجربة زاده بصيرة في أمره ، وإيماناً بما كان قد وقر في نفسه من قبل ، وهو أن ينأى بدعوته الإصلاحية عن مثل هذه المواطن .

ومضى في طريقه إلى الحجاز .

(جـ)

وبدخول محمد بن علي السنوسي الحجاز تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل حياته . وتمتد هذه المرحلة من سنة ١٨٢٥ إلى سنة ١٨٤٠[1] ، وهي السنة التي رحل فيها من الحجاز إلى برقة رحلته الأولى ليؤسس

(١) هذه إحدى روايتين في تاريخ مغادرته الحجاز ، والأخرى تجعله سنة ١٨٣٨ .

الزاوية البيضاء ، فمدة هذه المرحلة خمسة عشر عاماً .

وكانت جنبات بلاد العرب ما زالت تتجاوب بأصداء تلك الحرب الضروس التي ظلت مشبوبة سبع سنين بين الوهابيين وقوات محمد علي أمير مصر ، ودارت فيها الدائرة أخيراً على السعوديين الذين قاموا بدعوة الوهابية منذ اعتنقها الأمير محمد بن سعود ، في القرن الثامن عشر ، فلم يلبث أن جعلها دعوة سياسية ، يحارب باسمها ، ويغير على القبائل والمدن لفرضها والإلزام باعتناقها ، حتى أصبحت هذه الدعوة الدينية مثار الحرب في الجزيرة العربية وما جاورها . ثم تندلع الحرب في صورة أعنف حين تستعلن الخصومة بين السعودية والدولة العثمانية ، وتجيء قوات محمد علي من مصر تحت راية هذه الدولة ، مما أضرم الجزيرة العربية ناراً ، ومما جعل حديث هذه الحرب في كل مجلس وعلى كل لسان حين قدم محمد بن علي السنوسي على الحجاز .

وأكبر الظن أن قضية الوهابية وما قامت عليه من دعوة صادقة خالصة ، ثم ما مرت به وتعرضت له منذ قيامها حتى ذلك الوقت ، مما أثار في نفس محمد بن علي كثيراً من التأمل . فهاهو ذا إزاء تجربة كالتي يحاولها ، فما أجدره أن ينتفع بها ، وأن يعتبر بما أصابها . إن الدعوة الوهابية قريبة في صميمها مما يؤمن به ويدعو إليه ، من تخليص الدين مما شابه من المنكرات والبدع ، والرجوع إلى أصوله الأولى ، صافية خالصة . ولكن هذه الدعوة قد أفسد عليها أمرها ما اقترن بها من الغلو والعنف والبعد عن روح الود والمحبة ، ثم الاعتصام بالسيف والانتصار بالقوة ، واللجوء إلى أصحاب السلطان يتخذون منها تعلة للغزو والفتح والتوسع ، ويعرضونها بذلك لمثل ما تعرضت له من محنة .

أكبر الظن أن شيئاً كهذا كان يدور في نفس محمد بن علي ويسيطر على تفكيره ، وأنه أفاد منه في أن جعل دعوته قائمة على المحبة والإقناع ، وفيما رسمه لها من البعد عن مغامرات السياسة ومحنها .

ومن الطبيعي أن يكون وجود محمد بن علي في الحجاز قد أتاح له أن يتصل بالوفود الإسلامية المختلفة التي تفد عليه لأداء فريضة الحج ، وأن يدرس طبائع الشعوب الإسلامية الممثلة في هذه الوفود ، وأن يتعرف إلى عللها وأدوائها ، ومثل هذا من الأمور الرئيسية لمن ينصب نفسه للدعوة الإصلاحية العامة . كما أتاح له أن يتصل بالشيوخ ورؤساء الطرق الدينية يذاكرهم الرأي في أمر المسلمين .

وبذلك اتضحت في ذهن محمد بن علي صورة العالم الإسلامي ، وعرف علله وأمراضه ، وقـر رأيه على الوسيلة التي يمكن بها معالجة هذه العلل ، وهي تكوين الزوايا .

ولم يكن نظام الزوايا شيئاً جديداً ، فقد عرفه في جنوب الجزائر مدة إقامته هنالك ، ولعله أضمر منذ ذلك الحين إمكان الإنتفاع بهذا النظام في نشر دعوته . ولكنه لا يريد أن تكون الزوايا على الصورة التي عرفها : أماكن يجتمع فيها أتباع الطريقة ، لإقامة شعائر الطريقة ، مع قليل من التعليم ، ولكنه يريدها خلايا حية تمتد منها الحياة الصالحة إلى سائر جسم الأمة الإسلامية ، فتكون مراكز تربية وتهذيب وتعليم ، وإيقاظ للعاطفة الدينية السليمة ، وتوجيه الحياة العاملة توجيهاً سديداً . فهي بذلك مراكز إصلاح إنساني متكامل ، من الناحية الدينية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية . ولكي تستطيع هذه المراكز أن تؤدي عملها وتصل إلى غايتها المرجوة ، ينبغي أن تبعد قدر المستطاع عن السلطان ومواطن نفوذه ، حتى لا تتعرض لما تعرضت له الوهابية من محنة ازالتها عن مكانها ، وانحرفت بها عن غايتها .

وهكذا بدأ السيد محمد بن علي بإنشاء الزاوية الأولى في أبي قبيس ، بمكة ، وهو الجبل المشرف عليها . وكانت تلك تجربته الأولى . ومن هذه الزاوية الأولى أخذ يجول بفكره : أين يمكن أن يمتد نظام الزوايا هذا ، ليحقق ما يتجه إليه من إصلاح ؟ ولا ريب أنه كان يفكر في هذه المواطن التي عرفها وخبرها . أما الجزائر ، أو صحراؤها التي عاش فيها

فترة غير قصيرة ، وعرف إمكانيات الدعوة فيها ، فلم تعد صالحة لما كان يرجو ، منذ غزت فرنسا الجزائر .

وكانت وفود الحجاج الجزائرين تتحدث عن الفظائع التي يرتكبها الغزاة الفرنسيون هنالك ، وعن الوحشية التي لا تتورع عن شيء . وقد وقر في نفسه أن يهيىء لنظامه الظروف التي تدعه ينمو في هدوء ودعة ، حتى يبلغ غايته ، فهو لا يأمن إذن أن يتعرض هذا النظام لطغيان الفرنسيين وبطشهم إن هو اختار له ذلك الموطن الذي عرفه ، وربما كان آثر عنده . وكذلك الأمر في بوادي تونس والمغرب ، فكلاهما قريب من النفوذ السائد في الجزائر ، فضلا عن أن المغرب في أطراف العالم الإسلامي ، فهو لا يحقق ما يزجوه من الإصلاح الشامل .

وأما ليبيا فهي بعيدة عن ذلك النفوذ الأجنبي ، وأكثرها بعيد عن السلطان العثماني . وهي ـ فوق هذا ـ متوسطة في موقعها بين المشرق والمغرب ، وقد أقام فيها مدة غير قصيرة أتاحت له أن يعرفها معرفة صادقة ، ويرى عن قرب ما تنطوي عليه من إمكانيات ، وما تنفرد به من مزايا ، ثم ها هوذا لا يزال يتصل في الحجاز بكثير من أهلها الوافدين للحج : يجلس إليهم ، ويلقي مواعظه عليهم ، ويبثهم آراءه وتعاليمه ، فيقبلون عليه ، ويودون لو اتخذ من بلادهم موطناً له .

وهكذا قر رأيه على أن يتخذ من ليبيا المجال الثاني لدعوته ، والمركز التالي لنظامه ، وهكذا أنشئت الزاوية الثانية ، وهي أولى الزوايا الليبية ، وقد سميت بالزاوية البيضاء ، في الجبل الأخضر ، بالقرب من ضريح سيدي رافع بن ثابت الأنصاري .

(د)

وبهذا تبدأ المرحلة الأخيرة في حياة محمد بن علي السنوسي ، وهي المرحلة الليبية ، منذ إنشاء الزاوية البيضاء إلى أن توفي سنة ١٨٥٩ ، وإن كانت حياته في هذه المرحلة مرددة بين الحجاز وليبيا ، على هذه الصورة :

بعد أن أدى فريضة الحج غادر الحجاز ، هو وأسرته . أما الأسرة فقد مضت بالبحر إلى قابس (في تونس) ، وأما هو فقد مضى وأصحابه مع ركب المحمل المصري ، دخل القاهرة ، ثم مضى منها إلى ليبيا ، متخذاً طريق الفيوم والواحات ، حتى بلغ طرابلس ، ثم انفتل منها إلى قابس ليلحق بأهله ، ولم يلبث أن عاد بهم إلى ليبيا ، متخذاً هذه المرة الطريق الساحلي ، حتى بلغ الجبل الأخضر ، ووصل إلى الزاوية ، التي كانت قد أسست قبيل مقدمه .

وبقي في برقة خمس سنين ، ارتحل بعدها إلى الحجاز ، فأقام هنالك نحو ثمان سنوات . ثم عاد من بعد إلى برقة ، وبقي فيها حتى وافاه أجله .

هذه هي المرحلة الأخيرة في حياة محمد بن علي السنوسي ، وهي المرحلة التي وضعت فيها أسس السنوسية في ليبيا ، وبها صار رأس النهضة الحديثة وإمامها في هذه البلاد .

وكانت ليبيا ـ أو ما كان يسمى إذ ذاك طرابلس الغرب ـ ولاية عثمانية . وإذا كانت الولايات العثمانية قد انحدرت جميعها ، في ذلك الوقت ، في مهاوي الجهل والفقر والفوضى والاضطراب ، فقد كانت هذه الولاية أعظمها من هذه الشرور نصيباً ، فقد كانت بموقعها وضعف مواردها أبعد عن اهتمام الدولة ، وأقل ولاياتها حظاً من رعايتها ، حين كانت قادرة على الرعاية ، قائمة بتبعاتها نحو البلاد التابعة لها ، فما بالك حين ضعفت وتهالكت على نفسها ، وانتاشتها الخطوب والمؤامرات من كل ناحية .

والواقع أن سلطان الدولة لم يكد يتمثل إلا في الجانب الحضري من ليبيا ، أي في المدن القليلة التي تقع على ساحل البحر كدرنة وشحات وبنغازي ومسراطة والخمس وطرابلس ، أما الجانب البدوي ، وهو الجانب الأكبر ، فقد ظل بعيداً عن هذا السلطان ، إذ لم يستطع أن يتغلغل إليه ، فبقي أمره في يد رؤساء العشائر يدبرون أمره بأسلوبهم البدوي التقليدي ،

ويجعلونه مسرحاً لعداواتهم وخصوماتهم وحروبهم ، وهي صورة من خصومات العرب وحروبها في الجاهلية ، كالحرب بين الجبارنة والجوازي ، والحرب بين البراعصة والعبيدات ، وغير ذلك مما أشعل البادية بنيران الحرب الضروس ، وقد تبدت فيها الغرائز القبلية في أشنع صورها ، دون أن يملك الحكام المقيمون في المدن لقاءها شيئاً ، إلا أن يقدموا إليها وقوداً جديداً يزيدها اشتعالاً ، كما حدث حين انشقت الأسرة القرمانلية الحاكمة على نفسها ، فامتدت آثار هذا الشقاق إلى البادية ، فكانت من العوامل التي زادت الخصومة فيها ضراوة .

كان ذلك طابع البادية الليبية الغالب عليها . والصورة التي يرسمها العياشي لهذه البادية في رحلته التي قام بها في القرن الحادي عشر الهجري تدلنا على مبلغ ما كانت عليه من جهالة سائدة وبعد عن الدين ، وقد تفاقم الأمر فيها مع الأيام ، فأطبقت الجهالة عليها إطباقاً تاماً ، حتى لم يعد فيها رجل يعرف القراءة والكتابة ، وزاد بعدها عن الدين . حتى أصبح الإسلام كلمة لا مدلول لها .

تلك هي بادية برقة التي اختارها السيد محمد بن علي السنوسي ليجعلها ميدان نشاطه ومجال دعوته ، وإذا كان قد نظر ـ في ذلك ـ إلى مبلغ حاجتها إلى الدعوة ، فقد لاحظ أيضاً بعدها عن السلطان المتمثل في أمراء القرمانليين ، وكذلك بعدها عن تدخل الدول الأجنبية التي ما زالت تتلمظ رغبة وطمعاً ، وكان مما يثير أطماع ممثليها في طرابلس هذه الخصومات التي أشرنا إليها بين أمراء الأسرة القرمانلية ، إذ تفتح لهم الباب للتدخل ، انتصاراً لهذا وتخذيلاً عن ذاك ، كما هي شنشنتهم .

وفي برقة أنشأ زاويته الثانية ـ بعد زاوية أبي قبيس ـ كما رأينا . وكأنما كان يرى ذلك الموقع الذي أنشأ فيه الزاوية في الجبل الأخضر أكثر توفيراً لأسباب الهدوء الذي يلتمسه لدعوته ، وأبعث على الطمأنينة ، إذ يقع في أرض البراعصة الذين شايعوا الدعوة وأيدوها منذ أول أمرها ، إلى جانب بعده عن السلطان القائم في الحواضر . كما أن هناك ملحظاً آخر يذكره

الدكتور محمد فؤاد شكري ، إذ يقول في كتابه (السنوسية دين ودولة) : « إن السيد اختار للزاوية البيضاء موقعاً استراتيجياً صعب المسالك ، ومن الميسور الدفاع عنه بعدد قليل من الرجال » .

وقد ظل السيد محمد بن علي ـ كما قلنا ـ خمس سنين في برقة ، ينشىء الزوايا وينظمها ، ويرسم مناهج الدعوة ومبادئها ، ويبث دعوته الإصلاحية عن طريق هذه الزوايا . ثم عاد بعد هذه السنوات الخمس إلى الحجاز ، المركز الأول لمشروعه . ومنذ ذلك الوقت كان للدعوة عنده مركزان رئيسيان : شرقي في الحجاز وغربي في برقة ، وعن هذين المركزين أخذت الدعوة السنوسية تنتشر بواسطة الزوايا هنا وهناك .

فها نحن أولاء إذن بإزاء دعوة إصلاحية إسلامية عامة منظمة ، تشمل المشرق والمغرب ، جعلت ركيزتها الأولى في البادية ؛ لأن البادية عند صاحبها أبعد عن التيارات المختلفة التي لا تحتمل هبوبها هذه الدعوة الناشئة ، ولأن البدو ـ بالرغم مما سيطر عليهم من جهالة مطبقة ، وما داخل حياتهم الدينية من ضلالات بالغة ـ أقرب إلى البساطة ، فهم بذلك أقرب إلى العودة إلى المبادىء الإسلامية في بساطتها الأولى التي تدعو هذه الدعوة إليها .

ويبدو أن السيد محمد بن علي السنوسي كان قد أراد أن يجعل من زاوية أبي قبيس المركز الرئيسي لدعوته ، بعد أن اطمأن إلى تنظيم المركز الثاني بالدار البيضاء وقيامه بأداء رسالته ، ومن ذلك بعث يستدعي ابنه وأهله إليه . ولكنه لم يلبث أن ترك الحجاز ومضى إلى برقة ، وأخذ ينظم هنالك الدعوة تنظيماً جديداً ، ويستوثق لها من الظروف الملائمة ، والأسباب التي تنأى بها عن مكامن الخطر ، وتبلغ بها غايتها ، كتحويله مركز الدعوة فيها من الزاوية البيضاء إلى واحة جغبوب ، في أقصى الجنوب العربي . وإذا صح هذا الفرض كان لنا أن نتساءل عن أسباب هذا التحول .

لعله آنس شيئاً من الخطر في قرب دعوته من السلطان العثماني في

مكة ، من ريبة أخذت تحيك في صدره ، فخير له أن ينأى بدعوته عن مكامن الريب ومثارات الخطر ؛ ولعله لم يرد أن يكون بحيث يمكن أن يثور شيء من المنافسة بينه وبين دعاة الوهابية ، فيقع فيما ينكره على أصحاب الطرق ، مما أساء إلى الدعوة الدينية ؛ ولعله رأى أن الحجاز بما فيه من خصومات لا يحقق لدعوته الهدوء الذي أراده لها ، والطمأنينة التي لا بد لها منها ، فآثر أن يجعل برقة المركز الأول لدعوته ، ويدع الحجاز للدعوة الوهابية ، والدعوتان ـ على كل حال ـ قريبتان في مبادئهما وغايتهما ، فلا عليه أن يترك الحجاز إلى برقة ، يركز فيها نشاطه .

وهكذا عاد السيد محمد بن علي إلى برقة ، واستدعى إليها سائر أهله ، وأنشأ زاوية جغبوب ، وجعلها أم الزوايا ، وكان ذلك سنة ١٨٥٦ ، « وكانت جغبوب ـ كما يقول الأمير شكيب أرسلان ـ واحة مالحة يأوى إليها الذعار واللصوص ، ولا تجرؤ القوافل أن تمر بها من جراء العبث في أنحائها ، فلما اختارها سيدي محمد بن علي السنوسي مقراً له ، وبنى بها زاويته الكبرى ، صارت مهد أمان ، ومركز عبادة ، ومشرق أنوار ، ومعلم هداية ، فغرس بها الأشجار ، ونسق الجنان ، واستنبط العيون ، وتوسع في البناء ، وأسس مدرسة لتخريج مريدي الطريقة ، أجلس للتدريس فيها جلة العلماء » .

ومنذ أنشئت الزاوية البيضاء جعلت الزوايا تنتشر في أنحاء ليبيا ، على النحو الذي سنذكره بعد ، وكان لكل منها أثرها الواضح فيمن حولها ، وفيمن يمر بها ، إذ كانت كل زاوية من هذه الزوايا وحدة كاملة ـ وإن تفاوتت فيما بينها ـ تعمل على إصلاح الإنسان في نواحيه المختلفة ، إذ ليست الناحية الدينية في اعتبارها مستقلة عن النواحي الأخرى ، فهي تعمل على إصلاح النفوس بإيقاظ الروح الدينية فيها ، وإقرار المبادىء الإسلامية الخالصة بها ، وعلى إخراج أتباعها من الجهالة بتعليمهم وإثارة الرغبة في المعرفة عندهم ، وعلى توجيههم في حياتهم العملية ـ توجيهاً سليماً ـ إلى أساليب الحياة الشريفة المستقيمة ، من الزراعة والتجارة والصناعة ، في

حدود ما تأذن به البيئة . وهكذا لم تلبث هذه الزوايا أن صار لها سلطانها الواسع ونفوذها البعيد ، وأصبحت جزءاً من حياة الناس الدينية والعقلية والعملية . فلم تلبث بوادي برقة التي كانت غارقة في دياجير الجهالة المطبقة ، والتنكب عن المبادىء الدينية الأولية ، والتي كانت تعاني من العصبيات القبلية شر ما يبتلي به شعب من الشعوب ، أن جعلت تنحسر عنها هذه الجهالة ، وأخذت تستشعر الأمن والطمأنينة ، وتثوب إلى حظيرة الدين راضية مرضية .

ولم يقض السيد محمد بن علي السنوسي نحبه في سنة ١٨٥٩ حتى كانت الحركة الإصلاحية التي وضع أساسها ورسم منهجها قد آتت أكلها ، وغيرت حياة الناس في ليبيا تغييراً تاماً ، فأشعرتهم بكيانهم ، وهيأتهم لمرحلة من الحياة جديدة ، يتجاوبون فيها مع الشعوب الإسلامية الأخرى .

* * *

وبعد ، فقد قلنا في صدر هذا الحديث إن هذه النهضة الحديثة التي أتيحت للشعوب الاسلامية في القرن التاسع عشر كانت تقوم على عاملين رئيسيين : أحدهما الاتجاه نحو القديم ومراجعته واحياؤه ، والآخر تأثر الحياة الأوروبية في مناهج تفكيرها وأنماط سلوكها . وكان أمر هذين العاملين متفاوتاً بين هذه الشعوب ، كما كان متفاوتاً في ميادين النهضة المختلفة بالقياس إلى الشعب الواحد .

فما هو موقف النهضة الليبية من هذين العاملين ، في نشأتها وتطورها ؟ لقد أشرنا إلى أن ارتباط هذه النهضة بالبداوة كان من الطبيعي أن ينأى بها عن العامل الثاني . وواضح مما سبق من الحديث عن السيد محمد بن علي السنوسي أن هذه النهضة إنما كانت تقوم على إحياء القديم ، وذلك بالرجوع إلى المناهل الدينية الأولى ، والمصادر الأصيلة للإسلام ، كما هو واضح في المبادىء التي قامت عليها الدعوى السنوسية ، وظهرت في كتب السيد محمد بن علي ، ككتاب « بغية المقاصد وخلاصة المراصد » ، وكتاب « إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث

والقرآن » . وقد كان رأيه في الاجتهاد والتقليد ، وهو رأي يدل على إيثار الأصول الدينية الأولى ، مما أثار عليه علماء عصره الذين يرون التمسك بتقليد الأئمة الأربعة وحدهم .

ذلك هو الشيء الطبيعي بالقياس إلى النهضة الليبية ، وليس من الطبيعي أن يداخل مثل هذه الحركة الإصلاحية التي تقوم فكرة الإصلاح فيها على الدين ، كما جاءت به أصوله الأولى ، والتي نشأت في البادية وحرصت على أن تكون البادية مجال نشاطها ، باعتبارها أقرب إلى الفطرة ، وأبعد عن تعقيدات الحواضر التي كانت تتجنبها قدر الإمكان ، شيء من التأثير الأوربي . ولكنا مع هذا لا نستطيع إطلاق القول بأن السنوسية كانت في عزلة تامة عن أوروبا . فلا ريب أن السيد محمد بن علي قد أتيح له أن يشهد بعض مظاهر الحياة الأوروبية في بعض البلاد الإسلامية ، ولعله أتيح له أن يعرف بعض أصداء النهضة الأوروبية . وإلى جانب ذلك كان يعرف المطامع الأوروبية التي كانت تتوثب على المسلمين وتهددهم . وما أكثر ما كان يتوجس خيفة من مطامع « النابوليتان » في ليبيا ، وتحينهم الفرصة للانقضاض عليها ، والتهامها كما فعلت فرنسا بالجزائر .

ولكن هذا كله كان يزيد طابع الاتجاه إلى القديم في النهضة الليبية عمقا وتغلغلاً ، ويفسح المسافة بينها وبين التأثر بالعامل الآخر الذي كان له مكان ما في النهضات الإسلامية الأخرى . وهكذا مضت السنوسية تستمد وجودها من التراث الاسلامي القديم ، وبهذا وحده كانت ترمي إلى إصلاح الحياة الليبية بإصلاح الرجل الليبي إصلاحاً يتناوله من باطن حياته .

وظل هذا الاتجاه هو الاتجاه الغالب على هذه الحركة ، بقية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، أي طوال هذه المرحلة ، وكان يتولى زعامة السنوسية وتوجيهها بعد مؤسسها ابنه السيد محمد المهدي ، ثم السيد أحمد الشريف . ولكن كان من الطبيعي حين بلغت هذه الحركة

غايتها من إيقاظ الشعب الليبي أن يأخذ الاتجاه الأوروبي سبيله إليها في صورة ما . لقد استطاعت أن تخرج هذا الشعب من حالة الركود التي كانت مسيطرة عليه ومحاصرة عله ، بحيث كانت تعزله عزلاً تاماً عن العالم الخارجي ، وهيأت له السبيل إلى الحياة الفاعلة ، لا الحياة المنفعلة ، وفتحت للنور عينيه ، فكان لا بد بذلك أن يرى ما لم يكن يتاح له أن يراه من قبل ، وأن يستمع إلى ما لم يكن يصل من قبل إلى سمعه . وكان من الطبيعي إذن أن تصل إليه أصداء تلك الحركات التي كان يضطرب بها العالم الإسلامي ، وقد كان العنصر الأوروبي في تلك الحركات عنصراً ظاهراً .

وأقرب بلاد العالم الإسلامي من ليبيا هي تونس من جهة الغرب ، ومصر من جهة الشرق . أما تونس فكانت نهضتها تتمثل في اتجاه الوزير خير الدين فيما يقوم به من إصلاحات فيها اتجاها مطبوعا بالطابع الأوروبي ، وفيما سجله في كتابه : « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » من آراء في الإصلاح . وقد بنى هذا الكتاب على وصف نواحي الحياة في البلاد الأوروبية لأنها تمثل صور التقدم ، وفي وصفه لها تتجلى عوامل الرقى الذي تطمح إليه الشعوب الإسلامية . وأول هذه العوامل هو التحقق بالعلم والمعرفة على الصورة التي عرفت في البلاد الأوروبية .

وأما مصر فقد كانت مظاهر النهضة المتأثرة بأوروبا أكثر فيها وأظهر ، منذ أوائل القرن التاسع عشر . كما كانت أصداؤها أبعد مدى وأوسع نطاقاً ، وحسبنا من مظاهرها المتصلة بطبيعتها بالنهضة السنوسية ما قام به جمال الدين الأفغاني من حركة عقلية كبرى ، وما كان يدعو إليه من تحرر ، وما أخذ تلاميذه ومريدوه يرددونه في الصحف والمجالس ، مما هو ـ ولا ريب ـ متصل ببعض الاتجاهات الأوروبية .

وقد كان لا بد لهذه الحركات الإصلاحية والدعوات الإسلامية أن تصل أصداؤها إلى ليبيا وأن تقتحم مجالس السنوسية ، وخاصة ما كان منها في مصر ، لقربها منها وقوة صلتها بها . ولكنها ـ فيما نرجح ـ لم تعد أن

تكون أصداء ، ولم تكن لتغير من الطابع الأصيل القوي للنهضة السنوسية التي تعتمد على الإصلاح الباطني واليقظة الروحية ، وكان مبدؤها الذي تحرص عليه هو الرجوع إلى ينابيع الإسلام الأولى في صفائها وإشراقها ، دون أن يشوبها شائبة . وقد ظلت السنوسية مرتبطة ببيئتها التي نشأت فيها ، لم تستبدل بها بيئة غيرها .

وبعد ، فلعلنا استطعنا أن نتعرف نشأة السنوسية وأصولها ومبادئها من خلال حديثنا عن سيرة صاحبها ، في أطوار حياته المختلفة ، وما تعرض له في طور من هذه الأطوار من عوامل وملابسات . وإذ فرغنا ـ على نحو ما ـ من تبين هذا المبدأ الذي بدأ به تاريخ ليبيا الحديثة ، وهذا الأصل الذي صدرت عنه نهضتها ، فإن علينا أن ننتقل إلى صميم ما بنيت عليه هذه الأحاديث ، وهو النشاط الأدبي الليبي الحديث ، أحد مظاهر هذه النهضة ، في وجهيه : البدوي والحضري .

- ٢ -

كان في ليبيا أكثر من بيئة علمية : كان فيها الزوايا التي أنشأتها السنوسية ، وجعلت منها مراكز دينية وثقافية ، وكان فيها الحلقات التي تنعقد في المساجد ، تلقى فيها دروس الفقه وتقرأ فيها كتب التفسير والحديث وما إلى ذلك ، وكان فيها المدارس النظامية التي أنشئت في العهد التركي الأخير ، كما كان فيها إلى جانب ذلك بعض المدارس التي أنشأها الإيطاليون في بعض مدن طرابلس .

وقد أشرنا من قبل إلى نشأة الزوايا ، باعتبارها النظام الذي تقوم به الدعوة السنوسية ، وأداة الإصلاح الذي تنشده وتخطط له . ولم تلبث هذه الزوايا أن انتشرت في أنحاء ليبيا انتشاراً واسعاً ، وتغلغلت في جميع قراها ومحلاتها ومضاربها ، على النحو الذي نرى صورة منه فيما كتبه الأمير شكيب أرسلان ، عن مشاهدته ، تعليقاً على الفصل الخاص بالجامعة

الإسلامية من كتاب « حاضر العالم الإسلامي » للوثروب استورد. وذلك إذ يقول :

وقد سرنا في طريقنا إلى جهاد طرابلس نحو شهر ، من ظاهر الإسكندرية ، عند منتهى الخط الحديدي ، حيث زاوية سيدي هارون القناشي ، إلى موطن الحرب بسهل الفيض ، أمام مدينة بنغازي ، فكنا بعد كل مرحلة ثلاث ساعات أو أكثر نجد زاوية سنوسية . هذا عدا زوايا كثيرة ليست مصاقبة للطريق السلطاني ، فإن لكل قبيلة زاوية هي مرجعها في الدين والدنيا ، وإذا تعددت فروع القبيلة كالعبيدات فلكل فخذ منها زاوية ، فلعائلة منصور زاوية ، ولعائلة مريم زاوية ، وللبناين زاوية وللعواكلة زاوية . . . وهلم جرا » . ثم يقول في هذا التعليق : « وقد قيدت في دفتر عندي يحتوي على معلومات كثيرة عن برقة أسماء نحو ١٢٠ زاوية سنوسية في تلك الديار وما جاورها إلى السودان . وليس ذلك العدد هو كل ما عندهم من الزوايا » .

وكانت هذه الزوايا تقوم بجميع حاجات القبيلة أو المحلة الدينية والعلمية ، إلى جانب مشاركتها في تنظيم أساليب المعيشة على الأسس الجديدة : يتجهون إليها مستفتين فيما يعرض لهم من أمور دينهم ، ويوجهون إليها صبيانهم يتعلمون فيها القراءة والكتابة ، ويحفظون ما تيسر من القرآن ، ويلقنون فيها مبادىء الدين والعلم ، كما يتجه إليها كبارهم ، يتثقفون فيها بما تنزع بهم إليه نوازعهم الدينية ، إذ يشهدون المجالس التي تعقدها شيوخها فيها .

ومن هذه الزوايا زوايا رئيسية أو زوايا عليا ، يرأسها شيوخ السنوسية الكبار ، كزاوية البيضاء ، وزاوية درنة ، وزاوية بنغازي ، وكان لها الإشراف على ما حولها من الزوايا ، كما كانت مجالس الدرس فيها أعلى مستوى وأكثر تنوعاً واستجابة للحاجات الدينية والعقلية . ثم تجيء من بعد ذلك أم الزوايا ، وهي زاوية جغبوب ، (أو زاوية الكفرة في فترة تحول السنوسية إليها) ، إذ هي المدرسة العليا التي يتخرج فيها شيوخ الزوايا .

وقد بلغ فيها النشاط الثقافي بصوره المختلفة غاية بعيدة .

يقول الطيب الأشهب في الفصل الذي عقده للكلام عن الجغبوب في كتابه « برقة العربية » :

« . . وجلس كبار العلماء للتدريس بمعهد الجغبوب ، حيث تدرس جميع أنواع العلوم(١) فلا ينحصر التعليم على حفظ القرآن (وهذا شرط أساسي) ، وبعض العلوم الدينية والعربية ، كما هو الحال في كثير من المعاهد وقتذاك ، وحتى الآن ؛ بل إن التعليم قطع بالجغبوب شوطاً بعيداً وسار خطوات واسعة ، فتناول أهم العلوم العقلية والنقلية ، وكان يجلس للتدريس فطاحل العلماء الأعلام تحت إشراف السيد السنوسي نفسه الذي يضع برامج التعليم ويقرها ، فتخرج من هذا المعهد العدد الكبير بقسط وافر من العلوم . . . فمنهم العلماء والكتاب والمصنفون » .

ويذكر الطيب الأشهب مثلا من أمثلة الإقبال على معهد الجغبوب ، ومظهراً من مظاهر الروح التي بعثها بين قبائل البادية ، وهي روح جديدة كل الجدة في هذه البادية ، وذلك إذ يقول :

« وفي سنة واحدة تخرج من المدرسة القرآنية ثمانون طالباً يحفظون القرآن من قبيلة واحدة هي قبيلة حسين البراعصة . وكان أفراد هذه القبيلة يجتهدون في التعليم ، حتى إنهم يعرفون بين بقية القبائل بهذا الاسم : (قبيلة الطلبة) » .

لقد كان مثل هذا حدثاً كبيراً جديراً بالتنويه . فقد كان شيئاً أشبه بالانقلاب في هذه البادية .

وفي كتاب الطيب الأشهب الذي كتبه عن « السنوسي الكبير » خاصة نستطيع أن نظفر بأسماء بعض الأساتذة الذين تولوا التدريس في المعهد الجغبوبي . ومن هذه الأسماء نعلم أن الطبقة الأولى من هؤلاء الأساتذة

---

(١) ينبغي ألا نلقي بالا لمثل التعميمات والمبالغات التي لا دلالة لها .

كانت مكونة من عناصر مختلفة ، تمثل المواطن التي اتصل السيد محمد بن علي السنوسي بها في تجواله ، وتبين لنا طابع ذلك التجوال . فمنهم من هو من الحجاز ، كالسيد فالح الظاهري ، والسيد محمد بن الصادق الطائفي ؛ ومنهم من هو من الجزائر ، كالسيد أبي القاسم التواتي ؛ ومنهم من هو من تونس ، كالسيد علي بن عبدالمولى ؛ ومنهم من هو من السودان ، كالسيد محمد بن الشفيع ؛ ومنهم من هو من برقة ، كالسيد عبدالرحيم المغبوب ؛ ومنهم من هو من طرابلس ، كالسيد عمران ابن بركة الفيتوري .

كما كانوا - إلى جانب ذلك - يمثلون اتجاهات عقلية مختلفة ، وإن جمع بينها اتجاه الدعوة الدينية ، فمنهم الفقيه والمحدث والشاعر ، وإن جمع بينهم هذا المعهد الذي لم يلبث أن أصبح من المراكز الدينية والعلمية المرموقة في هذا الأفق من آفاق العالم الإسلامي . وقد تمثلت فيه هذه الآفاق بهذه المجموعة من العلماء ومن جاء بعدهم ، ممن تطور بهم هذا المعهد ، واتخذ هذه الصورة التي يذكره بها محمد بن عثمان الحشائشي التونسي في رحلته إلى ليبيا ، في أواخر القرن التاسع عشر ، إذ يقول في حديثه عن جغبوب .

« أما العلوم فقد حطت رحالها هناك ، فيوجد بها من العلماء الفحول من يقرأ التفسير وكتب الحديث العالية ، وبها من الطلبة المزاولين للعلوم ما ينيف على الثلثمائة ؛ وبها من فحول الأدب من تزرى أشعاره بأشعار العراقيين » .

أما أسلوب الدرس في هذا المعهد فهو الأسلوب المتعارف عليه في جميع معاهد العلم في ذلك الوقت . ونستطيع أن نرى صورة منه في هذه الفقرة من كلام الطيب الأشهب في الفصل الذي كتبه عن السيد محمد الشريف السنوسي ، إذ تصور مجلسه العلمي . قال :

« سمعت هذه الحكاية الآتية من تلميذه والدي ، السيد أحمد بن

إدريس . قال : كنا نحضر على السيد الشريف ، وكنا ندرس عنه الحديث والتفسير والتصوف ومطولات كتب اللغة ، يجلس بكل تواضع ، ويضع الكراس الذي بيده فوق منضدة من الخشب توضع أمامه ، ويقرر ما نحن بصدده . وعندما نمر بمشكلة فقهية أو تاريخية أو لغوية يسرد لنا رضي الله عنه من ذاكرته جميع وجوهها ، وما ورد فيها من أقوال العلماء أو الأئمة المصنفين بأسلوب عذب ساحر خلاب ، ولا يترك قولاً ورد فيها إلا ويأتي به ، ثم يوضح الأصح من الأقوال والمتفق عليه . وعندما نقف على أي بيت من الشعر في أي كتاب نقرؤه ، أو في أي موضوع نتناوله ، يقول لنا : إن هذا البيت هو من قول فلان المولود سنة كذا ، والمتوفى سنة كذا ، ويبتدىء في قراءة القصيدة من ذاكرته ، إلى أن يقف على البيت الذي كان السبب في إعلامنا بقوة حافظة سيدنا وسلامة ذاكرته » .

وكما كانت تتمثل في هذا المجلس من مجالس المعهد الجغبوبي ، وفي أولئك الشيوخ المختلفي الأوطان ، وجوه النشاط العلمي الإسلامي المختلفة ، كذلك كانت تتمثل بصورة أخرى في المكتبة التي أنشأها في الجغبوب السيد المهدي[1]، وقد حرص منذ استقر لهذا المعهد أمره أن يوفر له أسباب النشاط العلمي ، وأن يمكن له من المضي في سبيله وبلوغ الغاية الكبرى له ، وهي تكوين القادة ، أو شيوخ الزوايا تكويناً صحيحاً ، فكان من أول ذلك أن أنشأ له هذه المكتبة ممثلة لوجوه النشاط الديني والعلمي والأدبي .

وقد تحدث الطيب الأشهب عن هذه المكتبة في غير موضع ، فقال في كتابه « السنوسي الكبير » : « ونظمت بالجغبوب مكتبة كانت من مفاخره ، إذ أنها تعد في طليعة المكتبات التي لا يمكن للأفراد الإتيان بمثلها . وكانت تضم قسما كبيراً من المخطوطات النفيسة ، ولم يترك

---

(١) يعتبر السيد المهدي صاحب الفضل الأكبر في بلوغ هذه المكتبة ما بلغته، حتى ليعد بذلك منشئها .

الإمام بلداً إسلامياً إلا واستجلب منه الكتب ، فمن مصر والحجاز والشام والآستانة وتونس ومراكش ، إلى غير ذلك من البلاد الإسلامية الأخرى » . وفي (برقة العربية) يشير إلى بعض المرافق التي ألحقت بالمكتبة ، لتكون أقدر على أداء وظيفتها وتيسير سبل الانتفاع بها،من ذلك ما يشير إليه بقوله : « وخصص محل يروده الطلبة وبعض الإخوان للنسخ ، فيكتبون الكتب التي يجب أن تكتب حسب الأمر . فلا هم لهذا القسم من الطلبة والإخوان إلا التدوين » .

وقد رأى الحشائشي ، في رحلته التي أشرنا إليها منذ قليل ، هذه المكتبة ، وعرض لها في سياق كلامه عند الجغبوب . والحشائشي رجل عالم بالكتب ، فقد كان عمله تفقد خزائن الكتب العلمية بالزيتونة ، فقال عنها :

« أما الكتب الموجودة في خزائنها فقد نيفت على الثمانية آلاف مجلد ، من تفسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه ، وغير ذلك من كتب العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية وغير ذلك . ولا يطبع في العالم كتاب باللغة العربية إلا ويبحثون عنه ويظفرون به ، فيوجد عندهم ديوان العلامة الشاعر المفلق الشيخ سيدي محمود قابادو الشريف التونسي ، وتاريخ الشاعر الأديب سيدي محمد الباجي المسعودي التونسي » .

كان هذا شأن مكتبة جغبوب في أواخر القرن التاسع عشر ، إبان رحلة الحشائشي ، أو هو ـ في حقيقة الأمر ـ شأن البقية الباقية منها بعد رحلة السيد المهدي إلى الكفرة ، حين اعتزم أن ينقل إليها مركز الدعوة ، فنقل إليها معه طائفة كبيرة من كتب هذه المكتبة . فهذه الصورة التي يرسمها الحشائشي لخزائن الكتب في الجغبوب إنما هي صورتها بعد ارتحال السنوسية إلى الكفرة التي اعتبرت منذ ذلك الوقت المركز الأول لها ، وبذلك تراجعت جغبوب عن مكانها .

وقد كان انتقال السنوسية إلى الكفرة ، واعتبارها زاوية التاج فيها

الزاوية الأولى لها ، سبباً في ازدهار الحياة العلمية والأدبية في هذه البقعة المقفرة النائية ، وكان من ذلك إنشاء مكتبة أخرى فيها كانت نواتها الكتب التي سلمت من الضياع مما نقله معه السيد المهدي . وقد عانت هذه الكتب في خلال هذه الرحلة محنة العوادي التي تصحب عادة مثل هذا السفر الطويل بوسائله البدائية ، فضاع الكثير منها ، ثم تجددت هذه المحنة في الرحلة الثانية التي قام بها السيد المهدي من الكفرة إلى قرو ، ثم في رحلة العودة إلى الكفرة .

ومع ذلك فقد استطاعت هذه البقية الباقية من تلك المحن أنتكون نواة مكتبة الكفرة التي لم تلبث أن نمت وكبرت وعظم شأنها مع زاوية التاج التي صارت الزاوية الأولى للسنوسية .

ومكتبة الكفرة هذه كانت من أعز ما أهدره الاستعمار الايطالي في ليبيا ، حين بلغ الكفرة وعاث فيها قتلا ونهباً وانتهاكاً للأعراض وإهداراً للحرمات واستباحة لكل شيء ، فأصاب المكتبة من ذلك ما يعتبر سبة باقية في جبينه .

وقد رسم الطيب ، في (برقة العربية) صورة من هذه المأساة التي حاقت بهذه المكتبة ، والعبث الذي تعرضت له ذخائرها ، فقال :

« أخذ العساكر المحتلون يوزعونها ذات اليمين وذات الشمال ، ويرمون بها إلى الرياح لتعمل فيها عملها ، ويوقدون بها النار . وقد كسيت جميع أرض الكفرة بأوراق تلك الكتب الممزقة والمبعثرة . وقد ذهبت إلى الكفرة بعد الاحتلال بعدة أشهر . . . فرأينا ذلك رأي العين . . . وما من عسكري إيطالي أو صومالي أو وطني إلا وقد جاء بقسم من تلك الكتب ليهديه ، كتذكار لاشتراكه في هذا الفتح ، أو لبيعه ، فامتلأت بذلك أسواق برقة » .

وبالرغم من هذا العبث الشديد فقد بقيت من هذه المكتبة بقية كبيرة نقلتها أخيراً السلطات المحتلة إلى بنغازي ، ولكنها لم تكد تصل إليها

حتى تعرضت لألوان من السطو ، إلى أن أتيح لها بعد أن تودع بدائرة الأوقاف الإسلامية ، واقتنعت السلطات بوجوب إعدادها لتكون مكتبة عامة ، فبدىء بترتيبها وفهرستها ، لولا قيام الحرب العالمية الثانية ، وقد صارت ليبيا ميداناً من ميادينها . فأخذ الإيطاليون ينقلونها إلى سلوق (إلى جنوب مدينة بنغازي) بدعوة حمايتها من الغارات . وقد تم لهم نقل بعضها ، ثم أعجلهم الانسحاب عن نقل سائرها ، فبقى في بنغازي . أما ما نقلوه إلى سلوق ليكون بمأمن من حرائق الغارات ، فقد أحرقوه هم أثناء انسحابهم الأخير .

وهذه البقية الباقية من هذه المكتبة في بنغازي هي ما نراه اليوم[1] في دائرة الأوقاف فيها ، وهي تدلنا على مبلغ ما كانت عليه مكتبة الكفرة ، كما تدلنا دلالة واضحة ، بما تضمه من أمهات كتب الأدب والتاريخ ـ إلى جانب الكتب الدينية ـ على مدى اهتمام السنوسيين بهذه الناحية ، ورعايتهم لهذا اللون من ألوان الثقافة الإسلامية ، كما هو الشأن في مكتبة جغبوب ، على النحو الذي ذكره الحشائشي .

وإذ كنا في هذه المحاولة نرسم بعض الخطوط الكبرى للنشاط الثقافي السنوسي ، فلا ينبغي أن يفوتنا القول بأنه ـ إلى جانب المعهد والمكتبة ـ كانت هنالك المجالس الخاصة أو الندوات التي يستروح بها أصحابها وينطلقون فيها على سجاياهم ، فيتجاذبون احاديث الأدب ، ويتقارضون الشعر ، ويأخذون في ألوان الفكاهة البريئة ، بعيداً عن الجو الديني . ونستطيع أن نتمثل صورة من هذه المجالس في حكاية مجلس منها ذكره الطيب الأشهب في (برقة العربية ص ٥٧٤) ، وقد جمع الكثير من علماء الإخوان السنوسيين وأدبائهم ، بدعوة من السيد محمد عابد السنوسي ، في إحدى ضواحي جغبوب .

هذه صورة من النشاط الثقافي الذي كانت الزوايا السنوسية ـ وخاصة

---

(١) أي في أوائل الستينات .

كبرياتها ـ تقوم به ، وهو ـ كما رأينا ـ نشاط متعدد الألوان ، لم يقف عند الجانب الديني ، وإن يكن ـ بطبيعة الحال ـ أغلب جوانبه ، بل تعداه إلى النواحي الأدبية .

وطبيعي أن يكون لهذه النهضة السنوسية وجهها الأدبي ، لا من الناحية الثقافية فحسب ، بل من ناحية التعبير الفني أيضاً ، شأن سائر النهضات التي تمخض الحياة أشد المخض ، فتبرز مكنوناتها ، وتتناول النفوس من أعماقها فتثير كوامنها . وليس التعبير الفني إلا تجاوب النفس الباطنة مع مظاهر الحياة الخارجة . ومن ذلك ظهر في هذه النهضة طائفة من الشعراء ، ذكر الطيب الأشهب أسماءهم ، فإذا هم نحو العشرين شاعراً ، وإن مضى الكثير منهم فهم بالقياس إلينا أسماء لا نكاد نعرف ما وراءها ، إذ لم نقف على ما يمثل شاعريتهم . كما أنهم ليسوا جميعاً من أصل ليبي ، ولكنهم ـ على كل حال ـ يدينون بشاعريتهم أو بترعرعها لهذه الحركة السنوسية التي عاشوا في ظلالها وغمرتهم روحها .

ونستطيع أن نذكر إلى جانب هذا من العوامل التي آزرت هذا الوجه من وجوه النشاط الأدبي ما كان من تشجيع مؤسس الحركة السنوسية السيد محمد بن علي ، باعتباره تعبيراً عن هذه الحركة ، ولأن السيد لم يكن ـ فيما يبدو ـ بمعزل عن الإحساس الشعري ، فقد كان يقدر الشعر ويتذوقه ، في حدود الذوق الأدبي العام إذ ذاك ، بل لقد كانت جذوة الشعر تومض أحياناً في خاطره ، فإذا هو يقول القطعة منه ، تعبر عن معنى من المعاني التي تتردد في نفسه . ولكنه ـ فيما يقولون ـ لم يكن يعبأ بذلك أو يحفل بتدوين ما يتفق له منه ، ولكن ذلك كاف في إثبات قدر من الشاعرية يجعله يقدر الشعر ويشجع عليه من حوله .

وهم يذكرون له قطعتين من هذا الشعر الذي كان يتفق له ، وطبيعي أن يكون صورة من نفسه المنصرفة إلى الله ، المقبلة على متاع الروح ، الزاهدة في لذائذ الدنيا ومتعها ، وذلك إذ يقول في إحدى هاتين القطعتين :

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة ... إذا اخضر منها جانب جف جانب

هي الدار : ما الآمال إلا فجائع ... علينا ولا اللذات إلا العطائب
وما لـذة الأولاد والمـال والمنى ... لدينا ولا الآمال إلا المصائب
فلا تكتحل عيناك يوماً بعبرة ... على ذاهب منها فإنك ذاهب

أما القطعة الأخرى فهي تجري مع هذه القطعة في التعبير عن الزهد والدعوة إليه :

وهبني علمت الكيميـاء ونلتها ... وأتقنتهـا صبغاً وأتقنتهـا صنعا
ولخصت تسيير الكواكب كلها ... ببحثي وتدقيقي ونلت بها مسعى
وملكت أموال البرايـا بأسـرها ... وجالت يدي من أصفهان إلى صنعا
أليس مصيري بعد ذلك كله ... إلى تحت هذا الترب في حالة شنعا
فقل للذي يمسي ويصبح همه ... لغير رضاالرحمن : يا خيبة المسعى!

ومهما يكن من أمر هذا الشعر في ديباجته وصوره ومعانيه ، فإنه يدل على أي حال ـ على ما ذكرنا من أن السيد محمد علي بن السنوسي كان على قدر من الشاعرية ، وأنه كان يقدر الشعر ويتذوقه ، فلا جرم كان حفياً به وبأهله ، وكان له بذلك أثره على الحركة الشعرية في عصره .

ومن بعده جاء ابنه السيد محمد المهدي ، ولا نعلم أنه كان يقول الشعر أو يحاول قوله ، أو أن الشعر كان ربما عرض له ، كما كان أبوه . ولكنه كان ـ فيما يقولون ـ يطرب له ويهتز لسماعه . وكان لإجلاله ذكرى أبيه لا يزال يلتمس ما قيل فيه : يستنشده وينصت إليه . كما كان تشجيعه الشعراء وتحفيه بهم من الأمور المأثورة عنه ، فقد أصبح الشعر عنصراً من العناصر الظاهرة في مجلسه . ومن الظواهر الجلية في عهده . ولعل من ذلك ما يذكر أنه عنى بتدوين ما أنشأه شعراء السنوسية من شعر ، وما كتبوه من رسائل أدبية ، في مدونة جامعة ، تمثل هذا اللون من ألوان النشاط السياسي وتخلده ، وكانت هذه المجموعة تسمى « سفينة الإخوان » ، يقول الطيب الأشهب : « وكانت كل زاوية تحتفظ بنسخة منها ، كما حفظت نسخ منها بمكتبة الجغبوب والكفرة ، فضلا عما يحوزه الأفراد في حوزهم

الخاص . وكنت اطلعت على نسخة كانت محفوظة بزاوية اللبة (جالو) . وفي سنة ١٩٢٨ سلم لي السيد إبراهيم بن العربي الغماري أوراقاً كثيرة من تلك المجموعة ، وكل من عرف بالأدب وقتذاك من الإخوان فله بين صفحات تلك المجموعة قسم كبير من ثمرات تفكيره ، ولكنها ضاعت هي الأخرى » .

فمجموعة سفينة الإخوان هذه من ظواهر عناية المهدي بالشعر ، وتشجيعه الشعراء .

وكانت هذه المجموعة جديرة أن تمدنا بمادة درسنا لهذه المرحلة من مراحل الحياة الأدبية في ليبيا، لو أنها بقيت لنا ، ولكنها ضاعت ـ كما ضاع اكثر الآثار الليبية ـ بسبب ما تعرضت له ليبيا من الطغيان الاستعماري الغاشم الذي أراد أن يدمر جميع مقوماتها ، ويهدر كل مشخصاتها ، ويقطع كل صلة لليبيا كما يريدها بليبيا كما هي في حقيقتها . وقد رأينا ما صنع بمكتبة الكفرة .

وفيما حكاه صاحب كتاب (برقة العربية) من قصة تأليف هذا الكتاب ، ومحاولة جمع مادته ، ما يدلنا دلالة قوية على مبلغ ما كانت تعانيه الآثار العربية عامة ، ومقومات الشخصية الليبية خاصة ، مما يرى فيه المستعمر نقضاً لما يبنى ، وحلا لما يعقد ، من تعقب ومصادرة ، للقضاء عليه ومحو كل ما قد يكون من أثر له ، فكان أمر هذه الآثار ما يزال موضع المطاردة من المستعمر الإيطالي ، وموضع الحرص والحذر من المواطن الليبي ، فهو دائماً بين الخوف منه والخوف عليه :

« حين اتجه صاحب هذا الكتاب إلى تأليفه أخذ يجمع مادته من هنا وهنا ، حتى اجتمع له قدر صالح ، اعتبره ذخيرة كبرى ، وإذ كان يعلم ما يضمره الاستعمار لمثله ، فقد داخلته الخشية عليه أن يقع في يد السلطات الإيطالية التي كانت لا تفتأ تبعث الحملات التفتيشية ، بحثا عن مثل هذه الآثار التي كانت تتمثل لها دائما في صورة الخطر الداهم على سلطاتها ،

فأودعه صديقاً بعيداً عن الريبة يخفيه عنده . ولكن هذا الصديق لم يلبث أن تحركت مخاوفه ، حين أعلنت إيطاليا الحرب ، إذ قدر ما يصاحب هذا الإعلان من إجراءات مبالغة في التعسف ، وما قد تجره عليه هذه الوديعة إذا أدت هذه الإجراءات إلى اكتشافها عنده ، فردها إليه ، فذهب بها إلى صديق آخر من أجدابية ، يلتمس عنده التدبير لها ، فأخذها منه ، وأوغل بها في البادية ، وحفر لها في مكان يعرفه ، وأخفاها فيه . حتى إذا انسحب الايطاليون انسحابهم الأول ، وحل الإنجليز محلهم ، ظن صاحب الأوراق أن لا موضع للخوف ولا داعي للحذر ، فطلب الوديعة ، ليحفظها عنده ، وليأخذ فيما تهيأ له . ولكن الأمور لم تلبث أن اضطربت بانسحاب الإنجليز وعودة الإيطاليين ، وقد تفجرت نفوسهم غضباً وحقداً وضغينة ، فأخذوا يبطشون وينكلون ، في وحشية عمياء ؛ وكان من ذلك أن هوجم منزل صاحب الأوراق في أجدابية ، بعد أن فر هو إلى مصر ، فدمر فيه كل شيء ، وضاعت مجموعة الآثار التي احتال لحفظها كل حيلة » .

هذه صورة من الجو الذي كان يسود ليبيا أثناء الاستعمار الإيطالي ، فيما يتعلق بالتراث الأدبي الليبي ، وخاصة ما كان صادراً عن النشاط السنوسي . وهذه إحدى جرائم الاستعمار الكبرى التي نشعر بها شعوراً قوياً ونحن نعالج هذا البحث ، فقد بدد كل شيء ، ونكر كل معلم ، ووضع الباحث في مجاهل لا يكاد يظفر فيها إلا بالقليل الذي لا يشفي غلة ولا يقيم أوداً .

هذا والاستعمار الإيطالي مسؤول أيضاً ، من ناحية أخرى ، عن انصراف الليبيين عن كل شيء إلا مقاومة المستعمر ومجاهدته ، فقد كان هذا الجهاد هو الشاغل الأول ، بل الشاغل الوحيد الذي لم يكد يدع مكاناً لشيء غيره من احتفاظ بتراث أدبي أو غير ذلك . وفي خلال هذه المقاومة قضى نحبه كثير ممن كانوا يحفظون هذا التراث ، ويؤدونه عن ذاكرتهم .

ومع ذلك فلا بد لنا ، قضاء لحق التاريخ الأدبي ، أن نكابد هذا البحث ، نلتمس وسائله ونلفق ما بقي لنا من أسبابه ، ونحاول أن نلقي

شيئا من الضوء على هذه المرحلة . ولعل بعض الصدف تظفرنا في قابل الأيام بما نفتقده اليوم فلا نجده .

وسنبدأ من النشاط الأدبي فيها بالشعر ، نحاول أن نتبين نشأته في هذه البيئة ، ونتعرف صورة منه في بعض رجاله الذين بلغنا شيء من آثارهم ، وما تدل عليه هذه الآثار من اتجاهات .

وكان الشعر يتمثل من قبل ـ غالبا ـ فيما ندعوه بالشعر الشعبي ، يقوله شعراء البادية بلهجتهم ، يصورون به حياتهم ، ويسجلون به أيامهم والحروب التي كانت تقع بين قبائلهم ، كحرب الجبارنة والفوايد ، وحرب الجبارنة وأولاد علي ، وحرب الحرابي وأولاد علي ، وحرب العبيدات والضعفا ، وحرب العبيدات والبراعصة ، مما كان يستغرق حياتهم . ولا يزال لهذا الشعر رواته من أهل البادية ، وممن اصطنع منهم حياة الحاضرة . وإن كانت طبقة هؤلاء الرواة توشك أن تنقرض .

أما شعر الفصحى فإنما جاء هذه البيئة ـ فيما نقدر ـ مع هذه النهضة السنوسية التي أخذت تحارب الأمية السائدة ، وتبدد ظلمات الجهالة ، وتحقق الصلة بالأصول الإسلامية العربية الأولى .

ـ ٣ ـ

ولعلنا نستطيع أن نتمثل أولية هذا الشعر في أربعة من الشعراء السنوسيين ، يمثلون الطبقة الأولى ، وهم : فالح الظاهري ، وأحمد الطائفي ، وعبد الرحيم المغبوب ، وأبو سيف مقرب .

أما فالح الظاهري فهو ـ كما أورد الأستاذ خير الدين الزركلي اسمه كاملا في أعلامه ـ محمد فالح بن محمد بن عبدالله بن فالح ، أبو النجاح وأبو اليسر المهنوي الظاهري .

وهو ـ فيما نحسب ـ أقدم أصحاب السيد محمد بن علي السنوسي ، فقد التحق به ـ كما يقول صاحب كتاب (برقة العربية) ـ في نحو سنة

١٢٤٣ هـ ، أي نحو سنة ١٨٢٧م ، أي في أوائل عهد السيد السنوسي بالحجاز . وقد اتصل به - ولا ريب - صبياً أو شابا في مطالع شبابه ! لفتته شخصيته ، وكان طلعة متوثب الروح ، فسعى إليه ، واتخذ مجلسه في حلقته ، يأخذ عنه ، ويملأ نفسه بروحانيته ، وهو في سن العاطفة المشبوبة ، كما أعجب به السيد ورأى فيه مخايل ذكاء وتطلع ، فتوثقت بذلك الصلة بينهما .

وأكبر الظن أن هذه الصلة التي حركت في نفس ذلك الشاب نوازعه الروحية ، وهزت عواطفه ، كانت مما أثار نوازعه الأدبية ، ومما بعثه على التعبير عن نفسه تعبيراً فنيا ، فإذا اكتشف في نفسه هذه الناحية ، فقد ذهب يتحسس أصداءها ، كما مضى يلتمس لها غذاءها ويطلب المتعة الفنية في قراءة النماذج الأدبية ، وأستاذه لا ينكر عليه ذلك ، بل لعله كان يحفزه ويشجعه . وبذلك أخذ نفسه بمعالجة الشعر على غرار هذه النماذج ، فيقول في الأبواب التي قال فيها المتقدمون ، ناسجاً على منوالهم جارياً على منهجهم ، إلى جانب ما جعل يتدفق به طبعه ويجري على لسانه من وحي ذلك الجو الروحي الذي كان يعيش فيه .

وبذلك نستطيع أن نعد فالحا الظاهري رأس شعراء السنوسية وإمامهم ، وأن نعتبره من الأصول الأولى في نشأة الحياة الأدبية في الزوايا السنوسية . بل لعلنا لا نغلو في الفرض إذا نحن قدرنا أنه أستاذ عبدالرحيم المغبوب في الشعر ، وسنتحدث بعد قليل عنه ، وأنه هو الذي أثار في نفسه الجذوة الشعرية الكامنة ، حين قدم الحجاز مع أستاذه سنة ١٨٤٦م .

وقد ضاع معظم شعر فالح ، شأنه في ذلك شأن غيره من آثار هذه المرحلة ، بل الآثار الليبية عامة . ولكن ما بقي لدينا منه يدل على شاعرية صادقة ، وقدرة على صياغة الشعر صياغة عربية جزلة .

ولعلنا نستطيع أن نعرف هذا في قصيدته التي بعث بها من الحجاز إلى ليبيا ، في أوائل هذا القرن ، وكان قد عاد إلى موطنه الأول ، بعد أن

أمضى في ليبيا ما يقرب من الأربعين عاماً ، بين رفاقه من الإخوان السنوسيين ، فلم يلبث أن غلبه الحنين إليهم ، فقال هذه القصيدة ووجه بها إليهم . ولم يبق منها بأيدينا غير أبيات من مطلعها ، ولكنها ـ فيما أظن ـ تدل على سائرها :

سرى طيفكم ليلا فما تاه في المسرى ... على بعد ما بين الجغابيب والحمرا
عجبت له أني اهتدى لي ، وبيننا ... مهامه ينبو الوهم عن جعلها مسرى
أأحبابنا والله ما غير النوى ... ودادي ولا أخلت بلادي لكم ذكرا
أهش لريح الجربياء إذا سرت ... وإن أضرمت في القلب من ناركم جمرا

وقد عمر فالح طويلا ، وأمضى جزءاً كبيراً من حياته في برقة ، كما ذكرنا وكان قد ذهب إليها في صحبة أستاذه محمد بن علي ، وأقام في جغبوب بعد إنشاء زاويتها ، استاذاً في معهدها ، يلقي على طلابه دروس الدين واللغة والأدب .

كما أقام فترة غير قصيرة من الأستانة وفي الهند ، غير متخل عن الدعوة والتأليف والتدريس ، وفي آخر حياته مضى إلى الحجاز ، وفيه وافاه أجله ، في المدينة ، كما يذكر الزركلي ، في أواخر العقد الأول من هذا القرن .

وقد ترك فالح عدداً من الكتب في الفقه والحديث ، أورد الزركلي أسماءها .

ثم كان ممن اتصلوا بالسيد محمد بن علي السنونسي ، في الفترة الأولى من حياته بالحجاز ، وممن عالجوا الشعر وعرفوا به ، السيد أحمد الطائفي . اتصل به ـ فيما يحكي الطيب الأشهب ـ سنة ١٢٤٩ هـ ، أي نحو سنة ١٨٣٣ م . ولكنه كان يمثل نمطاً آخر من الشعر غير النمط الذي رأيناه عند صاحبه فالح الظاهري ، فشعر فالح يسير على آثار الشعر القديم بشاعرية اصيلة ، أما صاحبنا هذا فيقلد الشعراء المتأخرين بشاعرية متكلفة متخلفة ، فيما قدر لنا أن نستشفه .

كما انه ـ فيما نرى ـ كان يمثل في مجلس السنوسي اتجاها معروفا إلى معالجة القريض واصطناعه ، تعلق به العلماء والمتعلمين ، على اعتبار أن الشعر هو التعبير الممتاز الذي يدل على شخصية ممتازة ، دون أن يعبأ بما ينبغي أن يكون وراء ذلك من موهبة ، فهو لون من الطموح الأدبي أخذ ينشأ في مجلس السنوسي ، وإن يكن ـ في بعض الأحوال ـ طموحاً عاجزاً لا ترفده مقدرة ، ولا تمده وسيلة أصيلة قوية . ولكن له ـ على كل حال ـ دلالته ، وهو أن الشعر أصبح شيئاً مقصوداً لنفسه ، وغاية منشودة ، باعتباره مظهراً من مظاهر الامتياز .

وقد انتقل هذا الاتجاه إلى برقة بانتقال أحمد الطائفي إليها في صحبة أستاذه ، وقد بقي الطائفي في برقة بعد عودة السيد محمد بن علي إلى الحجاز ، استاذاً في الزاوية البيضاء ، يلقي فيها دروسه ، ويدعو لتعاليم أستاذه ، وهو في خلال ذلك يعالج قرض الشعر بتلك الطريقة المتكلفة ، فيجيء شيئاً موزوناً مقفى . وكان من ذلك أن صنع في هذه الفترة قصيدة بعث بها إلى أستاذه في الحجاز ، من ذلك النمط ، كما تدل البقية الباقية منها ، وهي بقية لا بأس بها ، تبدأ بقوله :

يا من نأوا عني وشط مزارهم ... وتجددت لبعادهم أحزاني
نار الجوى بين الجوانح أضرمت ... والروح فارق بعدكم جثماني
لا كان يوم البين ، لا كان النوى ... يا ليتني أدرجت في أكفاني

إلى آخر هذا النمط الذي يدل على ما قدمنا .

وكذلك بقيت من شعره قطعة أخرى يبدو فيها الطابع العلمي ، القائم على التقسيم والتصنيف إذ يقول فيها :

دلال منك هجرك أم جفاء ... كلا الحالين لي فيه الوفاء
فهجر الدل محبوب وعذب ... به أهل الغرام لهم رضاء
وهجر الصد يطلبه المعنى ... ليعذب عند غايته اللقاء
وكم قاسيت هجراً من حبيب ... فكان لغاية الهجر الصفاء

على أنه مهما يكن من أمر هذا الشعر ، فإنه يمثل لوناً من ألوان النشاط الأدبي في الزوايا السنوسية ، لا بد للمؤرخ من الإلمام به وتسجيله ، وتعرف مكانه في الحياة الأدبية وأثره .

هذان الشاعران : فالح الظاهري وأحمد الطائفي ، يمثلان الشعر السنوسي في نشأته وأوليته . وكما كانت نشأة السنوسية في الحجاز ، كما رأينا ، فكذلك كانت نشأة الشعر السنوسي .

ثم جاء من بعدهما شاعر يمثل انتقال الشعر من الحجاز إلى ليبيا ، فهو شاعر ليبي ، ولد في ليبيا ونشأ نشأته الأولى بها . ولكن نشأته الثانية التي كونت شخصيته إنما كانت بالحجاز . وأكبر الظن أنه بدأ إنتاجه الشعري في الحجاز أيضاً ، وأنه كان في انتهاجه هذا النهج متأثراً بالشاعر الحجازي فالح الظاهري .

ذلك هو عبد الرحيم المغبوب ، (أو المحبوب ، كما كان أستاذه يجب أن يكون لقبه).

وعبد الرحيم المغبوب كان من أوثق اصحاب السيد محمد بن علي صلة به ،عقد به صلته عندما حل ببرقة في عودته من تونس سنة ١٨٤٢ م ، ولعل ذلك إنما كان عندما بلغ مدينة بنغازي ، وهي موطنه ، وكان السيد قد أقام بها شهر رمضان من عام ١٢٥٨ هـ (ربيع ١٨٤٢ م) يلقي فيها دروسه وينشر تعاليمه ، فكان عبد الرحيم ممن اجتذبتهم شخصيته ، فاعتزم أن يرافقه ، « فتبعه وتلمذ له وصحبه في جميع تنقلاته في برقة ومصر والحجاز ». ثم كان رسوله الذي يثق به ويطمئن إليه في تفقد شؤون الدعوة في ليبيا ، كما كان رسوله إلى الحجاز حين عاد السنوسي إلى ليبيا .

وفي ليبيا تصدر للتدريس في عهد السنوسي الكبير . وكان ـ كما يقول محمد بن عامر في الفصل الذي كتبه عنه في مجلة ليبيا ـ متبحراً في فنون العلوم اللغوية والدينية ، حجة في مصطلح الحديث ورواياته ورجاله .

ويعتبر عبد الرحيم المغبوب نموذج الرجل الدبلوماسي في العهد السنوسي . وقد رشحته هذه الدبلوماسية ليكون رسول المهدي إلى الآستانة . وقد استطاع في سفارته هذه أن يزيل الأكدار التي عكرت الجو بين السنوسية والدولة .

ولعل من أسباب هذه الدبلوماسية في ذلك الوقت ما كان يتصف به السيد عبد الرحيم من علم واسع ووقار وقوة حجة وحضور بديهة وذرابة لسان ، ولعل بعض هذا كان من أسباب شاعريته ، وقد بدأت هذه الشاعرية في الظهور ـ كما استظهرنا من قبل ـ حين اتصل بمجلس السنوسي في الحجاز ، وانفتح له باب العلم في حلقته ، وتنسم ذلك الجو الشعري الذي كان يعبق فيه بمثل السيد فالح الظاهري . وهذا إلى أنه كان من تقاليد العلماء أن يحاولوا قرض الشعر ، فمنهم من يخفق إذلا ، يصدر في ذلك عن موهبة ، ومنهم من تتكشف فيه هذه المحاولة عن شاعرية كامنة . والقدر الذي بلغنا من شعر المغبوب قليل لا يأذن لنا بالحكم الأدبي المطمئن ، وإن كنا ، بهذا القدر ، أكثر ميلاً إلى اعتباره شاعراً ذا موهبة .

والقلة التي بقيت لنا من شعره تتمثل في قصيدته التي رثى بها أستاذه السنوسي ، وقد أورد محمد بن عامر جزءا منها ، كما نجد جزءا آخر منها في كتاب السنوسي الكبير . ويقول محمد بن عامر إنه لم يستطع العثور على شيء من شعره الذي كان يقرضه في المناسبات المختلفة غير مرثيته هذه التي أورد بعضها ، على أنا نجد في « برقة العربية » قصيدتين له : إحداهما يساجل بها ـ فيما يبدو ـ زميله الحجازي فالحا الظاهري ، في مديحه للسيد السنوسي ، والأخرى في رثاء زميله السيد عبد الله التواني ، وكان اللصوص قد اغتالوه وهو بالحجاز .

والقصائد الثلاث جزلة الديباجة إلى حد ما ؛ وفي صورها ومعانيها ما يدل على اتصال بالأدب العربي القديم والثقافة الإسلامية . وذلك على النحو الذي يمكن أن نراه في هذه الأبيات من مرثيته للسيد السنوسي الكبير :

ما بال عينك لا بالنوم تكتحل ... ودمعها لا يزال اليوم ينهمل
كأنما سملت بالشوك أو كحلت ... من الغضا بشواظ كان يشتعل
تخالها مزنة قد لاح بارقها ... فأخضل الأرض منها صيب هطل
والوجه أسفع والأعضاء ناحلة ... والقلب في شرك الأحزان محتبل
والجنب إن تدعه يوماً لمضطجع ... كان الوطاء له السعدان والأسل

إلى آخر هذا النمط الذي نكتفي في الدلالة عليه بهذه الأبيات .

ثم نصل بعد ذلك إلى الشخصية الرابعة من هذه الشخصيات الأدبية الأولى التي نتعرف فيها حياة الشعر وسماته في الزوايا السنوسية . وتختلف عن الشخصيات الثلاث السابقة بأنها ليبية خالصة . تلك هي شخصية أبي سيف مقرب البرعصي . ففي ليبيا مولده ونشأته وتكونه ونضجه ، وبه بلغ الشعر السنوسي ذروة عالية ، وأصبح له مكانه المرموق ، حتى كانوا يصفونه بأنه شاعر الحضرة السنوسية ، قياساً على شعراء البلاط في الإمارات والممالك ، ولعله من أجل هذا كان ما بلغنا من شعره أكثر مما بلغنا من شعر غيره .

وكانت نشأة أبو سيف نشأة سنوسية خالصة ، وكذلك كانت حياته كلها ، فقد ارتبط بالسنوسية منذ صغره، وظل مرتبطاً بها طول حياته . فإذا كانت أسرته من أكبر الأسر البرعصية ، وهي أسرة طامية ، وكان البراعصة هم الذين احتضنوا الدعوة السنوسية من أول أمرها ، وآزروا السيد محمد بن علي منذ كان في برقة أول مرة، وتكفلوا ببناء الزاوية البيضاء ، أولى الزوايا السنوسية في ليبيا ، فقد دفع به أبواه إلى هذه الزاوية ، ولمح فيه الإمام السنوسي مخايل نجابة منذ ذلك الوقت ، فأولاه فضل رعايته طيلة الفترة التي أمضاها في برقة بعد إنشاء تلك الزاوية ، وأقبل الفتى على العلم ، وعلى تشرب مبادىء السنوسية فيها ، لم يغادرها حتى عاد السيد محمد بن علي من الحجاز ، وأنشأ زاوية جغبوب ، وجعلها مركز الدعوة ، وتحول بذلك إليها كبار الشيوخ والأئمة ، فانتقل أبو سيف إليها .

وفي زاوية جغبوب تم نضجه ، واكتملت شخصيته ، وظهرت ملكاته؛ وفيها اتصل بالسيد فالح الظاهري والسيد عبدالرحيم المغبوب ، وجلس إليهما ، فأثارا في نفسه جذوة الشعر ، فلم تلبث ملكته الأدبية أن ظهرت ، ثم لم تلبث أن فرضت نفسها فرضاً ، وخاصة في أيام المهدي ، وقد اتسع شأن السنوسية وعظم سلطانها ، فأصبح من كبار أهل مجلسه ، كما صار شاعر حضرته ، ما من مناسبة من المناسبات التي تهيج الخواطر ، إلا وكان شعره فيها تعبيراً عن هذه الخواطر المهتاجة .

وإذا كان معظم شعره قد ضاع ـ شأن سائر شعر هذه المرحلة ـ فإن ما بقي لنا منه يدلنا على منزلته ، وعلى مبلغ تجاوب شاعريته مع الأحداث الكبرى في تاريخ السنوسية في هذه المرحلة .

من ذلك قصيدته التي ألقاها في حفل توديع السيد المهدي ، حين أجمع أمره على التحول من الجغبوب إلى الكفرة ، وكان هذا القرار مثار دهشة كثير من الإخوان ، وإن لم يجدوا بداً من أن يأخذوا الأمر مأخذ التسليم والإذعان ، ولكنه كان ـ على كل حال ـ مبعث ألم دفين مكبوت لهؤلاء الذين كانت جغبوب وطنهم الروحي ، وكانت ذكرياتهم جزءاً من مشاعرهم الدينية .

كان حفل التوديع هذا حفلاً تسوده مشاعر الحزن والألم ، ويخيم عليه معنى الفراق ، وقد جعل يغشى الناس بأحاسيس الحنين والوجد . وتجلى ذلك كله في خطب الخطباء ، وشعر الشعراء ، وقد بقي لنا مما قيل في هذه المناسبة هذه القصيدة التي ألقاها أبو سيف في ذلك الحفل ، ويبدو أنها بقيت لنا كاملة ، وقد استهلها بهذا المطلع الذي انعكست عليه مشاعر الحزن :

همو هيجوا يوم النوى برح أشجاني   وحاديهمو لما ترنم أشجاني

وبالرغم مما يبدو في هذا البيت من مظاهر الصناعة ، فإنه يشعرنا شعوراً قوياً بصدق التعبير عن الحزن الذي خامر الشاعر لوشك الفراق . ثم

يأخذ بعد في تصوير ما أثاره هذا الرحيل في نفوس الناس من وجد ، وما بعثه من حيرة واضطراب ، فيقول :

ومن أعجب الأشياء رحلة معشر غدت محشراً أوهى قوى كل إنسان
تبلد من جرائها كل سوقة وطأطأ إجلالاً لها كل سلطان
وزلزلت الدنيا وماجت بأهلها وعادت عواد بين ترك وعربان

وكانت صورة جغبوب التي حولت البادية ، والتي صنعت مجد السنوسية ورجالها ، ملء خيال أبي سيف في هذا الموقف ، وقد تحول المهدي عنها ، ليحل الكفرة محلها، وإن كان قد اعتزم هو وطائفة من الأخوان أن يبقوا فيها ، إبقاء عليها ووفاء لها ، فلا جرم أن أخذت هذه الصورة مكانها في شعره ، إذ يقول ـ بعد أن يرسم صور الرحيل من حث المطايا ببيض القباب ، ومن السرى في الدياجي ، ومن صور الطريق حيث أحقاف الرمال وما إليها :

وخلوا بجغبوب المقدس علية يعلون بعد النهل طلاب عرفان
وقصراً مشيداً كان مطمح أنفس ومطلع مطعام ومطعن مطعان
وربعا عهدنا بهوه وهو آهل بأنجاب أشبال وآساد خفان
وكانت لهم فيه مواقف جمة أناف بها فخرا على كل أيوان
وحلت بواديه بواد فأصبحوا نشاوى بإنشاد وذكر وقرآن
وكانت بمغناه علوم يبثها مشايخ أعلام وأعلام فتيان

إلى آخر هذه القصيدة التي تعد من خير ما يصور لنا شاعرية أبي سيف ، ويمثل لنا فنه .

وقد ظل أبو سيف في جغبوب ، يلقي فيها دروسه ، ويسترجع صور مجدها ويجتمع إلى الأخوان الذين آثروها وآثروا البقاء فيها ، كالسيد محمد عابد السنوسي والسيد أحمد الريفي ، يعقدون الندوات الأدبية أحياناً ، كتلك الندوة التي أشرنا من قبل إليها .

ولم تلبث جغبوب أن اهتزت بعودة أحد بناة مجدها : السيد محمد

الشريف ، أخي السيد المهدي ، من الكفرة ، وإن كان بلغها وهو يغالب المرض . كانت هزة فرح بعثت النشوة في أوصال هذه الناحية المهجورة ، ولكنها لم تلبث أن أعقبت بهزة حزن وفجيعة ، فقد قضى السيد الشريف نحبه .

وكان أبو سيف أول الشعراء الذين فاضت شاعريتهم بتأبينه ، وقد بقيت لنا قصيدة التأبين هذه ، ويبدؤها بقوله :

سرنا بنعشك خضع الأعناق   سيراً دوين العدو والإعناق
يا خير محمول لأعلى جنة   ولحورها يلقينه بعناق

ولم تمض أسابيع على وفاة السيد محمد الشريف حتى بعث أخوه السيد المهدي في طلب من بقي من الأسرة السنوسية في الجغبوب ليلحقوا به في الكفرة . وهكذا سافروا جميعاً إليها ، ولم يملك أبو سيف أن يبقى على عزيمته التي اعتزمها من البقاء في الجغبوب حتى آخر حياته ، فقد رحل عنها مع الراحلين من السنوسية إلى الكفرة . وبذلك عاد إلى مجلس المهدي ، وكان قد شاقه ولا ريب . وقد أعد لهذا المقام قصيدة طويلة بدأها بقوله :

أيا سائق الوجناء تفلي الفيافيا   وتوردها آل المفاوز صافيا
تؤم بها ركنا ركينا وددته   قريبا لسعيي حوله وطوافيا

وبعد أن جرى على عادته ، أو على عادة الشعراء السابقين الذي مضى على آثارهم ، من وصف الطريق ، وذكر معالمه ، انتهى إلى مدح المهدي ، ولم يلبث أن عرضت له مآثر أبيه السنوسي الكبير ، وما أتيح له من رد اعتبار إنسان البوادي الليبية ، فأخذ يشيد بذلك ، بمثل قوله :

فكم من جهول أسود اللون خلقه   كساه لبوس العلم أبيض صافيا
وكم بدوي في الفلا خلف نوقه   يبول على الأعقاب أشعث حافيا
تلافاه من مهوى الضلالة هادياً   فأصبح نجماً بالهداية عاليا
تهاديه أبناء القياصر رغبة   فيزداد بالرد البليغ تعاليا

تلك هي المأثرة الكبرى التي جعل أبو سيف يترنم بها ، في مثل هذه الأبيات الجميلة ولكنه لا يلبث أن يتجه بشاعريته إلى أتباع السيد المهدي ، منوهاً بقوتهم وشدة بأسهم ، مما يعد إشارة إلى ما نحسب أنه كان مما يتحدث به السنوسيون فيما بينهم في ذلك الوقت ، بعد تحول المهدي إلى الكفرة ، من وجوب انتقال الدعوة السنوسية إلى اصطناع القوة في مواجهة خصومها . أو هو إرهاص للدور الذي سنتحدث عنه بعد .

ثم يتجه إلى المهدي في ختام هذه القصيدة قائلاً :

أياابن رسول الله يا خير من خدت ... له النجب كالأوتار خوصاً صواديا
أتيت الحمى سعياً أؤمل زورة ... تمحص أوزاري وتعلي مكانيا
فلا زلت يا مولاي للدين كافياً ... ولا زال مدحي في عروضك(؟) كافيا

وأكبر الظن أن هذه القصيدة كانت آخر ما أنشأ أبو سيف من شعر ، فلم يلبث أن وافاه أجله في هذا العام أو أوائل العام التالي ، وهو في الكفرة .

هؤلاء الشعراء الأربعة يمثلون الطبقة الأولى من الشعراء السنوسيين .

وهناك شخصية أخرى يمكن أن تذكر معهم ، وهي شخصية عبدالله السني ، وقد وصفه الطيب الأشهب بأنه « في طليعة الشعراء المجدين ، وقد نظم الملاحم الطوال في مدح مؤسس الطريقة السنوسية ، وخليفته السيد المهدي » ، كما ذكر أنه اطلع على كتاب كبير مخطوط يضم بين دفتيه الكثير من أشعاره . وكذلك ذكر أن صلته بالسيد محمد بن علي صلة قديمة ترجع إلى سنة ١٢٤٩ هـ ، أي نحو سنة ١٨٣٣ م أي في نحو الوقت الذي اتصل به فيه ، في الحجاز ، السيد أحمد الطائفي ، وكان عبدالله السني في ذلك الوقت رجلاً ناضجاً ، فقد كان من مريدي السيد أحمد بن إدريس منذ كان في موطنه « سنار » ، ولكنه لم يتصل به إلا في الحجاز ،

وعن طريق هذه الصلة كان اتصاله بمحمد بن علي السنوسي ، فقد كان أحمد بن إدريس أستاذه .

ولكن شخصية عبدالله السني ، مع ذلك ، يشوبها شيء من الغموض ، وذلك للخلط الذي وقع بينها وبين شخصية محمد بن عبدالله السني ـ وسنتحدث بعد قليل عنه ـ حتى إن كاتباً مثل الطيب الأشهب ينسب إحدى القصائد التي قيلت في مدح المهدي للأول مرة ، وللثاني مرة أخرى . وهذه القصيدة هي الأثر الوحيد الذي ينسب إلى عبدالله السني ، هذه النسبة المضطربة .

فليس لدينا إذن ما يدلنا دلالة قاطعة أو راجحة على شاعريته أو على مكان هذه الشاعرية من السنوسية . ولسنا بهذا ندفع الخبر الذي ذكره الطيب الأشهب عن المخطوط الكبير الذي رآه يضم بين دفتيه الكثير من أشعاره ، كما يقول ، ولكن شيئاً من هذه الأشعار لم يصل إلينا . وأكبر الظن عندنا أنها في جملتها من الشعر الصوفي الذي يعني به أهل الطريق عامة .

وفي خلال حياة هذه الطبقة التي استغرقت القرن التاسع عشر ـ إذ كانت وفاة أبو سيف قد وقعت في نهايته ـ بل شهدت مطالع القرن العشرين ـ فقد رأينا أن فالحاً الظاهري أدرك أوائله ـ نشأت طبقة أخرى ، لم تكن أمثل من سابقتها في مبلغ ما بقي لنا من شعرها ، فالضياع قدر مشترك بين جميع آثار هذه المرحلة ، كما قلنا ، ولكنا ـ على كل حال ـ نستطيع أن نتمثلها في طائفة من الشعراء ، نكتفي هنا باثنين منهم ، هما : محمد بن عبدالله السني ، وأحمد بن إدريس الأشهب .

أما السيد محمد بن عبدالله السني فهو الذي أشرنا منذ قليل إلى وقوع الخلط بينه وبين السيد عبدالله السني ، ولا ندري إذا كان ابنه أم لا ، فلم نقف على نص يحقق الصلة بين الرجلين .

وقد ذكره الأمير شكيب أرسلان في سياق ذكره للزوايا السنوسية ،

عندما ذكر زاوية قرو ، فقال : « شيخها الفاضل الأديب محمد بن عبدالله السني ، أحد دعاة الإسلام في أواسط إفريقية . أصله من بلاد سنار في الحبشة » .

وهذا الذي يذكره الأمير شكيب أرسلان عنه من أنه كان أحد دعاة الإسلام في أواسط إفريقية يشير إلى أحد الأغراض الكبرى التي كانت السنوسية تتجه إليها وتأخذ نفسها بها ، وخاصة منذ نقلت مركزها إلى الكفرة ، وهو دعوة الوثنيين إلى الإسلام ، ومقاومة البعثات التبشيرية التي كانت من أدوات الاستعمار وأسلحته في هذه الجهات ، ومن أجل ذلك وثق المهدي علاقاته بسلاطين وسط إفريقية ، ومن هؤلاء سلطان واداي ، السلطان يوسف .

وقد رغب هذا السلطان إلى صديقه المهدي السنوسي أن يرسل إليه من يقوم في مملكته بالدعوة الإسلامية ، فكان رسول المهدي إليه لهذه الغاية هو صاحبنا محمد بن عبدالله السني ، وكان ذلك سنة ١٨٩٧ م فأبلى في ذلك بلاء حميداً ، وظل هنالك حتى انتقل المهدي من الكفرة إلى برقو ، واتخذ زاوية قرو مركزاً لنشاطه ، وابتدأت بذلك السنوسية مرحلة جديدة ، اتخذت فيها الدعوة الإسلامية وجهاً جديداً ، وأخذ نشاطها فيها يمارس تجربة غير ما عهد من قبل ، ربما لم تكن فيما يقدر .

لقد كان الاستعمار الفرنسي ، منذ امتحنت به أرض الجزائر ، قد أخذ يمد أذرعه إلى الأقاليم المجاورة ، ويتغلغل في هذه البلاد الإسلامية ، مستغلاً ضعفها والجهالة المطبقة عليها ، والخصومات التي تمزقها ، فإذا هو قد بسط على السنغال سلطانه ، وأسس في الكونغو مستعمره له ، ثم مضى شرقاً حتى بلغ تمبكتو ، ثم تابع زحفه حتى إقليم تشاد ، وجعل بذلك يهدد مراكز السنوسية ، ويحاول أن يقضي على الدعوة الإسلامية ، وأدرك المهدي هذا الخطر الماثل ، فقرر الانتقال إلى برقو لمواجهة هذا التهديد ، وحماية الدعوة الإسلامية ، وكان ما أشرنا إليه من اتخاذ السنوسية زاوية قرو مقرا لها ومركزا لنشاطها .

ثم كان ما لم يكن منه بد ، فلم تلبث السنوسية أن اشتبكت مع القوات الفرنسية ، وخاضت معها أكثر من معركة ، قاتلت فيها قتالاً مريراً ، ولكنها كانت ـ بطبيعة الحال ـ معارك غير متكافئة ، فاضطر السنوسيون إلى الانسحاب والتخلي عن زواياهم التي كان القتال يدور حولها ، وكان الفرنسيون حريصين على أن تسقط في أيديهم ، والتجأوا إلى زاوية قرو التي استطاعت أن تبقى صامدة ، وهي الزاوية التي يذكرها الأمير شكيب أرسلان ، وينوه بشيخها محمد بن عبدالله السني ، فيما نقلنا عنه ، فقد انتقل إليها ، وتولى مشيختها ، بعد وفاة السيد المهدي ، سنة ١٩٠٢ م ، وبقي فيها يدير المعارك ، وينظم الأدوار ، (وهي مراكز المقاومة للغزو الفرنسي) نحو عشر سنين ، إلى أن سقطت سنة ١٣٢٩ هـ أي نحو سنة ١٩١١ م لتبدأ السنوسية مرحلة جديدة في صراع الاستعمار .

فمحمد بن عبدالله السني إذن رجل مجاهد ، بكل معاني الكلمة ، مجاهد في السلم حين عاش بين القبائل الوثنية يدعو إلى الإسلام ، ومجاهد في الحرب ، حين أخذ يقود الحرب ضد الغزاة الفرنسيين من زاوية قرو . وإذ كان شاعراً ، وكانت روح الجهاد تطبع شخصيته بطابعها ، فلا بد أن يكون لهذه الروح أصداؤ ها في شعره ، وذلك هو ما نلاحظه فيما بين أيدينا منه . وقد بقيت لنا من هذا الشعر بقية لا بأس بها ، في كتاب (المهدي السنوسي) للطيب الأشهب .

من ذلك ما نراه في قصيدته التي أنشدها المهدي ، حين وفد عليه في الكفرة يمدحه ، ففي سياق هذا المديح نسمع نغمة الجهاد واضحة قوية ، فقد كانت مناصبة الكفار الحرب ملء نفسه ، وكانت صور هذه الحرب التي يتطلع إليها ملء خياله ، وكان الانتصار في هذه الحرب غاية آماله . ومن ذلك ما يقول في هذه القصيدة التي بقيت لنا بقايا منها :

وفقت بالنصر ، فالأعداء من فرق   منكم على بعد أعياهم الحذر
الله أكبر ! إن القوم في قلق   تكاد أوصالهم بالخوف تنتثر

مخايل الحق لاحت ، وهي تخبرنا   ظهور موعد صدق كان ينتظر
قد آن للبيض أن ينهل وابلها   وعن سناها ظلام الكفر ينحسر
تغدو الصوارم في أيدي الضراغم من   آل الرسول لها في الكفر معتبر
تدعى نزال ، فتحكي في تزاحمها   وقع الصواعق في الظلماء تستعر
ترمي الجماجم من أوكارها فترى   بها المعاقل للاهمال تنحدر
يجلل الترب أوصالا ممزقة   كانت تجللها التيجان والحبر
فتملأ الأرض عدلاً مثلما ملئت   ظلماً وروض رباها بالهدى عطر

وكذلك نسمع هذه النغمة بعينها التي تعد إرهاصاً لما نشب بين السنوسيين والفرنسيين بعد ، ونعرف هذا النمط من التعبير والتصوير وذكر الجهاد والتطلع إليه والتحريض عليه في القصيدة الأخرى التي أشرنا إليها من قبل ، في حديثنا القصير عن عبدالله السني ، إذ لاحظنا اضطراب نسبتها بين الرجلين عند مؤلف بعينه . وهي بهذه النغمة العالية وهذا الأسلوب الواضح لا تكاد تدع لدينا شكا في أنها لشاعرنا هذا ، فذلك أسلوب من القول لم نعرفه عند شعراء الجيل الأول ، إلا إشارات عابرة في آخر شعر أبي سيف مقرب الذي ألقاه بالكفرة ، في سياق حديثه عن الشجاعة والبأس ، فلم تكن طبيعة الأشياء تقتضي مثل هذا ، ولم يكن الجو الذي تعيش فيه السنوسية يوحى بمثل هذه المعاني والصور ، إذ كانت الدعوة ـ كما رأينا ـ مسالمة حريصة على استبقاء السلم ، مؤثرة للدعة وتوفير أسباب الهدوء والاستقرار ؛ أما في هذه المرحلة التي بدأت أول بدايتها حين تحولت السنوسية إلى الكفرة ، فقد أخذت ملابسات الأحوال تفرض عليها أسلوباً غير ذلك الأسلوب ، فجعلت تنظر إلى الأمور نظرة غير تلك النظرة .

وقد بقيت لنا هذه القصيدة كاملة في الكتاب الثالث للطيب الأشهب ، وهو كتاب (المهدي السنوسي) وهي قصيدة طويلة تنيف على الثمانين بيتاً بدأها بقوله :

عجائب صنع الله تبرز ما يحلو   كما أبرزت ـ عن وحيه ـ الشهد نحل

وفي هذه القصيدة ، بالرغم من هذا الاستهلال المصنوع ، نقرأ هذه الأبيات الحماسية :

هو المرتجى للدين ينصر حزبه فتعضده الأنصار والنصر والنصل
تجر بحوراً من بني العرب ترتمي بأمواج آفات هي الضرب والقتل
إذا صففت تحت العقاب جنوده تخال جبالاً فوقها شعل شعل
وإن زحفوا يوم اللقاء حسبتهم سيول خيول برقها بيرق يعلو
كأن مثار النقع في حومة الوغى غيوم بها برق الصوارم ينسل
وما رعده إلا زلازل غارة وما وبله إلا الجماجم تنهل

إلى أن يقول داعياً المهدي إلى خوض غمار الحرب ، واستنقاذ المسلمين مما حاق بهم من ذل :

إمام الهدى نافي الردى قاهر العدا فدونك عجل ، قد تطاولنا الذل
تجد من بني الإسلام أخلص عصبة جحاجيح أبطال متى قلت لا يألو
هم القوم إن قالوا فثق بمقالهم (فلا شك عندي أن سيعقبه الفعل)
وإن حسروا يوم الوغى عن نصالهم تخال رجوما للشياطين قد سلوا
وإن عطفوا بعد الفراغ إلى الحمى رأيت وجوه الحسن بالبشر تنهل

وبهذه الأبيات استطاع الشاعر أن يصور أصحاب المهدي في هذه الصورة الرائعة الجديرة بأن تجعله يخوض الحرب مطمئناً إلى النصر ، واثقاً بالظفر وبلوغ الغاية التي تتجه هذه الحرب إليها ، وهي تطهير الأرض التي دنسها الاستعمار ، وبغى على أهلها . وقد عبر عن هذا بقوله في هذه القصيدة :

رويدكم أهل الجحيم ! فإنه سيبلوكم منه الذي كان من قبل
فينسى فرنسيساً بتونس أنسه ويجزر كفراً بالجزائر قد حلوا
فتطهر أرض طالما قد تنجست بأفعالهم ، سيل الدماء لها غسل

وبما أوردنا من هاتين القصيدتين ، إلى جانب ما بقي لنا من شعره ،

وهو ـ كما قلنا ـ قدر لا بأس به ، نستطيع أن نتمثل شاعرية السيد محمد السني ، من ناحية تعبيرها عن شخصيته المجاهدة ، وعن الاتجاهات الجديدة للسنوسية ، وعن الأصداء التي كانت تتردد في جو السنوسيين ، كما نستطيع أن نتمثلها أيضاً من الناحية الفنية ، من ناحية بناء أسلوبه الشعري ، وصياغة صوره .

ولا ريب عندنا في أن هذه الشاعرية الخصبة المتمكنة تجعل السيد محمد بن عبدالله السني على رأس شعراء هذا الجيل ، وتضعه منه في مكان السيد أبو سيف مقرب من الجيل السابق .

هذا هو أحد الشاعرين اللذين أردنا أن نكتفي بهما من شعراء الجيل الثاني . أما الشاعر الآخر فهو ـ كما قلنا ـ أحمد بن إدريس الأشهب .

وأحمد بن إدريس هذا من أسرة عريقة في طلب العلم والعناية به . من أسر زليطن ، كما أنه وثيق الصلة بالسنوسية ، فقد نشأ أبوه ، عمر الأشهب ، في ظلها ، وصار من كبار رجالها وشيوخ زواياها ، وفي هذا الجو السنوسي الخالص كان مولد أحمد بن إدريس ، وفي رعاية أبيه ورعاية صديق أبيه وزميله السيد عمران بن بركة الفيتوري كانت نشأته ، وفي معهد الجغبوب تكونت شخصيته العلمية والأدبية واكتملت ونضجت . وقد رأينا ـ في حديثنا عن صور الحياة العلمية في جغبوب ، وفي تمثلنا لأسلوب الدرس فيها ، وفيما نقله عنه ابنه الطيب الأشهب ـ أنه كان من تلاميذ السيد محمد الشريف ، تلقى عنه الحديث والتفسير والتصوف واللغة والأدب .

وبذلك أصبح جديراً بتولي بعض المناصب الرئيسية في النظام السنوسي ، فتولى مشيخة بعض الزوايا ، كزاوية عين مارا التي أنشأها أبوه عندما كان رئيساً لزاوية درنة ، وزاوية جالو ، وزاوية النوفلية . كما قام بالتدريس في معهد جغبوب . وكان مع هذا كله كاتب السيد المهدي ، يكتب عنه رسائله التي يوجهها إلى بعض الشخصيات الكبرى .

وفي خلال ذلك كان يعالج قرض الشعر ، ويحاول صناعة القصيد ،

في المناسبات التي تقتضيه ، وفي الموضوعات التقليدية . كمدح السيد المهدي ، ورثائه ، ولم يبق لنا من قصائده في هذه المناسبات إلا بقايا صغيرة . كهذه الأبيات التي أوردها ابنه الطيب الأشهب في كتابه (المهدي السنوسي) ، من قصيدة له قالها بمناسبة تحول المهدي إلى الكفرة ، قائلاً إنه لم يتحصل على القصيدة كاملة :

لقد أعلن الحادي بما كان في السر وأخبرني عن صاحب المجد والسر
وأخبرني عن نعته وصفاته وعن مثل ما يبدو على الوجه كالبدر

. . . .

أقمت زماناً بالجغابيب ساعياً لنفع عباد الله في السر والجهر
ومن بعد ذا وجهت وجهك قبلة لنحو سهيل قاصد النفع والأجر
حثثت ركاب المجد للجوف والعلا وسرت إلى أهل السعادة والفخر

ومن المناسبات التي وجد فيها أحمد بن إدريس مجالاً لقول الشعر مقدم عزيز المصري للمشاركة في مقاومة الغزو الإيطالي ، فكان حفل استقباله حفلاً حافلاً بخطب الحفاوة وقصائد الترحيب ، وكان أحمد بن إدريس من شعراء ذلك الحفل ، كما ذكر ذلك ابنه الطيب الأشهب ، ولكن قصيدته في هذه المناسبة ضاعت أيضاً ، وهي ـ في الحقيقة ـ أولى قصائده بالضياع ، بعد أن تغير رأي كثير من الليبيين وقادتهم في عزيز المصري ، وفسد ما بينه وبينهم فساداً كبيراً .

على أن البقية التي بقيت من شعر أحمد بن إدريس لا تتفق والمنزلة الأدبية التي يذكره بها بعض الكاتبين ، وفيما أوردنا من هذا الشعر ما يدل على مكانته المتواضعة فيه ، وأنه إنما يتكلفه تكلفاً ، استجابة لتلك النزعة التي أشرنا إليها من قبل ، والتي كانت تحمل بعض العلماء على محاولة انتحاله . والذي يبدو لنا أن الشعر عند أحمد بن إدريس كان في المكان الثاني بالقياس إلى الكتابة ، فقد كان ـ كما قدمنا ـ كاتب السيد المهدي ، يكتب عنه ، كما كان يدبج بعض الفصول على الطريقة القديمة .

وقد شهد أحمد بن إدريس السنوات الأولى من الإستعمار الإيطالي ، كان يتولى خلالها كتابة الرسائل السياسية للسيد أحمد الشريف السنوسي ، كما كان مستشار نائبه ببرقة الغربية ، السيد صفي الدين السنوسي . وعاش حتى سنة ١٩٢٣ م .

هذان الشاعران : السيد محمد بن عبدالله السني ؛ والسيد أحمد بن إدريس الأشهب ، يمثلان لنا الجيل الثاني من شعراء العهد السنوسي ، في الزوايا السنوسية ، على ما بينهما من اختلاف بعيد . ونستطيع أن نكتفي بهما في تمثله ، وإن كان ثمت من شعراء هذا الجيل من تذكر أسماؤهم في سياق هذا الحديث عن أدباء السنوسية ، كعبد السلام السني ، وآدم الفزاني ، ولكن أكثر هذه الأسماء ليس وراءها يمكننا من تعرف مكانها في الشعر ومنزلتها في الحياة الأدبية .

وبعد ، فهذه طائفة من الشعراء الذين قامت الحياة الأدبية بهم ، في هذه المرحلة من تاريخ ليبيا الحديثة ، وفي هذه الناحية من نواحيها ، حيث سيطر النشاط السنوسي بمثله ومناهجه ، وطبيعي أن يكون الشعر عند هؤلاء الشعراء ترديداً لهذه المثل ، ودعوة إليها ، وإشادة بها ، وإن جاء ذلك في إطار الفنون الشعرية التقليدية من مدح ورثاء وما إليهما .

فالشعر السنوسي إذن ، وكما رأينا فيما أتيح لنا منه ، كانت له معانيه واتجاهاته المشتقة من البيئة التي نشأ فيها ، والروح التي كان يعبر عنها ، والمثل التي قامت السنوسية عليها . ومن هذا فإن قارئه يشعر بالصدق في كثير منه ، ولعله بهذا يختلف إلى حد ما عن كثير من الشعر العربي عامة في هذه المرحلة ، وهو الشعر الذي كان تقليداً محضاً ، وصناعة خالصة ، وتلفيقاً للصور والألفاظ ، ومحاولة محاكاة النماذج الشعرية القديمة . ولعل ذلك أيضاً كان أحد الفوارق التي تفرق بينه وبين الشعر الليبي المعاصر له ، والذي نشأ بعيداً عن الزوايا السنوسية ، كما سنرى بعد .

وإذا كان هذا الشعر يختلف عن الشعر المعاصر له في تعبيره عن

بعض المثل الرفيعة ، فإنه بعد هذا يجري معه في كثير من صفاته الأسلوبية ، كالأخذ ببعض صور الصناعة اللفظية من جناس وطباق ، وفي استعمال بعض التعبيرات والمجازات المطروقة المألوفة .

هذه أولى الملاحظات التي يلاحظها المؤرخ الأدبي حين ينظر في هذا الشعر .

وأخرى أن هؤلاء الشعراء السنوسيين لم يكن الشعر صفتهم الأولى ، وإنما كان أمراً لاحقاً ، وشيئاً ثانوياً بالقياس إلى صفتهم الأصيلة ، وهي كونهم علماء دعاة ، اتجهوا في حياتهم إلى نشر العلم بين ذويهم وتهذيب النفوس وإحياء الشعور الديني ، وإصلاح المجتمع بهذه الوسيلة ، ثم كانوا مع هذا يتمتعون بالموهبة الأدبية على أقدار مختلفة ، فلم تكن هذه الموهبة إلا أداة جيدة حيناً وقاصرة حيناً آخر للغاية الأولى التي أخلصوا لها أنفسهم ، وكرسوا لها حياتهم .

والملاحظة الثالثة هي أن النهضة السنوسية إذا كانت قد استطاعت أن توقظ العاطفة الدينية في نفوس البدو ، وأن تحولهم عن حياة النهب والغزو ، وأن تحد من النزعة القبلية عندهم ، وتقر في أنفسهم طائفة جديدة من القيم ، فقد كان ذلك أكبر ما تقصد إليه ، وكان تحقيقها له انقلاباً كبير الخطر في حياة البادية ، وحسبها ذلك في بضعة العقود التي مارست فيها سلطانها . أما أن ننتظر منها ـ فوق ذلك ـ أن تحول هؤلاء البدو جمهوراً أدبياً ، يتذوق شعر الفصحى ويطرب له ويتجاوب معه ، فهذا أمر ليس في طبيعة الأشياء ما يبرره .

لقد كان غاية ما أصابت من ذلك أن خلقت في بعض الزوايا السنوسية ، كزاوية جغبوب ، وزاوية الكفرة ، بيئة أدبية ، أما سائر البادية فقد ظلت متعلقة بشعرها البدوي الشعبي ، يتناشده رواتها ، وتردده آفاقها ، ويرضي حاجاتها الفنية والاجتماعية . ولا ريب عندنا في أن هذا الشعر قد تأثر بالتحول السنوسي الذي حدث في حياة البادية ، فكان من أغراضه أن

يعبر هو أيضاً عن المثل الجديدية وينوه بها ويشيد بدعاتها ، إلى جانب أبوابه التقليدية . ولعل البادية ما زالت تحتفظ ببعض آثار ذلك الشعر ، في ذاكرة الرواة ، في انتظار من يلتمسها ويعني بتسجيلها ودرسها وتعرف دلالاتها من الدارسين والباحثين . وليس ذلك موضوع هذه الدراسة التي نحاولها هنا . فموضوعها هو شعر الفصحى الذي يغلب على الظن أنه لم يظفر بجمهور أدبي كجمهور الأدب الشعبي ، لما قدمنا .

وكان ذلك ، فيما نفترض ، من الأسباب التي هاضت جناحه ، وحدّث من انطلاقه . فإذا اتخذت السنوسية الوجه الآخر لها من مصارعة الإستعمار ، وتحولت الزوايا إلى أدوار ، فقد انصرفت عن الشعر بطبيعة الحال ، وضعف فيها هذا اللون من ألوان النشاط ، بل تلاشى ، إذ كان محدوداً بحدودها ، لم يتجاوزه إلى ما وراءها . ولعل ذلك كان من أسباب ما سنراه بعد من أن هذا النشاط الأدبي الذي بلغ ذلك المبلغ الذي رأينا لم يمض في تطوره الطبيعي . كما كان أيضاً من أسباب ضياع الشعر الذي صدر عن الزوايا ، إلى جانب ما ذكرنا من قبل من أسباب .

والملاحظة الأخيرة التي نود أن نقررها هي أن هذه الحياة الأدبية الشعرية في الزوايا السنوسية لم تكن منعزلة تماماً عن النشاط الأدبي في البلاد العربية الأخرى ، فقد كانت السنوسية حريصة على متابعة وجوه النشاط الثقافي في البلاد العربية عامة ، بما فيها من نشاط أدبي . وقد رأينا في كلام الحشائشي الذي أوردناه من قبل أن مكتبة جغبوب كانت تضم ديوان قابادو التونسي ، وأكبر الظن أن بقايا مكتبة الكفرة في بنغازي ما زالت تحتفظ بما يدل على ذلك . ونحن ـ إلى هذا ـ نعرف صلة السنوسية بالحياة الأدبية في مصر ؛ في صلتها مثلاً بعلى الليثي وعبدالله فكري ، وهما يمثلان الحياة الأدبية القاهرية ، وقد كان علي الليثي وثيق الصلة بالسنوسية ، حتى ليعده السنوسيون واحداً منهم ؛ ويذكرونه بين شعرائهم . ولعبدالله فكري رسائل أدبية كان يوجه بها إلى السيد المهدي السنوسي ، وما تزال ماثلة في « الآثار الفكرية » . وكذلك صلتها بالشاعر الفقيه

الأزهري ، علي ابن عبد الحق القوصي الحجاجي ، وهو يمثل وجها آخر من وجوه الحياة الأدبية في مصر . وقد كانت له في السنوسية مدائح لا تزال الدينا بقية منها . ومثل هذه الصلات تعتبر من الروافد التي رفدت الحياة الأدبية في هذه البيئة .

- ٤ -

كانت مراكز النهضة الليبية الحديثة تتمثل في هذه الزوايا السنوسية ، وكانت البادية هي منطقة نفوذها وميدان نشاطها ، وبها وحدها أتيح لهذه البادية ذلك التحول الكبير في حياتها ، وإن كنا لا نغفل عن امتداد هذه الزوايا إلى الحواضر ، ولكنها في الحواضر لم تكن - فيما يبدو - كبيرة الأثر . فإنما قامت السنوسية - كما رأينا - بأهل البادية ، وإليهم اتجه همها الأول وانصرف جهدها الأكبر ؛ ولعل ذلك متصل بما أتيح لإمامها من تجربة ، أو لأنهم كانوا الجمهرة الكبرى ، وأنهم كانوا أشد إلى الدعوة حاجة ، أو لأنهم - فيما رأى - أدنى إلى الإستجابة لها ، إذ كانوا أقرب إلى الفطرة ، بمعنى أنهم كانوا أبعد عن التعقيدات التي راكمتها العصور المتطاولة ، ودعوة السنوسية قائمة على العودة بالإسلام إلى صورته الفطرية الأولى ، فهم بذلك أرجى لما تريد . وبذلك كان أثر السنوسية في البادية أثراً بعيد المدى يشبه أن يكون ثورة تناولت الجوانب المختلفة في حياتها ، بما فيها الجانب الأدبي ، على الوجه الذي رأينا صورة منه . أما الحواضر فيبدو أنها لم تتأثر كثيراً بها ، أو على الأقل لم يبلغ أثر السنوسية فيها ما بلغه في البادية ، بالرغم من قيام بعض زواياها فيها .

وجملة القول أن الزوايا السنوسية كانت العامل الوحيد في تطور البادية ، أو هي معقد عوامل هذا التطور . أما في الحواضر فكانت عاملاً من عوامل تطورها ، على قلة هذه العوامل وضعف أثرها .

وكانت هذه الحواضر - على خلاف البادية - على إرث من حياة علمية وأدبية قديمة ، كان لها شأن في عصور الازدهار الإسلامي ، فكانت لا تزال

بها بقايا من النظم التعليمية القديمة ، كما أخذت - إلى جانب ذلك - بشيء من النظم التعليمية الجديدة ، استجابة للتطور التعليمي الذي شمل بلاد الدولة العثمانية ، على قلة هذه وضعف تلك ، وعلى تفاوت هذه الحواضر فيما استبقت من النظم القديمة ، وما أتيح لها أن تظفر به من النظم الجديدة .

فمن النظم التعليمية القديمة النظام الذي يبدأ بالكتاتيب ، يتعلم فيها الصبيان مبادىء القراءة والكتابة ، ثم تفضي هذه الكتاتيب إلى الزوايا ، أو ما قد يسمى بالمدارس القرآنية ، كزاوية الشيخ الزروق في مسراطة ، ومدرسة ميزران القرآنية في طرابلس ، يلتحق بها من يريد أن يحفظ القرآن ، ويتلقى بعض مبادىء العلوم ، ليمضي بعد ذلك - إذا شاء - إلى الحلقات التي تنعقد حول بعض الشيوخ في بعض المساجد والمعاهد ، كجامع أحمد باشا وجامع شائب العين في طرابلس ، والمعهد الأسمري والمعهد الفطيسي في زليطن ، أو يرحل إلى الأزهر في مصر أو إلى الزيتونة في تونس ، ليبلغ من العلم المبلغ الذي يؤهله لتولي بعض مناصب التدريس أو القضاء .

وبذلك احتفظت هذه الحواضر ، وخاصة حواضر طرابلس ، بطائفة من العلماء أسبغوا عليها بعض الألوان العلمية ، إذ كان يتحلق حولهم طلاب العلم . ونستطيع أن نعرف أسماء طائفة من هؤلاء العلماء الذين اتصلت بهم الحياة العلمية على وجه ما في الحواضر الليبية ، في هذه المرحلة ، في مثل كتاب (أعلام ليبيا) للأستاذ الطاهر الزاوي . ولكنهم كانوا - فيما يبدو - من عامة العلماء ، بحيث لم يلفتوا نظر الحشائشي التونسي - وقد أشرنا إليه غير مرة - حين زار طرابلس ، سنة ١٨٩٥ م ، فكان مما كتبه عنها في رحلته أنه « لا يوجد عندهم علماء أعلام من فقهاء الإسلام » ، إلا واحداً منهم لفت نظره وأثار إعجابه وقد جلس في جامع السوق يقرىء الحديث ، إذ كان يدرس فن الشفاء للقاضي عياض ، وعليه حلقة عظيمة من أعيان البلد وغيرهم ، ذلك - كما يذكره منوهاً به - هو

« العالم الفاضل النحرير المنعم الشيخ محمد بن مصطفى باش مفتي السادة الحنفية » . ثم قال عنه : « وهو أول مشهور بالعلم هناك » .

والشيخ محمد بن مصطفى الذي يذكره الحشائشي وينوه به هذا التنويه هو الذي يطلق عليه عادة اسم « محمد كامل بن مصطفى » ، وكان قد أسند إليه منصب الإفتاء في طرابلس قبل دخول الحشائشي مدينة طرابلس بعامين ، سنة ١٨٩٣ م ، ولكن إسناد هذا المنصب إليه إنما كان تتويجاً لحياة علمية حافلة طويلة امتدت نحو أربعين عاماً ، منذ عاد من مصر ، بعد أن أتم تعليمه في الأزهر ، سنة ١٨٥٤ م . وظهور هذه الشخصية في طرابلس في هذه المرحلة يعد مظهراً من مظاهر التطور الذي كانت البلاد الإسلامية تتجاوب به ، فقد كان تعبيراً عن ذلك التطور الذي كان يهز مصر ويدفع بها ، فلم يلبث أن انتقل إلى ليبيا ؛ كما يعد عاملاً من عوامل النهضة التي أتيحت للحواضر الليبية ، فقد كان بما أتيح له من تفتح عقلي وحيوية غامرة واستشراف إلى آفاق غير تلك الآفاق التي قنع الناس بها ، كبير الأثر في الحياة العلمية والأدبية في طرابلس ، فلم يكد يعود من مصر ، ويتصدر للتدريس حتى رأى فيه أهل طرابلس عالماً واسع الباع في علم الدين واللغة ، وعرفوا فيه طرازاً جديداً لا عهد لهم به من قبل ، فامتلأت نفوسهم إعجاباً به ، وأثار فيهم الرغبة الشديدة في طلب العلم وفي شهود مجلسه ، فأقبلوا عليه في لهفة وشغف ، وبذلك كان جديراً بما وصفه به الأستاذ طاهر الزاوي من أنه كان أستاذ عصره ، إما مباشرة وإما بالواسطة . ومن تلاميذه الذين توثقت صلتهم به ، إبراهيم باكير وعبد الرحمن البوصيري وأحمد الفقيه حسن ، وهم من أكبر علماء طرابلس وأدبائها .

هذه بقايا النظم التعليمية القديمة ، وقد داخلها ـ كما رأينا ـ من عناصر الإحياء ، بمثل الشيخ كامل بن مصطفى ، ما حاول أن ينهض بها ويحيي مواتها ، ويقارب ما بينها وبين روح العصر .

أما النظم التعليمية الجديدة فكانت تتمثل في نوعين من المدارس :

المدارس التركية ، والمدارس الأجنبية الإيطالية .

أما المدارس التركية فهي المدارس التي أنشأتها الدولة العثمانية في البلاد التابعة لها ، استجابة للحاجة الماسة إلى اتباع منهج تعليمي جديد يتفق وروح العصر ، والإلمام ببعض العلوم العصرية التي لم تكن المعاهد القديمة تعني بها ، ثم تعليم اللغة التركية التي كانت لغة الإدارة في هذه البلاد . وكانت هذه المدارس تسمى « المدارس الرشدية » . ولم يكن في ليبيا منها غير أربع : اثنتان في إقليم طرابلس ، واحدة في مدينة طرابلس ، والأخرى في مدينة الخمس ؛ واثنتان في برقة ، واحدة في بنغازي ، والأخرى في درنة .

وكان التعليم في هذه المدارس باللغة التركية ، كما كان معلموها ـ بطبيعة الحال ـ من الترك . ومن أجل هذا ، إلى جانب بعد هذه البلاد عن مركز الدولة ، كان التعليم فيها مضطرباً ، لا يكاد يمضي حتى ينقطع ويتوقف . ولعلنا نستطيع أن نكون لأنفسنا صورة من اضطراب هذه المدارس فيما يتحدث به عنها صاحب كتاب (ميلاد دولة ليبيا الحديثة) ، في سياق كلامه عن بشير السعداوي ، والتحاقه بالمدرسة الرشدية بالخمس ، إذ يقول : « وكان يتولى التدريس بهذه المدرسة معلم تركي ، له معاونون ، يحضر من الأستانة فيظل يؤدي واجبه عامين أو ثلاثة ، ثم يعود بعدها إلى بلاده ، فيتبطل بذهابه التعليم بالمدرسة ، وتكاد هذه تظل مغلقة تماماً ، حتى يأتي من الأستانة معلم آخر ، وهكذا » .

وكانت هذه المدارس تعد طلابها ليشغلوا في بلادهم وظائف الدولة الإدارية . وكان بعض هؤلاء الطلاب يستكمل تعليمه في الأستانة ، في مدرسة خاصة أنشأها السلطان عبد الحميد ، يتلقى فيها أبناء الأسر الكبيرة في بلاد الدولة تعليمهم العالي ، وكانت تسمى مدرسة العشائر ، وكانت هذه المدرسة تعد طلابها هؤلاء لتولي بعض المناصب العسكرية أو المدنية . وأحسب أن عدد الذين التحقوا بهذه المدرسة من أبناء العشائر الليبية كان قليلاً .

على أن بعض طلاب المدارس التركية الرشدية كان يتجه بعد الإنتهاء منها إلى الجمع بين ما تلقاه فيها وبين العلوم الإسلامية العربية ، فكان ينصرف إلى تحصيلها بالجلوس إلى شيوخها ، كما نرى صورة من هذا الإتجاه في أحمد الفقيه حسن تلميذ الشيخ محمد كامل بن مصطفى .

أما المدارس الإيطالية فقد كان إنشاؤ ها في ليبيا ، في ذلك الوقت ، مظهراً من مظاهر الاتجاه الإستعماري الذي أخذ يسيطر على إيطاليا ويوجه سياستها ، منذ تمت وحدتها ، وأصبح لها كيانها السياسي ، وأخذ المجد الروماني القديم يداعب خيالها ويثير طموحها ، كما أخذ الفقر المدقع الذي كان يعانيه أهلها يدفع بها إلى التماس « مجال حيوي » لها . وكانت تونس وليبيا أول ما اتجهت إليه مطامعها ، ثم اكتفت من شمال إفريقية بليبيا تكون منطقة نفوذها ، لتكون من بعد أكلا لها ، فجعلت تهيئها للمصير الذي تضمره . وكان من تدبيرها لذلك أن أخذت تشجع بعض العناصر الإيطالية على الهجرة إليها والإقامة فيها ومداخلة أهلها ، حتى اجتمع بها عدد كبير منهم . وقد لاحظ ذلك الحشائشي في زيارته طرابلس ، إذ يقول : « وفي مدة إقامتي بهذه المدينة رأيت أن أوباش البلد لهم مخالطة مع الجنس الطلياني ، وغالبهم يتكلمون معهم باللغة الإيطالية ، وأكثر الأوروبيين بها طليان » .

ثم كان من تمام ذلك أن أخذت إيطاليا في إنشاء المدارس بها ، فأنشأت فيها مدرستين ، إحداهما في طرابلس والأخرى في الخمس ، تعلمان اللغة الإيطالية والثقافة الإيطالية ، وتأخذان تلاميذهما بالعادات الإيطالية ، وجعلت تشجع الأهلين على إلحاق أبنائهم بهاتين المدرستين ألواناً من التشجيع ، لعلها تستطيع أن تنشىء على الميل إليها والإنتصار لها طبقة من الناس تتخذهم بطانة لها . ولا ريب أن هاتين المدرستين استطاعتا أن تخدعا بعض الليبيين عن أنفسهم ، وتستهوياهم ، شأن نظائرهما من المدارس الأجنبية في البلاد الإسلامية والعربية الأخرى .

فها نحن إذن إزاء أنماط ثلاثة من التعليم ، يقوم أحدهما على الثقافة

القومية التقليدية ، ولكنه يتناولها تناولا ضعيفاً متهافتاً ، إذ كان ما يزال ـ في معظمه ـ واقعاً في نطاق السنة الطويلة الثقيلة التي خضع لها العالم الإسلامي ، ولم يفق منها إلا إفاقة متخاذلة ؛ والآخر يقوم على ألوان من الثقافة الحديثة التي سار بها ركب الحياة ، ولم يستطع النمط الأول ـ بطبيعة الحال ـ أن يعقد صلته بها ، ولكن في سطحية وفي حدود ضيقة ، وتحت أوضاع مضطربة ، وفي لغة أجنبية هي اللغة التركية ؛ وأما النمط الثالث فهو تعليم أجنبي خالص ، اقتحم هذا المجال اقتحاماً ، وتسور على العقل الليبي تسوراً ، وفرض نفسه بقوة الامتيازات الأجنبية فرضاً ، وهو يقوم على إهدار الشخصية القومية ، ومحو مشخصاتها العربية والإسلامية ، وإعداد طائفة من أهل هذه البلاد ينتزعهم من ماضيهم ، ويفصم العلاقات التي تربطهم بمواطنيهم ، ليكونوا أداة من أدوات الاستعمار الإيطالي المتربص ، حيل ينقض على هذه البلاد ، وحين يأخذ في التهامها .

فهذا النمط الثالث إذن لا مكان له في الحديث عن عوامل الحياة الأدبية وأصولها وملابساتها ، إذ لا علاقة له بها ، وإنما يبقى بعد ذلك النمط الأول والنمط الثاني .

ومهما يكن من أمر هذين النمطين فإنهما يتضمنان بعض العناصر الصالحة للحياة الأدبية ، فمادة الدرس في نظام التعليم القديم مادة صالحة ـ إلى حد ما ـ لتكوين الأديب أو للتوجيه الأدبي ، إذا وجدت الروح التي تنفخ الحياة فيها ، وتخرجها من مواتها ، وتبعث الهمم إلى التطلع إلى ما عداها من آثار أدبية . وقد أتيح لهذا النظام ـ كما رأينا ـ رجل كمحمد كامل بن مصطفى ، استطاع منذ عاد إلى ليبيا من مصر أن يبث الحيوية فيه ، وأن يشيع في مجالسه جواً جديداً اجتذب إليه طائفة مختلفة من الطلاب فأقبلوا عليها مشغوفين بها ، وقد تفتحت أمامهم طائفة من الآفاق العربية والإسلامية أثارت تطلعهم ، وأخرجتهم من النطاق المحدود الذي كانوا يحيون فيه .

وكذلك مهما يكن من نظام التعليم بالمدارس الرشدية ، وكونه باللغة

التركية ، ومهما يكن من اضطراب الدراسة في هذه المدارس ، فإن الجو الديني الذي يصل ما بينها وبين طلابها يجعل لها وضعاً خاصاً ، كما أن لهذا النظام من التعليم مزايا لا يستطاع إغفالها ، من فتح آفاق جديدة للطلاب يمدون إليها أبصارهم وتتسع بها مداركهم ، ووضعهم في تيار الحياة التي يعيشون فيها . وقد كان بعض أساتذة هذه المدارس يمثلون أحياناً عناصر واعية مستبصرة ، لها في الإصلاح الديني والسياسي آراء مدروسة ، وقد انطوت أنفسهم على رغبة صادقة في تكوين الطلاب تكويناً سليماً ، وتبصيرهم بحقائق الأمور وما ينبغي أن تصير إليه ، كذلك الأستاذ الذي كان يدير مدرسة الخمس ، حين التحق بها بشير السعداوي ، وكان اسمه : حقي شيناس . وقد كان بليغ الأثر في طائفة منْ تلاميذه .

ولكن هذا النظام لا يستطيع وحده أن يكوّن أديباً عربياً ، وإن كان له أثره في تيقظ النفس وتوثبها ، إذ لا بد لهذا الأديب من الأداة اللغوية ، يصرفها في التعبير عن نفسه ، وهو لا يملك بطبيعته أن يضعها في يده ، وإذن فلا بد أن تكون هنالك قنوات تصل ما بينه وبين النظام التعليمي الآخر ، لكي يكون له أثره في الحياة الأدبية .

وإذا كانت هذه القنوات لم توجد في هذه المرحلة بطريقة منتظمة ، فإنها وجدت ـ على كل حال ـ بطريقة ما ، بالقياس إلى بعض الأشخاص . فكان بعض طلاب المدارس الرشدية قد أخذوا ـ قبل أن يلتحقوا بها ـ بنصيبهم من التعليم في الكتاتيب والزوايا ، وجلسوا إلى من يقرئهم القرآن فحفظوه ، أو حفظوا ما تيسر منه ، كما نرى ذلك في قصة حياة بشير السعداوي .

كما أن من بين هؤلاء الذين أتموا تعليمهم في المدارس الرشدية من كان يمضي بعد ذلك في استكمال ثقافته بالتوفر على درس اللغة والدين ، فأخذ يجلس إلى الشيوخ يأخذ عنهم . وقد أتيح لهؤلاء خاصة محمد كامل ابن مصطفى ، فقد اجتذبت شخصيته إليها طائفة من هؤلاء الذين تثقفوا

بالثقافة الحديثة في هذه المدارس ، كما كانت ـ مع الفارق ـ شخصية الإمام محمد عبده في مصر .

وبذلك وجد في طرابلس بعض العلماء والأدباء ، ممن عرفوا المنهجين ، وجمعوا بين الثقافتين .

على أن من الجدير بالذكر أنا حينما نتحدث عن التعليم في ليبيا ، في أنماطه المختلفة ، إنما نعني أن قيمته فيما نحن بصدده إنما هي في تهيئته الشخصية لتلقي الآثار الأدبية ، وتوجيه المتعلم إلى قراءة هذه الآثار التي هي المرجع الأول والأكبر لتكوين الأديب وتسديده . وقد كانت بعض الأسر الليبية تحتفظ في دورها بمكتبات خاصة ، تشتمل ـ بين ما تشتمل عليه ـ على بعض كتب الأدب ، وخاصة هذه الكتب التي أخذت المطبعة المصرية تخرجها في ذلك الوقت ، كمحاضرات الراغب الأصفهاني ، وخزانة الأدب لابن حجة ، وديوان البها زهير ، وما إليها من الكتب والدواوين القريبة اليسيرة ، تأخذ مكانها في تلك المكتبات ، وتتنقل بين أيدي الطلاب والمتأدبين ، فيقبلون عليها مشغوفين .

من هذه الأسر التي عنيت بالثقافة ، تلتمس مصادرها ، وتعني بتوجيه أبنائها إليها ، أسرة الفقيه حسن ، وهي من أعرق أسر طرابلس ، وأكثرها عناية بالقيم والأدب ، ومن هذه الأسرة أحمد الفقيه حسن ، أحد الشعراء الذين تتمثل الحياة الأدبية في طرابلس بهم .

وقد نشأ أحمد هذا نشأة مترفة من الناحية العقلية ، تلقى تعليمه في المدارس التركية ، وتلمذ علي محمد كامل بن مصطفى ، ثم لم يكفه ما أصاب في تلك المدارس وفي هذه المجالس ، وإنما اتجه فوق هذا إلى أن يتعلم اللغة الفرنسية ، فلم يكن بد من أن يتلقاها عن معلم خاص ، وكان رجلا سويسرياً ؛ ثم أخذ طموحه المترف يجتذبه إلى ما وراء حدود وطنه ، فكانت له رحلات مختلفة إلى أقطار مختلفة من الشرق والغرب ، فقد سافر إلى باريس في صحبة أبيه ، كما رحل إلى تونس ، ودخل مصر ، وزار

الأستانة . وكان لهذه الرحلات ـ ولا ريب ـ أثرها في توسيع أفقه وتهذيب ذوقه .

واشتغل في وظائف الدولة التي ترشحه لها ثقافته وتكوينه ، فكان رئيساً للقلم العربي في ولاية طرابلس . وهي ـ فيما يبدو ـ وظيفة ذات شأن .

وفي خلال ذلك كان لا يزال يقرأ كتب الأدب والتاريخ ، يرضي بقراءتها نهمته العقلية ونزعته الأدبية ، ويوجه نشاطه الأدبي في الترجمة والشعر ، فكان يترجم ما يعن له من قراءاته بالفرنسية ، فترجم ـ فيما يقال ـ رحلة قام بها أحد الفرنسيين إلى شمال إفريقية ، كما كان يلهو بقول الشعر : يجعله أغنيات يتغنى بها ، أو ينظمه موشحات على نمط الموشحات الأندلسية ، أو يأخذ فيه ببعض صور الصناعة التي شاعت في العصور المتأخرة ، ولا نجد شاعراً إلا وقد راض نفسه عليها وشارك فيها ، كالتشطير والتخميس .

ولدينا من ذلك قطعة تمثل هذا الاتجاه عنده جعلها ، تخميساً لقصيدة ابن الفارض :

زدني بفرط الحب فيك تحيراً   وارحم حشا بلظى هواك تسعرا

فهو يقول :

شوقي بديوان السلوك تسطرا   وحقيقتي دقت فكادت لا ترى
يا منية المشتاق من دون الورى   « زدني بفرط الحب فيك بحيرا
وأرحم حشا بلظى هواك تسعرا »
فالذات أضحت بالدموع غريقة   وهواك علمني البكاء طريقة
فارحم فقد صارت حشاي حريقة   « وإذا سألتك أن أراك حقيقة
فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى »
قلبي حريص في اللقاء لبعدهم   والنوم فارق مقلتي من بعدهم

لا تجزعن فعساك أن تحظى بهم   « يا قلب أنت وعدتني في حبهم
صبراً فحاذر أن تضيق وتضجرا »
الحب صعب أن سلكت بسربه   فاشدد عراك إذا أقمت وسر به
يا قلب إن ناداك ويحك لبه   « إن الغرام هو الحياة فعش به
صبا فحقك أن تموت وتقبرا »

فهذا نوع من الشعر لا صلة له بالتعبير عن النفس وتصوير مشاعرها ، إذ ليس في حقيقته إلا لوناً من ألوان الصناعة التي تقوم على البراعة في رصف الألفاظ وتلفيق المعاني التي تستدعيها هذه الألفاظ التي أجتلبتها القافية ، وتخيرها الجناس أو الطباق ، وهو إنما يقصد به إلى الرياضة والمرانة أحياناً ، وإلى اللهو والتسلي أحياناً أخرى ، وهو بهذا كله مظهر من مظاهر الفراغ الذي كان يسيطر على الحياة في ذلك الوقت وفي مثل هذه البيئة ، وكان الناس يزجونه بألوان من العبث . وكان صاحبنا يزجيه بمثل هذا اللهو الفني .

كما كان يزجيه أحياناً بمشاهدة بعض الراقصات الأوروبيات في بعض ملاهي طرابلس . وقد يتصل عنده هذا اللهو بذلك اللهو الفني ، فلا يكاد ينصرف عن هذا المشهد حتى يأخذ في تصويره شعراً ، على هذا النحو ، إذ يقول :

رومية بهرت بتلعيباتها   فاقت بحسن شمائل أخواتها
السكر في رشفاتها والموت في   رشقاتها والسحر في لحظاتها
والذعر في خطراتها والويل في   لفتاتها والوصم في غمزاتها
فتانة فتاكة قتالة   لكن تعيد الروح من عطفاتها
فإذا رنت شذراً إليك بعينها   فاحذر طعان الهدب من كسراتها
قامت تبختر كي ترينا لعبة   لم تدر أن الموت في حركاتها

إلى أن يقول :

الله أكبر ، ما أتم جمالها   قد كلَّ وصفي عن حميد صفاتها

الله يعلم ما ألاقي في الحشا   لما توارت في مقاصيراتها

وإذا كانت هذه ـ فيما يزعم ـ صورة راقصة من راقصات طرابلس الأوربيات التي يزجى بها أهل طرابلس فراغهم ، ويستجيبون بمشاهداتها لنوازع شهواتهم ، فإنها في حقيقتها صورة مصنوعة ملفقة ، استمدت أجزاءها وأسلوب صياغتها من بعض صور الشعر في العصور المتأخرة ، ومما أتيح للشاعر من ثروة لغوية تمكن له من هذه التقسيمات والجناسات والطباقات ، فاستطاع بذلك أن يصوغ هذه القصيدة ، وأن يزجى بها فراغه ، ويرضى بها نزعته الفنية .

ولم يعمر أحمد الفقيه حسن طويلاً ، فقد مات سنة ١٣٠٤ هـ ، أي نحو سنة ١٨٨٧ م ، عن نحو خمس وأربعين عاماً .

وكان يعاصره في مدينة طرابلس شاعر آخر ، وإن عمر بعده ، حتى شهد الغزو الإيطالي ، وعاش بعد إلى سنة ١٩١٨ م . ذلكم هو : ابن زكرى ، مصطفى بن محمد بن إبراهيم ، ويلقبه بعضهم بشاعر ليبيا الأول ، معتمداً في هذا على « أنه أول شاعر ليبي ترك ديواناً مطبوعاً تداوله القراء» .

والحقيقة أن ديوان ابن زكرى هو المجموعة الشعرية الأولى التي طبعت في هذه المرحلة ، وهو أحد ديوانين أتيح لهما حظ الطبع ، والثاني هو ديوان الباروني ، عبد الله بن يحيى النفوسي الإباضي ، المتوفى سنة ١٩١٤ م ، وقد طبع بمصر بعد طبع ديوان ابن زكرى بخمس سنين .

وبالرغم من أن ديوان ابن زكرى ديوان صغير الحجم ، إلا أنه يدل على أن صاحبه جعل الشعر غاية كبرى من غاياته ، وبذلك عني بتدوينه ، كما عني بعد ذلك بترتيبه ، ولا بد أنه فكر فأطال التفكير في هذا الترتيب الذي يجري عليه ديوانه ، حتى انتهى إلى أن جعل الأصل في ترتيب القصائد هو بحورها لا قوافيها ، كما ألف الناس ، « لكي لا تذهب عند القراءة طلاوة الاتصال ، بوحشة تباين الأوزان » ، كما يقول في مقدمة

الديوان . وهذا ملحظ جميل يدل على حس موسيقي . فإذا تم له هذا فهو حريص على طبعه ، فانتهز فرصة ذهابه الى مصر ، في طريقه إلى أداء فريضة الحج ، سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م)، فطبعه بها . وكان بذلك أول ديوان ليبي مطبوع .

والديوان قائم في معظمه على الغزل ، ليس فيه من شعر المناسبات غير قليل ، من أبيات يقولها ، كما جرت العادة عند إنشاء سبيل أو بناء مسجد ، أو إقامة طابية ، أو لتقريظ كتاب ، أو لمديح شيخ أو وال . أما الغزل فهو مادته الكبرى ، يفتن في معانيه ، ويبدع في صوره . ولم يكن بالرجل أن يتغزل لأنه من أصحاب الهوى أو من أهل الصبابة ، وإنما اتخذ الغزل ـ كما اتخذه شعراء العصور المتأخرة ـ موضوعاً يجلى فيه براعته في خلق الصور وتوليد المعاني واستخدام فنون البديع ، فاستطاع أن يجارى هؤلاء الشعراء في ميدانهم ، وأن يصنع من الصور ، في إطار الغزل ، ما يشهد له بالبراعة ، حسب المقاييس المعتبرة إذ ذاك .

وحسبنا أن نذكر هذه الأبيات الثلاثة لنرى فيها ما يدل على صنعة ابن زكرى وتوليده :

قالوا : له خال بصفحة خده وتفننوا في كنهه وصفاته
وأراه عبداً جاء يسرق من جنى خديه مغتراً بفعل سناته
فرماه ناظره بسهم صائب وانظر الى دمه على وجناته

أما باب التورية باستخدام مصطلحات العلوم ، وخاصة علم النحو ، فهو باب واسع في شعر ابن زكرى ، وهو باب قديم ، ولكنه إنما كان يجيء في شعر الشعراء مجيء النكتة يتظرف بها ويستطرف أما ابن زكرى فقد اتسع فيه وبسط ذراعيه ، في مثل قوله :

كنت في الناس ظاهراً فطوى حبـ ـك جسمي فصار في المضمرات
صاح دعني فإن مثلك صاح وتلقن في وصفه كلماتي
واتل آي الغرام واصدع بما يأ مرك الحب في بديع الصفات

***

وأدرها حتى ينوب سكون الرا　ح في ذاته عن الحركات
نسبتي في هواك منذ أضيفت　عرفت بين معشري نكراتي
مفرد جل في الورى عن مثنى　ليته خصني يجمع شتاتي
خبر الحسن حيث لم يأت فيه　مبتدا لا يصح عند النجاة
أمره في القلوب ماض ولكن　ماله من مضارع في الصفات

وهذه الأبيات تدلنا دلالة واضحة على أن ابن زكرى اتخذ الشعر صناعة يظهر فيها براعته، وقدرته على اللعب بالألفاظ، فليس الشعر عنده ـ في مثل هذا ـ تعبيراً عن عاطفة، أو تجاوباً مع صورة جميلة، وليس له من غاية مثلى يتجه اليها، فلا نبعد كثيراً إذا قلنا إنه لون من ألوان العبث، ولكنه عبث جاد، إذا صح لنا هذا التعبير، فصاحبه مستغرق فيه، مسخر جميع ملكاته له، لأنه مؤمن به، وهو في هذا وحده يختلف عن الشعر الذي رأيناه عند أحمد الفقيه حسن.

وإذا كان الإغراق في الصنعة قد أفسد كثيراً من شعر ابن زكرى فإن له شعراً رقيقاً تترقرق فيه الصنعة ترقرقاً لطيفاً، كما أن له من الشعر ما يفرض على قارئه الإحساس بصدق الشاعر، وذلك في مثل هذه القصيدة التي يبدو أنها طبيعية لا تكلف فيها.

أو لم يأن أن يفيق من الغفلة قلب تهزه الأهواء
طالما عانق الهيام فللنفس غرام وللهوى إغراء
ومتاع الدنيا قليل ففي زهرتها كيف ترغب العقلاء
إنما المال والبنون على حبهما فتنة لنا وابتلاء
لا يغرنك الغرور ولا يغرنك من كيد دهرك الإغفاء
قلما باكر الصباح بما سرك إلا وساءك الإمساء
فاغتنم فرصة وهل تذهب إلا بعمرك الأناء
لا يسرنك ابتسام أمانيك ولا تستفزك البأساء
واصطبر واعتبر بحزم أولى العزم إذ عز في المصاب العزاء

وارتقب حيث مادجا ليل خطب فرجاً تنجلى به الظلماء
أقبل اليسر يقتفى أثر العسر وللكرب شدة ورخاء

إلى آخر هذا النمط اليسير القريب الذي لا صنعة فيه ولا تكلف ، والشاعر حين يجرى مع طبعه في التعبير عن نفسه ، فليس به حاجة إلى التماس صنعة أو إغراب أو تكلف . وقد كان ابن زكرى شاعراً مطبوعاً ، ولكن خلاء الحياة وخواءها هو الذي أخذه بالصنعة كما أخذ غيره بها من شعراء هذا العصر ، حينما خلت الحياة من المثل ، فأصبح الشعر صناعة ولا شيء وراءها ، ومجموعة من الصور والأشكال يتأنق الشاعر فيها ويلتمسها لذاتها .

وبعد ، فقد كانت شخصية أحمد الفقيه حسن شخصية رجل سرى مترف ، وإن شغل بعض الوظائف لأن مثل هذه الوظائف مظهر من مظاهر الترف ، كما كان قوله الشعر مظهراً آخر من مظاهره . وكان مصطفى بن زكرى يمثل طرازاً آخر من الرجال ، فقد كان فيما يبدو رجلاً مكافحاً ، عمل في أكثر من ميدان : اشتغل بالعلم والتعليم حيناً ، وبالتجارة حيناً آخر ، وشغل بعض الوظائف في بعض الأحيان ، وكان شعره يمثل هذه الطبيعة الجادة الكادة ، من ناحية عنايته بالصنعة والتوليد ، وفي أخذه مأخذ الجد .

وهناك شخصية ثالثة تمثل نمطاً ثالثاً من الرجال ، حياتهم مزاج من الجد والترف ، تلك هي شخصية إبراهيم باكير ، قاضي طرابلس ومفتيها .

وقد نشأ إبراهيم باكير في أسرة كان لها منصب الإفتاء في طرابلس ، فقد كان أبوه مصطفى باكير يتولى هذا المنصب ، وكذلك كان من قبل جده إبراهيم . فقد نشأ إذن في بيت علم يتوارث تقاليده ، من الحرص عليه والإكباب على تحصيله ، كما يملك إلى جانب ذلك أسباب الحياة الرخية المترفة ، إذ كان منصب الإفتاء من المناصب الكبرى التي تجمع المجد العلمي والمادي . ومن هنا كانت حياة إبراهيم ـ كما قلنا ـ مزاجاً من الجد

والترف : الجد في طلب العلم ناشئاً ثم في القيام بواجباته وأداء تبعاته بعد ، والترف الذي تتيحه المنزلة الاجتماعية لهذه الأسرة .

ولعل هذه النشأة المترفة كان من أثرها أن كان إبراهيم باكير طلق النفس مرحاً بعيداً عن التزمت الذي يطبع كثيراً من الفقهاء والمتفقهين بطابع الجفوة والكزازة ، كما يصفه معاصروه ، وكما نحس فيما بين أيدينا من شعره ، كما كانت له مجالسه الفكهة المرحة في المدينة وفي ضواحيها ، وقد صور هذه المجالس في شعره ، كقوله عن واحد منها ، اتخذه وأصحابه على شاطىء البحر ، في مكان يطلق عليه : « مرسة الأغراب » :

غلطوا ، فقالوا : مرسة الأغراب   ما تلك إلا مرسة الأحباب
طابت لنا فيها الإقامة بالهنا   مع جملة من نخبة الأحباب
وكؤوس شاي واترات بيننا   لا غول فيها مفضياً لعتاب
هذا هو الروح المروح روحنا   وهو المدامة وهو خير شراب
نعم اجتماعات الأحبة إن تكن   مصحوبة بلطائف الأداب
فهي الخلاعة والرياضة والمنى   والقوت للأرواح والألباب

وهذه الأبيات تدلنا على منهج الرجل في قول الشعر ، فهو يقوله كما يتفق له ، لا يتعمق معنى ، ولا يولد صورة ، ولا يتكلف أسلوباً شعرياً ، بل إنه لا يعبأ في بعض الأحيان ، وهو الرجل العالم ، أن يقع في بعض المخالفات اللغوية ، كقوله في وصف ترجيلية :

فلا أرى منها ملل   ولا جفا يتعبني
ففي الإقامة معي   وفي السفر تصحبني

وقول الشعر ـ على مثل هذا النحو ـ في الحديث عن بعض صور حياته اليومية ، هو احد أبواب الشعر عنده ، ثم يجيىء باب الغزل ، وهو الباب التقليدي الذي لا بد أن يلجه كل من يحاول قول الشعر أو نظم القصيدة ، ثم قصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم أشياء من

النظم التعليمي ، أو النصائح ، وذلك كما نرى فيما أورد من مجموعة شعره الأستاذ علي مصطفى المسراطي في الفصل الذي كتبه عنه في كتابه (لمحات أدبية عن ليبيا) .

وجملة القول في شعر إبراهيم باكيـر أنه نوع من عبث العلماء ، كما كان شعر ابن زكرى من عبث الشعراء وشعر أحمد الفقيه حسن من عبث المترفين .

وقد امتد العمر بإبراهيم باكير حتى قارب التسعين ، فشهد غزو الطليان ليبيا ، وكان ممن هاجروا عنها إلى الشام ، وبقي في الشام بضع سنوات ، عاد بعدها إلى طرابلس ، متولياً منصب القضاء فيها . كما شهد خروج الطليان من البلاد . ولم يلبث أن وافاه أجله سنة ١٩٤٣ م .

نستطيع أن نكتفي بهؤلاء الشعراء الثلاثة ، في تمثل الشعر في الحواضر الليبية ، وكلهم من طرابلس ولكنا لكي نستكمل ـ بعض الشيء ـ صورة النشاط الشعري في هذه الحواضر ، ينبغي أن نتحراه ونحاول التعرف إليه في حواضر برقة أيضاً .

وقد كان النظام الإداري قد جعل من طرابلس مركز الولاية ، حتى لقد كان اسمها يطلق على ليبيا جميعاً ، وبذلك كانت مركز النشاط في وجوهه المختلفة ، وكانت برقة تجيء في المكان الثاني ، فكذلك كان أمر حواضرها في النشاط الأدبي عامة والشعري خاصة ، وقد انصرف جميع نشاطها في هذا المجال الى بواديها ، كما رأينا من قبل .

فإذا انبهمت معالم الحياة الأدبية في حواضر برقة فقد كان لذلك ما يبرره .

ومع هذا فلا يعدم الباحث في هذه الحواضر ، وخاصة بنغازي حاضرة برقة ، بعض اللمحات الأدبية الدالة على وجود لون من النشاط الأدبي فيها ، كما نرى هذا في شخصية شاعر من أهل بنغازي ، مازال أدباء هذه المدينة يذكرونه ، وهو عبد السلام أبو هديمة ، ومعرفتنا به ترجع

إلى الفصل الذي كتبه عنه الأستاذ محمد بن عامر في العدد الأول من مجله ليبيا ، واستهل به السلسلة االتي أراد كتابتها عن أدباء بنغازي في الجيل الماضي . قال عنه :

« ولد في مدينة بنغازي في أوائل العقد السابع من القرن الهجري الماضي (أي في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر) ، وتوفي مأسوفاً عليه في سنة ١٣١١ هجرية (أي نحو سنة ١٨٩٣ م) .

تعلم في الكتاتيب القرآنية بهذه المدينة ، وحفظ من كتاب الله ما تيسر له حفظه ، ولازم حلقات دروس العلم ومجالس العلماء في ذلك الوقت ، فاستفاد منها الشيء الوفير وأفاد ، يصفه معاصروه بقوة الذكاء والفصاحة ، وبأنه دمث الأخلاق بشوش متواضع ، حاضر الذهن ، طلق اللسان ، أديب شاعر متين بالفصحى وباللغة العامية أيضاً ، وقور محترم ، محبوب بين أضرابه . وقد حاز بأدبه المكانة الأولى لدى علماء الأمة وشيوخها . اشتغل بالأدب ومالت نفسه إليه ، فحظى بشهرة ولا يزال ذكره بها مخلداً ومحموداً في هذه الناحية . تقلب في بعض الوظائف الإدارية في الحاضرة وضواحيها ، فأكسبته خبرة واسعة ، وكان فيها مثال النزاهة والاستقامة » .

ثم يقول : « ومع هذه الشهرة لم نستطع الوقوف على آثاره في الشعر ، التي يقال إنها كثيرة جداً ، إلا على النزر القليل منها برواية بعض معاصريه الذين أدركناهم » .

وهذا القليل الذي بقي من شعر أبو هديمة يتمثل في أبيات من قصيدة قالها بمناسبة قدوم الصادق باشا المؤيد ، ياور السلطان عبد الحميد ، على السيد المهدى السنوسى ، ومعه هدية من السلطان له ، يقول في استهلالها :

مليك ملوك الأرض مذ كان في المهد　　توالت هداياه على السيد المهدى
هـدايا عـظيم أهديت لمعـظم　　فمن هو كالمهدى اليه وكالمهدى

ثم في قصيدة يرثى بها السيد عبد الرحيم المغبوب ، ويبدؤها على هذه الصورة :

خطب دهانا منه شر مصابه فأذاقنا كرها مطاعم صابه
بنغازى ألبسها وألبسنا به بعد ألبها ما شان من أثوابه

ثم في قطعة ثالثة يمدح بها شيخ الطريقة العزوزية ، وقد قدم بنغازي ، من هذا النمط ، ويبدو أن ما أصاب بوهديمة من شهرة إنما يرجع لهذا الجناس الذي أولع به ، وكان الناس يرون فيه مظهراً من مظاهر البراعة .

وبعد ، فهؤلاء بعض الشعراء الذين نكتفي بهم في حديثنا عن الشعر في الحواضر الليبية في هذه المرحلة ، وهناك ـ ولا ريب ـ غيرهم ، وقد لا يكونون دونهم ، ولكنا لا نقصد في هذه الدراسة إلى الاستعياب والاستقصاء ، وإنما نقصد الى تبين صورة من الحياة الأدبية ، وتعرف الخطوط الكبرى في الاتجاهات الشعرية ، ولعل فيما قدمنا من الحديث عن هؤلاء الشعراء ما يكفينا في تبين هذه الصورة ، وفي رسم هذه الخطوط .

وأول ما يمكن أن يلاحظه الدارس على هؤلاء الشعراء ، والطابع العام لشعرهم ، هو أنه ليس له مثل عليا يعبر عنها ، ويرتبط هؤلاء الشعراء بها ، ويتجهون إليها كما رأينا في شعر الزوايا السنوسية . فالشعر هنا ليس إلا ملهاة أو مسلاة ، ووسيلة إلى إزجاء الفراغ وقتل الوقت . وكان إزجاء الفراغ ضرورة لا بد من التماس الوسائل لها في هذه الحواضر ، وكان لكل طائفة من الناس وسيلتها الى ذلك . أما الشعر فكان وسيلة هذه الطائفة من المثقفين ، وقد اتخذت هذه الوسيلة أساليب مختلفة ، فلكل شاعر أسلوبه فيها ، حسب طبيعته ومزاجه وتكوينه العقلي ، كما رأينا شيئاً من ذلك .

واصطناع المحسنات البديعية في هذا الشعر أمر مرتبط كذلك بهذا الفراغ الذي يتخذ الشعراء الشعر وسيلة لإزجائه ، ولعل الأمر فيها مختلف

ـ إلى حد ما ـ بين هؤلاء الشعراء والشعراء السابقين ، فهي هنالك ـ في أكثر أمرها ـ أداة تعبيرية بما تخلعه على العبارة من قوة أو من جمال ، حتى يؤدى الشعر غايته على النحو المرجو له .

المرحلة الثانية

ـ ١ ـ

في خريف سنة ١٩١١ م حدث ما كان متوقعاً من انقضاض إيطاليا على الموانىء الليبية . وكان حديث هذا الغزو يتردد في كل مكان ، في إيطاليا التي كانت منذ تم لها كيانها السياسي ما تزال طامحة النظر إلى هذه البلاد ، تريد أن تبسط عليها سلطانها وتنشب فيها مخالبها ، ومازالت هذه الرغبة تربو في صدرها ، حتى جعلت منذ أوائل القرن العشرين تعتبرها أرضاً إيطالية ، لا تكتم ذلك ولا تتحرج من التصريح به ؛ وفي تركيا التي كانت تشعر بهذا الذي تضمره ايطاليا ، وكان بعض ساستها لا يرى فيه بأساً ، وإنما البأس كل البأس عندهم في أن يراق دم تركي دفاعاً عن هذه البلاد النائية الفقيرة التي تعتبر عبئاً على الدولة العثمانية لا مورداً من مواردها ، وفي ليبيا نفسها حيث تمهد ايطالية لليوم الموعود بشتى الوسائل ومختلف الأساليب وتهيىء الأذهان لهذا الأمر ، على اعتبار أنه لا مفر منه ولا معدل عنه ، وحيث أخذت تبث دعايتها في جميع الأوساط ، واستطاعت أن تفتن بعض الخاصة ، لتتخذ منهم بطانة لها . وحيث أخذت بعض الحركات الوطنية تحاول دفع هذا الشر المتربص ، بعقد المؤتمرات وكشف المؤامرات ، والاتصال بممثلي ليبيا في مجلس المبعوثان ، يبصرونهم ويثيرون حماستهم ، وبالدعوى الى مقاطعة بنك دي روما ، الذي كان منذ نشأ أداة استعمارية ، والمدارس الايطالية التي أشرنا من قبل إليها ، الى غير ذلك مما كان يدل على أن الجو في بعض المدن مشحون بنذر الحرب ، وبمشاعر التوجس والخوف ، أو التحفز والتربص .

حتى إذا كان السادس والعشرون من شهر سبتمبر ، فقد صرح

الشر ، وكشفت إيطاليا عن أنيابها بالإنذار الذي وجهته الى تركيا ، ثم تربد الجو بالرد الذليل المتخاذل الخانع الذي بعثت به تركيا إلى إيطاليا في التاسع والعشرين ، متنصلة من كل تهمة وجهتها ايطاليا اليها ، داعية الى المفاوضة فيما تأخذه عليها ، ثم بإعلان الحرب في اليوم نفسه ، ثم وقعت الكارثة بإطلاق الأسطول الإيطالي قذائفه على طرابلس في الثالث من أكتوبر ، ثم على بنغازي والخمس ودرنة في خلال هذا الشهر .

وبهذا بدأت ليبيا تدخل مرحلة جديدة في تاريخها الحديث ، وفي حياتها الأدبية ، استمرت ثلاثين عاماً .

وإذا نحن التمسنا الطابع العام لهذه المرحلة وجدنا أنه الكفاح والنضال والمقاومة المستبسلة ، لتحرير الوطن من هذا الغزو ، مما لا مكان للإفاضة فيه هنا . وإنما الذي يعنينا من ذلك ، مما يتصل بما نحن فيه ، هو أثر هذه المقاومة التي استغرقت كل قوى الشعب الليبي ؛ في النهضة التي رأيناها في المرحلة السابقة ، وخاصة وجهها التعليمي والأدبي . ذلك أن هذا الشعب قد استغرقته روح المقاومة وسيطرت عليه ، فصرفته عن كل شيء إلا أن يدفع عن نفسه هذا البلاء النازل بكل ما يملك من وسيلة . ولم تعد الزوايا ـ كما كانت من قبل ـ مراكز علم وتثقيف ، فقد تحولت منذ الغزو الايطالي الى مراكز مقاومة ، تدير الحرب وتنظم الجهاد . وبذلك بطلت وظيفتها الأولى ، وفرغت لهذه الغاية الجلى .

ولم يكد الشعب الليبي يأخذ في تنظيم المقاومة ، حتى وقعت الحرب العالمية الأولى ؛ وحلت به ، وخاصة أهل برقة ، في أوائلها ، نازلة من أشد النوازل ، وهي محنة المجاعة ، وذلك حين أغلقت الحدود المصرية الليبية ، وابتليت البلاد ـ الى جانب هذا ـ بالجفاف المتصل ، فصوح الزرع ، وجف الضرع ، واقشعرت الأرض ، وامتنع مع ذلك مجيء الأقوات من الخارج ، فكثر الموت كثرة غامرة ، حتى امتلأت الطرقات بجثث الموتى ، وبذلك انتشر وباء الطاعون ، فجعل الموتان يتضاعف

دراكا . وكان هذا ـ ولا ريب ـ عاملاً جديداً حال دون أي احتمال لمراجعة النشاط التعليمي بأي صورة من الصور .

ولكن هذه المجاعة كانت من الأسباب التي دفعت الى عقد نوع من الهدنة بين الليبيين والإيطاليين ، سنة ١٩١٧ م ، وكان مما قرره اتفاق هذه الهدنة إعادة الزوايا السنوسية التي كان الايطاليون قد استولوا عليها ، واحترام حق التعليم الديني . ثم تأيد هذا الاتفاق المبدئي باتفاق سواني يادم في طرابلس (سنة ١٩١٩ م) ، واتفاق الرجمة في برقة (سنة ١٩٢٠ م). وقد منح الإقليمان ، طرابلس وبرقة ، بمقتضى هذين الاتفاقين قانونين أساسيين . والذي يعنينا هنا منهما أنه نص فيهما على أن تؤسس في البلاد مدارس ابتدائية وإعدادية ، وأن تدرس في هذه المدارس جميع الفنون الدينية والعصرية . أما لغة التعليم في هذه المدارس فتختلف باختلاف مواد الدراسة ، فالمبادىء الدينية والعلوم الإسلامية واللغة والأدب العربي تدرس باللغة العربية ، وأما سائر العلوم فتكون دراستها باللغة الايطالية ، فاللغة الإيطالية إذن في هذين القانونين هي لغة التعليم عامة ، فيما عدا الدين واللغة العربية .

ومهما يكن من أمر الاتفاقين والقانونين فقد أخذت البلاد تستشعر نوعاً من الاستقرار ، أخذت تراجع فيه شيئاً من النشاط العلمي ، قدر ما تأذن به الظروف الجديدة ، وذلك إلى جانب النظم الجديدة التي استحدثها الوضع الجديد ، ونص عليها القانون الأساسي .

ولكن الأمر لم يلبث أن اضطرب بتولي الفاشيست أمر الحكم في إيطاليا ، سنة ١٩٢٢ م ، إذ ألغت الحكومة الفاشستية كل اتفاق ، وعولت على أن تأخذ الأمور بالقسر والعنف ، وألا تتورع عن أي وسيلة تؤدى إلى محو الشخصية الليبية محواً تاماً ، حتى يتحقق لها ما ترجوه من إدماج هذه البلاد في إيطاليا ، وجعلها امتداداً لها وجزءاً منها .

وبذلك عادت الحرب جذعة ، وأسرف الطغيان الإيطالي في البطش

بالأهلين والافتنان في التنكيل والتقتيل والإجلاء والإفناء ، كما أخذ الشعب الليبي من ناحيته ينظم المقاومة ، ويدبر الحرب ، وانصرف الى ذلك ، لا يكاد يشغله شيء عنه .

وطبيعي أن الزوايا التي كان الايطاليون قد اتفقوا على إعادتها إلى أهلها ، تمارس نشاطها في التعليم ، تحولت ـ كما كانت تحولت من قبل ـ إلى مراكز جهاد ومقاومة . وحرص الاستعمار الايطالي على تعقب التعليم الديني ، وإزالة كل أثر له ، ما أمكنته الفرصة ، فإذا هو ينكل برجاله أنواعاً من التنكيل ، كالذي حدث سنة ١٩٢٨ م ، وقد صارت جغبوب اليه ، فلم يبق فيها عالماً ولا طالب علم : أخرجهم وصار بهم الى حيث لا يعلم أحد . وكما حدث بعد ذلك ، سنة ١٩٢٩ م ، حين تعقب الجنرال جرازياني مشايخ السنوسية والقائمين بأعمالها ، وأئمة المساجد ومؤذنيها ، وفقهاء كل محلة وقعت في يده ، وجمعهم وحشرهم في مركز بنينة ليكون سجناً لهم ، وكان هذا المركز بناء قديماً متداعياً ، لا سقف له يحمي نزلاءه ، فتعرضوا فيه لألوان العذاب ، فوق ما امتحنوا به من الجوع والعطش . ثم نقلوا بعد فترة إلى سجون ايطاليا ، مبالغة في إرهابهم ، ثم أعيدوا الى بنينة ، وفي خلال ذلك كان الموت ينشب فيهم مخالبه ، فقضى أكثرهم .

وفي مقابل ذلك أخذ الايطاليون ينشئون المدارس ويبنونها في كل ناحية ، ولكنها مدارس تخدم أغراضهم الاستعمارية ، على النحو الذي يشرحه الدكتور محمد فؤاد شكري ، في هذه العبارات التي ننقلها عنه ، بعد أن أشار الى ما ذكرنا من أمر التعليم في الاتفاقات السابقة :

« بيد أن الطليان ، جرياً على عادتهم في نقض عهودهم ، سرعان ما صاروا ينشئون المدارس التي عنيت فقط بنشر نوع خاص من الثقافة الايطالية كان يتلاءم مع أغراضهم الاستعمارية فحسب ، أخذوا يدعون له بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى ، فبلغ ما أنشأه الطليان من هذه المدارس

في ليبيا حتى عام ١٩٣٩ تسعين مدرسة ، تضم ٩٤٣٣ تلميذاً ، و١٠٥٥ تلميذة ، وجعلوا في كل مدرسة من هذه المدارس نوعين من التعليم : نوع إيطالي وآخر عربي . ثم جعلوا للمعلم الايطالي كل السلطة حتى يدير المدرسة كيفما شاءت أهواؤه ؛ وبذلك صار أبناء العرب في هذه المدارس يرغمون على دراسة كل الدروس المقررة بها ، حتى الغناء الايطالي والنشيد الايطالي .

وكانت هذه المدارس بمثابة مدارس ابتدائية يدعى الطليان أنها مخصصة لتعليم العربية ، إلى جانب الايطالية ، بينما كان أبناء العرب يلقنون بها الحروف الهجائية وشيئاً قليلاً من القرآن الكريم والحساب وبعض القواعد العربية البسيطة ، وذلك في مرحلة من التعليم تبلغ خمس سنوات . ومنع الطليان ـ إلا في حالات استثنائية نادرة ـ أبناء العرب بعد الفراغ من هذه المرحلة من أن يلتحقوا بالمدارس الثانوية التي يجرى التعليم فيها باللغة الايطالية .

وأمام هذا النقص الواضح في التعليم وأساليبه رأى الليبيون أن يبعثوا بأبنائهم الى تونس وإلى مصر ، إلى الأزهر الشريف ، لتلقي العلم ، وكره الطليان أن يجيء الليبيون الى الأزهر على وجه الخصوص . فابتدعوا فكرة (المدرسة الإسلامية العليا) ، أنشأها إيتالو بالبو ، ونظم لها دعاية واسعة عن طريق الإذاعة والنشر في الصحف ، حتى يحث الناس على إرسال أبنائهم إليها ، بدلاً من إرسالهم إلى الأزهر . ولكن سرعان ما وضح غرض الطليان من إنشاء هذه المدرسة عندما وجد الليبيون أنها كانت مقيدة بنفس القيود التي قيد بها التعليم الابتدائي ، واقتصرت مهمتها على تعليم الدروس البسيطة . وفضلا عن ذلك فقد نصب الطليان على مدخل المدرسة الإسلامية العليا صليباً كبيراً » .

هذه السياسة التعليمية التي رسمها الاستعمار الايطالي ، وهي قائمة على فرض الجهالة على الشعب الليبي ، وتعليله بقدر ضئيل من التعليم ،

لا يكاد يعدو معرفة الهجاء ومبادىء الحساب ، والحيلولة بينه وبين مكونات شخصيته القومية ، وإشرابه الروح الإيطالية .

وإذا كانت هذه سياسته بالنسبة لعامة الشعب ، فقد كان من هدف هذه السياسة أن تتخذ لها بطانة من الخاصة، تصنعهم بنفسها، وتوجههم وجهتها ، فهي تؤثرهم بنوع من التعليم ، هو التعليم الثانوي ، ثم يختار منهم من تبعث به إلى إيطاليا ، يتلقى في معاهدها ما تختاره له من فنون العلم ، ليتحول فيها - بزعمها - إلى أداة إيطالية الروح والثقافة والمنزع . وهي تستطيع بذلك أن تزعم أنها ثقفت الليبيين وحضرتهم ومكنت لهم من ينابيع المعرفة العليا .

وكان لا بد لهذا الاستعمار - إلى جانب ذلك - أن يضرب على الشعب الليبي حصاراً محكماً ، يحول بينه وبين كل ما يمكن أن يصل بينه وبين الثقافة العربية ، تأتيه من العالم العربي ، في كتاب أو مجلة أو صحيفة ، حتى يحصره فيما أراد له من جهالة ، وفيما رسم له من خطة ، وقد اتخذ لإحكام هذا الحصار كل وسيلة يستطيعها . وكانت كل شبهة في التسلل من هذا الحصار تؤدى إلى أشد النكال . وما زال الناس يتحدثون عما كان يصيبهم إذا أحس الاستعمار أن قوماً خالفوا عن أمره . « فمن أمثلة ذلك ما حدث عندما اجتمع طلبة العلم في ليالي رمضان ، في أحد الفنادق ، ليقضوا شطراً من الوقت في مطالعة الكتب والدروس ، فإنه لم يمض على اجتماعهم أكثر من خمس ليال حتى كانت قد دهمتهم الشرطة وساقتهم الى السجن ؛ أو ما حدث لطلبة آخرين كانوا مجتمعين لقراءة كتاب للمرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي ، فدهمتهم الشرطة كذلك ، وأودعوا السجن » كما أورد ذلك الدكتور فؤاد شكري .

وكان القائمون بأمر الاستعمار الإيطالي في ليبيا يعلمون أنهم - مهما أحكموا التدبير - لا يستطيعون أن يمنعوا الناس من القراءة أو يحولوا بينهم وبين التماس الآثار الأدبية ، فلا بد إذن من أن يتيحوا لهم بديلاً مما

ينعوهم إياه ، وأن يلجأوا في ذلك إلى ربائبهم من أبناء العرب . ولعله من جل ذلك كانت ترجمة الكوميديا الإلهية لدانتي ، في ليبيا . وقد ترجمها عبود أبو راشد ، وهو لبناني تعلم ـ كما يقول عن نفسه في مقدمة هذه الترجمة ـ في المدرسة الملكية الإيطالية في بيروت ، ثم امتزج بعد ذلك بالأمة الإيطالية امتزاجاً قوياً ، حتى أصبح واحداً منها على حد تعبيره . فقد كان إذن واحداً من هؤلاء العرب الذين اجتذبتهم إليها المدارس الإيطالية ، واستهوتهم الروح الإيطالية ، حتى كادوا ينسلخون من عروبتهم ، فوجد فيهم الاستعمار الإيطالي أدوات لا بد منها في تحقيق غاياته .

ومن هذه السبيل كانت ـ فيما نحسب ـ ترجمة عبود أبي راشد للكوميديا الإلهية ، وقد سماها « الرحلة الدانتية في الممالك الإلهية » ، وأتم ترجمتها وهو في مدينة درنة سنة ١٩٢٦ ، وطبعت في مدينة طرابلس فيما بين سنتي ١٩٣٠ ، ١٩٣٣ م .

ومن ذلك أيضاً كان إصدار مجلة « ليبيا المصورة »، سنة ١٩٣٥ م . ونكتفي في الحديث عنها بما كتبه الأستاذ طاهر الزاوي في كتابه « أعلام ليبيا » في سياق ترجمته لعمر فخري المحيشى ، قال :

« وفي أكتوبر سنة ١٩٣٥ أنشئت مجلة ليبيا المصورة ، وهي مجلة أنشأها الاستعمار لتخدم مصالح الاستعمار ، وكلف عمر المحيشى برياسة تحريرها . وإذا ذكرت مجلة « ليبيا المصورة » ذكر معها عمر فخري المحيشى .

ولم يكن في تفكير عمر الميحشى أن يصدر مجلة في ذلك الجو الخانق المملوء بالظلم والاستبداد ، وكبت الحريات الى أبعد حدود الكبت ، ولكن الطليان أرادوا ذلك ، ولم يكن لعمر فخري المحيشى بد من ذلك ، وأصبح أمام الأمر الواقع ، فلا هو بقادر على خدمة سياسة الاستعمار ، لأن كرامته تأبى عليه ذلك ، ولا هو بقادر أن يرضى ضميره ووطنه ، لأن المجلة أنشئت لقتل الضمير وإهانة الوطن ، وخدمة السياسة

الاستعمارية . وحبال المشانق سياط وراء كل من تحدثه نفسه بمخالفة رغبات المستعمرين .

ودخل عمر المحيشى هذا الطريق المفروش بأنواع الشوك والمسامير ، المملوء برصاص البنادق وحبال المشانق ، وصار يبذل جهد الجبابرة في البحث عن مكان لا شوك فيه يضع فيه رجله فلم يجد ، فاضطر مكرها إلى المشي في هذا الطريق ، غير مبال بما يصيبه من أشواك ، فذلك شيء لا بد منه ، لكنه كان يحاذر أن يبدو في ليبيا المصورة ما يفهم منه الإيطاليون نزعة وطنية فيحيلونه الى المشنقة . كما أنه كان يحرص كل الحرص على أن يفهم مواطنيه أنه مكره على نشر ما كان يشرف على نشره في مجلة ليبيا . وبين هذه المتناقضات كان عمر المحيشى يحيا حياة قلقة إذا فارقها الحذر لحظة تعرضت حياته للخطر » .

فقد كان صدور مجلة ليبيا المصورة إذن تحقيقاً لرغبة استعمارية من ناحية الاستعمار ، وكان مظهراً من مظاهر التقية من ناحية رئيس تحريرها . ثم يقول الأستاذ طاهر الزاوي :

« وكان ينشر في ليبيا المصورة سيراً عطرة لأعلام ليبيا وشعرائها وأدبائها ، وهو عمل في ظاهره لا يعارض السياسة الاستعمارية ، ولكنه في باطنه يمجد ليبيا ، ويبين للناس نوعاً من أدبها وأدبائها لم يطلع عليه الناس في غير ليبيا المصورة » .

هذه هي مجلة « ليبيا المصورة » التي استطاعت أن تسجل صورة من النشاط الأدبي في ليبيا في هذه المرحلة ، وإن كان الأصل في إصدارها هو ما ذكرنا من تسويغ ذلك الحصار الذي ضربه الاستعمار الايطالي على الشعب الليبي ، فقد خيل إليه أنه واضع في أيديهم من مواد القراءة الأدبية ما يمكن أن يغنيهم عن التطلع إلى ما يصوره العالم العربي . وكان ذلك وهما ولا ريب ، فبقدر الحرص من جانبه على منع تلك الآثار الأدبية ، كان الحرص من جانب الوطنيين على الحصول عليه بأي وسيلة وبأي ثمن .

على أن من مآثر هذه المجلة أنها فتحت مجالاً للأدباء والشعراء يجولون فيه ، إذ أتاحت لهم أن ينشروا أعمالهم الأدبية من فصول وقصائد ، ولو أن بعض هذه الأعمال كان يجري في التيار الذي أنشئت هذه المجلة له ، كالذي نجده فيها ، بمناسبة زيارة موسوليني لليبيا ، من بعض الشعر في مدحه وتمجيده ، كقصيدة أحمد الشارف التي نشرت في مارس سنة ١٩٣٧ م ، بعنوان « تحية الشعر للزعيم » ، ولعل ذلك أيضاً كان من باب التقيه ، على النحو الذي أخذ يصوره بعد أحد أولئك الشعراء ، وهو محمد الهنقاري ، وكان أحد شعراء تلك المجلة ، بقوله :

تكلفت مدحاً للئيم ولم أكن ... مواليه ، والله يدرى دخائلي
مدحت لئيم النفس لا عن محبة ... ولكنه المبغوض عند الأماثل
ركبت الذي يخفى على الناس سره ... وتفسيره قول لبعض الأفاضل :
إذا ما يد عزت عليك تنالها ... بقطع ، فقبلها ، وذا فعل عاقل
يعزز هذا القول أو هو عينه ... حديث لخير الخلق مولى الشمائل
نبش بوجه القوم والقلب لا عن ... وذاك دهاء حيلة المتحايل
ركبت ذنوباً في مديحي وربما ... أجاب اليها توبتي عن رسائلي
فما قلت قولاً من ضميري وإنما ... يكلفني الخنزير شر الخصائل
يكلفني أن تمدح الشاة ذئبها ... وتشكره أن نالها بالمخاتل
ألا قبح الله الوظيفة . إنها ... تكلفني إطراء أهل الرذائل
تكلفني ما لا أطيق احتماله ... ولم أك يوماً من دعاة الأباطل
وهل لي إلى ترك الوظيفة مخلص ... وعندي فراخ فاغرات الحواصل
وليس لها غيرى سوى الله عائل ... فلطفك يا رب السماء بعائل

وهذا هو جو الحياة الأدبية في هذه المرحلة ومنه نرى أن الشاعر أو الأديب عامة كان بين أمرين : إما أن يتملق السلطات الاستعمارية ، فيقول الشعر في تمجيدها والإشادة بها ، أو يدبج الفصول في تبرير أخطائها ، وإما أن يسكت سكوت العي العاجز ، حتى لا يعرف عنه أنه شاعر أو أديب ، وحتى لا يتعرض لهذه السلطات تتهدده في حياته أو أرزاقه . وهذا

ـ فيما أحسب ـ من أهم العوامل التي أضعفت الحياة الأدبية في هذه المرحلة .

وذلك هو الشأن في الحواضر التي أخذت تمارس الحياة في ظل ذلك النظام الجديد ، وتحاول أن تروض نفسها عليه ، والتي تحكمها اعتبارات عبر عنها الهنقاري في أبياته التي أوردناها ، وهي اعتبارات استطاعت أن تكبت مشاعر العداوة التي يضمرها الليبيون للمستعمر الإيطالي ، وأن تقمع الشاعرية التي قد تحاول التعبير عن هذه المشاعر .

أما البادية فالأمر فيها مختلف اختلافاً كبيراً ، فليس إلا الحرب السافرة ، لا مواربة ولا مداورة ، وهذه الحرب مما يثير الشاعرية ، وليس دون هذه الشاعرية اعتبار من الاعتبارات التي تسود الحواضر . ولكن شعر الفصحى في البادية كان مرتبطاً ـ كما قلنا ـ بالزوايا السنوسية ، وليس له جمهور يتجه إليه ويتجاوب معه إلا أصحاب هذه الزوايا . وقد انتهى أمر الزوايا ، وتحولت الى أدوار تدير الحرب وتدبر أمر الجهاد ، فلم يعد لذلك الشعر مكان فيها ، وإنما كان الأمر في التعبير عن روح الجهاد ومشاعر العداوة التي تستغرق الشعب الليبي في البادية للشعر الشعبي ، وكان هذا الشعر كفيلاً بقضاء هذه الحاجة والتجاوب مع هذه المشاعر . وقد بقيت من هذا الشعر مجموعة لا بأس بها مدونة في أعداد مجلة الفجر الليبي التي كان يصدرها في بنغازي ، سنة ١٩٤٧ م ، صالح بويصير ، إلى جانب ما تحتفظ به ذاكرة الرواة .

هذه هي ظروف الحياة الجديدة في هذه المرحلة ، وذلك هو أثرها في إضعاف الحياة الأدبية عامة فيها ، ومع ذلك فإنا نستطيع أن نتمثل الشعر في هذه المرحلة في طائفة من الشعراء ، لا نحاول أن نستقصيهم ، فليس هذا الاستقصاء ـ كما قلنا من قبل ـ مما نقصد اليه في هذه الدراسة ، فلنكتف منهم باثنين : أحدهما من برقة ، والثاني من طرابلس ، وهما : أحمد رفيق المهدوى ، وأحمد الشارف .

- ٢ -

ولا بأس أن نبدأ بالحديث عن رفيق المهدوى ، وإن كان أصغر الشاعرين سناً ، وآخرهما مولداً ، فقد كان ـ فيما نرى ويرى جمهرة الدارسين للأدب الليبي ـ أقوى شعراء عصره شاعرية وأشدهم بالشعر صلة ، كما أن ما نملك من آثاره أكثر مما نملك من آثار غيره .

وقد أدرك رفيق أواخر العهد التركي ، إذ كان مولده في أواخر القرن التاسع عشر ، سنة ١٨٩٨ ، في أسرة عريقة . كان أبوه حاكم مدينة فساطو ، من مدن طرابلس ، وكان جده الحاج أحمد المهدوى عميد بلدية بنغازي ، وكان منصباً من أكبر المناصب ، وتلقى تعليمه في المدارس التركية ، ولم يكد ينتهي من مرحلته الأولى ، حتى كان الغزو الايطالي ، ولم يكد يمضي عام على احتلال الايطاليين ليبيا ، حتى كانت أسرته دبرت شئونها للهجرة ، وقد اتخذت مدينة الإسكندرية مقاماً لها ، بين كثير من الليبيين الذين هاجروا اليها ، أو كانوا مقيمين بها من قبل .

وفي الاسكندرية استأنف دراسته التي كان بدأها في ليبيا بالتركية ، فالتحق بالمدارس المصرية ، يتابع مناهجها ، وأخذ إلى جانب ذلك يجلس في بعض الحلقات العلمية التي كانت تنعقد في جامع الشيخ ، ويحرص على قراءة ما تخرجه المطبعة من كتب الأدب ، يقبل عليها في نهم ، ويشارك أصدقاءه في قراءتها . وقد أخبرني أنه كان يقرأ مع بيرم التونسي رسالة الغفران لأبي العلاء ، وقد انتحيا ركناً في جامع الأباصيري يقرآنها فيه .

وقد أمضى رفيق في الإسكندرية نحو ثمان سنوات دارساً ، قارئاً متأملاً ، وهي السنوات التي انتقل خلالها من مرحلة الصبا إلى مرحلة الشباب ، والتي تكون فيها عقله ، وتفتح فيها وجدانه ، وتعينت اتجاهاته ، وشهد فيها من التجارب ما هو كبير الأثر في رجولته ولا ريب .

شهد المجتمع المصري الإسكندري في إبان الحرب ، وما كانت

تفرضه هذه الحرب عليه ، وما كان يلاقيه من المستعمر الإنجليزي من عنت ، وشهد كيف انفجر مرجل الغضب المكبوت عقب انتهاء الحرب ، ورأى مشاهد الثورة المصرية على ذلك المستعمر ، وقد زلزلت كيانه غداة انتصاره ، وعرف مثل الوطنية في عامة المصريين الذين كانوا لا يبالون رصاص المستعمر يصوب اليهم ، وانطوت نفسه على هذه المثل ، وهو يتمثل وطنه يعاني أبشع صور الاستعمار . وفي هذا الوقت أخذ يعالج الشعر ، فقد كان كل ما حوله يثير الجذوة الفنية الكامنة . وكان أول ما عالج منه قصيدة قالها في رثاء محمد فريد ، وكان محمد فريد يعتبر رمز الوطنية الصادقة المؤمنة المتجردة .

وبعد هذه السنوات وما أتيح لرفيق فيها من دراسة وتجربة ، وما أتيح لشاعريته من تفتح ، وما قدم لها فيها من نماذج فنية ، عاد رفيق إلى ليبيا . وكانت عودته هذه ـ فيما نحسب ـ غداة اتفاقية الرجمة التي عقدت في أكتوبر سنة ١٩٢٠ .

وكانت ليبيا غداة هذه الاتفاقية في وضع أشبه بأن يكون هدوءاً واستقراراً وطمأنينة ، وأن الأمور فيها قد انتهت إلى غاية يرضاها الوطنيون والطليان جميعاً ، بعد الذي عانته البلاد خلال سني الحرب من ويلات المجاعة وكوارث الأوبئة .

وقد وجد رفيق في ليبيا عند عودته قانوناً أساسياً ، وبرلماناً يمثل القبائل ، وسياسة مبنية على التفاهم ، كما وجد على رأس بلدية بنغازي التي يعيش فيها أصهاره من آل المحيشي أحد هؤلاء الأصهار ، وهو السيد محمد المحيشي ، فلم يلبث أن عينه في إحدى وظائفها .

ولكن هذا الهدوء الظاهر كان يخفي تحته غلياناً شديداً ، وهذا التفاهم الذي كان يتشدق به الساسة ويزينونه لم يكن عامة الناس وجمهرتهم يستطيعون إساغته ، وبالرغم مما عانوه من بلاء المجاعة والوباء . ولم ينخدع رفيق بهذه المظاهر التي يبالغون في إسباغها على

حقيقة الخصومة بين الشعب والمعتدى عليه ، ولم تحذر وطنيته الوظيفة التي أسندت إليه ، والصلة التي بينه وبين عميد البلدية ، وكان احد دعاة سياسة التفاهم ، فلم تلبث شاعريته أن جعلت تعبر عن نفسها في المناسبات المختلفة . وقد بقي لنا مما قاله هذه الفترة قطعتان : أما إحداهما فقالها عن « الحزب الدستوري العربي »، وأما الأخرى فقالها عن « صحيفة بريد برقة » .

والحزب الدستوري العربي هو أحد الأحزاب التي ينشئها الاستعمار في البلاد التي يستعمرها ، لتكون من أسبابه القوية في فرض نفوذه وتنفيذ سياسته ، وفي التمهيد له . وكأن الفكرة التي قام هذا الحزب عليها هي الفكرة التي أدار الطليان عليها دعايتهم ، وبثوها في منشوراتهم ، وهي إثارة عصبية العرب على الترك ، وزعمهم أنهم جاءوا ليحرروهم منهم . فقد كان هذا الحزب إذن أداة من أدوات الاستعمار الإيطالي .

وها هي ذي القطعة التي هاجم فيها رفيق ذلك الحزب هجوماً سافراً جارحاً لا مواربة فيه ولا تكلف ، وهي ، وإن كانت من أول شعره ، فيها دلالة كافية على نزعته الفنية ، إلى جانب اتجاهه الوطني .

الحزب الدستوري العربي ينبوع الباطل والكذب
قد لفق أحقر شرذمة ما ينقصهم غير الذنب
قالوا : إنا قوم جئنا لندافع عن مجد العرب
كذب ، كذب ، كذب ، كذب متأت من سوء الأدب
ما أنتم للطليان سوى بقر للخدمة لا الحلب
وكلاب ليس لها أمل إلا في الراتب والرتب

وأما جريدة بريد برقة فهي تمثل أداة أخرى من أدوات الاستعمار ، وهي أداة الصحافة ، تصدر باللغة العربية ، ويصدرها بعض الضالعين مع الاستعمار ، الداعين إلى سياسة التفاهم أو المصانعة ، وكان يصدر هذه الجريدة محمد طاهر المحيشى .

وبالرغم من صلة رفيق بمحمد طاهر المحيشي هذا ، كما رأينا ، وما قد تفرضه هذه الصلة من مجاملة ، وما قد تأخذه به من غض الطرف ، فإنه لم يعبأ بشيء من ذلك ، اندفع يهاجم هذه الجريدة بهذه القصيدة التي لم تلبث ان أصبحت على كل لسان ، وأنشودة كل مجلس ، بالرغم من وسائل القمع والكبت :

ألم يبلغك ما قال البريد ؟ … هراء لا يضر ولا يفيد
مسيلمة الجرائد ما تنبا … وزاد ، فدينه كفر جديد
تملق كي ينال رضاه قوم … فما رضي الإله ولا العبيد
فما ربحت تجارته فتيلاً … ولا هو في مساعيه حميد
يلفق كل مكذوب وزور … وعما كان من صدق يحيد
نذير الشر لا يأتي بخير … تهددنا ليرهبنا الوعيد ؟
فلا تتعب فإنا لا نبالي … أتانا قبلك الخبر السديد
ودع عنك السياسة لست منها … فإنك عن حقائقها بعيد
أينفع عندكم ورق وحبر … وما نفع الرصاص ولا الحديد
ستندم عن ملامسة الأفاعي … إذا انقلبت غضابا يا بليد
إذا خان القريب ذويه جهراً … بربك كيف يأمنه البعيد
يسرون التبسم عنك هزوا … أتدرى قول مدين يا رشيد
ولكن البصيرة قد أصيبت … فليس يفيدك البصر الحديد
ألست ترى عيوبك كل يوم … بوجه لا حياء به تزيد
معان مثل ما يهذى مصاب … وإعراب كما نطق العبيد
عجبت علام يخرج ؟ لا بيان … ولا صدق ولا رأى سديد
كفاك فضحتنا ! فاذهب طريداً … فيوم فراقك اليوم السعيد
متى تأتي لنا البشرى بأن قد … توفى قبل نشأته الوليد
لعمرك جاهل من يشتريه … حرام ذلك الثمن الزهيد
فلا تسرف ولا تأمنه يوماً … فيستهويك شيطان مريد
إذا جاءوا إليك به فعجل … إلى الكانون يصحبك الوقيد
ولا تقنع بتمزيق فيبقى … له في الناس مكذوب شديد

ويبدو من سياق هذه القصيدة أن رفيقاً كان قد جعل يهاجم « بريد برقة » في أحاديثه ومجالسه ، وأنه تعرض بذلك لألوان من التهديد والوعيد ، وكان من هذا التهديد إخراجه ونفيه .

ومهما يكن من أمر فلم يكن من من الطبيعي بعد هذه المجاهرة بالعداء للمستعمر ، ولدعاة المصانعة والهزيمة أن يظل رفيق في مقامه بليبيا ، لقد أصبح هذا المقام ، وخاصة بعد أن صارت مقاليد الأمور في يد الفاشيست ، أمراً عسيراً كل العسر ، محفوفاً بالمخاطر والنذر ، فلم يكن من الهجرة بد.

وهكذا هاجر إلى تركيا ، وكان أبوه وأخوه قد سبقاه إليها ، وأقاما بها في مدينة صغيرة تقع بالقرب من حدود سوريا ، تسمى جيحان ، فأقام معهما ، يشاركهما تجارة صغيرة اتخذاها . وأتيح له هنالك بعض الكتب العربية عند بعض العرب المثقفين ، منها كتاب الأغاني ، وقد أخذ يستعير هذه الكتب واحداً واحداً ، يزجى بقراءتها فراغه ، ويستكمل بدراستها أدواته الأدبية ، وكانت جذوة الشعر ما تزال تومض في قلبه .

وأمضى رفيق في مهاجره هذا تسع سنين ، اتخذت فيها وطنيته صورة الحنين إلى وطنه ، ومضت شاعريته تستجيب لهذا الحنين في قصائد من الشعر ، نستطيع أن نتمثلها في هذه القصيدة التي ضاع أكثرها . وها هي ذي بقيتها :

تكامل حول منذ فارقت أوطاني ... فما نلت في أثنائه غير أحزان
نوى قذف زمت ركابي ، ولم تزل ... تغلغل بي حتى أتت أرض جيحان
فألقت عصا التسيار في شر بقعة ... تألب في أرجائها شر سكان
تركت بلادي إذ شعرت بأنني ... سألقي صغاراً منه يأنف وجداني
وصرت لأرض غير أرضي مؤملاً ... لعز ، فكانا في المصيبة سيان
فياخيبة المسعى إلى غير موئل ... من النجح مشفوعاً بأعظم خسران
فقدت بلادي وهي عندي عزيزة ... ولم ألق ما أملت في بلد ثاني

كأني غراب البين غير مشيه | ولم يكتسب مشى الحمام بإتقان
حنيناً وشوقاً يا بلادي فإنني | وإن طال عنك العهد لست بخوان
فما كان بعدي عنك إلا ترفعاً | عن الضيم لا بغضاً ولا قصد هجران
وإني لأكمى في الجوانح لوعة | لحبك يوريها على البعد تحناني
إذا خفف الدمع الأسى فمدامعي | لها وقدة زادت أساي وأشجاني
كما كان عذب الماء في الجير منشئاً | على خصر فيه حرارة نيران

ونستطيع أن نتبين من هذه القصيدة ، أو هذه البقية الباقية منها ، أن رفيقاً لم يستطع أن يلائم بين نفسه وبين ذلك المجتمع الجديد . وكان من ذلك أن ظل يعيش في ذكريات الفترة التي أمضاها في ليبيا . فلم يكن ثمت ـ في هذه العزلة النفسية التي فرضت عليه ـ غير هذه الذكريات الحبيبة ، وتلك الصور التي مازالت تتبرج له ، وتثير شاعريته ، فتنطلق هذه الشاعرية ، مرددة تلك الذكريات ، مستحيية تلك الصور ، في مثل هذه القصيدة التي بقيت لنا من شعر هذه الفترة ، وقد وجهها إلى أحد أصدقائه في بنغازي : الشيخ موسى البرعصى :

بعد السلام وتقديم احتراماتي | إليك يا سيدي موسى تحياتي
وأشتكي حر أشواقي إليك فقد | أذكاه في خاطري بعد المسافات
فارقتكم وفؤادي لا يفارقكم | فيدتموه بأسباب وثيقات

وهي قصيدة تمثل لنا شاعريته في هذه الفترة ، وكيف استطاعت أن تؤنس وحشته ، وتحيطه بصور حياته الماضية ، كما استطاعت إلى جانب ذلك أن تعصمه من إحدى اثنتين كان صائراً إليها لولاها : أن تنمحى شخصيته في هذه البيئة الجديدة وتتحول إلى شخصية أخرى تلائمها ، وتساير تلك الحياة الجديدة فيها ، والأخرى أن تدب إليه الشيخوخة النفسية ، وينال منه الملل والسآمة ، فينماع ويتحلل ، ويصبح شخصاً لا شخصية له ، وإنساناً منبهماً ليس له من طابع يميزه ، يمضى أيامه كما

يمضيها دهماء الناس وعامتهم ، حتى تنتهي إلى غايتها .

بدأ رفيق قصيدته هذه على النحو الذي نراه ، مترسلاً ، كأنما يكتب رسالة هادئة إلى صاحبه ، ولكن عواطفه لا تلبث أن تجيش به ، وتتمثل له صورة خروجه من بلاده ، فتثير هذه الصورة أشجانه ، فإذا هو يقول :

تركت موطن آبائي على مضض ... مما تجرعت من هم وويلات
والله ما باختياري أن أفارقه ... لو لم ينغصه حكم الظالم العاتي
إني لأذكر يوم البين إذ هملت ... مدامعي فوق خدي مستهلات
وقد تحيرت في أمرين ما فتئا ... ينكدان حياتي في مناجاتي
حب يجاذبني قلبي ، وتدفعني ... نفس تربت على حب المساواة
لم ترض عزة نفسي بالمقام على ... ضيم الأعادي وأرباب الجهالات
خرجت من وطني مثل الطريد فما ... ودعت خلا ولا أدركت تاراتي

وتسلمه هذه الصورة التي تمثل حيرته يوم غادر الوطن ، بين حبه له وتعلقه الشديد به ، وبين عزة نفسه تدفعه عنه ، وتنأى به عن « ضيم الأعادي وأرباب الجهالات » ، إلى صور حياته تلك التي تركها أشد ما يكون حباً لها وهياماً بها ، فيقول :

يا لهف نفسي على تلك الربوع ، بها ... ربيع عيشي قد ولى ولذاتي
ما كان أقصره عمراً ، وأسرعه ... مرا كذلك اوقات المسرات
إذا تذكرت أيام الربيع وقد ... كسى الروابي بألوان النباتات
وفتح النور أفواهاً معطرة ... سكرت من نفح هاتيك « الفويهات »[1]
معاهد لبلادي كنت آلفها ... خلفت وأسفا فيها لباناتي

ثم تأخذ الصور في التبرج له متعاقبة ، الواحدة بعد الأخرى : البركة ، وجليانة ، وقهوة الشط ، وجنان المحيشى ، فيمثل كلا منها في هذه القصيدة تمثيلاً حياً نابضاً ، يعرضها في جو من الحب والحنين ، وفي إطار من الشوق والحسرة واللوعة .

---

(١) الفويهات اسم ضاحية جميلة من ضواحي بنغازي .

هاهو ذا يصور مجلسه في البركة وأصفياءه بها ، فيقول :

واذكر بها البركة الفيحاء زينها وقت الغروب وهبات النسيمات
إذ كنت أقصدها والنفس صافية وخاطري سالم من كل أنات
إلى بني وطني أهل السماح لهم بي انشراح وبشر في زياراتي
إني لأمـدح أحبـابي لحبهم إذ ما مدحت أمرأ من أجل حاجاتي
أقضي سويعات لهو في مرابعهم معززاً ، يا لدهري من سويعات

ثم يشيع هذه الصورة بهذا البيت الذي شيع به صورة « الفويهات »، معبراً عن حسرته التي ما زالت تتجدد عند كل ذكرى من تلك الذكريات :

معـاهـد لبـلادي كنت آلفهـا خلفت وأسفـا فيهـا لبـانـاتي

وينتقل من صورة البركة إلى صورة « جليانة » ، وهي شاطىء بنغازي ومسبحها ، وشتان ما بين الصورتين ، إنها تعرض جملة من الصور اللاهية الفاتنة ، تبعث في قلبه ألواناً من الصبوة :

واذكر بجليانة الحمام ، إن له ذكرى تحرك مكنون الصبابات
فيه الجمال تجلى غير محتشم يسبى النهي في تثن والتفاتات
لابوركت حلل الصيف التي فتنت بما وشت عن بدور بين هالات
ما خلف الصيف غير الحر في كبدي ولا الملاح سوى مر ادكارات
غيد سهام الهوى منها مفوقة كل القلوب لها صرعى إصابات
يجرحن أفئدة النظار في لعب ولا قصاص على تلك الجراحات
دع ذكر جليانة الغراء ، إن لها عن الغرام طويلات الروايـات
معـاهـد لبـلادي كنت آلفهـا خلفت وأسفـا فيهـا لبـانـاني

ولا تكاد صورة جليانة تتوارى حتى تعرض صورة ذلك المجلس الذي كان يتخذه هو وأصحابه وقت الأصيل وعند الغروب ، في « قهوة الشط »، يستمتعون بمشهد البحر ، وما يعرضه من ألوان وصور ، وما يصرفهم عنه إلا تلك الجميلات الغاديات الرائحات ، من نساء الطليان واليهود :

وقهوة الشط ما أحلى الجلوس بها بين الأحبة في تلك العشيات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إذا جلسنا تجاه البحر ننظر في — صاف من الماء ألوان السحابات
ومدت الشمس فوق اليم عسجدها — وشنف السمع تكرار المويجات
نمتع الطرف في بحر وفي شفق — حتى تمر بنا إحدى « اليهودات »
وللظباء سنوح عن ميامننا — وعن شمائلنا تمضي زرافات
معاهد لبلادي كنت آلفها — خلفت وأسفا فيها لباناتي

ثم ماذا بعد مجلسه في جليانة في الصباح والظهيرة ، ومجلسه في « قهوة الشط » في العشية ؟ إنه مجلسه ليلاً في « جنان المحيشى » ، مجلس السمر الحلو والغناء والموسيقى . ها هي ذي صورة هذا المجلس تملأ خاطره ، وها هو ذا يرسمها في هذه الأبيات :

واذكر جنان المحيشى حيث تجمعنا — مع الحبيبين ليلاً والحبيبات
تظل أرواحنا بالراح رائحة — تميل لكن على وفق النغيمات
زمارنا بارع فاقت براعته — كادت يراعته تأتي بآيات
يوقع اللحن موزوناً فيسلبنا — ألبابنا بين تصفيق وصيحات

فإذا بلغ هذا الحد عاوده أساه ، وتغشته صور أخرى بغيضة ، صور الأعداء ومن وضعوا أنفسهم في خدمة الأعداء ، فما زالوا به حتى ترك حياته تلك ، وهجر موطنه ومعاهد شبابه ومسارح لهوه :

هنالك العيش ، مخضراً جوانبه — ظل وريف وأرض ذات خيرات
تغافل الدهر عنا فينة فلتت — عادت علينا بأنواع الأذيات
ذقنا بأضعافها مر الحياة وما — شق المرائر من تلك المرارات ؟ !
أغرى الزمان بنا أعداءنا فسعوا — لزجنا في مهاو من غيابات
تأثرتني عين القوم ترصدني — تحصى خطاي فتحصيها خطيات
وما جنيت سوى إنكار منكرهم — بمذودي فتغالوا في معاداتي
وتلك شنشنة صار اللئام بها — مقدمين على أهل البيوتات
يجلهم قومنا - يا للشقاء - وهم — أدنى لعمري - من قدر الحشيرات
بمثلهم يستفيد الغاصبون لنا — فيقدمون على فعل الشناعات

ويمضي رفيق في الحديث عن هذا الفساد الذي تعرضت له البلاد ،

وهذه المناكر التي أعانت المستعمر ، ومكنت له من السيطرة والاستبداد ، في نغمة يغمرها الحزن والأسى والوجيعة . ثم يعود إلى نفسه وما جنى عليها ذلك الفساد من مغادرة الوطن ، وما تعرضت له في ذلك من محن لا تطيقها :

انظر تجد ، يا رعاك الله ، حالتنا ... كما يود الأعادى في ارتباكات
فالحر إن لم يمت مما يرى كمداً ... ويل له من حياة الإحتقارات
ذاك الذي لم تطق نفسي فطوح بي ... إلى مـرام قصيـات بعيـدات
فررت بالنفس ، لا من أجل عيشتها ... لكن مخافة إلحـاق الإهانـات
حتى استجرت ،ولكن كنت من نكدي ... كالمستجير بعمرو في الملمات
عجبت للطالع المنحوس يتبعني ... أني ذهبت أتـاني بالإسـاءات
مـا جئت مملكة إلا تملكني ... خوف ، وأدركني حيف الحكومات
خلقت حراً فما فوق البسيطة من ... أعنو له غير جبار السمـوات
كرهت أن يتولى إمرتي بشر ... أو أن أكون أميراً في الإمارات
لم أدر هل ذاك مني الفوضوية أم ... هي الممالك جارت في السياسات

هذه صورة من شاعرية رفيق في هذه الفترة من حياته ، وما كانت تحيطه به في منفاه من صور ، وما كانت تضيفه عليه من جو الوطن . وقد أطلنا في عرض هذه القصيدة ، لأنها تمثل هذا الاتجاه تمثيلاً واضحاً ، كما تقدم إلينا في الوقت نفسه صورة من الحياة في بنغازي أثناء الفترة القصيرة التي أمضاها رفيق فيها قبل خروجه منها .

وقد عاد رفيق إلى ليبيا بعد هذه السنوات التسع التي أمضاها بعيداً عنها ، يدفعه الحنين ، ويحفزه الشوق ، وتحف به الذكريات . وكانت البلاد قد أخذت يسودها شيء من الهدوء بعد مقتل الشهيد العظيم عمر المختار ، واستطاعة الطليان أن يقضوا على المقاومة العنيفة التي عانوها حتى ذلك الوقت ، وأخذ يغلب على الناس شيء أشبه بشعور الاستسلام أو الاستجمام ، كما أخذ الطليان يتوددون إليهم ، ويحاولون بكل وسيلة أن يصرفوهم عن استثارة الحقد الكامن في نفوسهم .

في هذا الجو أخذ رفيق يراجع معاهد شبابه ، استجابة لروح الحنين المسيطرة عليه ، وحيوية الشباب القوية المتدفقة. هذه المعاهد التي كان يعيش على ذكرياتها وبين خيالاتها تسع سنين ، وهذه المسارح التي كانت مسرح خواطره ومناجاته . ها هو ذا قد عاد إليها حقيقة ماثلة ، لا ذكرى عابرة وخيالات حائلة .

وأقبل رفيق على هذه المعاهد والمسارح يرضى بالإقبال عليها نزوعه إلى الجمال ، وهو نزوع قوي غلاب ، ويستجيب بها لشاعريته التي مازالت تهزه وتؤزه ، وهي شاعرية أصيلة دفاقة .

وإذا كانت الفترة التي أمضاها رفيق في ليبيا فترة قصيرة ، لا تكاد تتجاوز ثلاث سنين ، فقد كانت فترة حافلة ، نشطت فيها شاعريته نشاطاً كبيراً ، ومدت بصرها في كل ناحية ، وتغلغلت في كل زاوية ، واستجابت استجابة خصبة لأحاسيسه المختلفة ، الوجدانية والوطنية جميعاً ، بالقصائد والمقطعات ، جادة حيناً ساخرة حيناً آخر .

ونستطيع أن نتمثل شعره الوجداني في هذه الفترة في هذه القطعة التي تمثل ـ إلى جانب ذلك ـ لوناً من ألوان حياته في بنغازي :

يا نجم الدين ، وأنت أخي ... قل لي : ما رأيك في قمري ؟
شاهدت بعينك طلعته ... من بعد سماعك بالخبر
قل لي : أرأيت كصورته ... فيما شاهدت من الصور ؟
إن كنت سواه ترى فأنا ... غطى ـ والله ـ على بصري
لا أبصر غير محاسنه ... جاءت لهواي على قدر
العيب ـ وليس به عيب ـ ... من أحسن شيء في نظري
قالوا : قد جن به ومشى ... في أقبح مأثور السير
ما الحيلة فيمن ليس يرى ... في الحب سوى نيل الوطر ؟
والله ، وحقك ، لا أمل ... لي في المحبوب سوى النظر
وقنعت بذاك فما تركوا ... بث الأرصاد على أثري

أرأيت ونحن جلوس في جليانة في وقت السحر
كيف اخترعوا ما نغصني وأحال الصفو إلى كدر
حسدوني حتى رؤيته وأنا أتزود للسفر
ما أجمل تلك الليلة إذ كنا ، يا نجم ، مع القمر
سكنت حشاشة مضطرب يقضي الأيام على خطر
يا نجم الدين ألم يك لي عذر إن ضقت من الضجر ؟
أيعاتبني الإخوان لذا ك ، وإني لست من الحجر ؟

وقد بقيت من هذا الشعر بقية صالحة ، تدل على مبلغ نشاط شاعريته في هذه الفترة ، كما تشير إلى ألوان لاهية عابثة من الحياة كان يحياها وينفق فيها وقته .

ولكن هذه الحياة لم تصرفه عن المأساة التي يعانيها وطنه ، وهذا النشاط الذي تتجلى شاعريته في التعبير عن هذه الحياة لم يستأثر بها ، فقد ظلت تلك الصور الاستعمارية البغيضة التي انتقشت في وجدانه ماثلة أمامه ، تثير أحقاده وضغائنه .

وقد بقي لنا مما فاضت به شاعريته عن ذلك قصيدتان : أما إحداهما فصورة مشهد من مشاهد الطغيان الإيطالي والوطنية العربية ، وأما الأخرى فصورة بعض الصنائع التي اصطنعها الاستعمار ، من بين الوطنيين ؛ فالأولى صورة البطولة تملأ القلوب عزة وفخراً ، والأخرى صورة النذالة تملأ النفوس سخرية واشمئزازاً وتنكرا .

أما الأولى فهي قصيدة جعل عنوانها « غيث اليتيم » .

وغيث هذا غلام صغير ، بقية أسرة كانت تعيش في هناءة وخفض ، حتى هاجمها الطليان في مضربها ، فقاومهم رجالها مقاومة شديدة صامدة مستبسلة ، حتى قضوا جميعاً نحبهم ، وأقفر الحي منهم . ومضى النسوة بأطفالهن هرباً من وجه الطغيان والغدر والبطش ، يعانين الخوف والجوع معاً ، حتى قضى النسوة والأطفال جميعاً ، إلا غيثاً هذا ، فقد كتب له

البقاء ، وصار إلى الملجأ ، وهو يضمر الحقد والضغينة في قلبه ، لا ي ـ جهداً في كتمانهما ، إلى أن يقضي الله قضاءه ، ولكنهما يغلبانه أخيراً على أمره ، فإذا هو يكشف عن عزيمة الثأر المبيتة في نفسه ، في حضرة الوالي الايطالي ، فينصرف عنه وفي نفسه ما فيها ، ويخلفه زبانيته يجرعونه السم ، حتى لحق بأسرته ، وقد حاق به الغدر الذي حاق بها .

وقد عرض رفيق هذه الصورة ، في أسلوب شعري حي نابض ، وساقها سياقاً محكماً ، وأبرز بها الوطنية الليبية في إطار قصصي جميل .

بدأها برسم ملامح ذلك الطفل الذي لم يبلغ التاسعة من عمره ، ولكن الأحداث جعلته ناضج الشخصية ، في قسماته وهيئته ، وفي عقله وذكائه ووقاره وثقوب رأيه :

هو في الملجأ من دون اليتامى — دائم الصمت وقاراً واحتشاما
واضح الجد ، قليلاً ما يرى — ضاحكاً إلا إذا استحيا ابتساما
نافذ اللحظ ، تراه ناظراً — نظرة الأجدل يرتاد الحماما
يتقى أقرانه صولته — حين يحتد إذا اشتدوا خصاما
رمقوه باحترام هيبة — وقديماً أورث الجد احتراما
وإذا الجد مع العز التقى — جعلا للمرء في الناس مقاما
هو في الملجأ أذكى طالب — بزهم حفظاً وفهماً وانتظاما
فهو رأس القوم رأياً وهدى — شيخهم عقلاً وإن كان غلاما
دون تسع ناهض في صحة — واستواء كالرديني قواما
تستحى عزة نفس شمخت — للعلا ألا يرى فيهم إماما
وإذا نفس الفتى شبت على — عزة زاحم للمجد وسامى
ليس غير النفس باستعدادها — سودت في سالف الدهر عصاما

فإذا انتهى من رسم هذه الصورة ، وهي مقدمة القصيدة ، انتقل إلى القصة ، وقد جعل الفصل الأول منها على لسان غيث ، وقد جاءه الشاعر في الملجأ ، يحييه ويسائله :

جئت إعجابا به أسأله   فتبسمت وأهديت السلاما
هب كالشبل نشاطاً واقفاً   وقفة الجندي للقائد قاما
أطرق الرأس وحيا خافضا   طرفه مني حياء واحتشاما
قلت يا غيث ، ألا تخبرني   عنك ؟ إني بك قد زدت اهتماما
فيك يا غيث توسمت فتى   أروعا حراً ، وآباء كراما
ابن من أنت ؟ ومن قومك ؟ من   لك في ذا الملجأ اختار المقاما ؟

لم أكن أحسب أني باعث   منه حزناً كان في البدء سقاما
كتم العبرة إلا نبرة   عرضت في الصدر عاقته الكلاما
جاشت النفس بحزن مثلما   جالت الدمعة في الجفن انسجاما
وانثنى مبتسماً حزناً ، وما   أقبح الحزن إذا لاح ابتساما
قال : يا مولاي لو غيرك لم   أبك في حضرته أخشى ملاما
فيك آنست حنانا ، لم أجد   بعد أمي مثله يشفى أواما
ان للشاعر روحاً حلقت   فوق روح الخلق حسا وغراما
لك يا مولاي أفضي بالذي   كاد صدري منه ينشق اكتتاما
إن في الشكوى إلى ذي رحمة   سلوة تشبه بالصبر اعتصاما
رب شكوى جعلت نار الأسى   نار إبراهيم برداً وسلاما
أصغ لي سمعاً ، فهذي قصتي   تشرح البؤس ابتداء واختتاما

كان مسعود أبي في قومه   سيد الأعراب معروفاً هماما
فارس الخيل غياث المحتمى   مكرم الضيف كفيلاً للأيامى
بارك الله له في ثروة   تملأ الوادي ثغاء وبغاما
وله من بنت عم إخوتي   خمسة تنتقص البدر التماما
فكأن السعد إذ سالمنا   سهر السعد لنا والنحس ناما
ثم لما غلبت شيمته   قعد السعد وهول الخطب قاما :

بينما الحي رقود إذ علت   صرخة تنذر بالشر النياما
ثارت الأطفال من مضجعها   تملأ الرحب صياحا وزحاما

لبسوا ثوب الدجى أيدي سبا   يخطبون البيد في البر انهزاما
تركوا الأثقال والمال وما   خف حملا والمطايا والخياما
ورأى الأبطال ان الموت لا   شك فيه ، فتلقوه زؤاما
قيدوا أرجلهم صبراً فما   حلها غير رصاص يترامى
حلها من ربقة العار ومن   عيشة الذل ، فقد ماتوا كراما
هون الخطب علينا موتهم   في دفاع كان للحق انتقاما
ما ترى في الحي حياً بعدما   فرت النسوة يحملن اليتامى
سلكوا في كل شعب هربا   يستجيرون من الظلم الظلاما
لست أنسى إخوتي في جبل   يتضاغون من الجوع صياما
منذ يومين يسيرون ، وما   شربوا ماء ولا ذاقوا طعاما

ساقنا الخوف إلى غار بدا   تتوقي الجن فيه أن تناما
ما دخلنا الغار حتى هجمت   ضبع فافترست منا غلاما
وانثنت في إثر ثان فانتقت   طفلة في لحظة صارت عظاما
وتردى ثالث في هوة   لم يزد عن قول (يا أمي) كلاما
أمه تجري ولا تدري وفي   صدرها من لم يطق بعد فطاما
تركت أطفالها صرعى لها   لفتة كانت إلى القلب زماما
خلفتني وهي لا تعلم هل   خلفها أتبع أم فت أماما
خانني عزمي ورجلاي فلم   أستطع من شدة الهول قياما
ففقدت الرشد مغشيا فما   قمت حتى هزم الضوء الظلاما
وفقدت الأم : لا أعلم هل   أفلتت بالطفل أم ماتا هياما
ليتني أسمع عنها موتها   فلقد أبقت لي الهم لزاما
حبذا الموت ولا عيش هنا   خاضعاً في ربقة الذل مضاما

وهنا أجهش غيث ناحبا   إذ رأى دمعي كالغيث رهاما
وارتمى بين ذراعي فما   رام عن صدري ضما والتزاما

وهنا ينتهي هذا المشهد ، وينتهي الشطر الأول من القصة ، وقد

حكاه الشاعر على لسان الصبي ، ليبدأ الشطر الثاني الذي يمثل لوناً آخر من ألوان الغدر الدنيء والبغي الوضيع ، وإن يكن هذه المرة مقنعاً .

ويبدأ هذا الشطر بمشهد الوالي الايطالي ، وقد جاء الى الملجأ يتفقده . وكانت الملاجىء مؤسسات استعمارية ، ظاهرها للبر ، وحقيقتها تشكيل طبقة من الناس تشكيلاً خاصاً ، وتكوينها تكويناً استعمارياً ، فلا عجب ان يعنى الوالي بتفقدها ، وتبين سير الأمور فيها ، وتعرف نزلائها الذين يعدهم لقضاء حاجات المستعمر في هذا البلد ، بين حين وآخر . وهكذا يمضي الشاعر قائلاً :

بينما رحت أهدي روعه ... فإذا بالقوم يبدون اهتماماً
قيل : هذا دولة الوالي أتي ... ليرى في ملجأ البر النظاما
خرج الأطفال واصطفوا له ... للتحيات هتافاً وسلاماً
جال يستعرضهم ممتحناً ... وهو يختار غلاماً فغلاماً
ما رأى فيهم كغيث إذ رأى ... من ذكاء عجبا فاق الأناما
حاطب الطفل مليا ، فرأى ... رابط الجأش فصيحاً لا كهاما
قال : هذا عبقري فارفعوا ... قدره ، إني سأعطيه وساماً

فتلقاه بشكر ، مظهراً ... لسرور تحته يخفى احتداماً
وحباة بنقود قائلاً ... أعط في إنفاقها النفس مراماً
قال : يا مولاي ، أقصى غايتي ... صرفها بين الأخلاء اقتساماً
لا أحب البخل . إنا معشر ... نؤثر الغير ، ولو بتنا صياماً
هكذا علمنا آباؤنا ... طيب الأخلاق فعلاً لا كلاماً
إن أخلاق الفتى ما لم تكن ... من غريز الطبع لم تبق دواما

عرف الوالي لغيث همة ... ورأى جوداً له يحكى الغماما
زاده رعياً . وهل غير ذوي الفـ ... ـضل يرعى لذوي الفضل ذماما ؟
قال : خذ يا غيث هذي مائة ... لك . لا تسرف وكن فيها قواماً
قال : يا مولاي ، سمعاً ، إنني ... سأبقيها وإن كانت حطاما

لا أرى المال ، إذا لم أكتسب منه ذكراً حسناً ، إلا حراما
قال : ما تصنع يا غيث بها ؟ قل لي الحق ولا تخش ملاما
قال غيث ـ وبدا الجد على وجهه ، يشبه ليثاً أو قطاما ـ :
« إن لي ثأراً ، إذا أدركته لا أبالي بعد إن ذقت الحماما
لو تحصلت على مال به أشترى عدة حرب وحساما
أدرك الثارات ممن قتلوا والدي . إني أريد الإنتقاما
هو منشودي من الدنيا التي لي ساءت مستقراً ومقاماً »
ليس في التصريح بالحق ، وإن جر ويلاً ، خلة تكسب ذاما
إن حر النفس لا يحجم عن أن يقول الحق للصدق التزاما

نظر الوالي إلى غيث ولم يظهر الحقد ولا أبدى ملاما
ورأى أتباعه ما غاظهم فتعاطوا نظرة كانت كلاما
أضمروا سوءاً ، ولكن لم يروا سبباً يوجب منه الانتقاما
لجأوا ظلماً وعدواناً إلى أفظع الأفعال ، إذ كانوا لئاما
عادة النذل اغتيال ، ولذا جعلوا سرا له السم طعاماً
ما جرى في جوفه حتى جرى في وتين القلب كالنار اضطراما
خر للموت صريعاً يلتوى يطلب الماء ، فيبدون ابتساما
لم يزل ينفث من فيه دما أسودا من كبد ذابت رماما
يلفظ الآخر من أنفاسه وينادى الانتقام الإنتقاما
راح مظلوماً شهيداً جاعلاً لفظة التوحيد لله ختاماً

هذه إحدى القصيدتين اللتين أشرنا إليهما . ولا ريب أن رفيقا استطاع في هذه القصيدة أن يرسم صورة بشعة من صور الطغيان الإيطالي في حالتيه : مجاهراً كاشراً عن أنيابه ، ومخادعاً يخفي كيده ويستر مكره . كما لا نشك في أن هذه القصيدة كانت كبيرة الأثر في استثارة الحمية الوطنية بإبراز هذه الروح الاستعمارية في أبشع صورها وأقبح وجوهها وأكثرها دلالة على الخسة والنذالة . وذلك في الوقت الذي أخذ فيه

المستعمر الإيطالي يرسم سياسة التهدئة والمسالمة ، ويود لو استطاع أن يستل من القلوب أضغانها وسخائمها ، وينسى الشعب الليبي روح الانتقام التي تملأ نفسه وتغمر حسه ، والتي مثلها رفيق في شخصية « غيث » الذي عاش لينتقم ، بالرغم مما كان يغمره به الوالي من عطاء ، ومات وهو يهتف : الانتقام ، الانتقام .

وأما القصيدة الأخرى التي أفلتت من مطاردة الاستعمار الإيطالي للشعر الوطني ، فقد أراد أن يصور بها تصويراً ساخراً ، بعض هؤلاء الذين اتخذهم المستعمر صنائع له ، فوضعوا أنفسهم في خدمته ، وساروا في ركابه ، وهو يخص من هؤلاء في هذه القصيدة بعض رجال الدين الذين لم ينههم دينهم عن ممالأة المستعمر ومصانعته ، فهو يشهر بهم ويبالغ في التشهير . وقد بدأ القصيدة بالتعبير عن ضيقه بهذا الذي يعانيه أبناء الوطن في وطنهم من إنكار حقهم في الحرية ، ورميهم بالأوشاب يسدون عليهم مسالك الحياة :

إلى متى نحن في هم وأوجال ... نحيا على الضيم في سجن وأغلال
في بلدة كوجار الكلب منزلة ... ضاقت بنا بين أعداء وجهال
هانت علينا ، وقد كانت محبتها ... فرضاً على كل حر النفس مفضال
لو أنها مصر ما طابت ، وقد فعلوا ... بنا كفرعونها في آل إسرال
فالقبر أفضل منها للكريم ، وقد ... ساماه فيها يهودي وصومالي
كيف المقام بأوطان يعذبنا ... بها العدو ويرمينا بزلزال

ثم ينتقل من هذا إلى ما بنى القصيدة عليه من التشهير بأعوان المستعمر وأذنابه ، فيقول :

وربما هان خطب النازلين بنا ... لو لم يعززه خطب الصحب والآل
نصف البلاء أتى من ظلم غاصبنا ... والنصف منا بأحقاد وأذحال

ثم لا يكاد يمضي في التنديد بأخلاق القوم في حقدهم وإنفاقهم

الوقت في الباطل ، حتى يصل إلى الصورة التي كانت ـ فيما يبدو نصب عينه ، وهو يصنع قصيدته :

قاض قضى الدهر أن تشقى البلاد به   من جور حكم وإغفال وإهمال
يرضى بما يغضب المولى ويسخطه   إن كان في ذاك ما يرضى به الوالي
يكاد يسجد للحكام مرتعداً   من جبنه بين ترحيب وإجلال
لو أنهم أمروه أن يبيح لهم   نساءنا لأتى بالنص في الحال
تلاعبوا بأمور الدين عن يده   فكان عوناً لهم في كل أعمال
أفتى بفطر لأشرار تقاتلنا   مع العدو وباع الدين بالمال

ثم يغرق في تصويره الساخر ، فيقول :

قد أذهب الطيش عنه كل هيبته   فصار كالقرد يجرى بين أطفال
يهز لحيته في كل مجتمع   كالتيس ، غطى على القرنين بالشال
يظل في الشمس كالحرباء منتصباً   يلوح ممتهناً في البرنس البالي

إلى آخر هذه القصيدة التي نكتفي بهذه الأبيات منها في الدلالة على سائرها .

لم يلبث رفيق أن عاد إلى تركيا مرة أخرى ، موجع القلب ، ليراجع تلك الحياة التي أمضاها فيها من قبل تسع سنين ، وعادت اليه تلك البطانة القديمة من الذكريات تراوحه وتغاديه ، وعادت شاعريته تأنس الى هذه الذكريات ، تتمثل صوراً فنية وقصائد شعرية ، يبعث بها إلى أحبابه ورفاقه وأصحاب مجالسه في ليبيا ، وهي تنفح بمشاعر الحنين والحب والشوق . وبين أيدينا طائفة من هذه القصائد التي أتيح لها البقاء ، لعل أولاها هذه القصيدة :

يا أحبائي شجاني بعدكم حزن طويل
اذكروني كلما لاح لكم وجه جميل
اذكروني حينما يجمعكم للكيف نسيل
أنا لا زلت على عهدكم ذاك الخليل

لست بالناسي لذكراكم وإن شط الرحيل
كيف والقلب لديكم ماله عنكم بديل
فاذكروني كلما لاح لكم وجه جميل

* * *

يا أحباي إذا هبت من الشرق عليل
وذهبتم نحو « جليانة » والوقت أصيل
وازدهاكم شاطىء البحر تحاذيه النخيل
وجلستم عند تمثال له ظل ظليل
وشربتم ذائب العسجد بالدر يسيل
فاذكروني علّ روحي يشتفي منها الغليل
واذكروني كلما لاح لكم وجه جميل

أنا لا أنكر : من طبعي إلى الحسن أميل
تزدهيني القامة الهيفاء والخد الأسيل
شاعر الحب ، عزيز النفس ، والله وكيل
يشهد الله بأني ليس لي قصد سفيل
فليقل من شاء لا يزعجني قال وقيل
إن حب المرء للحسن على الذوق دليل
فاذكروني كلما لاح لكم وجه جميل

* * *

صرت في سيحان كالمجنون سلواه العويل
ليس لي خل كأني بين أهليها أبيل
من رآني قال : مجنون غريب أو عليل
ماله منفرداً ليس له منا خليل
إن من يمني بتغريب ، وإن عز ، ذليل
فإليكم يا أحباي وقد حار الدليل

اشتكى حزناً طويلاً زاده شوق طويل
فاذكروني كلما لاح لكم وجه جميل

هذه صورة من حنينه ، صافياً من كل شوب ، خالصاً من كل ريبة ، ولكن هذا الحنين كانت الريب لا تلبث أن تحوم عليه وتداخله . كان أشد ما يزعجه في منفاه أن يخيل إليه أن أصدقاءه قد انصرفوا عنه ، وغيرتهم الأيام بعده ، شغلتهم شواغل الحياة عن ذكره ، وهو إنما يعيش في هذا المنفى بهؤلاء الإخوان ، يراهم صورة المودة الصادقة والحب الخالص ، ويحتفظ بذكرياتهم ليكون له منها أنس في هذه الوحشة الموحشة ، فإذا رابته الريب ، ورأى هذه الصور الجميلة التي يأنس إليها ويحيا بها قد رنقتها الأكدار ، ونكرتها الأيام ، وعبثت بها الأوهام ، فما أجدر ذلك أن يثير في نفسه أشد الحسرة وأعنف الحيرة ، وأن يملأ نفسه قلقاً وإشفاقاً .

وكانت هذه الوساوس تعبث أحياناً به ، فيتردد صداها في شعره ، في رفق وتلطف ، كما نرى في هذه القصيدة :

يا من على البعد نهواه ويهوانا ... لشد ما شفنا شوق فأضنانا
ذكرى عهود الهوى باتت تساورنا ... يا من يبلغ للأحباب شكوانا
إنا بحكم الهوى صرنا ـ ولا عجب ـ ... نزيد ذكراً لمن يزداد نسيانا
ما أنصفتنا الليالي في نوى تركت ... جسماً هنا وهناك القلب ولهاناً
قلب أضر به حب الوفاء فما ... أخل بالعهد في حب ولا خانا
واف على البعد ، لا النسيان خامره ... ولا استطاع على الأيام سلوانا
واها لذكرى حبيب ! كلما سنحت ... كأنما قدحت في الجاش نيرانا
ذكرى تمثل ، في ريعان نضرته ، ... عصر الشباب وإخواناً وأوطاناً :

أما الشباب ، وما كان الشباب لنا ... إلا على رغم أنف الدهر طغيانا
كان الجنون . وما أحلى الجنون به ... ما لذة العيش إلا فيه إذ كانا
كأنها « سكرة » طارت فأعقبها ... صحو أجد لنا ـ لا كان ـ أحزانا
وما عرفنا له في حال نشوتنا ... قدرا، وكم جمد الكفران إحساناً

يا حسرتا ما تمتعنا برونقه إذ كان كالزهر رفافا وريانا
كأنه نعمة من بعد ما ذهبت ذقنا لها حسرة حرى وفقدانا
لم يبق من طيب لذات الشباب سوى ذكرى تمازجها الآلام أحياناً
وكيف يلتذ بالأحلام من ذهبت بالصبح عنه ، فبات الدهر يقظانا

ورب إخوان صدق كان يجمعنا بهم إخاء صفا سرا وإعلانا
كانت مودتهم قربي ، ورؤيتهم تجلو عن القلب من دنياه مارانا
ما سرنا بعدما ولت شبيبتنا إلا صداقة من بالصدق صافانا
وفي الصداقة عن فقد الصبا عوض إن الصديق شقيق عز أو هانا
ما في الحياة من اللذات أمتع من صافي مودة عقل حاز رجحانا
لله أيامنا والشمل مجتمع في ظل عيش على الأيام أطغانا
حتى خرجنا عن الأوطان من بطر بنا جزانا به الأحباب هجرانا
إنا على الهجر ما ننفك نذكرهم فهل على بالهم يجرون ذكرانا
ما خيم الليل إلا بات يعلقنا شوق إذا رقد السمار ناجانا
نحن شوقاً إلى أوطاننا ، فإذا تبسم البارق الغربي أبكانا
ومن سوانا جدير بالبكاء على ذكرى الفويهات والبركة وجوليانا
معاهد حبها لو لم يكن شغفا بما لها من جمال كان إيماناً
قد طوحتنا الليالي عن مواطننا يا ويح كل غريب قدره هانا
لا عز إلا لثاو في مواطنه إن الغريب مهان أينما كانا
(ما أقدر الله أن يدنى على شحط سكان برقة من سكان جيحانا
عين الزمان أصابتنا فلا نظرت وعذبت بصنوف الهجر ألوانا)

وهذه القصيدة تمثل مرحلة النضج في شخصية رفيق وفي شاعريته ، ففيها إلى جانب عنصر الحنين عنصر التأمل ، إذ يذكر الصداقة ، وأنها عوض عن الصبا عندما تولى الشبيبة ، ويذكر المودة العقلية ، وأنها بديل من الهوى ، الذي كان يغمر حياته الأولى .

والتأمل هو أحد الاتجاهات التي اتجهت إليها شاعريته في هذه

المرحلة ، مرحلة الأربعين ، وذلك في مثل قصيدته التي قالها عند موت جبرائيل دانونزيو ، وجعلها في مناجاة روحه ، وبعث بها من مقامه في تركيا إلى مجلة ليبيا المصورة التي يديرها صهره . وقد بدأها بقوله :

رفرفي في عالم الأرواح ، أصبحت طليقة
في خيال الشعر كم حومت ، تبغين الحقيقة
كنت في سجن من الجسم الترابي أسيرة
تستشفين حجاب الغيب من نور البصيرة
كان ذاك الجسم يخفي نزوة الروح الكبيرة
فانجلى الآن حجاب الشك عن شمس الحقيقة
فامرحي في عالم الأرواح ، أصبحت طليقة

ثم يمضي في مناجاته لهذه الروح التي لقيت أرواح الشعراء والعلماء ، فهو يسائلها عنهم ، فيما كانوا يذهبون اليه ويقولون به في الحياة الدنيا ، وما كشف لهم عنه في حياتهم الأخرى ، ويتخذ من ذلك مجالاً لتأملاته ، فهو يقول مثلاً :

واسألي روح المعري عن قضايا حيرتها
بينت مقدار عجز العقل أسرار حوتها
فأطال الناس في تعليل آراء رأتها
فاسأليها رأيها في العقل : هل يشفي غليلاً ؟
أم كما قيل احتياج العقل للوحي حقيقة

ليتني أعرف ماذا قال إذ لاقى أباه
أترى لم يعتذر عن قوله : « هذا جناه »
أم أحال العذر في ذاك على فرط تقاه
غلبت عاطفة الرحمة حتى عد ظلماً
من بني آدم أن تذبح للطفل عقيقه

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الشعر المعاصر ، مبدياً رأيه فيما صار إليه بعد شوقي والزهاوي :

بلغي عنا إذا لاقيت شوقي والزهاوي
أننا للآن لم نخلفهما غير دعاوي
يدعيها شعراء ما لهم في الدهر راوي
تدعي مصر وسوريا ، فتغتاظ العراق
كدراويش الزوايا ، فقدوا شيخ الطريقة

ثم يختتم هذه المناجاة بالتأمل في أمر الموت :

ليت شعري كيف كان الموت ؟هل في الموت راحة ؟
هل كما قالوا برجم الغيب ؟ أم تلك وقاحة ؟
من لنا بالعلم يجلوه يقين وصراحة ؟
حبذا لو كان في الإمكان تبيان الحقيقة
كنت أولى من يجليها وقد صرت طليقة

وبعد ، فلا نريد أن نطيل الحديث عن شاعرية رفيق ونشاطها في هذه المرحلة من حياته ، وقد وجدت هذه الشاعرية في مجلة (ليبيا المصورة » ما اعتده صلة بينه وبين قومه ، فكانت هذه المجلة لا تزال تنشر من شعر رفيق ما تفيض به شاعريته ، فهذه قصيدة عن « المعلم » وهذه أخرى عن « ساقية درنة » ، وثالثة « عن الربيع » ، وهذه قصيدة من الشعر الفكاهي عن الصيف ، إلى غير ذلك مما نكتفي بالإشارة إليه .

لقد كان رفيق المهدوى يمثل انطلاقة الشعر العربي في ليبيا ، وكان بذلك خير من يمثل النشاط الشعري فيها في هذه المرحلة ، ولعل فيما قدمنا ما يبين هذه الدعوى .

ولكن لا بد لنا أن نعرج على الشخصيتين الأخريين اللتين قدمنا الإشارة إليهما ، حتى تكتمل الصورة بعض الشيء .

- ٣ -

الشخصية الأخرى التي نعقد لها هذا الحديث هي شخصية أحمد الشارف . وإذا كان قد سبق رفيق المهدوى الى الوجود بنحو ربع قرن ، فإن الأسباب التي اتيحت لرفيق والملابسات التي لابست حياته ، فجعلته ألصق بالشعر وأوثق به صلة ، قد مكنت له منه ، ووضعته على رأس الحياة الأدبية في هذه المرحلة .

وحياة الشارف حياة طويلة ممتدة تكاد تبلغ التسعين ، ولكنها حياة بسيطة مطردة . فقد نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء الشعب الليبي في العصر التركي ، ممن يتجهون إلى التعليم ، فمضى الى المعهد الأسمري في زليطن ، يحفظ القرآن ، ويتعلم مبادىء القراءة والكتابة ، حتى إذا فرغ من هذه المرحلة انتقل الى التي تليها ، فالتحق بزاوية الفطيسى في زليطن أيضاً ، يدرس الفقه والعربية ، ويتهيأ بذلك ليكون فقيهاً يؤدى ما يؤديه الفقهاء في الحياة العامة . فما إن فرغ من هذه المرحلة حتى كان خطيب احد المساجد في مسلاتة ، يخطب الناس في الجمعات ، ويؤمهم في الصلوات ، ويلقى عليهم دروس الدين ، ويفتيهم فيما يعرض لهم .

ولكنه كان يطمح الى مناصب القضاء يتولى واحداً منها ، فتهيأ لذلك ، وكان له ما أراد .

وجاء الاستعمار الايطالي وهو يلي ذلك المنصب في بعض جهات طرابلس ، وعرف الإيطاليون أنه من المحرضين عليهم ، وأنه يقول الشعر في الحض على قتالهم ، فما زالوا به حتى قبضوا عليه وأودعوه السجن ، ولكن لم يلبثوا حتى بدا لهم فأطلقوا سراحه ، فترك طرابلس الى غريان - وكانت لم تقع بعد في براثن الاستعمار - فانضم الى المجاهدين فيها ، وعمل كاتباً لقاضيها . وظل كذلك حتى انتهت الحرب العالمية ، وعقد صلح بنيادم الذي أشرنا من قبل اليه ، وأخذ الهدوء يسود الجو بعض الشيء ، فترك غريان ، وعاد إلى طرابلس ، فأسند اليه أحد مناصب القضاء

في بعض جهاتها ، ثم في مدينة طرابلس نفسها ، حتى إذا أنشئت المحكمة الشرعية العليا عين عضواً فيها ، ثم رئيساً لها ، حتى أحيل الى المعاش ، فلزم بيته ، وقد تقدمت به السن ، وكف بصره ، حتى وافاه أجله سنة ١٩٥٩ .

ومع أن الشارف يعد من الشعراء المكثرين ، شعراء البديهة الفياضة الثرة ، فإن ما بين أيدينا من شعره لا يكفي في درسه درساً جديراً بمكانته ، باعتباره « شيخ الشعراء » كما يطلقون عليه ، فما زال شعره مخطوطاً في ديوانه لم يجد من يعنى بنشره ، أو مشتتاً في بعض المجلات التي لم تعد في متناول الأيدي ، أو في ذاكرة بعض الرواة .

ويبدو أنه بدأ حياته الشعرية بالشعر الصوفي ، فقدكان ـ كما يذكر عنه تلميذه الأستاذ محمد كامل الهوني في الفصل الذي كتبه عنه في مجلة ليبيا ـ من المنتسبين للطريقة الساعدية ، وهي إحدى الطرق الصوفية المنتشرة في شمال إفريقية . كما ذكر الأستاذ علي مصطفى المصراتي ، فيما كتبه في كتابه : (لمحات أدبية عن ليبيا) ، أنه سأله عن الشاعر الذي تأثر بشعره ، وكان له .كانة في نفسه أيام شبابه ، فأجاب : « عمر بن الفارض ، وعبدالرحيم البرعي ، صاحب المدائح النبوية المشهورة . وقد شغفت بابن الفارض إلى حد الوله ، وكنت أردد قصائده حتى استظهرتها ، وظهر هذا في أبياتي وقصائدي الأولى التي أرسلتها في عهد الصبا والشباب » .

وربما كان من ذلك القصيدة التي أشار إليها الأستاذ الهوني في مقالته ، وذكر مطلعها :

صب تعذب مذ جفاه حبيبه　　والصب يعذب في الهوى تعذيبه

كما أورد منها هذين البيتين ، وهو يقصد قبيلة العمائم التي ينتسب الشاعر إليها :

قل للعمائم ، إن مررت بحيهم　　إن الذي أضنى السقيم طبيبه
لا تفزعوا لبنيكم ، لا تجزعوا　　جيش الهوى لا تستطاع حروبه

فلما كان الغزو الإيطالي انطلقت شاعريته تثير روح المقاومة ، وتبعث القصائد يرفع بها روح المجاهدين المعنوية ، وذلك مثل قصيدته المأثورة التي يبدؤها بقوله :

رضينا بحتف النفوس رضينا ولم نرض أن يعرف الضيم فينا
ولم نرض بالعيش إلا عزيزاً ولا نتقي الشر ، بل يتقينا

ومنها :

إذا قامت الحرب كنا رجالا إلى الحرب أرسخ من طورسينا

كما يوجه الحديث إلى الغزاة ، وكانوا ما يزالون عند مدن الشاطىء ، لم يتجاوزوها إلى غيرها :

وما ضرنا أن حللتم شطوطاً إذا شط ما كنتم قاصدينا

مما أوغر عليه صدر المستعمرين ، فتربصوا به ، حتى اعتقلوه وسجنوه ، كما قلنا .

ولكن الشارف وجد نفسه بعد ، شأن كثير غيره كما أشرنا من قبل ، مضطراً إلى الأخذ بالتقية إزاء المستعمر ومسالمته . فكان بين أحد أمرين : إما أن يكبت شاعريته ، ويقطع ما بينه وبين قول الشعر ، وإما أن يسلك بشاعريته سبلاً أخرى ، ويمضي بها بعيداً عن التيار الشعبي ، فيجعل الشعر غزلاً ومديحاً ورثاء وحكمة ، دون أن يعرض لما يسخط المستعمر . ومثل شاعرية الشارف لا سبيل إلى كبتها ، فلتتخذ لها نهجاً غير النهج الذي يعرض صاحبها للمخاطر ، أو يجر عليه المتاعب ، وهو بطبيعته يؤثر الهدوء والدعة . وكذلك كان شأن الشارف في هذه المرحلة . ومن ذلك هذه القصيدة التي أوردها الأستاذ كامل الهوني في الفصل الذي أشرنا في هذا الحديث إليه :

اعمل لنفسك صالحاً واختر لغيرك ما تحب
وادفع عدوك بالأنا ة ودع محاولة الشغب

لا بد للفرس الجمو   ح من الوقوف إذا تعب
واربأ بنفسك أن تقو   م أمام تيار الغضب
كالنار إن ضايقتها   بالغاز يرتفع اللهب
واصبر فليس من البعيـ   ـد نتيجة الهم الطرب
والمرء يجهد في المطا   مع أين ما ذهبت ذهب
ولقلما يجد الحيا   ة كما يشا وكما يجب
واقنع بقدر المستطا   ع إذا تعذر ما وجب
لك في المؤمل راحة   بعد المؤمل أو قرب
ورئيس قومك كن له   عضداً ولا تكن الذنب
والناس قد جبلوا على   حب الركون لمن غلب
والدهر أقسم أن يخو   ن وأن يكون أبا العجب
كم للأديب مواقف   بين الأعاجم والعرب
ومن الغرائب أن يكو   ن لديه حظ المغترب
ثمل يخيل أنه   شرب المدام وما شرب
يوحى الخيال إليه لا   صحف لديه ولا كتب
ولقد تباينت الحظو   ظ ولست تدري ما السبب
وعن العيون قد اختفى   وعن العيون قد احتجب
وكفى لجسمك ما ترا   ه يقيه من أثر السغب
وكفى لروحك ما يسا   ق من الحديث المنتخب
ولئن حرمت من البرا   عة واليراعة والأدب
ما إن يفيدك أن يكو   ن عليك طوق من ذهب
والمرء يؤلم قلبه   حسد تأجج والتهب
تتكون الأخلاق في الأو   لاد من أم وأب
من مات عن عقب يسو   ء كمن يموت بلا عقب

ولعل هذه القصيدة تؤدي إلينا صورة من طبيعة الشاعر الشارف ومزاجه ، وتبين لنا إلى أي حد كان يميل إلى الدعة ، ويؤثر السلامة ،

ويأخذ الأمور مأخذاً قريباً ، لا يعنف بنفسه ، ولا يغالب التيار المندفع . ومن ذلك كان موقفه من المستعمر الإيطالي موقف المسالمة ، بل المصانعة أحياناً ، حتى لا يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم .

كما نستطيع أن نتعرف في هذه القصيدة أيضاً منهجه في الشعر ، إذ يقوم على السلاسة والسهولة ، لا يتكلف ولا يعنت نفسه في التماس المعاني وتخير الألفاظ ، وإنما هو شعر الطبع الطيع والبديهة الحاضرة . وما أشبه منهجه في الشعر بمسلكه في الحياة .

ومثل هذه القصيدة التي كانت شاعريته تتخذ منها مسرباً لنشاطها ، إذ تصوغ الشعر حكماً ونصائح ، ما كان يقوله في معارضة بعض الشعراء الآخرين ، وذلك كقصيدته التي قالها يعارض بها قصيدة رفيق التي أوردناها ، في مناجاة روح دانونزيو ، ويقول فيها :

رفرفي في الكون يأيتها الروح العريقة
واجمعي الرحلة واستجلي بها نفس الحقيقة

حومي في الكون واستبقي لدى التنقيب ساعة
واسألي الروح التي كانت على رأي الجماعة
واستزيدي من ذوي التفكير أصحاب اليراعة
هل تعودين لمن كان له عنك فراق
لك قد كان رفيقاً وله كنت رفيقة

نحمل الرأي على ما قاله فيك ابن سينا
أنت كالورقاء ترجيعاً وشجواً وحنينا
ولئن قضيت بالآلام في السجن سنينا
لك يوم النزع من حشرجة الصدر انطلاق
وفجاج الأرض قد كنت بها غير طليقة

وقد أتيح لأحمد الشارف أن يعبر البحر ، وأن يشهد مظاهر الحضارة

الأوروبية في بعض المدن الإيطالية كروما ونابولي . وكانت السلطات الاستعمارية تهيىء مثل هذه الرحلة للأدباء والمثقفين ، عملاً من أعمال الدعاية ، حتى تبهر أنظار هؤلاء الأدباء بما يشهدون هنالك . ولا ندري مبلغ تأثر الشارف بمثل هذه الرحلة ، ومدى ما تركته في نفسه هذه المظاهر . أكبر الظن أنها لم تزد على أن تعرض لعينيه صوراً من الحضارة وألواناً من المتعة . وقد سجل هذه الرحلة في طائفة من الشعر ، ولا ريب أن هذا التسجيل كان مما تحرص عليه السلطات الاستعمارية التي نظمت هذه الرحلة ، كهذه القطعة التي يصف بها الشارف « غواني نابولي » :

غواني نابولي نعم الغواني ... بمنزلة الربيع من الزمان
من الجنس اللطيف أرق حسناً ... فهن الحور في غرف الجنان
كعاب كالكواعب مشرقات ... من الخود المكملة الحسان
فلو سامرتهن وجدت عطفاً ... شهياً صادقاً عذب اللسان
على السرر الرفيعة باسمات ... يدرن الراح فيها بالبنان
على الفرش الوثيرة ضاحكات ... يرتلن اللطائف والأغاني

وبعد ، فهذا هو أحمد الشارف ، قدر ما تأذن هذه الدراسة ، وقدر ما تؤدي إلينا القلة القليلة التي بين أيدينا من شعره ومن أخباره . وبه وبرفيق المهدوي نستطيع أن نتمثل ـ بعض الشيء ـ النشاط الشعري في هذه المرحلة من تاريخ ليبيا الحديث . وإن كان هنالك شعراء آخرون حفلت هذه المرحلة بنشاطهم . وكان مما يحسن في هذه الدراسة أن نتتبعهم ونتعرف آثارهم ونتبين اتجاهاتهم ونضعهم في مكانهم ونستكمل الصورة بهم ، كأحمد قتابة ، وأحمد الفقيه حسن ، والأمين أبي حامد ، ومحمد الهنقاري ، وعبدالغني البشتي ، ومحمد عبد القادر الحصادي . ولكنا لم نقصد في هذه الدراسة إلى الاستقصاء ، كما قلنا غير مرة ، فذلك أمر لم تتهيأ أسبابه ، ولم تعنا الظروف عليه .

وإذ انتهينا ـ على هذه الصورة التي قدمنا ـ مما أتيح لنا أن نتحدث به عن هذه المرحلة ، فلننتقل إلى المرحلة الثالثة ، وهي المرحلة الأخيرة :

مرحلة ما بعد الاستعمار الإيطالي ، منذ تحررت البلاد من ربقته ، سنة ١٩٤٣ ، حتى الآن .

المرحلة الثالثة

ـ ١ ـ

كانت السنوات الأخيرة في المرحلة السابقة سنوات مملوءة بعوامل اليأس الذي أخذ يملأ قلوب الليبيين ويكاد يحول بينهم وبين التطلع إلى الحرية والتخلص من هذا الدنس الذي حل بهم ، فما إن بدت في الأفق نذر الحرب العالمية الثانية حتى أخذ هذا اليأس يتخلخل قليلاً ، فقد أخذت نفوسهم تتطلع إلى أن يكون في هذه الحرب المتوقعة ما عسى أن يتيح لهم الخلاص من هذه النكبة التي حاقت بهم ، وما إن أعلنت الحرب حتى بدت لهم في الجو بارقة خافتة مضطربة ، تبعث في نفوسهم شيئاً من الأمل ، وإن كانت إيطاليا لم تعلن موقفها بعد ، حتى إذا كان إعلانها الحرب في يونية سنة ١٩٤٠ ، فقد جعلت تلك البارقة تأخذ صورة واضحة . وكان ذلك ـ على كل حال ـ مؤذناً ببدء مرحلة جديدة في تاريخ ليبيا .

انفتح بهذا الإعلان إذن باب الأمل في التخلص من الاستعمار الإيطالي ، بعد أن كان هذا الباب قد أوصد وبدأ كأن لا سبيل إلى انفتاحه منذ قضى على المقاومة الشعبية التي كان يقودها الشهيد عمر المختار ، وأخذ الاستعمار يتخذ الإجراءات المختلفة دراكاً لتصبح ليبيا قطعة من إيطاليا . وبذلك أخذت ليبيا أهبتها لتحقيق هذا الأمل . وكان من ذلك أن قرر زعيمها السيد إدريس السنوسي ـ وكان مقيماً في مصر في ذلك الوقت ـ أن يقف إلى جانب البريطانيين في هذه الحرب موقفاً فعالاً ، فكون لذلك جيشاً من الليبيين المقيمين في مصر وسوريا ، وانتشرت في أنحاء ليبيا دعوته لمؤازرة الإنجليز ، في سبيل التخلص من الاستعمار الإيطالي . ولم تلبث الأراضي الليبية أن أصبحت مسرحاً للحركات الحربية بين المحور

والحلفاء ، وميدان كر وفر وهجوم وانسحاب ، لا يكاد أحد الفريقين ينسحب منها حتى يكر راجعاً إليها ، حتى انتهت المعركة أخيراً بانسحاب إيطاليا انسحاباً تاماً ، في فبراير سنة ١٩٤٣ . وبذلك بدأت هذه المرحلة التي نحاول ـ قدر ما يتاح لنا ـ أن نتبين بعض وجوه النشاط الأدبي فيها .

وفي هذه المرحلة تقع فترتان متميزتان . أما أولاهما فهي فترة الانتقال من حكم المستعمر الإيطالي إلى الحكم الليبي المستقل ، وهي الفترة التي تولت فيها الإدارة الإنجليزية حكم البلاد وإدارة شؤونها . وقد استمرت ما يقرب من تسع سنين ، وانتهت بإعلان استقلال ليبيا في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ ، لتبدأ الفترة الثانية أو العهد الجديد الذي تحيا ليبيا في ظله ، دولة مستقلة من دول الجامعة العربية . ولكل من هاتين الفترتين ظروفها وملابساتها ، فمن الحق أن تختص كل فترة بحديث خاص عن النشاط الأدبي فيها .

فأما الفترة الأولى فتتسم بكل ما تتسم به فترات الانتقال من الاضطراب والقلق ، ومن الرضا والسخط ، ومن النشوة والخوف ، ومن تعارض القوى وتدافع العوامل المختلفة .

ولعله ليس مما يعنينا كثيراً هنا أن نتتبع هذه العوامل ، ونتقصى القوى المتدافعة المتعارضة ، ونأخذ في بيانها وتحليلها ، فإنما يكفينا أن نتبين ما يتصل منها بما نحن فيه اتصالاً قريباً .

وأول ما ينبغي أن نتمثله هو الحالة التي سيطرت على الشعب الليبي غداة انسحاب الإيطاليين من بلاده ، بعدما كاد اليأس يغلب عليه ، ويدعه من أمره في ظلمة مطبقة .

ولا ريب أن ليبيا لم تكد تتخلص من الاستعمار الإيطالي حتى امتلأت نفوس الليبيين بشراً وتفاؤلاً وتطلعاً إلى الحياة الحرة الكريمة التي ظلوا ينشدونها ويجاهدون في سبيلها . ولكن صورة هذه الحياة لا تكاد تتمثل لخواطرهم حتى يغشيها ما يكدرها مما يتمثلونه من هذه الإدارة

الإنجليزية التي هي بسبيل أن تحكمهم ، وتضع بذلك العقبات والعقابيل في سبيل هذه الحياة .

وبين نشوة الظفر على المستعمر الذي أطبق عليهم ثلاثين عاماً شديدة منكرة ، والتحفز للون آخر من الكفاح والصراع يقدرونه قدره ، ويعرفون سلفاً خطره ، اجتمعت إليهم قوتهم ، وعرفوا لأنفسهم مكانهم مما حولهم ، وتنبهت فيهم أحاسيس الحذر ، وبذلك تميزت هذه الفترة التي تلت هزيمة الطليان بألوان من النشاط الدائب المستبصر قدر ما يمكن ، شملت نواحي الحياة الليبية ، اجتماعية وسياسية وأدبية ، وقد اشتبك بعضها ببعض وداخل بعضها بعضاً ، إذ كانت تتجه جميعاً وجهة واحدة ، وتهدف إلى تحقيق الشخصية الليبية الحرة الكريمة المستقلة .

وكان أول ما أتيح لليبيا في هذه السبيل الجديدة التي انفتحت أمامها ، وكان عليها أن تسلكها في نشاط وقوة وحذر ، هم أولئك المهاجرون الليبيون الذين كانوا إذ ذاك في مصر ، سواء منهم من كان يعمل في الجيش السنوسي ، ومن كان يعمل في الميادين الأخرى ، فقد أخذوا يعودون إلى ليبيا ، وملء نفوسهم أمل قوي في أن يعيدوا بناءها ، ويصلحوا فسادها ، ويعوضوها عما فاتها .

وكان بين هؤلاء المهاجرين العائدين طائفة من الشبان الذين شاركوا في الحياة المصرية بجوانبها المختلفة : سياسية وثقافية ، وكانوا يتوثبون نحو المجد السياسي والأدبي يحققونه لبلدهم ، فلم يكادوا يعودون حتى التقوا بإخوانهم الذين عانوا الاستعمار الإيطالي ، وملء نفوسهم التطلع إلى إزالة كل أثر من آثار الاستعمار ، وإبطال كل ما عسى أن يدبره المستعمر الجديد من كيد ، أو يقيمه من عراقيل وعقابيل ، فالتقت مشاعر هؤلاء بمشاعر أولئك ، يؤرث بعضها بعضاً ، ومضوا جميعاً يشقون طريقهم نحو الغاية . وكان أول ما اجتمعوا عليه إنشاء جمعية تنظم أمرهم ، وتهيىء وسائلهم وأسبابهم ، فكانت جمعية عمر المختار . وكان هذا الاسم عنوان جمعية أنشئت في مرسى مطروح منذ عام ونصف عام ، للبر بالضعفاء

والعاجزين من أسرى الحرب ، فلا بأس أن تتخذ هذه الجمعية اسمها ، تخليداً لذكرى ذلك البطل الذي يعتبر رمزاً للجهاد الليبي .

وهكذا أنشئت جمعية عمر المختار في مدينة بنغازي ، في شهر أبريل سنة ١٩٤٣ .

ولا يملك دارس الحياة الأدبية في ليبيا في هذه الفترة أن يغفل هذه الجمعية ، فإن تاريخ ليبيا في فترة الانتقال هذه مرتبط بها أوثق ارتباط ، لا في الناحية السياسية فحسب ، بل في الناحية الثقافية عامة والأدبية خاصة ، إلى جانب الناحية الرياضية والاجتماعية . فقد كانت هذه النواحي جميعاً مرتبطاً بعضها ببعض ، لا يمكن فصل واحدة منها عن الأخرى ، في هذه الفترة التي يراد فيها وضع الأسس لبناء ليبيا بناء جديداً .

ولم تلبث هذه الجمعية التي قامت ـ أول ما قامت ـ في مدينة بنغازي ، أن امتدت شعبها في أنحاء ليبيا ، وعم نشاطها سائر البلاد ، وأصبح الناس يرون فيها صورة ليبيا الحديثة الكامنة في ضمائرهم ، المتمثلة في آمالهم وخواطرهم . ولم تقصر هذه الجمعية التي كانت ـ في حقيقتها ـ تعبيراً صادقاً مؤمناً عن توثب الشعب الليبي لتحقيق نفسه ، وعن الآمال الكبرى التي كانت تغمر قلوب الشباب الليبي خاصة ، عن سلوك كل سبيل لبناء ليبيا ، فاتجه نشاطها كل وجهة ، ومضت في كل ناحية ، واصطنعت كل وسيلة .

ونستطيع أن نلخص نشاطها الثقافي في أصول ثلاثة : التعليم ، والأندية ، والصحافة .

أما التعليم فقد قدرت الجمعية من أول يوم أنه أول واجباتها ، لا ينبغي أن ترجئه أو تفتر فيه ، فكفى البلاد ما عانته من سياسة التجهيل في العهد الإيطالي ، وما ينبغي أن تنتظر به الإدارة البريطانية ، فإنه مسؤولية أبناء البلاد لا مسؤولية الأجنبي ، فليبدأ منذ اليوم به ، ولترسم له خطوطه . وهكذا مضت في إنشاء المدارس في أحياء مدينة بنغازي ، وأقبل الناس

عليها إقبال العطاش الهيم ، إذ كانوا يرون فيها - إلى جانب طابعها التعليمي - رمزاً للعهد الجديد الذي يقبل عليهم ويقبلون عليه ، وتهيئوا للمستقبل الكريم الذي يمنون النفس به . وقد ظلت هذه المدارس التي قامت بقوة الإيمان تؤدي واجبها دون أن تتأثر بقلة الموارد ، حتى استطاعت الإدارة الإنجليزية أن تنشيء المدارس الحكومية على نمطها ، وعلى الأسس التي وضعت لها ، وقد استقدم لها الأساتذة من مصر ، فلم يعف ذلك الجمعية من تبعتها نحو التعليم ، فحولت مدارسها إلى مدارس ليلية ، تستقبل الكبار ومن لا تأذن لهم ظروف حياتهم بالالتحاق بمدارس الحكومة . واستطاعت بذلك أن تؤدي للمجتمع الليبي والحياة الأدبية خدمات جليلة . لقد كانت مشاركة هذه الجمعية في السياسة التعليمية في هذه الفترة من تاريخ ليبيا ، وقد امتلأت القلوب حماسة ، أمراً بعيد الأثر في وضع أسس النهضة الليبية عامة ، والنهضة الأدبية خاصة ، فقد وسمت ذلك التعليم بالسمة الوطنية .

وأما الأندية فقد عرفت الجمعية لها قدرها ، فوجهت إليها أكبر اهتمامها ، إذ كانت - فيما ترى - الأداة التي يستطاع بها تذاكر حالة البلاد وتدارس ما يعرض لها ، كما أنها تستديم للشبان مثلهم العليا التي وضعتها الجمعية نصب أعينهم في جميع مجالات الحياة ، إذ تتيح لهم أن يلقى بعضهم بعضاً في جو هذه المثل ، يتحدثون ويسمرون ، ويقرؤون ويتناظرون ، فتتفتح مواهبهم ، وتسمو هممهم ، وتتسع آفاقهم العقلية . وقد أقبل الشبان على هذه الأندية ، وقد انفتحت لهم بها آفاق جديدة ، وهي - على كل حال - مظهر رائع من مظاهر الحرية التي حرموا منها طويلاً ، تتجاوب فيها مشاعرهم ومطامحهم ، ويستروحون فيها بالحديث عن أمسهم الدابر ، ويومهم الراهن ، وغدهم المأمول . وقد أخذت هذه الأندية تنتهز كل فرصة تلوح وكل مناسبة تعرض لتنظيم الاجتماعات والحفلات ، يتوافد عليها أبناء الشعب بطبقاته المختلفة ، يستمعون إلى

خطب الخطباء وقصائد الشعراء . وكانت للجمعية حفلاتها الموسمية كالاحتفال بالعيد الهجري ، والمولد النبوي ، وذكرى تأسيس الجمعية ، كما كان لها حفلاتها التي تقيمها في شتى المناسبات ، كالاحتفال بقرار هيئة الأمم المتحدة استقلال ليبيا ، أو استقبال بعثة الهلال الأحمر المصرية ، أو البعثة التعليمية المصرية ، إلى غير ذلك . كما كانت ـ إلى جانب ذلك ـ تدعو إلى محاضرات يلقيها الأساتذة من أهل البلاد أو من غيرهم .

ولا ريب أن هذه الأندية كانت بعيدة الأثر في النشاط الأدبي والثقافي عامة ، إلى جانب أثرها في إثارة الحماسة الوطنية ، وبين الحماسة الوطنية والنشاط الأدبي صلة وثيقة . ونحن لا نشك في أن كثيراً من شعراء هذه المرحلة وخطبائها وكتابها قد خرجتهم هذه الأندية .

وكذلك كان أمر الصحافة التي حرمها الشعب الليبي طيلة العهد الإيطالي ، معبرة عنه متجاوبة معه ، وكان حرمانه منها شديد الوطأة عليه . كانت هذه الصحافة من أول ما اتجهت إليه جمعية عمر المختار ، فلم تكد تتكون حتى كان إصدار صحيفة تحمل رأيها وتنشر دعوتها وتعتمد عليها في تكوين رأي عام يشد أزرها فيما هي بسبيله أول ما ينبغي أن تقصد إليه وتدبر له ، وتحققه ، بالرغم من الصعوبات المادية والعقبات التي تعترض ظهور مثل هذه الصحيفة ، وكذلك صدرت جريدة الوطن أسبوعية سياسية ، وإلى جانبها مجلة عمر المختار شهرية أدبية . وقد ظلت الأولى تقاوم كل ما يعترضها من صعوبات مادية ، وما يعترضها من عقبات سياسية ، طيلة هذه الفترة . أما مجلة عمر المختار فإن الصعوبات المادية لم تلبث أن قضت عليها في السنة الثانية من صدورها . ولكن نية إصدار مجلة أدبية ظلت تراود أخيلة المسؤولين عن جمعية عمر المختار ، حتى أتيح لها أن تصدر باسم مجلة ليبيا ، في أول يناير سنة ١٩٥١ ، واستمرت حتى شهر أغسطس ١٩٥٣ ، غداة توقيع معاهدة التحالف والصداقة بين ليبيا وإنجلترا .

وفي خلال هذه الفترة صدرت في ليبيا صحف أخرى ليس من شأننا

هنا أن نبين نوازعها أو دوافعها ، وإن كان واضحاً أثر الصحافة التي ذكرناها فيها ، منها : الاستقلال التي كانت تصدرها رابطة الشباب الليبي ، وهي وثيقة الصلة بجمعية عمر المختار ؛ والفجر الجديد التي أصدرها الأستاذ صالح بو يصير ، والجبل الأخضر التي أصدرها الأستاذ توفيق البرقاوي ، والتاج التي أصدرها الأستاذ عمر الأشهب ، والمرصاد التي أصدرها في طرابلس الأستاذ محمد قنابة ، ومجلة المرآة التي كان يصدرها في طرابلس أيضاً الدكتور مصطفى العجيلي .

وذلك إلى جانب جريدة طرابلس الغرب ، وجريدة بنغازي ، وقد صارت بعد برقة الجديدة ، وكان يصدرهما في طرابلس وبنغازي مكتب الاستعلامات البريطاني .

وكان لهذا النشاط الصحفي ـ الذي يعد بالقياس إلى بلد كليبيا نشاطاً كبيراً ـ كبير الأثر في النشاط الأدبي ، وخاصة المقالة السياسية والمقالة الاجتماعية والمقالة الأدبية والعلمية ، كما يرى ذلك كل من يتاح له تصفح هذه الصحف . ذلك أن هذه الفترة كانت مشحونة بالخصومات الشديدة التي تتصل بمصير البلاد بين الوطنيين والإنجليز ، وبين دعاة الوحدة وأنصار التقسيم ، وغير ذلك مما كانت تعالجه المقالة السياسية وتتصدى له . وقد بلغت فيه الذروة من حيث البراعة في تناوله ، وقوة العبارة في أدائه .

كذلك كانت البلاد تعاني في هذه الفترة كثيراً من رواسب الماضي ، وألواناً من الفساد الاجتماعي ، واضطراب الإدارة الإنجليزية في معالجة شؤون المجتمع، مما اقتضى ظهور المقالة الاجتماعية ، تنبه على الأخطاء ، وتعالج الفساد .

أما المقالة العلمية والأدبية فحسبنا أن نقرأ مجلة كمجلة ليبيا لنرى المكان الذي تبوأته والذي أتاحته لها هذه الصحافة . على أن مما يلفت نظر القارىء ظهور الشخصية الليبية في مثل هذه المقالات من ناحية الاتجاه إلى إبراز مقوماتها والتنويه بها . وبعض الدراسات التي كانت هذه المقالات

تعنى بها دراسات جادة ، تعتمد على معرفة واسعة وبصيرة نافذة ، مما ليس هنا موضع درسه ، وإنما غرضنا في هذا الفصل هو رسم الخطوط الكبرى للحياة الثقافية ، لننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الشعر .

- ٢ -

كان الشعر يتمثل في هذه الفترة في طبقتين من الشعراء : الشعراء الشيوخ ، أو من يمكن أن نسميهم بالشعراء المخضرمين ، إذ كانوا قد أدركوا العهدين ؛ والشعراء الشبان الذين ظهرت مواهبهم الشعرية في هذه الفترة ، وإن كانت نشأتهم في العهد الإيطالي .

وكان من الطبيعي أن تكون زعامة الشعر لأولئك الشيوخ ، مثل رفيق المهدوي وأحمد الشارف وأحمد قنابة ، ومن إليهم ممن ذكرنا في كلامنا عن المرحلة الثانية . على أن زعامة هؤلاء إنما كانت ـ فيما نظن ـ لرفيق . وقد يكون ذلك لأنه كان أغزرهم شعراً ، وأطوعهم شاعرية ، وأشدهم تأثراً بمظاهر الحياة المختلفة ، وأسرعهم استجابة لها وتعبيراً عنها تعبيراً استطاع أن يوفق فيه بين الديباجة العربية والروح الشعبية ، وبذلك كان أقرب هؤلاء الشعراء إلى الشعب وآثرهم عنده .

وقد ترجع هذه الزعامة إلى بعض ظروف رفيق وملابسات حياته ، فقد عاد إلى ليبيا تحيط به هالة من المجد ، ويحف به تاريخ حافل ، ويقدمه حديث طويل عن مقاومته بشعره للمستعمر الإيطالي ، حتى لم يعد له مقام في ليبيا ، وأنه يكاد يكون الوحيد بين شعراء ليبيا في هذه الفترة بعداً عن منافقة الاستعمار الإيطالي ، فلم يتورط فيما تورط فيه غيره ، مما أشرنا إليه ، من مصانعة المستعمر أو ممالأته .

مهما يكن من أمر ، فمنذ عاد رفيق إلى ليبيا أصبح (شاعر الوطن) الجدير بالتعبير عن مشاعره ، في هذه الفترة التي انطلقت فيها المشاعر الوطنية ، وتوثبت القوى النفسية لمقاومة كل ما عسى أن يشوه الصورة التي

استقرت في الأخيلة عن مستقبل هذا البلد . وكانت هذه المشاعر ترى في جمعية عمر المختار رمزاً لها ومعبرا عنها ، وحين عاد رفيق اتخذ مكانه في هذه الجمعية . إن القوامين عليها والموجهين لنشاطها هم أصدقاؤه وأصفياؤه ، وإن مبادئها والروح المسيطرة عليها أقرب إليه وأشبه به . وقد كان هذا ـ ولا ريب ـ من الأسباب التي وضعته من شعراء عصره في ذلك الموضع ، وبوأته تلك المكانة .

وكان شعر رفيق في هذه المرحلة تعبيراً قوياً عن الوطنية الليبية التي كانت قد تبلورت في أهداف ثلاثة : الاستقلال الذي أخذت الأهواء الاستعمارية تحاول أن تضع العقبات في سبيله، حتى لقد اجتمع خصوم الأمس على إرادة إهدار حق الليبيين فيه ؛ والوحدة التي تجمع ليبيا بأقاليمها الثلاثة في كيان سياسي واحد ، وكانت هذه الوحدة قد أصبحت موضع خلاف بين الليبيين أنفسهم ، وأخذت المطامع الاستعمارية تؤرث هذا الخلاف ، بتأييد التقسيم ، وإثارة النعرات العصبية . وأما الهدف الثالث فكان تعبيراً عن الصلة الوثيقة التي تجعل من ليبيا جزءاً من الأمة العربية ، والرغبة في أن تأخذ هذه الصلة صورة واضحة رسمية ، حتى لا يكون ثمة مجال للتشكيك في هذه الحقيقة ، وحتى تصبح ليبيا همزة الوصل بين مشرق العروبة ومغربها ، وذلك بإعلان انضمامها إلى جامعة الدول العربية .

وقد جالت شاعرية رفيق في هذه المجالات كلها ، مستخدماً أسلوب الجد حيناً ، والسخرية حيناً آخر . وكان قاسياً في مهاجمة عملاء الإدارة الإنجليزية ، قسوة عرضته لخصومتهم ، كقوله :

يـأيها المتـزعمون ، ومـا لكم حق يخـولكم لـذاك مقـامـا
لستم بأهل أن تسـوسوا أمـة لم تـرضكم لأمـورهـا قـوامـا
للشعب في هذا الزمان إرادة تملي الحقوق وتصدر الأحكاما
عصفت بسيطرة الملوك ولم تدع لتحكم المتجبـريـن دوامـا

صارت أمور الناس شورى بينهم لا يملك الباغي لهم إرغاما
في سيرة الدتشي وهتلر عبرة لمن استبد وسفه الأحلاما
وإذا استبد الفرد بين جماعة كانوا ـ وإن سعدوا به ـ أنعاما
العقل يأبى والديانة حرمت أن نعبد الأوثان والأصناما
لا يخلص المأجور في أعماله إلا لباذل ماله استخداما
وإذا الضمائر أصبحت مأجورة فاقرأ على حر الضمير سلاما
كم بائع بوظيفة وجدانه كنا نراه مجاهدا مقداما
من ظن أن على الوظيفة رزقه عبد العبيد وناصر الظلاما
ومن ادعى الإخلاص بعد خيانة وطنية فقد ادعى آثاما

أما شعره الساخر الذي يلمز به هذه الطبقة التي اصطنعتها الإدارة الإنجليزية ، فنرى مثالاً له في هذه القصيدة التي يبدؤها بقوله :

دخن على نار الهموم ولو بدخان « الجفارة »[1]

ثم يقول بعد أن يشير إلى أعاجيب الإدارة الإنجليزية :

يا طالباً رغد المعيشة في الرفاهة والغضارة
هان الذي تبغى ، لك البشرى ، ولي أجر البشارة
الأمر لا يدعوك إلا للقليل من الشطارة
لا تعتمد فيما أردت على الكفاءة والجدارة
يكفيك إن أتقنت « زمركة » ومسح في مهارة
لكن على شرط بأنك حائز ثقة الإدارة
أن ترتقي في الحال منقلبا إلى كرسي الوزارة
أنظر إلى من أصبحوا من غير حق في الصدارة
أترى لهم علما يخولهم وظيفة شيخ حارة
كلا ! ولكن القرود تجيد تقليد الإشارة

---

(١) الجفارة نوع رديء من السجاير .

قالوا لهم : أنتم أقانيم السياسة والحضارة
أنتم عناوين الفلاحـة والصناعـة والتجارة
أنتم أسـاطين التمدن والـدعائم للعمـارة
فتخيلوا من جهلهم أن « المرابط في الغرارة »
والحال أن أسدهم رأيا وأعظمهم طرارة
إن قام يخطب أضحك الموتى بسوقي العبارة
والمضحك المبكي سياسة بعضنا بالاستخارة
ما زالت الدعوات تقرأ والفواتح في الزيارة
بالسر والبركات والأوراد تدفع كل غارة
والبعض بالأحلام أو يبني على فأل قراره
سبحان من جعل الدمى متحركات بالإشارة

هذه صورة من نشاط رفيق الشعري في هذه الفترة ، باعتباره ممثل شعراء الشيوخ فيها . ولكنا لا نكون أمناء في عرض صور ذلك النشاط إذا نحن وقفنا عندما عرضنا منه ، فالواقع أن شاعرية رفيق ، وإن غلبت عليها الناحية السياسية ، لم تكن محصورة في هذه الدائرة لا تعدوها بل كانت لها جولاتها في النواحي الوجدانية . ولا نجد بداً في هذا المقام ، وإن طال بنا الحديث عن رفيق ، من الإشارة إلى إحدى قصائده في ذلك الاتجاه ، وهي قصيدة طويلة ، تبلغ نحو الثمانين بيتاً ، جعل عنوانها « سينما العمر » وقد صور فيها مراحل حياته ، بل حياة الإنسان عامة ، من ناحية انفعاله بالجمال ، في الطفولة والصبا والشباب والكهولة ، ويقول في حديثه عن هذه المرحلة الأخيرة :

أصبحت شيخاً لا كبير السن محني القناة
لكنني شيخ ولي روح الشباب ولي صفاتي
روح تلوب على الجمال ، تحوم حول الفاتنات
عقلي معي حتى بلوح الحسن تفرط عربداتي
سأعيش في مرح فلا معنى ليأس في حياتي

متفـائلاً متـطلعاً كـالمشرئب لمـا سيـأتي

ثم يختم هذه القصيدة بقوله :

هذا حديث عواطفي لم تشترك فيه حصاتي
العقل ينظر للحقائق في الأمور مجردات
أيقنت بعد تجاربي أن السعادة في الحياة
طهر الضمير من الضغائن والعداوة والشمات
ومحبة الإحسان من غير انتظار مكافآت
وإرادة الخير العميم لكل من في الكائنات

وبعد ، فهذا أمر الشعر في هذه الفترة ، كما نتمثله في الشعراء المخضرمين ، يمثلهم رفيق .

أما الطبقة الأخرى ، وهي طبقة شعراء هذه الفترة خاصة ، فإننا نستطيع أن نتمثلهم في أنماط ثلاثة : شعراء تكونوا في المهجر ، حتى إذا انتهى العهد الإيطالي عادوا إلى ليبيا ، وشعراء عصاميين ، نشأوا في ليبيا في العهد الإيطالي ، وكونوا أنفسهم بأنفسهم ، وشعراء نشأوا في المدارس الإيطالية ، ولكنهم لم يقفوا عند حدود ما تلقوه فيها ، وإنما ذهبوا يلتمسون تثقيف أنفسهم بالثقافة العربية ، في بعض ما كان يتسلل إلى ليبيا من كتب وصحف ، يعكفون عليها ، فوجدت فيها شاعريتهم الكامنة ما أتاح لها أن تظهر ، فلم تلبث أن ظهرت في هذه الفترة .

أما الشعراء الذين نشأوا في المهجر ، إبان الإحتلال الإيطالي ، فنستطيع أن نتمثلهم في الشيخ حسين الأحلافي . وكان قد هاجر مع أبيه وهو صغير فيمن هاجر من ليبيا هرباً من الطغيان الإيطالي ، فدخل الأزهر ، وتلقى فيه تعليمه ، حتى إذا أنشيء الجيش السنوسي التحق به وعين إماماً له ؛ فإذا انتهت الحرب عاد إلى ليبيا مع العائدين ، ليعمل بها مدرساً وقاضياً .

وأكثر شعر الأحلافي من الشعر الشعبي ، ولكنه مع ذلك من شعراء

الفصحى . وبين أيدينا قصيدة قالها في ذكرى المولد النبوي ، ولكنه اتخذ من هذه الذكرى مناسبة للإلمام ببعض المعاني السياسية العامة . وذلك إذ يقول :

بدا نوره بالأمس والناس في الرمس ... وما أشبه اليوم الذي طال بالأمس
فإن بيع بالأمس الأسير فعندنا ... تباع شعوب للمساوم بالبخس
وإن دس بعض المشركين بناتهم ... فقد أزهقت فينا الألوف بلا دس
وإن عبدوا جهلاً نجوماً منيرة ... فإنا عبدنا صاحب الحكم والفلس
وإن شربوا صنفاً من الخمر واحداً ... فقد شربت فينا صنوف من الرجس
إذا كان هذا الفعل فعل مثقف ... فما قيمة التعليم ؟ ما قيمة الدرس
إذا كان عصر النور والعلم هكذا ... فوا أسفا يا عصر عنترة العبسي
أقومي ! ألستم أنتم « خير أمة » ... فما بالكم أصبحتم اليوم بالعكس
شقاق وتقسيم وحقد تمكنت ... جراثيمه من كل فاز بالكرسي
فيا أولياء الأمر إن محمدا ... نهى الناس عن هذا التعصب للجنس
وقال لهم : لا فرق في الدين بينكم ... فعدنان فيه إخوة الروم والفرس
وأكرمكم أتقاكم عند ربكم ... وحسبكم القرآن دستوره القدسي
فما لكم قسمتم الناس بينكم ... شعوباً فذا مصري وهذا طرابلسي
وذاك حجازي وذلك تونسي ... رويداً فهذي غاية الدول الخمس
وهذا الذي أودى بأمة أحمد ... وأطمع أحفاد الخنازير في القدس

وأما النمط الثاني ، نمط الشعراء العصاميين الذين لم تتسع لهم في طفولتهم المدارس التي أنشأها الطليان ، فنشأوا نشأة أمية ، وغلبت عليهم في صباهم التعاسة التي فرضها الاستعمار الإيطالي على الشعب الليبي عامة ، فعانوا قسوة الحياة منذ شبوا عن الطوق ، ولكنهم لم يستسلموا لما أراده الاستعمار لهم ، فغالبوا ظروف حياتهم ، وأخذوا يطمحون إلى ما يتيح لهم الخروج من الحياة الشقية التي يحيونها ، والجهالة المطبقة التي يعانونها ، فالتمسوا كل وسيلة يمكن أن تقع في إمكانهم تصل ما بينهم وبين العلم ، فبلغوا منه مبلغاً لا بأس به .

ويمثل هذا النمط الشاعر إبراهيم أوسطي عمر . وقد لا يكون هنالك غيره أتيح له أن يغالب الأمية والجهالة فغلبهما ، وصار من بعد شاعراً ، فيكون إبراهيم هذا نمطاً على حدة ، وطرازاً في هذه الفترة وحده .

نشأ إبراهيم في مدينة درنة نشأة فقيرة كادحة ، في أسرة مات عائلها ، فوجد نفسه منذ شب مكلفاً بأن يعمل ويجهد ويبذل من ذات نفسه ليعول أمه وأخواته ، فانصرف إلى الحياة الكادحة ، فهو يعمل حطاباً مرة ، يخرج إلى البادية يحتطب ، ثم يعود بما جمع من حطب ، يعرضه للبيع ، ويعمل مرة أخرى ، خادماً في هذا الدكان أو ذلك المقهى . حتى إذا كبر قليلاً استطاع أن يلتحق بإحدى المحاكم فراشاً فيها .

تلك كانت نشأة إبراهيم ، فلم تدع له فرصة ليلتحق بإحدى المدارس التي أنشأتها الحكومة الإيطالية . ولكنه كان يحس في قرارة نفسه الحاجة إلى أن يتعلم ، يصدر في ذلك عن النزوع الطبيعي إلى المعرفة ، والرغبة في أن يرفع قليلاً من مستواه المعاشي . وهكذا أخذ يعلم نفسه بنفسه ، حتى إذا استطاع أن يقرأ أتيح له قاضي تلك المحكمة التي كان يعمل فيها فراشاً أو ساعياً ، واسمه الشيخ عبدالكريم عزوز . وكان ـ فيما يبدو ـ رجلاً طيب النفس سمح الخلق محباً للخير ، فكان يعطف على إبراهيم ، ولم يلبث هذا العطف أن تحول إلى مودة . فكان إبراهيم يغشى داره بين وقت وآخر ، وجعل يجلس إليه ، ويقرأ عليه بعض الكتب ، ويتلقى عنه بعض مبادىء العربية والفقه .

وهكذا تهيأت الأسباب ليتحول إبراهيم من الأمية إلى المعرفة ، فتنفسح أمامه الآفاق ، وتتضح بذلك خطوط شخصيته ، وتأخذ مواهبه الكامنة في الظهور ، وترهف مشاعره ، كما جعله ذلك يحس إحساساً متغلغلاً في أعماق نفسه بوطأة الحكم الإيطالي ، وخاصة عندما أخذت إيطاليا تجند الشبان الليبيين وتحشدهم وتبعث بهم إلى الحبشة ليشاركوا في حربها ، وعندما أصدرت قانون التجنيس الذي أريد به فرض الجنسية الإيطالية على الشعب الليبي ، فأخذ إبراهيم يفكر في الهجرة ، ولم

يلبث أن تحقق له ما فكر فيه وجعل يدبر له ، فإذا هو في مصر ، بين مواطنيه الذين اتخذوها موطناً لهم .

كان لوجود إبراهيم في مصر ، وإحساسه بالانطلاق من ذلك السجن ، نشوة ملأت جوانب نفسه ، وكان أكبر مظهر من مظاهر الحرية التي جعل يحسها في لذة ومتعة ، هو أنه وجد نفسه في فيض من الكتب والصحف والمجلات ، يستطيع أن يقرأها دون حذر ، ويشبع بها نوازعه دون خوف ، فأقبل عليها في نهم كما أقبل على الأندية الأدبية التي يغشاها مواطنوه من طلاب الأزهر والجامعة ، أحس أنه وجد نفسه بين هؤلاء الشبان الذين يتحدثون في مسائل شتى ، يتصل بعضها بالسياسة ، وبعضها بالأدب ، فإذا هو يجاذبهم الحديث ، وينطلق معهم فيما هم فيه ، غير متعتع ولا متخلف ، ثم إذا هو يجد نفسه وقد اتصل ببعض الهيئات السياسية التي تنظم الدعاية ضد الاستعمار الإيطالي ، وقد وجد من واجبه أن يشاركهم فيما يؤدونه لوطنهم .

فإذا قامت الحرب ، وتهيأت ليبيا للمشاركة في طرد الإيطاليين ، وأنشيء الجيش السنوسي في مصر ، فقد بادر إلى تسجيل اسمه بين جنود هذا الجيش ، وأخذ يمارس التدريبات الخاصة به ، ثم لم يلبث أن أصبح من جنود الميدان ، وأبلى ما أبلى في حرب الطليان .

ولكن بناء إبراهيم لم يكن من القوة بحيث يحتمل جهد الحرب ، فإذا صحته تتداعى ، ولا يكون بد من أن يسرح من الجيش ، فمضى إلى مصر ، فأقام بها . وكان قد استكشف في نفسه موهبة الشعر ، فجعل يروض نفسه عليه ، يتغنى بآماله وآلامه .

لقد أصبح ذلك الأمي الفقير الكادح الزري الهيئة ، شاعراً بين الشعراء ، مرموقاً من الإخوان والنظراء .

وقد بدأت شاعريته ـ فيما نحسب ـ في مصر . ومن أول شعره ، أو

أول ما بلغنا منه ، قصيدة قالها وهو في وادي النطرون ، جندياً في الجيش السنوسي ، سنة ١٩٤١ .

وكان هذا الجيش قد انسحب من ليبيا ، بعد أن دخلها إلى جانب الجيش الإنجليزي ، وطرد الطليان من برقة كلها ، ولكنه لم يلبث أن فوجيء بروميل يزحف زحفه الخاطف ، ويطوي الأرض طياً ، ويسترد ما كان الإنجليز والجيش السنوسي قد استولوا عليه ، ويعود الشاعر ـ الذي كان قد أتيح له أن يرى بلاده ـ إلى مصر ثانية ، في انتظار أن تسنح الفرصة لكرة أخرى .

وتمر هذه الصور في خياله ، وتنطلق شاعريته ذات ليلة ، وهو في مخيم الجيش الليبي في تلك البادية ، عند وادي النطرون ، فإذا هذه القصيدة التي جعلها حديثاً بينه وبين البلبل ، ولعله يعني بهذا البلبل نفسه ، أو شاعريته الكامنة . فيبدأ بمساءلته عن هذا السكوت الذي خيم عليه :

أيها البلبل ما هذا الجمود ... أين تغريدك ما بين الشجر
أبعث الألحان في هذا الوجود ... واملأ الدنيا نشيداً وسمر
لا تطق هما لحرب أو سلام ... واترك الدنيا بأهليها تموج
في عراك دائم أو في خصام ... تحت سطح البحر أو فوق المروج
سيمرون كما مر الكرام ... في طريق ما لهم منه عروج
لهف نفسي هل ترى الخير يسود ... فيه عدل الله ما بين البشر
أو يسود الشر والدنيا تعود ... لحياة ليس فيها مستقر

ويمضي الشاعر في مخاطبته البلبل ، يستحثه على التغريد ، ويسأله عن حال الوطن ، الذي يرمز إليه بالوكر ، ماذا صار إليه ، فيقص البلبل قصته ، على هذه الصورة :

« أعطني سمعاً ، ومولاي شهيد ... إن في القصة ما يدمي الحجر
عشت دهراً بين غاب لا وجود ... فيه للحب ولا جنى الثمر

ذئبه يعوي إذا جن الظلام … فتصيح البوم مثل المنذرة
وزئير الأسد في تلك الأكام … مثل غارات الليالي المقمرة
وإذا الشمس رمت بعض السهام … أصبحت غربانة منتشرة
وعلت في الجو صيحات القرود … والذي في باطن الأرض ظهر
عالم لا خير فيه وصعيد … ساءت العشرة فيه والمقر

وهو يعني بذلك ـ فيما يبدو ـ صورة الوطن في عهد الطغيان الإيطالي ، ثم يقول :

مرت الأيام في طول السنين … حافلات بالمآسي المؤلمة
ذات صبح برح الوجد المكين … فسرت في الغاب مني نغمة
هي تسبيح وشكوى وأنين … وهي للقلب صلاة قيمة
تبعث الإيمان في القلب الشرود … وتعيد الروح للقلب الضجر
ردد الغاب صدى ذاك النشيد … في سكون الفجر كالسحر انتشر
سمع الجن فهاجوا ثائرين … ثم قالوا وسط صيحات الغضب:
اقتلوا الساحر أيان يكون … ابحثوا عنه ، أذيقوه العطب
قبلما يمسخكم مستأنسين … إنه الساحر يأتي بالعجب
فاعتراني منهم خوف شديد … وتواريت بأوراق الشجر
وإذا الشحرور يأتي من بعيد … وينادي يا عصافير السدر

وهنا يذكر العودة إلى ليبيا ، العودة الأولى التي ملأت قلوب العائدين بشراً وزهواً ، ولكنهم لم يلبثوا حتى أوذنوا بالرحيل مرة أخرى ، وعادت الحسرة تملأ قلوبهم من جديد :

حمت في الجو فألفيت الرفاق … جوقة من عندليب وهزار
وشحارير ضناها الاشتياق … وبخاتي وقماري وكنار
طرن أسراباً غداة الجو راق … صادحات بأناشيد الفخار
مسرعات في هبوط وصعود … في ضياء الشمس في نور القمر
قاصدات وطن الشيخ الشهيد … فارس الهيجاء حاميها عمر

كبـرت أسـرابنـا لمـا رأت   روضـة أنهارهـا من سلسبيـل
جنـة أشجـارهـا قـد أينعت   جـوها صـاف وواديها جميـل
طيـرهـا شـاد بـأنغـام شجت   سامعيها بعد صمت مستطيـل
فدخلنا الوكر في يـوم سعيد   وقضينـاهـا سـويعـات غـرر
بينمـا نحن على الماء ورود   إذ ينادي النحس فينا بالضرر

فـرق البين ولم أقصـد وداع   وتركت القلب في الوكر رهين
عدت للغاب ولو تدري السباع   أنني عدت لهاجت في العرين
غير أن الصمت وهو المستطاع   صدهم عني فبي لا يشعرون
هكـذا الدنيـا إذا والت فعيد   وإذا ولـت فـشـر مكـفـهـر
حسبنا الصبر لهـا حتى تعود   بـالمنى والدهـر ولاد العبـر »

وتنتهي بهذا قصة البلبل عن وكره ، إنها قصة الشاعر في وطنه ، وبعيداً عنه . وقد غلب عليه الإبتئاس ، وخيم عليه الوجوم ، لولا التعلل بالأماني ، وبذلك يعقب على قصة البلبل قائلاً :

أطرق البلبل في صمت عميق   ورأيت الدمع في عينيه جال
قلت : لا تيأس ففي الجو بروق   لامعـات وغيـوم في الشمـال
فإذا ما أرعـدت فهي حريق   يسعر الأعداء في تلك التلال
وإلى أوطـاننـا ثـان نعـود   إن يشأ الله في وقت مسر
قال : أستودعـك الله المجيد   وإلى أن نلتقي أخرى . وفر

هذه إحدى قصائد إبراهيم أوسطي عمر الأولى ، وقد عنينا بعرضها عرضاً وافياً ، وإطالة الاقتباس منها ، لأنها تصور شاعريته في دور نشوئها وأوائل ظهورها . وهي ـ كما نرى ـ شاعرية أصيلة . ولكن هذه القصيدة تصور من ناحية أخرى هذه الشاعرية المبتدئة من جهة التعبير ، إذ تصور قصور الشاعر في التعبير ، وتعثره في الأداء ، وعدم طواعية اللغة له . فهو لم يملك ناصية الأداة اللغوية بعد ، ومن هنا كانت هذه الأخطاء اللغوية التي يلاحظها القارىء .

وبقي إبراهيم في مصر حتى انتهت الحرب في ليبيا ، ولا عمل له إلا السمر في مجالس إخوانه ، وإلا قراءة الكتب ، يقبل عليها بنهم ؛ كما يحكي الأستاذ علي مصطفى المصراتي في كتابه عنه ، رواية عن أصدقاء إبراهيم من طلاب الأزهر والجامعة من أبناء ليبيا ، أنهم قالوا له : « إن إبراهيم الأوسطي في تلك الفترة كان يزورهم ويتردد عليهم ، ويستعير منهم كتب الأدب والشعر ويقرؤها بنهم »، وكانوا يعجبون وهم طلاب العلم كيف اهتم هذا الشاب بالمطالعة أكثر منهم ، وكان يقول لهم : هل من مزيد ؟ هل من جديد ؟

ولا ريب أن هذا الإقبال الشديد على القراءة يريد أن يعوض بها ما فاته حين كان يعجز عنها ، قد أفاده فائدة كبرى فيما نحن بصدده . ولعلنا نستطيع أن نرى أثر هذه القراءة المتصلة في أسلوبه الشعري ومرانته اللغوية ، وسلامته من التعثر الذي رأيناه في قصيدته التي أوردناها الآن ، ويكفي في هذا أن نقارن بين هذه القصيدة وإحدى قصائده التي أنشأها سنة ١٩٤٣ ، ولتكن قصيدته التي قالها عن « الكتاب » ، إذ كانت لها دلالتها أيضاً على ما كان للكتاب من منزلة رفيعه عنده . قال :

أي شيء في حياة المرء أغلى من كتاب
يصقل الذهن ويهديك إلى نهج الصواب
ويسليك إذا ما كنت يوماً في اكتئاب
أو يسري عنك غماً بفكاهات عذاب
إنه أنفع في الوحدة من لغو الصحاب
ليتني أنفقت في صحبته كل شبابي
آه قد ضيعت عمري بين لهو وشراب
بين غيداء وحوراء وخود وكعاب
وعزوف عن حياة الجد في جو التصابي
ورقيبي سجل القول وفعلي في كتابي
آه ماذا في كتابي يوم حشري

ما مصيري بعد حشري ؟ لست أدري

إن يكن في الدهر والحشر كتابي بيميني
يا لحظي ! فلقد فزت بدنياي وديني
وإذا نادى منادي البعث : يا أهل اليمين
قلت : هاؤم ، أقرأوا ، هذا حسابي وديوني
فيه ما قدمت في دنياي من فعل ثمين
فينادي : أدخلوه في ظلال وعيون
في نسيم الخلد ما يطلب من حور وعين
ليتني قدمت ما يسعفني أو ما يقيني
حيرة الحشر وطلقت شكوكي وظنوني
آه لو جاء كتابي بشمالي
ما الذي يجري ؟ ولكن أنا مالي ؟

أنا إن ضاقت بي الدنيا وهد الهم صدري
لا أبالي الهم ما دام كتابي طوع أمري
فيه ما يمتع أمثالي من نظم ونثر
وبحسبي أنني أحيا به في كل عصر
عيشتي دون كتاب لا تساوي ربع ظفر
هو أستاذي الذي علمني الشدو بشعري
حلني من كل قيد غل أعمالي وفكري
فغدوت اليوم كالطائر في سري وجهري
لا أبالي الغيم والرعد ولا الخاطف يسري
أنا حر في نشيدي وغنائي
وغنائي وحده فيه عزائي

ثم عاد إبراهيم إلى ليبيا ، كما عاد أكثر إخوانه من المهاجرين ، وخاصة المثقفين الذين قدروا حاجة البلاد إليهم ، وخاصة في هذه الفترة .

وكانت الإدارة الإنجليزية أنشأت مراكز للاستعلامات في المدن الليبية ، فعهدت إليه بمركز درنة . ولكنه لم يلبث أن ضاق بهذا العمل ، كأنما أحس بوطأة كثير مما يعهد إليه به على ضميره الوطني ، فود لو استطاع أن يتركه إلى عمل آخر لا يجد فيه هذا الحرج ، ولا يمتحن فيه ضميره هذه المحنة . وكان يطمح ببصره إلى مركز من مراكز القضاء . ألم يمض في المحاكم فترة طويلة من حياته ، انعقدت فيها الصلة بينه وبين أستاذه عبدالكريم عزوز ، وتلقى فيها عنه أصول الشريعة الإسلامية ، وقد أتاحت له من بعد صلاته بإخوانه من طلاب الأزهر أن يمضي في درس الفقه الإسلامي ؟

وقد تحقق له ما كان يرجو ، فجعل قاضياً في محكمة درنة .

وكان إبراهيم يدرك دقة هذه الفترة التي تمر بها بلاده ، ويرى ضرورة المشاركة في توجيه سياستها ، وفي تقوية صفوف أبنائها ، مهما يكن العمل الذي يعمله ، أو المنصب الذي يشغله . وقد كانت فترة إقامته في المهجر ، واتصاله بالهيئات السياسية الليبية ، قد أفسحت آفاقه السياسية ، وأنضجت وعيه السياسي وأمدته بالتجارب الكافية في هذا المجال . وهكذا كان رئيس جمعية عمر المختار في مدينة درنة . وقد استطاع هذا الفرع أن يؤدي رسالته في هذه المدينة خير أداة مما أقلق السلطات الحكومية ، فقررت نقله من درنة إلى المرج . وإذا كان هذا النقل حد من نشاطه ، فإنه لا يمنعه من ممارسة ما يراه حقاً له في التوجيه والتسديد ، ومن إبداء الرأي فيما تواجهه البلاد . وكانت الخصومة بين دعاة الوحدة الليبية ، وبين القائلين بالتقسيم ، أو الاكتفاء باستقلال برقة ، قد جعلت تأخذ صورة عنيفة ، ولم يكن لإبراهيم بد من أن يشارك في هذه الخصومة ، ويسفه رأي القائلين بالتقسيم ، في صراحة وقوة .

ولعل ذلك كان مما دعا رئيس الحكومة القائمة إذ ذاك أن يصدر منشوراً وزارياً يحرم فيه على الموظفين أن يشتغلوا بالسياسة ، وجاء

المنشور إلى إبراهيم ليوقع عليه ، فأبى ، وآثر اعتزال الوظيفة ، وقال في ذلك أبياته المشهورة بين شبان ليبيا :

قيل : صمتا ، فقلت : لست بميت   إنمــا الصمت ميـزة للجمــاد
لا أطيق السكوت ما دام قلبي   خافقاً واللسـان يروي مـرادي
إنمــا البلبـل المغــرد يشـدو   أينما كان : في الربى ، في الوهاد
ذاك دأبى مدى الحياة وإني   لا أبالي بما تجيء العوادي
لا أظن الأقفاص مهما أدلهمت   تمنـع الطيـر لـذة الإنشـاد
إنمـا الرزق والمعيشـة والمـو   ت جميعـاً بأمـر رب العباد

وبذلك تفرغ إبراهيم للسياسة ، داعياً للوحدة الليبية ، مهللا للوحدة العربية ، منددا بالخصوم والحكام ، وقد غلبت عليه روح السخرية فيما كان يتناول به هؤلاء الخصوم في شعره ، كما كان صنيع شيخه المهدوى . ولا بأس أن نورد شيئاً مما يدل على هذا اللون عنده . من ذلك هذه القصيدة ، وقد قدم لها بقوله « حمل بعض الناس ـ ظلماً ـ على أحد الحكام ، فتطوعت للدفاع عنه بهذه الأبيات» :

دبر أمورك في لطف وإيناس   واحكم فإنك فوق العين والراس
يـأيها الأمـر النـاهي بسـطوتـه   سر في طريقك لا تحفل بدساس
إن عابك البعض فاعرض عنهم فلكم   عاب العظيم أناس غير أكياس
كل الذي قاله الأعداء عن حسد   من الأباطيل لا يمضي على الناس
إن قيل إنك قدمت الأقارب قل   ماذا عليَّ فهم درعى وأتراسى
أو قيل : طاغية ، قل إنكم بشر   لا تسلسون لغير الحاكم القاسي
أو قيل ما قيل لا تحفل بهذرهم   « واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي »
وقل أعوذ برب الناس من نفر   ومن حسود ووسواس وخناس
وأمن على النفس من غدر العدو فلا   تجعل مقرك مخفـوراً بحراس
فليس فيهم وإن طالت مقاولة   بالفعل أمثال وحشي وجساس
ولم تكن حمزة المشهود في أحد   ولا كليباً غداة الهول والباس

وإنما أنت في عصر قد انقلبت — أوضاعه فالحصى فاقت على الماس
سر كيفما شئت أو شاء الهوى قدماً — فلا عليك وعث في القوم « حواس »
ألست حاكمهم فالقوم قد حمقوا — وأصبحوا بشراً من غير إحساس
حسبي وحسبك قد هيجت عاطفتي — فصار للقول معنى الخمر في الحاسي
لولاك ما قلت شعراً كنت هاجره — لله درك توحي الشعر للناس

وقد ظفر إبراهيم بشعبية كبيرة جعلت اسمه على كل لسان ، مما ضاعف نشاطه السياسي . ولكن الأيام لم تطل به ، فلم يلبث أن قضى نحبه ، في نهاية هذه الفترة ، وهو في عنفوان نشاطه ، وفي قمة مجده ، في السادس والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٠ .

وأما النمط الثالث من شعراء هذه الفترة ، فيمثله هؤلاء الشبان الذين أتيح لهم أن يظفروا بتلقى التعليم في المدارس الليبية القائمة في العهد الإيطالي ، سواء في ذلك المدارس الإيطالية ، أو بقايا المدارس الدينية كمدرسة أحمد باشا . ولكن التعليم في هذه المدارس لم يكن بطبيعته ما آل اليه يمكن أن يكون عالماً أو ينشىء أديباً . إنما كان نوعاً من التمويه ، ووسيلة لتكوين طبقة من الناس تسند إليهم بعض الوظائف الصغرى التي لا يصلح لها إلا وطني . كما كان فرض الحصار الدقيق على الكتب والمجلات العربية قد أريد به الحيلولة بين الشعب الليبي وبين ما يمكن أن يثير نزعاته القومية ، أو يغذي نوازعه الأدبية العربية .

ومع ذلك فإن هذا الحصار ـ على دقته والمبالغة في أحكامه ـ ما كان من الممكن أن يحول دون هذه الكتب والمجلات ، تتسلل تسللاً ، أو تهرب بأية صورة من الصور . وقد رأينا من قبل ما حكاه الأستاذ محمد فؤاد شكري من أمر هذه الفئة من الشبان الذين ضبطتهم الشرطة الإيطالية في طرابلس وأودعتهم السجن ، لأن نبأ نمى إلى هذه الشرطة ، أنهم عاكفون على كتاب من كتب المنفلوطي يقرءونه .

فقد كان من نتيجة هذا التحريم والإصرار عليه والمبالغة فيه أن أصبح

تهريب الكتب والمجلات من العمليات الدائمة التي تكاد تكون عمليات منتظمة ، كما كان من نتائجه الطبيعية أن اشتدت الرغبة في الحصول عليها والعكوف على قراءتها والولع بما تتضمنه ، صورة من صور التحدي ، ومعنى من معاني المقاومة . ما يكاد الكتاب ـ أو المجلة ـ يجتاز الحدود المضروبة ، حتى يسرى خبره بين هؤلاء الشبان ، وحتى يتوزعونه فيما بينهم ، ويتعاورون قراءته .

وبذلك نشأت في ذلك العهد ناشئة استطاعت ان تخرج قدر المستطاع من ذلك الحصار ، وأن تتصل بالحياة الأدبية خارج ليبيا اتصالاً وثيقاً عميقاً ، وإن يكن محدوداً ، فلم يكد ينتهي الاستعمار الإيطالي حتى أخذتهم هذه النشوة التي سيطرت على الشعب الليبي عامة ، وحتى جعلت نفوسهم تتوثب وتشرئب . فظهرت ملكاتهم ، وبرزت مواهبهم ، فكان منهم الكاتب المجيد ، والباحث المدقق ، كما كان منهم الشاعر المحلق . وهكذا رأينا في هذه الفترة جماعة من الشبان يعالجون الشعر ، يعبرون به عما يخالج نفوسهم ، ويحاكون به ما أتيح لهم أن يقرءوه منه .

ونستطيع أن نتمثل هذا النمط من الشعراء في مثل بشير المغيربي ، وحسين الغناي ، وعلى صدقي عبد القادر ، وصالح الشنطة ، وكثير من الأسماء انني كانت تظهر في بعض مجلات هذه الفترة . ويبدو أن الشعر بالقياس الى كثير منهم كانت فورة دفعت بها ملابسات الحياة الجديدة في ليبيا في هذه الفترة ، والجو العاطفي الذي يسودها ، كان لوناً من ألوان النشاط الوطني والحماسة القومية . حتى إذا انتهت هذه الفترة ، وهدأت الأمور واستقرت ، تحولوا عن الشعر ، إذا انتهت دواعيه ، وجعلت مواهبهم الأدبية تتخذ مسالك أخرى .

وكان من الطبيعي ان تكون أشعار هؤلاء الشعراء صدى ما كان يضطرب به جو الحياة العامة ، سواء في ذلك الجو السياسي أم الجو الاجتماعي . وإذ كنا ـ في هذه الدراسة السريعة ـ لسنا في معرض الاستقصاء ، فلا نملك إلا أن نكتفي ببعض الأمثلة التي تصور لنا بعض

الاتجاهات الشعرية في هذه الفترة ، عند بعض الشعراء الذين انتهى نشاطهم الشعري بانتهائها ، مرجئين الاخرين إلى حديثنا عن الفترة التالية .

فمن الشعراء الأولين بشير المغيربي ، وكان نشاطه الشعري على هامش نشاطه السياسي باعتباره السكرتير العام لجمعية عمر المختار . وكان ينشد قصائده في بعض الحفلات التي تقيمها الجمعية في المناسبات السياسية ، فتثير الحماسة ، وتشارك في تحقيق ما تستهدفه الجمعية من استبقاء الوعي السياسي حياً نابضاً . ومن ذلك قصيدته في ذكرى عمر المختار ، إذ يقول فيها :

ذكرى تطل من الخلود ... كالبدر في ليل الوجود
ملأت قلوب المؤمنين ... بروعة الماضي المجيد
أيام كان الليث يز ... أر في مفازات وبيد
يحمى العرين من الذ ... ين غزوه في الجمع العديد
أيام كان الليث يخـ ... طر في الوهاد وفي النجود
ذوداً عن الحوض الذي ... قصدته أفعى للورود

ما بال ليث الغاب ليـ ... س له زئير أو هديد
ما بال هاتيك الخدو ... د بهن اثار اللحود
أواه قد ديس الحمى ... وتصدع الحصن العتيد
والليث قيده الطغا ... ة فصار في قفص الحديد
يا من رأى نسراً تقيـ ... يده الضفادع فوق عود
يا من تعجب إنها ... دنيا ، وللدنيا الجحود

إنه نوع من الشعر الخطابي السياسي

وها هو ذا مثل آخر من شعر أولئك الشعراء ، يغلب عليه الجانب التصويري ، في التعبير عن بعض مآسي المجتمع ، وذلك في قصيدة لحسين الغناي بعنوان اليتيم . يقول فيها :

لبس الذل بعد دل وتيه ... فانضوى تحت جنحه يطويه

وبـدا كـاسفـاً كئيبـاً تجلت ... في محيـاه حيـرة المشـدوه
وتـراءت من عبرة كـاد يخفـ ... يهـا دمـوع فجيعـة تشقيـه
هو طفل في العشر من عمره الذا ... وى ومن حالكات لون سنيه

لفـظتـه الحيـاة لفظ نـواة ... ورمتـه الأقـدار بـالمكـروه
وأتته الخطوب من كل حدب ... مشـرعـات سهـامهـا تبتغيـه
فـانحنى تحتهـا يئن ويشكـو ... رافعـاً كفـه إلى بـاريـه
يطلب الغوث في خضوع وصمت ... وينـادي : « لله »، يا عـارفيـه

- ٣ -

في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٥١ أعلن جلالة الملك إدريس السنوسي « أن ليبيا أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة » ، وبذلك انتهت فترة الانتقال ، وابتدأ منذ ذلك الوقت عهد الاستقلال .

وإذا كان هذا الإعلان قد قضى على كثير من مثارات الخصومة والجدال التي رأيناها في الفترة الماضية ، كالخصومة حول الوحدة والانفصال ، فقد بقيت أمور مازالت ماثلة في جو الحياة الليبية ، كخصومة الوطنية الليبية للإنجليز ومن يجرون في فلكهم . وقد تجددت هذه الخصومة بمناسبة عقد معاهدة التحالف والصداقة بين ليبيا وبريطانيا في ٢٩ يولية سنة ١٩٥٣ ، كما جدت أمور اقتضتها الحياة السياسية الجديدة ، كقيام الحياة البرلمانية، وكان لذلك كله أصداؤه في الحياة الأدبية في هذه الفترة .

وتتمثل الحياة الأدبية في هذه الفترة في أجيال ثلاثة من الشعراء : جيل الشيوخ ، او الجيل الذي يمكن أن نطلق عليه اسم جيل المخضرمين ، وجيل الشبان الذين ظهرت شاعريتهم في فترة الانتقال ، واستمرت نابضة حية ، ثم جيل الناشئة الذين نشأوا في فترة الانتقال تلك ، وظهرت شاعريتهم في هذه الفترة .

أما جيل المخضرمين فما زال يمثله رفيق المهدوى ، وإن كانت شاعريته قد فترت في هذه الفترة ، فلم تعد كما كانت من قبل ، كأن لم يعد هنالك ما كان يثيرها ويهزها ، أو كأنما غلب عليه اليأس ، على النحو الذي نراه يعبر عنه ، حين أخذ الناس يتلفتو ن إليه ، ويلتمسون شعره ، ويتساءلون ما باله ؟ أنضبت شاعريته ، أم هي عضوية الشيوخ التي يشغلها قد حالت بينه وبين الشعر ؟! فقال هذه القصيدة :

يقولون لي : ما بالك اليوم ساكتاً   وقد كنت في كل الخطوب تقول
فقلت لهم : يا طالما قد دعوتكم   فلم يك منكم للدعاء قبول
وحركت نواماً ، فكنت كأنني   أزيد بهزى نومكم فيطول
تحبون قوالاً ، وأنتم بحاجة   إلى عامل ، والعاملون قليل
فهل قام منكم بالذي قلت واحد   «قؤول لما قال الكرام فعول»
وهلا وهل منكم تحرك واحد   لتسفيه حكم انكرته عقول
تحكم أفراد يسوقون أمة   إلى جرف هار يكاد يهيل
وتحكيم جهال يسوسون دولة   لهم في تصاريف الأمور فضول
أيسكت قومي ثم يزعم بعضهم   بأني قد استولي على ذهول
« فلو أن قومي أنطقتني رماحهم   نطقت » ولم ينسب إلى خمول
على أنني مهما تكاثر خاذلي   سأرفع صوتي عالياً ، وأقول :

وهكذا كان اعتذار رفيق عن سكوته ، أو عن نضوب شاعريته ، ولكنه لم يبلغ هذا الحد ، حتى تنبهت شاعريته منكرة ساخرة ، شأنها من قبل ، فقال :

أناخت على حكم البلاد عصابة   تسير على أهوائها وتصول
فلا شأن للدستور فهو معطل   ولا حكم للقانون فهو فضول
وباسميهما تجرى الأمور وما لها   إلى الحق أو أخذ الحقوق وصول

ومضى يسخر من الحاكمين ، في لهجة لاذعة ، حتى بلغ أعضاء مجلس النواب ، فلم يعفهم من سخريته اللاذعة ، من مثل قوله :

فلا عضو في النواب إلا وعقله   به من نسيج العنكبوت سدول

ترى عينه مفتوحة وهـو نائم ... كـأرنبة في الـظل حين تقيل

وكذلك كان أمره مع الشيوخ ، وهو منهم ، فقد تناولتهم شاعريته ، دون أن يشفع لهم كونه واحداً منهم ، بل لقد وضع نفسه معهم وهو يغمزهم ، فيقول :

ويكفيك أن « العبد لله » منهم ... وإني عليهم في القياس دليل
لقد خرفوا فالفائق النطق بينهم ... يورور كالملحـوس حين يقول
إذا سمعوا ان الحكومة قررت ... فليس لهم عما تريـد نكول
شيوخ ونواب على الشعب عالة ... وعبء من الصخر الأصم ثقيل
وهل يحسن التمثال تمثيل أمة ... أقـامته « بـوقات لهـا وطبول »

وتلك هي صورة من انفعال شاعرية رفيق ، ممثل طبقة الشعراء المخضرمين ، ببعض ما كان يراه في الحياة السياسية ، مما حدث في عهد الاستقلال . أما خصومة الانجليز ، فما زال منها حيث كان من قبل ، لا يرى فيهم إلا جانب الكيد للشرق والإسلام ، وذلك إذ يقول في قصيدته التي وجه فيها الحديث الى مصر ، في يناير سنة ١٩٥٢ ، بعد الأحداث التي اضطربت بها في ذلك الوقت :

ألم نزل من خداع « الحيزبون » على ... جهل نؤمل في إنصافها لغد
عدوة الشرق والإسلام ما فتئت ... تفت بالدس والتفريق في العضد
كم من مفاوضة أفضت الى فشل ... وكم معاهدة خابت ولم تفد
ما حلفهم غير خلف للوعود ولا ... ميثاقهم من غير نفث الغش في العقد
لا تؤمنوا لدفاع، قيل ، مشترك ... فإنه شرك ، من ينخدع يصد

ثم يقول :

فأرثوها على الباغي مسعرة ... بكل أروع في ساح الوغى نجد
كنـانة الله من أشبـالها نثلت ... سهماً أصاب عدو الله في الكبد
تقوضت دولة المستعمرين وقد ... « أخنى عليها الذي أخنى على لبد »
قد صورت أسداً رمزاً لسطوتها ... فعاد رمزاً على (جدى) من النقد

فلا يهولنكم من شحمه ورم « فإنه الهر يحكي صولة الأسد »
الشك في النصر كفر ، سوف يتبعه يأس ، هو الموت من جبن الى الأبد
لا شك في النصر إن صح التآزر من شعب على الحق بعد الله معتمد

ذلك هو جيل المخضرمين الذي كان يعيش أيامه الأخيرة في هذه الفترة ، فقد قضى رفيق المهدوى نحبه في سنة ١٩٦١ ، كما مات من قبل بعامين أحمد الشارف ، سنة ١٩٥٩ .

أما جيل الشبان ، فنستطيع أن نتمثله في شاعر منهم ، لا تزال شاعريته نابضة فياضة، وهو على صدقي عبد القادر .

وهو شاعر طرابلسي ، ولد في العهد الايطالي ونشأ فيه ، وتخرج في مدرسة أحمد باشا، وبرزت شاعريته في فترة الانتقال ، واستمرت حية نابضة في هذه الفترة التي نرسم بعض خطوطها ، وفيها صدر ديوانه الذي سماه « أحلام وثورة »، في صيف سنة ١٩٥٧ .

ونحن من شعر على صدق عبد القادر لقاء نمط جديد من الشعر لم نعهده من قبل في ليبيا . فهو يردد في قوة وأمانة أصداء التجديد التي جعلت تفرض نفسها على الشعر العربي بعد الحرب العالمية الثانية . كان أول أمره متأثراً بتجديد شعراء المهجر ، والمناهج التي اتخذها ذلك التجديد ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، فلم يلبث أن تأثر بما اتخذه ذلك التجديد من صور أخرى ، في الصورة والمضمون ، فمضى معها ، وأوغل في اتباعها ، حتى لم يتحرج ـ وهو الذي نشأ كما رأينا نشأة أقرب الى المحافظة ـ من أن يصطنع الشعر المرسل .

وموضوعات شعره ـ كما نرى في ديوانه ـ مرددة بين الشعر الوطني ، والشعر الوجداني ، والشعر التصويري ، وإن كانت النزعة التصويرية غالبة عليه في جميع ما يصوغه .

فأما الشعر الوطني فلعل أول ما يتناوله ذلك الحدث الماثل في ضمير كل ليبي ، فكان من الطبيعي ان يكون اول شيء تنفعل به شاعرية كشاعرية

صدقي عبد القادر ، وقد تغلغلت في أعماق الماضي ، فإذا هي ترى صور العدوان الإيطالي ماثلة أمامها ، فإذا هي ماثلة في شعره ، حية نابضة .

وشاعرنا يمثل هذه الصور على نحو جديد يبين ناحية من نواحي التجديد عنده . لقد قبض قبضة من رمل بلاده الأحمر المشرق ، فتمثلت له كل ذرة منه شخصاً يتحدث إليه ، يفضي له بما كان من شأنه أيام ذلك العدوان الفاجر ، فإذا بالصور تتوالى الواحدة إثر الأخرى ، شائهة منكرة ، تنضح بالخبث والخسة والدناءة .

ولكن الشاعر لا يعيش في أمسه وحده ، ولكنه الأمس المتصل باليوم ، والماضي المتصل بالحاضر . إذا كان الاستعمار استطاع بالأمس ان يهدر الكرامة العربية حين اعتدى على ليبيا ، فها هي ذي الكرامة العربية جعلت تثأر لنفسها ، حين هبت هبتها ، متمثلة في الأردن ، وقد انتفضت وثارت ، فطردت ممثل الاستعمار « جلوب » ، وحققت بذلك شخصيتها وإرادتها . وهكذا تمثل الشاعر هذه الذرات الليبية التي أخذها في قبضته ، وقد جعلت كل منها تحكي قصة مشهد من مشاهد الطغيان وإهدار الكرامة العربية ، تثور غاضبة لذكرى هذه المشاهد ، ولكنها لا تلبث أن تجد في هذه الأحداث الأخيرة التي انتفضت الأردن بها ما يرد اعتبارها ، ويرضي كبريائها .

وهكذا صاغ علي صدقي عبد القادر هذه المشاعر في القصيدة التي جعل عنوانها « ذرات رمل » :

رمل « ليبيا » وطني قليته بين يديا
شعشعت حمرته ، زاهية ، شيئاً فشيا
وتراءى لي دماء سال بين اصبعيا
وبدا ملتهباً ، يلفح صدري ، عارضيا
ثم ضاع العطر منه ، عطر اجدادي شذيا
تربة في قبضتي

جبلت من مهجتي
أمس ضمت عترتي
وعليها ضجعتي

وهنا ذرة رمل ، في يدي راحت تكلم
إنني كنت فتى ، للموت ، للعادي تقدم
يوم دك المعتدى بيتي على أهلي وهدم
يوم أن داس بنعل قذر أرضي وخيم
كان يوماً عشته ، شاهدت شعبي كيف يعدم

وأنا تحت السنابك
ساقطاً للموت ضاحك
كل جرح في سافك
دمه ، والليل حالك

عندها ذرة رمل قالت اسمع ما أقول
إنني كنت فتاة ، عندما دقوا الطبول
سار (للهاتى) خطيبي ، وأخي عند الأصيل
لم يعودا بعد ، ويحى ، استشهدا تحت النخيل
يوم أن قطع أذني ، بغية القرط ، الدخيل

فهو بالنهب يفاخر
بعد أن ساق الحرائر
في الدجى نحو الحفائر
آه ! كم شقت مرائر

بعدها ذرة رمل قالت : الآن اسمع
قصة الثكلى التي واحدها لم يرجع
بعد شنق الأكمه الشيخ الجليل الأروع
أصبحت تأسو جراحات الكمى الموجع
تحمل الماء لعطشي ، صمدوا في الموقع

إنـهــا أم الــشــهــيــد
ضــمــدت جــرح الــجــنــود
ســقــطــت تــحــت الــبــنــود
بــيــد الــعــلــج الــعــنــيــد
ذرة أخرى لها بالكف تهويم بهمس
إنها التاريخ يروى قصة من أمس أمس
قصة العلج الأروبي ، وكم قاد لرمس
مرأة ؛ طفلاً ، وشيخاً ، في الدجى والليل مغسى
قصة استعمار ليبيا وهي تحيا في تأسى
قصة الوطن الطعين
قــصــة الــحــر الأمــيــن
يــفــتــدى هــذا الــعــريــن
بــالــدم الــقــاني الــسـخـيـن
بعدها الذرات صاحت ، في امتعاض وغضب
إن في الأردن شعباً ، يقدح الآن اللهب
مزق الحلف اليهودي ، وقد ثار وهب
إن حلف الغرب ذل وامتهان للعرب
كيف نرضى ؟ لا وربي . إن للشعب الغلب
هــو حــلــف لا نــريــده
وإلــى الــغــرب نــعــيــده
لا تــغــرنــا وعــوده
قــطــعــت أيــد تــقــوده
هــذه الذرة هــزتهـا انتفـاضـات الشبـاب
من اطاحوا « اجلوب » ذاك اللص بعد الاضطراب
رغم طلق النار والسجن ووخزات الحراب
هكذا شئنا ، فلا حلف مع الغرب المراب
فلنحالف بعضنا . سحقاً لأحلاف العذاب

أي ذل وشنار
بيع أرض بالنضار
إنما الأحلاف عار
ودمار وانتحار

هذه القصيدة التي أوردناها كاملة ، لأنها تعد وحدة فنية متكاملة ، تؤدي إلينا صورة من طريقة الشاعر في التجديد الشعري ، في صياغة المعاني ، وفي طريقة الأداء ، وفي النهج الموسيقي . وقد يلفت نظر القارىء تساهله في التزام الصحة اللغوية ، وأخذه اللفظ كيفما اتفق . وكأنما ذلك مظهر من مظاهر مجاراته للمجددين الذين يرون في التجديد تحللاً من بعض القيود اللغوية .

وقد أشرنا من قبل إلى أن تشبثه بالتجديد وحرصه على المضي في طريقه حتى النهاية ، كان مما دفع به الى اصطناع الشعر المرسل ، وفي هذا الشعر صاغ طائفة من قصائده ، ولا سيما القصائد الوجدانية والتصويرية ، وإن كان قد صاغ فيه أيضاً بعض القصائد السياسية ، كقصيدة الأفاعي التي جعلها عن الأردن وشأن الاستعمار معها .

وإذ كنا في مكان المؤرخ الأدبي ، وإذ كانت هذه هي المرة الأولى التي نلقى فيها هذا اللون من الشعر ، في دراستنا هذه ، فلسنا نملك ان نتجاوز تسجيل هذه الظاهرة ، كما لا نستطيع ان نغفل إيراد ما يدل عليها في شعره .

وها هي ذي إحدى قصائده المرسلة ، يرسم فيها ملامح صورة من صور الحياة العائلية ، حين تتعرض فتاة يتيمة ، تعيش مع أخيها ، لطغيان زوجته :

وتسللت كاللص تحمل بين شدقيها الشكاة
لشقيقها فوق الحصير

تروي فظائع زوجته
تلك التي تهوي عليها بالعصي
وتسومها سوء العذاب
في غيبته
تلك التي لم تعطها خبز الصباح
وهي التي حبست وعاء السكر القاني الصغير
لتظل قهوتها مريرة
وتروح تشكو زوجته
في صوتها المهموس مثل الحشرجة
وتقول : لن أبقى ببيتك يا أخي
إني عييت ، أخي ، عييت
من زوجتك
من ضربها لي
من غسل أثواب لها لا تنتهي
من مسح ذياك البلاط
إني عييت ، أخي ، عييت من الحياة
حتى المنام حرمته
في بيتكم
مذ غاب وجه أبي وأمي الغالية
وتقول في صوت تكسره الدموع :
لا لا أريد العيش عندك يا أخي
في بيت زوجتك التي تقسو علي
وتزيل شعراً سال فوق جبينها
وتروح تشكو ثم تسقط في عياء
ومن هزال
وتظل في غيبوبة طول النهار
وشقيقها من حولها كالطير يسعى لاهثاً

بالماء ينضح وجهها من غير جدوى
ذاك الأخ المسكين من أمسى أباها
وأبا لأخوتها الثلاثة
لولاه تاهوا في الطريق
متشردين
وتصيح تلك الزوجة الحبلى كذئب جائع
في وجه أخت الزوج تلطم وجنتيها
وتعنت الزوج التعس
قد غاظها عطف الأخوة
وتقول : ماذا ؟ ما جرى ؟
هل ماتت البنت الشقية (عائشة) ؟
الموت مكتوب على كل العباد
للنار فلتذهب لتفدي قطتي
وتصير تشتم زوجها
وتقول في لؤم وقحة :
ما أنت بالزوج الأمين
أتحب دوني أختك الصفراء ؟ ما أقسى الرجال !
هل يلهينك سقمها عني ؟ إذن أبغى الطلاق
أبغى الفراق
إني ابنة البيت العريق
ما أنت بي رجل خليق
يا أيها الرجل الصفيق

وبهذه القصيدة نكون قد عرضنا الصورة الأخرى لشاعريته من ناحية الشكل والموضوع معاً .

ثم نصل بعد هذا إلى نهاية هذه الجولة ، إذ نجد أنفسنا إزاء الجيل الثالث في هذه الفترة ، وهو جيل ناشئة الشعراء ، الذين نشأوا في فترة

الانتقال ، ونستطيع أن نتمثلهم في ثلاثة : رجب الماجري ، وسليمان تربح ، وعلى الرقيعي . وهم جميعاً ولدوا في العقد الرابع من هذا القرن . والأولان من أهل برقة ، وإن كان ثانيهما ولد في الإسكندرية ونشأ فيها نشأته الأولى ، ثم لم يلبث أن عاد إلى برقة في أول فترة الانتقال ، وأما الثالث فهو من أهل طرابلس .

وأما رجب الماجري فقد ولد في مدينة درنة ونشأ بها . وقد أتاحت له ظروف حياته ، قبل أن يلتحق بالمدارس التي أنشئت في بداية فترة الانتقال ، نضجاً في الشخصية ، وأمدته بكثير من أسباب الطموح الأدبي. ومنذ التحق بالمدرسة الابتدائية كانت شخصية إبراهيم أوسطي عمر إزاءه ، مثلاً يمكن أن يحتذيه ، وعاملاً من عوامل الطموح الأدبي يدفعه إلى قول الشعر ، فكان من ذلك أن ظهرت شاعريته مبكرة ؛ ولدينا قطعة من شعره ، نشرت في مجلة الفجر ، في العدد الصادر في ١٥ مارس سنة ١٩٤٧ ،وقد ألحق بإمضائه هذه الكلمة : « سنة رابعة ابتدائي » .

ولم تلبث هذه الشاعرية أن اطردت في سبيلها ، وخاصة عندما انتقل إلى المدرسة الثانوية في بنغازي ، وأتيح له أن يتصل بقيادة جمعية عمر المختار ، وتبينوا فيه ملامح نبوغ مبكر ، ثم كانت صلته برفيق المهدوي كبيرة الأثر فيه ، سديدة التوجيه له ، فإذا بنا أمام شاعر ناضج ، وقد احتل شعره مكاناً ظاهراً في أول عدد يصدر من مجلة ليبيا ، أول يناير سنة ١٩٥١ ، وكانت تعد كبرى المجلات الأدبية في ليبيا . وقد قدمت قصيدته بهذه التقدمة التي تدل على مبلغ ما كان يظفر به ، وهو تلميذ بالمدرسة الثانوية ، من تقدير وتشجيع :

« قصيدة من قلب فتى مرهف الحس ، يعبد الجمال ويصلي في محاربه على نغمات قيثارته الخالدة . ولكن . . . يسمع من بين ألحانها نغمة نشاز ، هي نغمة اليأس المبكر ، فما سبب ذلك ؟! » .

أما هذه القصيدة التي نظن أنها تؤرخ بداية مرحلة في حياته

الشعرية ، فها هي ذي ، وقد جعل عنوانها « ذبول » :

وقفت أناجي الغصن والغصن ذابل ... ترنحه الآلام والحسرات :
أسائله أين الطهارة والصفا ... وأين الشذى واللحن والقسمات
وأين أحاسيس حواليك رفرفت ... وقلب رقيق كله خلجات
أيا زهرتي خلفت غصنك ذاويا ... وفيه من الماضي الجميل سمات
كجمجمة لاح الردى في ابتسامها ... وسخرية في طيها بسمات
أتخدعني عنك الزهور وفيك من ... حياتي سر القلب والخفقات
خواطر من ذكراك في القلب ترتمي ... ذبولاً ، وهل بعد الذبول حياة
وللوعة الخرساء بين جوانحي ... ضرام له في مهجتي زفرات
أيا زهرتي لو قلت فقدك شفني ... لقالوا : عميد ، إنهم لقساة
فمن ذا الذي لم يعشق الحسن طاهراً ... ضحوكاً سرت من روحه نفحات
ذبلت ولم تذبل صفات ندية ... هل الخلد إلا سيرة وصفات
فكم ميت فينا يروح ويغتدي ... وحي على الأيام وهو رفات
وأنت بأيام الصبا نضرة الصبا ... وأنت على قبر الصبا عبرات
. . . ذبلت فما للروض بعدك بهجة ... تسر ، ولا للحسن بعدك ذات
هو الزهر يصفيني الوداد ، وإنما ... نصيبي من أعماره لمحات

بهذه القصيدة بدأ رجب الماجري يعرف مكانه ويثق في موهبته الشعرية ، وقد جعل ذلك ـ ولا ريب ـ يدفعه إلى التماس مقومات شاعريته ، ولعل أكثر اتجاهه في هذا الوقت إنما كان إلى الشعر القديم ، كما يبدو ذلك في ديباجة قصائده التي جعلت تظهر بين وقت وآخر في مجلة ليبيا ، وقد أصبحت ميدان نشاطه الشعري .

كما توثقت صلته بأسرة هذه المجلة الذين احتضنوه وأحسنوا تسديده في سبيله . وهم إلى جانب عنايتهم بالأدب رجال سياسة : أصحاب مبادىء ودعاة مثل وطنية عليا ، فكان في ذلك ما وصل بينه وبين الحياة السياسية ، فكان له شعره السياسي ، يعبر به عن تلك المبادىء ، كما نرى

في هذه القطعة التي يتحدث بها عن عهد الاستقلال ، داعياً إلى فصم كل صلة بالإنجليز ، وإن غرروا وموهوا .

ليهنك موطني عهد جديد   طوى الإذلال مطلعه السني
ليهنك إن تكن طلقت .. حقا   عجوزاً وصلها حمق وغي
سياستها لرائدها طريق   مضل ذو شعاب لولبي
فهذا الشرق ـ وهو اليوم نار   مؤججة ـ بصحبتها شقي
فلا يغررك أن وهبتك مالا   زهيداً . كل ذي غرض سخي
تجود لغاية تسعى إليها   خداعا ، فهو جود أشعبي
وإلا لم تسد العجز فينا   وفيها العجز فضاح جلي ؟ !
ليهنك في ظلال العز عيش   رغيد ـ رغم قسوته ـ رخي
إذا جر الرفاه إلى قيود   « فحسبك من غنى شبع وري »
وإن عرضت لوصلك أم سوء   لقيطتها ، فقل رشد الغوي

وكان من مقتضيات عهد الاستقلال ، وصدور الدستور الذي وضعته الجمعية الوطنية الليبية وأقرته في السابع من أكتوبر سنة ١٩٥١ أن أخذت البلاد تتأهب لخوض المعركة الانتخابية ، وقد داخل هذه المعركة ما يداخلها عادة من استخدام الوسائل المختلفة للظفر فيها ، مما انفعلت به شاعرية شاعرنا الصغير ، فقال هذه القطعة التي تدل ـ كسابقتها ـ على نضج سياسي وفني معاً :

سوق الضمائر ـ وهي رائجة ـ   أثمانها هبطت لدينار
والانتخاب الحر قام على   قدم وساق بين تجار
إن لم تكن كفئا فلا حرج   وضع الجنيه بكف سمسار
تكسب من الأصوات ما عجزت   عن نيله أمجاد أحرار
فإذا بلغت « الدست » محترما   فاحكم فأنت البائع الشاري

وما أن انتهى الماجري من دراسته الثانوية في ليبيا حتى قصد إلى مصر ، لاستكمال دراسته ، فالتحق بكلية الحقوق في جامعة عين شمس ،

وأتيحت له بذلك صور من الحياة جديدة ، وداخلت حياته ألوان من التجارب العاطفية ، كما اتسعت مع الزمن آفاقه الأدبية ، فكان من الطبيعي أن تتخذ شاعريته أساليب جديدة في التعبير عن نفسها ، فلم يعد ذلك الأسلوب الكلاسيكي الذي كان يلتزمه حتى الآن كافياً في التعبير عما جعلت نفسه تضطرب به . وهكذا أخذ يتجه في شعره اتجاهاً جديداً ، يمكن أن نتمثله في مثل هذه القطعة .

أنا لا أحيا على الأحلام والصوت الحنون
إنما أحيا على الآلام والوجد الدفين
إنها درب حياتي إنها رجع لحوني
عشت في الشوك وللورد اشتياقي وحنيني
فإذا يا دولتي أعلنت حبي فاعذريني
أنا في دنياي كالفكرة في وادي الظنون
قلق كالزورق التائه ، كالطير السجين
ها هو القلب على كفي . . . خذيه ودعيني
يا حبيبي

أين قلبي ، وأماني ، وأنغامي الحيارى
أين حبي ، وليالي ، وأحلامي العذارى
أين ما أبقيت من فكري شريداً مستطارا
أترى هدهدها منك خيال ثم طارا
أم ترى ولت كومض ، لم يبن حتى توارى
خلف عمري يا حبيبي

وبعد ، فقد كان رجب الماجري شاعرية جديرة أن تبلغ بالشعر غاية بعيدة ، فقد كان يجمع إلى أصالة الموهبة وصدق الحس ، سلامة الذوق الفني ، والثقافة الأدبية ، والحرص على قوانين اللغة وروحها ، مما نجد كثيراً من معاصريه يساهلون أنفسهم فيه . ولكنا لا ندري كيف صارت

الحياة بهذه الشاعرية ، بعد أن عاد إلى ليبيا ، وأخذ مكانه في مناصب القضاء بها .

وأما سليمان تربح فهو صديق الماجري ، نشآ في درنة معاً بعد أن عاد من الإسكندرية ، واتصلا بمجلة ليبيا ، وجعلا يتقارضان فيها الشعر ، وقد أفسحت لهما من صدرها ، واشتركا ، فيما نحسب، في كثير من العوامل الموجهة . ولكن شاعرية رجب الماجري كانت ـ فيما يبدو ـ أكثر خصباً وأرسخ قدماً ، كما كانت أدواته الأدبية أوفر وأكثر طواعية .

ولكن ربما كان تربح أكثر توفيقاً حين يتجه بشعره إلى الطبيعة يصفها ويصف أثرها في نفسه . نعرف هذا في قصيدته « سحر الطبيعة ، أو رأس الهلال » المنشورة في العدد الخامس من مجلة ليبيا . ورأس الهلال موقع من أجمل المواقع وأروعها في الجبل الأخضر ببرقة . وها هي ذي قصيدته التي يبدو فيها تأثره بالشعراء الرومانسيين ، مثل علي محمود طه وشعراء المهجر :

أيها الشادن هات السحر جاما
واملأ الكأس وطوف بالندامى
من رحيق الفن طهرا وابتساما
في رياض ضمخت ريح الخزامى

قد صفت يا نفس أحلامي ، فطيبي
وأفق يا قلب للطيف الحبيب

أين أنت الآن ؟ بل أين أنا ؟
رد عني اللحظ وانظر حولنا
وابتعد عنا بأطياف المنى
وارعوى عن فتنة الزور هنا

ها هنا الفتنة في سحر رغيب
تتراءى من بعيد وقريب

فتنة فوق الربى تخلب حسي

وجمـــال حـولهـــا يسحـــر نفسي
يتحـــدى خـــرد الشعـــر بـطرسي
ثم يحـــدوهـــا فيجلوهـــا بعـرس
حلم الأفـــراح في واد خصيب
فـتنـــة تـملك أرســـان الـقـلوب

منـظر الـوادي وشـــلال البحيـرة
وازدواج المنـــظر الـفـــاتن إثـــره
وهـدوء البحـر من أبعـد نـظرة
يقلب الترحة في النفس مسرة
وانطلاق الطير في سرب طروب
يبعث النشوة في القلب الكئيب

آه مـــا أبـلد تفـكيـــري وظـني
قد حسبت الطير في الوادي يغني
غير أني كنت في أحلام فني
حين رن المسقط الغالي بلحن
آه مـــا أبهاه من لحن سـروب
حين يصفو الكون في وقت الغروب

خضرة النبت على تلك الجبال
تخلق الفتنـة في رأس الهـلال
والبيوت البيض عن بعد تغالي
في هوى الزهر وأشجار التـلال
والرباب الطلق في الجو العجيب
يـتحـــدى كـــل رســـام نـجيـب

آه قـد نـد بيـاني عن لســاني
وعفا عن وعي أفكاري جنـاني
خلته قد ضل في تلك الجنان

ذاك أن المنظر السحري سباني

كم سبى غيري بأنسام وطيب
قد صفت يا نفس أحلامي فطيبي

وهذا النزوع إلى الطبيعة ، والانفعال بها ، ظاهرة واضحة في شعر سليمان تربح ، حتى في قصائده التي لا يقصد فيها إلى وصف الطبيعة تغلبه هذه النزعة في الصور الفنية . ففي تحيته لمجلة ليبيا ، في عودتها بعد احتجاجها ، يقول في سياق هذه التحية ، وأنها مجال رحب تناقش فيه الأمور ، وتساق فيه أفكار الحياة :

ونصوغ آيات الطبيعة واعتمالات القلوب
بشرى مع البدر المنير ونرقب الفجر المهيب
ونقبل الورد الندي ونجتلي شفق الغروب
ونشم نوار الربى ، أو سوسن الوادي الرطيب

ومثل هذا نراه في مقدمة قصيدته التي تحدث فيها عن الجامعة الإسلامية ، وكانت موضوع مساجلة بينه وبين صديقه رجب الماجري ، في مجلة ليبيا .

ومهما يكن من أمر فقد كانت شاعرية تربح تبشر بخير كثير ، ولكنا لا ندري ماذا صارت إليه ، بعد أن أتيح لصاحبها أن يأخذ طريقه إلى أمريكا ، وأن يأخذ مكانه في معاهدها ، يستكمل دراسته . نرجو ألا تكون هذه الشاعرية الناشئة قد تلاشت أو ذوت في ضجيج تلك الحياة .

أما ثالث هؤلاء الشعراء الذين يمكن أن نتمثل فيهم نشاط هذا الجيل الشعري ، وهو علي الرقيعي فنمط مختلف عن سابقيه .

ونحن من الرقيعي إزاء شاعر يمثل ـ تمثيلاً ما ـ أحد الوجوه التي نطور إليها الشعر العربي في عهده الأخير ، وقد رأينا صورة منه عند مواطنه الشاعر الطرابلسي ، علي صدقي عبدالقادر . وهو ذلك الوجه الذي ظهر

في بعض البيئات الأدبية بعد الحرب العالمية الثانية ، وحاول أن يغير من مفهوم الشعر ومن صورته .

ويبدو أن الرقيعي لم يكد يستكشف في نفسه موهبة الشعر حتى أقبل على شعر الشعراء الابتداعيين ، أو الرومانسيين ، وخاصة الشابي ، فاتجهت شاعريته وجهته ، واصطنع أسلوبه ومنهجه . ولكنه لا يكاد يمضي في هذه السبيل ، حتى يلوح له نمط آخر من الشعر ، أكثر تحرراً ، وأقوى تجاوباً مع الحالات النفسية التي تسيطر عليه وتغمر مشاعره . ولعلنا نستطيع أن نتمثل هذه الحالات في الحديث الذي يتحدث به هو عن نفسه ، ويرويه عنه الأستاذ محمد الصادق عفيفي في كتابه (الشعر والشعراء في ليبيا) إذ يقول :

« كان مولدي مرتبطاً بمأساة وجدانية بمجرد إلقائي في هذا الخضم الزاخر من الحياة ، فمنذ أن شعرت بأن وجودي يغتصب له حيزاً في الوجود ، ومنذ أن عرفت الحياة ، وتحسست قلبي ، وجدت نفسي أعيش عيشة لها صدى يصطخب في أعماقي ، وجدت قلبي يتأرجح في فراغ هائل سحيق ، ووجدت طفولتي من نوع خاص ، فقد كانت شقية بائسة ، تكتنفها موجات غامرة من الحرمان والإحساس بالمرارة . كنت أعيش بقلبي فأرى الحياة عن طريق هذا القلب : تلهف وشوق وحنين . ولقد مررت بتجربة إنسانية عنيفة عندما أحببت فتاة بكل ما في قلبي منْ ألم وحرمان ، وبكل ما في جوارحي من ظمأ إلى العطف وإلى الشوق . . بعد أن فقدت والدتي ، ثم وجدت نفسي خائفاً ، فابتدأت أهرق كياني ، وأعصر قلبي في آهاتي الشعرية ، فربما وجدت فيها متنفساً » .

وهذه الروح الحزينة المتشائمة التي تعبر عنها هذه الكلمات سارية في شعره كله ، كما يمثله لنا ديوانه الذي أصدره سنة ١٩٥٧ ، وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، في مثل هذه القصيدة التي انتهج فيها نهج الشعراء الرومانسيين :

في موكب الأوهام في ركب الهواجس والضنى
أمل تلاشى في مفازات الكآبة والعنا
دامي الجوانح ذاوي الأشلاء مصدوع المنى
يهوي إلى الجرف السحيق فلا ضياء ولا سنا
كفنت أحلامي الحيارى الغاربات مع الغيوم
ودفنتها بربى المفاوز في متاهات السديم
في ذمة الليل المهوم بالغشاوة والسهوم
ورجعت أسخر لا أبالي بالمواجع والهموم

إني غريب سادر عبر المجاهل في الظلام
أمشي بأقدامي الكليلة فوق مرذول الرجام
متعثراً أخشى السقوط من الوراء من الأمام
وهل الغريب البائس المنهوك يحفل بالمدام

أأعيش في هذي الحياة صدى كئيباً كابيا
لا شيء إلا الذكريات الباكيات لحاليا
إلا أنيني والدموع الطافحات بدائيا
أرتاد بيداء الهموم مجرجراً أغلاليا

متجرعا عسف السياط المشرعات مع الهجوع
غصصا كئيبات الأنين من الفظاظة والدموع
تطغى على قلبي المعذب باللظى العاتي الشنيع
وتذيب إحساسي المغمغم بالرجا الباكي الضريع

إني غريب تائه في مهمة قفر جديب
إني فقيد كالتقى في قلب شيطان غضوب
لا بهجة تضفي علي ولا أنيس ولا حبيب

إلا المواجع فظة هوجاء والدمع الصبيب

لا شيء يغري بالبقاء فكم أحن إلى الرحيل
للغيهب المسدول ، للغز المحير ، للأفول
للتيه ، للوادي الملفع بالدجنة والذبول
بل للفنا ، للقبر؛ يا تعس النهاية والمحول

قصيدة تنضح حزناً وألماً ووجيعة وحيرة ويأساً . وهي تدل دلالة واضحة قوية على إحساس مرهف مفرط شديد التوفز ، وعلى استجابة شعرية قوية . ولكن هذا الإحساس المفرط بتعاسته أخذ ينعكس على ما حوله ، فأكثر ما يرى في الحياة قد اتخذ صورة شقية تعسة ، أخذت شاعريته تنفعل بها ، فجعل يعرض صور هذه الحياة ، وقد التجأ في تصويرها إلى ذلك النمط الآخر من الشعر ، وهو النمط الأكثر تحرراً من قيود النظم ، وكأنه ـ إلى جانب ذلك ـ أكثر ارتباطاً بمثل هذه المشاهد ، وهو أقدر ـ عنده ـ على أدائها . فأكثر النماذج التي عرضت له من هذا النمط إنما هي تعبير عن التعاسة الإنسانية التي ينفعل بها ، ويتجه إلى تصويرها .

وهكذا مضى الرقيعي يرسم صوراً من حياة الحرمان والجوع والشقاء ، في ألوان صارخة ، نستطيع أن نرى نموذجاً منها في هذه السطور من قصيدته : « هياكل في الطريق » :

في الليل تحميهم كهوف
مثل المقابر قاتمات لا ضياء
الكل يصرخ في عياء
الطفل والبنت الصغيرة والرضيع
يا للزمان وقسوة الألم الفظيع
حتى الرضيع
لا أم تزجيه الحليب ولا الغذاء

يا للأسى ولكن يريع
نضبت حلوق الثدي من فيض الندى
والبنت والطفل الصغير تصايحا
أواه ! من عنت المواجع والشقاء
والأم تجهش بالبكاء
حيرى تحدق في متاهات الفضاء
أين الغذاء
أواه ! هل مات الرجاء
لا من يجيب لها دعاء
لا شيء يرحم غير أنات الصدى :
« أين الغذاء » ؟!!

إلى آخر القصيدة التي تمضي على هذا النحو .

وليس من شأننا هنا ، في مجال التاريخ الأدبي ، إلا أن نحاول ربط الظواهر الأدبية بأسبابها وملابساتها ، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك فيما يتعلق بهذه الظاهرة . ولكن هناك شيئاً آخر يفرض نفسه على القارىء ، وهو أن الشاعر لم يقف عند التحرر من قيود الشعر ، وإنما مضى بعد ذلك يتحلل من قوانين اللغة ، باعتبارها مفردات لها دلالاتها ، وتراكيب لها أصولها ، مما يمكن أن يقال في تفسيره إن التحلل شيء يستتبع بعضه بعضاً . ولكنا نحب أن نقرر هنا أن هناك أمراً خطيراً لا بد منه لكل شاعر ، وهو الشعر القديم الذي تتمثل فيه روح اللغة وعبقريتها ، يتمرس به ، ويأخذ نفسه بدرسه وتذوقه ، ثم يأخذ بعد ذلك فيما شاء من مذاهب الشعر . ولكن شاعرنا أعفى نفسه ـ فيما يبدو ـ من هذه الثقافة الأدبية التي لا معدل للشاعر عنها ، فحرم شاعريته من هذا العنصر الضروري من عناصر التكوين الأدبي ، وهذه الأداة الأولى من أدوات التعبير الفني . ولو أنه جمع إلى ما يحسه قارئه فيه من شدة الذكاء ورهافة الحس وسرعة الانفعال وقوة العاطفة ثقافة أدبية شاملة ، لكان جديراً بهذه الشاعرية أن تبلغ مبلغاً ممتازاً من ناحية

الصور الفنية والصياغة الأدبية والأداة التعبيرية ، ولتجنب ما يلاحظ في شعره أحياناً من تعثر .

على أنا نرجو ـ وهو ما يزال بعد في غضارة السن ـ أن يكون غده خيراً من يومه وأمسه .

وبهذا الحديث عنه تنتهي هذه الدراسة ، وإن كان مجال القول فيها ما يزال ذا سعة ، وخاصة هذه المرحلة الأخيرة التي تزخر بألوان من النشاط الشعري جديرة أن تدرس على حدة ، وتزدهر بطائفة من الشبان الشعراء وددنا لو أتيح لنا أن تتناول هذه الدراسة شعرهم ، فما تركنا ذكرهم تجاهلاً لهم ، ولا إيثاراً عليهم . وإنما كان لا بد في مثل هذه الدراسة أن نذكر بعضاً وندع بعضاً .

وبعد ، فإذ بلغنا نهاية الجولة التي أردنا أن نتبين فيها مراحل الحياة الأدبية في ليبيا ، كما يمثلها الشعر ، منذ نشأة هذه الحياة بنشأة السنوسية فيها ، فإنا نضع القلم ، معتذرين عن تقصير لم نقصده ، أو خطأ لم نتعمده . وما أردنا بهذه الدراسة إلا أن نتعرف الخطوط الكبرى في صورة هذه الحياة ، وأن نتبين المعالم البارزة في هذه الرحلة . فإذا كنا وفقنا فالله وحده هو ولي التوفيق . وهو وحده أهل الثناء والحمد . أما إذا كان التوفيق خاننا فيها أو في بعضها ، فحسبنا أننا حاولنا وبذلنا الجهد في المحاولة ، في حدود ما نملك من وسائل ، وما أتيح لنا من أسباب .

شنقيط ، أو موريتانيا
حلقة مجهولة في تاريخ الأدب العربي

- ١ -

جلا التحقيق الذي نشرته « مجلة العربي » عن « نواكشوط » عاصمة موريتانيا الإسلامية صورة رائعة من صور الوطن العربي ، وجانباً مجهولاً من جوانبه . وقد مضى العربي بذلك في الأسلوب الذي اصطنعه لتوثيق الصلة بأجزاء هذا الوطن أو تجديدها ، مذكراً بالعلاقة الوثيقة التي تربط شعب موريتانيا بالأمة العربية ، وهي العلاقة التي ظل الاستعمار يحاول قطعها أو توهينها ، منذ فرض على المغرب العربي كله نطاقاً من العزلة الصارمة ، وأقام ذلك السد الحديدي الذي ما زال به يشيده ويشد جوانبه ويرم ثغراته ، ليحول بين شعوب المغرب وسائر الأمة العربية . وقد قرر في نفسه أنه مستطيع وراء ذلك السد أن ينشىء جيلاً يخلقه بيده ويصنعه على عينه ، بحيث لا تلبث العروق الواشجة أن تذبل ، والصلات العريقة الوثيقة أن تهن وتضمحل .

وهذا الإسم الذي يطلق الآن على هذه البلاد ، موريتانيا ، هو اسم استحدثه الاستعمار الفرنسي ، حين أطبق عليها وأنشب مخالبه فيها ، استحيى به اسماً قديماً يرجع إلى عهد الاستعمار الروماني للشمال الأفريقي . وهو الاستعمار الذي كان الاستعمار الفرنسي يرى نفسه إحياء له ، وصورة مستأنفة من صوره .

أما الاسم الذي كان يطلق من قبل على هذه البلاد فهو شنقيط ، الذي عرفه أهل المشرق والمغرب جميعاً دالاً على ذلك الإقليم من أقاليم العالم الإسلامي والعربي ، موحياً بتلك الصورة الرائعة المشرقة من صور النشاط العلمي والأدبي ، كما تتمثل في علمائه الذين يتألق بهم تاريخ الفكر الإسلامي ، وفي تلك الطائفة من العلماء والأدباء الذين كانوا ما يزالون يفدون على المشرق ، ويبعثون في أرجائه ألواناً من ذلك النشاط . ولعل شيئاً من أصدائه ما زال يتردد في ذاكرة بعض الشيوخ في مصر ، حين جاء إليها محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي ، ومن بعده أحمد بن الأمين الشنقيطي . كما لا يزال علماء الأزهر يذكرون اخر هذه الطبقة ، وهو العالم المحدث الشيخ حبيب الله الشنقيطي ، وقد كان من أساتذته الذين تركوا أثراً بليغاً في أبنائه وطلابه .

فكأنما كان إبطال هذا الاسم ، واستبدال ذلك الاسم الروماني به ، محاولة لمحق هذه الصورة ، ووسيلة من الوسائل التي أراد بها الاستعمار أن يفرض العزلة على هذه البلاد ، إذ يقطعها من ماضيها ، بإزالة كل ما يذكر بهذا الماضي الذي هو ـ من ناحية أخرى ـ أقوى وجوه الاتصال بينها وبين المشرق العربي .

ولا ريب أن شنقيط بلد عربي صادق العروبة ، منذ دخله الإسلام ، فاتخذه أهله ديناً لهم ، كما أصبحت لغته هي اللغة السائدة بينهم ، يصطنعونها في حياتهم اليومية ، وفي وجوه نشاطهم الأدبي والفكري ، واندمجوا به في الأمة العربية التي انتشرت وأنبثت عروقها ما بين حدود الهند وشواطىء المحيط الأطلسي ، وشاركوا في مشاعرها وفي تاريخها وفي صور نشاطها ، وأصبحوا لا يعرفون غير الجنس العربي جنساً ينتمون إليه . حريصين عليه فخورين به . حتى إن قبائل البربر ، التي كانت تمثل أهل البلاد الأصليين الذين طرأ العرب عليهم ، حريصة جد الحرص على ألا ينتزعها وصف البربر من العروبة . بل انها لتغلو في الانتماء إليها ، حتى لتذهب إلى أنها أعرق عروبة من العرب الأخرين ، إذ ترجع بعروبتها هذه

إلى عرب اليمن القحطانيين ، وهم العرب العاربة ، أما العدنانيون فهم عرب مستعربة .

يقول السيد أحمد بن الأمين الشنقيطي في كتابه : « الوسيط في تراجم أدباء شنقيط . . . » ، في الفصل الذي عقده للكلام على « سكان شنقيط وجنسهم » ، بعد أن ذكر أن سكانها من حيث الجنس ـ في الأصل ـ قبائل من البربر التي كانت تقطن صحراء المغرب . ثم دخلها العرب في الفتح الإسلامي ، فتغلبوا عليهم ، فصاروا قسمين : عرباً وبربراً ، ثم تجنسوا جنسين : الزوايا والحسان :

« وحيث أوضحنا لك انقسامهم في الأصل ، فلنتكلم على ما هم عليه الآن ، فنقول : ما رأينا أحداً منهم يقر على نفسه بأن أصله من سكان تلك البلاد (أي من غير العرب) ، إلا أن قبيلة لمتونة حفظ لها التاريخ أصلها . والخلف في لمتونة بين المؤرخين قديم ، فالأكثر أنهم من حمير ، ودخلوا بلاد المغرب في الجاهلية » .

وما جاء في تحقيق « العربي » من المفاخرة بين العدنانيين والقحطانيين ، إنما يرجع إلى هذا الذي أشار إليه صاحب كتاب الوسيط ، وماذكرناه من حرص جميع أهل شنقيط على الانتماء إلى العروبة ، سواء في ذلك العرب وبقايا البربر .

كما يدل هذا على أن الاستعمار الفرنسي لم يستطع ـ مع كل ما توسل به إلى اقتطاع هذه البلاد من الوطن العربي ، وانتزاع الشعب الشنقيطي من الأمة العربية ـ أن يبلغ من ذلك ما ظن أنه بالغه . ذلك أن إحساس هذا الشعب بعروبته إحساس عميق ضارب في أغواره البعيدة ، وربما كان إحساسه بالعزلة التي فرضتها الطبيعة عليه ، والصحارى المترامية التي أحاطت به ، مما زاده تشبثاً بهذه العروبة وحرصاً عليها ، واستبقاء سعلاقة الباطنية التي تصله بالعالم العربي الذي يرى نفسه جزءاً منه ، قوية متجددة .

وكان من ذلك هذه العناية البالغة باللغة العربية تعلماً ودرساً وتذوقاً ، وهذا الحرص الشديد الذي ما زال يسيطر على الشعب الشنقيطي أن يحقق عروبته بتعليم العربية الفصحى وإجادتها ، كما يتبين ذلك مما جاء في تحقيق « العربي » أن حاكم مدينة بوتلميت قال عن حالة التعليم في مدينته : « لا يوجد أمي واحد في مدينتنا ، فجميعهم يقرأون ويكتبون ، بل يحفظون ألفية ابن مالك » .

وهذه الصورة التي نراها اليوم تطابق الصورة التي رسمها لنا الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي ، قبل الاستعمار الفرنسي ، إذ يقول عمن يطلق عليهم اسم الزوايا ، وهم أحد جنسي الشعب الشنقيطي ـ كما أشرنا منذ قليل ـ أنه لا يوجد من بينهم ذكر أو أنثى إلا يقرأ ويكتب ، فلا أمية فيهم .

على أن الأمر لا يقف ـ في هذه الصورة ـ عند تعليم القراءة والكتابة ، بل يمضى إلى ما وراء ذلك من الدراسات الإسلامية والعربية المختلفة ، تبدأ بالقرآن حفظاً له ، ودرساً لقراءاته ، ثم يختلف الأمر بعد ذلك بحسب القبائل والبلدان ، فمنهم من يأخذ في الدراسات الدينية ، ومنهم من يبدأ بالدراسات الأدبية . « ولكل جهة اعتناء ببعض العلوم أكثر من بعضها »، كما يقول الشيخ أحمد بن الأمين .

على أن أبرز ما في هذه الصورة وأقواه دلالة على قوة التطلع إلى المعرفة ، والحرص على الثقافة الإسلامية العربية ، عند شعب شنقيط ، هو الجانب الذي يصور الجهد الشديد البالغ الذي يبذله كل من العالم والمتعلم في سبيل بث العلم وتحصيله ، وهو جهد يتجاوز حدود ما نعهد من الطاقة ، ولا سبيل إلى تفسيره إلا بالحب الشديد العميق الجذور البعيد التغلغل في احناء الضمير الشنقيطي للمعرفة العربية بألوانها المختلفة : دينية وأدبية . فهذا الحب هو الذي يمنح طالب العلم الشنقيطي القدرة على مقاومة العقبات ومغالبة الصعاب ، إذ يترك أهله من أجل الأستاذ الذي اشتهر بالعلم ، دون أن يكون معه مال يعتمد عليه في اغترابه ، وإنما عليه أن يدبر أمر معاشه بنفسه ، فهو يراوح بين تلقي العلم ورعي البقر أو

الإبل . كما يمنح الأستاذ القدرة على مكابدة ما لا يحصى من الأتعاب ، كما يقول الشيخ ابن الأمين ، إذ ينقضي يومه كله في التدريس متنقلاً بين هؤلاء وأولئك من طلابه . وبين هذا الكتاب وذاك من الكتب التي يشرحها لهؤلاء الطلاب . ثم هو مع ذلك « مورد للضيوف وللمستفتين ولطلاب الحاجة . وليس للقاضي ولا للمدرس هناك أوقاف تصرف عليهما ، ولا يأخذ احدهما من الطلبة ، بل قد يعطيهم من يده » .

ويبدو أن هذه العلاقة الشديدة بالعربية وفنونها والدين وعلومه لم يستطع الاستعمار الفرنسي ، على شدة دهائه وقوة سلطانه ، أن يقتلعها . وإن حاول أن يقمعها ، كما نرى ذلك في القصة التي قصها « العربي » في تحقيقه عن « رحلة الأهوال في سبيل العلم » . وهي قصة جديرة بالتأمل ، لما تحمل من الدلالة على مبلغ إيمان الشناقطة بالعلم والعروبة ، واحتفاظهم بما رأينا من قدرتهم ـ قبل الاستعمار ـ على تحدي المخاطر في سبيل ذلك .

فالصورة التي قدمها « العربي » عن الشعب الشنقيطي في الوقت الحاضر ، لا تكاد تختلف عن الصورة التي أداها لنا صاحب « الوسيط » عن هذا الشعب في الماضي ، من ناحية الحوافز الإسلامية والعربية التي تعمل في داخله ، وتوجه نشاطه . والتي جعلت منه شعباً شاعراً . إلى جانب كونه شعباً عالماً . وهذه الشاعرية تصدر عن الحرص على العربية والتراث العربي ، إلى جانب الموهبة الشعرية والمزاج الفني .

وإذا كانت هذه الشاعرية لم يتح لها في الوقت الحامر من يصلنا بها ، ويرسم لنا بعض صورها ، ويعرض لنا شيئاً من نتاجها ، فلا نكاد نعرف عنها إلا ما يشير إليه صاحب تحقيق « العربي » ، إذ يقول : « وسألناهم : كم عدد سكان موريتانيا ، فأجابونا : مليون شاعر . نعم فكل أهالي موريتانيا شعراء » ، فقد أتيح لنا أن نعرف هذه الشاعرية معرفة كافية ، ونتبين كثيراً من صورها في خلال القرنين السابقين للاستعمار الفرنسي ، إذ استطاع أن يجلوها لنا الكتاب الذي تعددت الإشارة إليه في

هذا الفصل ، وهو كتاب « الوسيط في تراجم أدباء شنقيط » . وهو ـ فيما أعلم ـ الكتاب الوحيد الذي ندين له بمعارفنا عن هذا الأفق القصي الذي يقع في أقصى أطراف العالم الإسلامي العربي .

ويرجع تأليف هذا الكتاب إلى أوائل هذا القرن . ألفه في مصر أحد علماء الشناقطة الذين كانوا يفدون عليها ، عابرين أو مقيمين . وهو الشيخ أحمد بن الأمين . وقد وفد على مصر بعد أن أدى فريضة الحج ، وطوف في العالم الإسلامي ، يتصل بعلمائه ، ويطلع على خزائن الكتب في مختلف أرجائه ، حتى انتهى به المطاف إلى مصر . وقد بلغها ـ فيما نقدر ـ سنة ١٩٠٢ ، فاستقر بها . وكانت مصر قد أفاقت من الغاشية التي غشتها بالاحتلال الانجليزي ، فجعلت تراجع نشاطها وتستجد ألواناً من النشاط أخرى ، فأجمع الشيخ أمره على أن يشارك بما يملك من ثقافة إسلامية وعربية في هذا النشاط ، فأخرج كتاب « الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع » لجلال الدين السيوطي ، ثم لم يلبث أن رأى مواطنه الذي كان قد سبقه إلى المقام بمصر ، محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي . يثير معركة لغوية نحوية على النحاة ، يخطئهم فيما ذهبوا إليه وقرروه في مختلف كتبهم وأصبح من قواعد النحو الأولية ، من أن عمر ممنوع من الصرف . وقد استطاع بهذه المعركة أن يثير جو الحياة الأدبية في مصر ، حتى صارت حديث الناس جميعاً ، بين جاد وساخر . وكان ابن التلاميد عنيف الخصومة ، حاد الطبع ، سريع البادرة ، مبالغاً في التهجم . وكان ذلك مما أتاح لهذه المعركة أن يشتد أوارها ، وأن تتردد في كل مكان أصداؤها . ولم يقف ابن الأمين بمعزل عنها ، فشارك فيها مشاركة علمية جادة بكتاب ردّ به على مواطنه ، سماه : « الدرر في منع عمر » .

ومضت حياة ابن الأمين في مصر نشيطة مستمرة ، كما تدل على ذلك قائمة كتبه التي أخرجها في خلال الأعوام العشرة التي أمضاها فيها . وكانت سنة ١٩١١ ، قبل وفاته بعامين ، من أخصب سني حياته في مصر ، فقد أخرج فيها أربعة كتب . منها كتابان لابن مالك ، هما : « الإعلام

بمثلث الكلام » ، و « تحفة المودود في المقصور والممدود » ، والثالث هو « كتاب شرح المعلقات العشر وأخبار قائليها » ، وأخيراً هذا الكتاب الذي يعرض لنا صورة من الحياة الأدبية في شنقيط ، ويتيح لتاريخ الأدب العربي هذا العالم الجديد من عوالم المغرب التي أغفلها ، إذ قامت الحجب بينه وبينها .

وإذا كان ابن الأمين قد اصطنع في كتابه الأسلوب الذي يعتمد في تصنيف الشعراء قبائلهم التي ينتمون إليها ، فإنا ـ مع ذلك ـ نستطيع أن نحدد الفترة التي عاش فيها هؤلاء الشعراء بالقرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ، أو الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد ، وهي ـ فيما نحسب ـ الفترة التي استطاعت الرواية ـ وكانت هي المصدر الأول للمؤلف ـ أن تحتفظ فيها بشعر هؤلاء الشعراء . حتى أتيح له أن يدونه في هذا الكتاب . وإذ لم يسبقه إلى مثل هذا الصنيع أحد ، فقد وقفت معرفتنا بالحياة الأدبية في هذا القطر عند هذه الفترة . ولو أتيح لهذه الحياة من قبل من يدون صور نشاطها لكان لنا أن نقف على نشأتها وتطورها حتى صارت إلى هذه الصورة . ولو أتيح لها بعد ، في عهد الاستعمار الفرنسي ، من يعنى بتسجيلها لاستطعنا أن نتابع هذا التطور ، إن كان ، ونتبين وجوهه ، ولعل الله يقيض لهذا الأفق من آفاق العروبة ، في نهضته الحاضرة ، من يعني به من هذه الناحية ، ويسد بذلك هذه الثغرة في تاريخ الأدب العربي .

على أن الصورة الأدبية التي نراها لشنقيط في هذين القرنين جديرة أن تعدّل الحكم الذي اتفق مؤرخو الأدب على إطلاقه على الأدب العربي عامة في هذه الفترة ، فهو عندهم ، وكما تقتضي آثاره التي بين أيديهم ، أدب يمثل الضعف والركاكة والفسولة ، في صياغته وصوره ومعانيه . فهذه الصورة تمثل لنا الأدب في وضع مختلف يأبى هذا الحكم أشد الإباء ، فهو ـ في جملته ـ أدب جزل بعيد عن التهافت والفسولة .

وهذه الجزالة التي نراها واضحة في الشعر الشنقيطي الذي بين أيدينا ، عامة ، ترجع ـ فيما نحسب ـ إلى الحرص على التراث الأدبي

القديم الذي يمثل العروبة في أنقى صورها وأدقها ، وذلك ـ كما قلنا ـ وجه من وجوه الحرص على العروبة نفسها . وهذا الحرص جعل الأديب الشنقيطي وثيق الصلة بهذا التراث ، فكون له عالمه الباطني الخاص الذي يوجه شاعريته ، والذي يمده بالمادة اللفظية والصورية . وإلى جانب ذلك كان عالمه الخارجي الذي يعيش فيه عالماً شديد الشبه بالعالم الذي صدر عنه الشعر الجاهلي الذي فرض مثله على الأدب العربي القديم ، وفوق هذا فقد ظلت شنقيط معزولة تقريباً عن سائر العالم العربي ، وعن المشرق خاصة ، بعيدة عن التأثر بالعوامل التي أضعفت الأدب فيه ، بقدر ما كانت وثيقة الصلة بالمثل الفنية التي يمثلها الشعر القديم ، فهي تكاد تكون مقصورة عليها .

فلا جرم كان هذا الشعر الذي يعرضه صاحب « الوسيط » يختلف اختلافاً غير قليل عن الشعر في المشرق ، في هذه الفترة .

وهذا الشبه القريب بين طبيعة الحياة في شنقيط وطبيعة الحياة في البادية العربية ، كان مما أتاح لشعراء شنقيط أن يعارضوا شعراء العرب الأولين ، معارضة أصيلة ، تبدو للقارىء وكأن لا تكلف فيها ولا تصنع ، وإنما يمضي الشاعر فيها على سجيته ، ويمتح من طبيعته ، إذ كان يصدر فيها عن عالمه الباطني الخاص الذي أشرنا إليه والعالم الخارجي جميعاً .

والمعارضة هي ـ في حقيقتها ـ نوع من أنواع الاستلهام الفني : يعيش الشاعر في قطعة من الشعر ، فلا تلبث أن تخالط شاعريته بموسيقيتها وصورها وإيحاءاتها والجو العام لها . وتظل أصداؤ ها الصورية والموضوعية تتردد في جوانب نفسه . فإذا شاعريته تنطلق من هذه « الحالة الفنية » التي سيطرت عليه واستغرقته ، ماضية معها ، وكأنما هي استمرار لها . ومن هذا القبيل ـ فيما نحسب ـ كانت معارضات الشاعر الشنقيطي امحمد بن الطلب اليعقوبي لجيمية الشماخ بن ضرار ، وميمية حميد بن ثور ، ولامية الأعشى . وقد كان معتزاً بها ، مغالياً بقيمتها الفنية ، يرى أنها تستطيع أن تقف بإزاء أسلافها في موقف سواء . فكان يقول ـ فيما حكى عنه ـ بعد أن

أتم قصيدته الجيمية : « أرجو من الله أن أقعد أنا والشماخ بن ضرار في ناد من أهل الجنة . وننشد بين أيديهم قصيدتينا، ليعلم أيهما أحسن . ومثل هذا قاله أيضاً عن ميميته التي عارض بها ميمية حميد بن ثور .

وامحمد بن الطلب اليعقوبي صاحب هذه المعارضات شاعر من فحول شعراء شنقيط حتى ليسميه صاحب الوسيط « نابغة شنقيط » . ونستطيع أن نرى فيه صورة واضحة الملامح من صور الحياة الأدبية في هذا الأفق من آفاق العروبة في القرن التاسع عشر .

وكان اليعقوبي هذا لا يكتفي بما تعرضه البيئة البدوية التي يعيش فيها من صور شديدة الشبه بالحياة العربية التي يمثلها الشعر العربي القديم . وما تفرضه من أساليب في الحياة أدنى إلى أساليب العرب القدماء في باديتهم ، والتي جعلت شعره وما يرسم فيه من صور فنية أدنى إلى أن يكون شعراً طبيعياً نابعاً من صميم شاعريته لا تكلف فيه ولا افتعال . بل كان يأخذ نفسه فوق ذلك بألوان من الحياة لم تعرفها بلاده ، وإنما كانت تفرضها عليه رغبته الشديدة في أن يكون صورة عربية شديدة العروبة ، فتتمثل في شخصيته جميع سماتها لا يغادر منها شيئاً . ومن ذلك ، مما يذكره ابن الأمين عنه ، « أنه كان يبري النبال ، فيصطاد بها الوحش ، لشغفه باقتفاء العرب » .

فلا جرم جاء شعره ، سواء ما قصد به إلى معارضة شعراء العرب الأوائل أم ما قاله ابتداء ، شعراً عربياً رصيناً ، من ذلك الطراز الذي نعرفه عند شعراء الجاهلية ومن إليهم . فالحياة الظاهرة التي كان يحياها حياة عربية بدوية أشبه بتلك الحياة ، والحياة الباطنية التي كانت تسيطر على مشاعره ، وتسود وجدانه ، حياة عربية خالصة أيضاً ، والمثل الفنية التي انصرف إليها ، واستغرق فيها ، والتي نشأت شاعريته عليها ، مثل عربية نقية .

على أن في شعر اليعقوبي ظاهرة يختلف بها عما نعرفه عن شعر الشعراء التقليديين في المشرق عامة ، ترجع إلى ما ذكرنا من صلته ببيئته

وصدوره عنها . فقد درجوا على أن يوشعوا شعرهم بأسماء بعض الأماكن العربية البدوية ، كنجد والحاجر وسفح اللوى وأبرق العلمين ، استكمالاً للطابع البدوي الذي يريدونه له ، ويحاولون صوغ شعرهم عليه . أما اليعقوبي ـ وشأنه غير شأنهم ـ فليس عنده من ذلك إلا أسماء الأماكن الشنقيطية التي يعيش فيها ، حريصاً عليها حفياً بها ، كأنما يعبر بها عن حبه وحنينه . وقد كان من أهل (يترس) ، وهم ـ كما يقول صاحب الوسيط ـ أشد الناس كلفاً ببلادهم . وكان يرى تخليدها في شعره من تمام الوفاء لها . كما نرى ذلك فيما يقوله ابن الأمين في هذين البيتين من قصيدته التي عارض بها لامية الأعشى :

هل ترى من حجائلٍ باكرات   من لوى الموج عامدات الزفال
سالكان من نقب (زِلّى) ، عليها   كـل جيداتـه خلوب الدلال

قال : « وزلى ـ بفتح الزاي وسكون اللام وياء منونة (؟) ـ جيل بيترس معروف . يروى أنه لما نظم هذا البيت بربر من فرحه ، وقال : كدت أموت وله على دين . لأنه لم يذكره في شعره قبل هذا » .

فذلك وجه من وجوه صلة اليعقوبي ببيئته ، وانعكاسها في شعره.

وبعد ، فليس من شأننا ، في هذا الفصل ، أن ندرس الحياة الأدبية في شنقيط ، فنتقصى أسبابها وملابساتها ، ونغرق في تحليلها وتعليلها . فما كان بنا إلا التنبيه إلى هذا العالم المجهول من عوالم الأدب العربي ، وهذا الموطن المنسي من مواطن الثقافة الإسلامية . نلفت إليه نظر مؤرخي الأدب العربي والفكر الإسلامي ، ليتجهوا إليه ويولوه الموفور من عنايتهم ، حتى يأخذ مكانه الجدير به ، وحتى نقضي بذلك حق العلم والعروبة .

(٢)

وكنت كتبت هذا الفصل منذ نحو أربعة عشر عاماً ، عقب قراءتي استطلاعاً نشرته مجلة العربي الكويتية ، في عددها الصادر في شهر أبريل سنة سبع وستين وتسعمائة وألف ، بعنوان : (نـواكشـوط ، أحدث عاصمة

في أقصى منطقة من وطننا العربي) . وكان أكبر ما يعنيني في هذا الفصل أن ألفت نظر مؤرخي الأدب العربي والفكر الإسلامي ، إلى ذلك الإقليم من أقاليم العروبة الذي لا يكاد يذكره منهم أحد ، وإلى ذلك الوجه المشرق من وجوه النشاط الأدبي والعقلي ، وقد اختفى في ذلك الركن القصي . وقد داخلتني الخشية أن يكون استحداث اسم (موريتانيا) لذلك الإقليم ، وأن يكون هو العلم الذي يعرف به ، بعد أن نال استقلاله ، وأصبحت له شخصيته الخاصة ، مما قد ينسي اسم (شنقيط) الذي كان يطلق من قبل عليه ، فارتبط به تاريخه ، وعرفت به صورته الأدبية والعقلية ، فيصبح وكأنه إقليم جديد لا علاقة له به ، منقطع الصلة بذلك الماضي المجيد وتلك الصورة الرائعة ، وتحقق بذلك للاستعمار الأوروبي ما يرمي إليه قطع أواصر موريتانيا بما كان اسم شنقيط يثيره ، وقد عصفت به رياح السياسة ، كما جعلت رمال الصحراء تطغى على تلك المدينة التي كان يحمل اسمها ما ينطوي عليه من مآثر .

كان ذلك هو أكبر همي وأنا أكتب هذا الفصل متمثلاً ما يحدثه تغيير الأسماء من قطيعة في كثير من الأحيان . ولم أكن أعلم ، إذ ذاك ، أن هناك كتاباً صدر من خمس سنوات ، يعرف بملامح موريتانيا الأدبية ، في ماضيها وحاضرها ، كتبه عالم أديب شاعر ، عرف هذه الملامح من قرب ، هو الأستاذ محمد يوسف مقلد . فقد كان ينبغي لو أنه أتيح لي أن أنوه به وبما بذله فيه من جهد ، وبما كشف عنه من آفاق مجهولة في الشرق العربي .

ولكنها الجناية التي يجنيها على رجال الفكر ما يعانيه وطننا العربي من تمزق أوصاله ، وتقطع العلائق التي كان ينبغي أن تكون ـ كما كانت من قبل ـ ممتدة حية وثيقة بين أهله ورجاله . فلا نكاد نعرف من أمر هذا الإقليم أو ذاك إلا ما يريد رجال السياسة الذين يصرفون أقداره أن نعرفه . ولعل مما حجب هذا الكتاب عني ما تصطنعه بعض دور النشر أحياناً من وجهة نظر معينة في إذاعة ما تنشره ، كما حدث لي ، وقد حاولت أن

أحصل ، في مصر ، على نسخة من كتاب (عيون البصائر) للبشير الإبراهيمي ، فلم أوفق ، مع أنه طبع في مصر ، ولم يتح لي إلا بعد أن التمسته في الجزائر ، وتفضل بعض الأخوان هنالك بإرساله إلي . فلعل شيئاً من ذلك كان من شأن كتاب (شعراء موريتانيا) الذي تولت نشره مكتبة الوحدة العربية في الدار البيضاء ، وإن طبع في بيروت ، وكان من سياستها في ترويجه وتوزيعه أن تختص بذلك أقاليم المغرب العربي ، وخاصة ما يقع منها في جوار موريتانيا ، إذ هو ـ كما جاء في مقدمته ـ « مؤهل لأن يكون له رواج غير محدود في أفريقيا السوداء ، وخاصة في دكار ، العاصمة الثقافية الأولى لأفريقيا العربية كلها ، وحيث يكثر بين الأفارقة السود عدد المثقفين بالثقافة العربية » .

لعل هذا وذاك وما لا أدري كان مما حال بيني وبين هذا الكتاب ، فلم يتفق لي إلا في تونس ، بعد كتابتي ذلك الفصل بسنوات خمس ، فصادفته في إحدى مكتباتها، فأقبلت عليه . حتى إذا أخذت في هذه الأيام أراجع بعض الفصول التي أتيح لي أن أكتبها عن الحياة الأدبية في المغرب العربي ، ومن بينها هذا الفصل عن شنقيط أو موريتانيا ، فقد وجب علي ، أداء لحق المنهج العلمي ، أن أرجع إلى هذا الكتاب أعيد قراءته . وأن أبدي وجه العذر في عدم ذكري له ، وأدفع عن نفسي شبهة تقصير ربما كانت قد ألمت بي إذ ذاك .

ولا ريب عندي في أن الحياة الأدبية في موريتانيا قد أتيح لها من الأستاذ مقلد ما جعل كتابه عنها كتاباً فريداً في بابه بحق ، كما أتاح له ما توفر له وما وفق إليه فيه ما يبرر نفحة الزهو التي تطالع قارئه ، منذ صفحته الأولى ، إذ يقدمه إليه بأبيات رقيقة يقول فيها :

إقرأ ، فإني ضامن لذة مجموعة من أدب البادية
هذي قطوف ذللت بعدما ظلت زمانا لم تكن بادية
بعثتها للناس من مرقد ما كان غير الصدر والواعية

وإذ يقول بعد ذلك في مقدمته : « ها إن عاماً تاريخياً جديداً من

عمري ، حاملاً عملاً جديداً ، أملاً فريداً ، عسى أن يكون هذه المرة فألاً سعيداً » . ويعني بذلك العام التاريخي عام اثنتين وستين الذي صدر هذا الكتاب في مطالعه .

وكما يشي بذلك ما يقوله في هذه المقدمة أيضاً ، وقد عرض فيها ـ لكتاب الوسيط الذي وضعه من خمسين عاماً أحمد بن الأمين الشنقيطي ، ووصفه بأنه « الكتاب الوحيد المبين المطبوع منذ نصف قرن ، الذي حفظ لموريتانيا قدراً لا بأس به من شعرها القديم ، حتى اليوم » . إذ يعقب على ذلك بقوله : « واليوم أستطيع أن أقول ، بكل فخر واعتزاز ، أن كل أهمية قديمة كانت للوسيط وغيره قد انتهت بصدور كتابي هذا ، الذي جمع فأوعى من كل قديم وحديث ، مما سيجعله بإذن الله عملاً طليعياً في نظر أساتذة الأدب والشعر ، إلى أن يأتي ـ بعدي ـ من ينسج على منواله ، ويؤلف في موضوعه ، ويفوقه كماً ونوعاً وشمولاً ، إذ لا أحب عندي ولا أشرح لصدري ، والله ، من أن يكثر عدد المهتمين بهذا القطر الموريتاني العزيز » .

وبهذا الكتاب الطليعي الذي يبدو أنه لا يزال جديراً بهذه الصفة رأي أن له الحق في أن يعتبر نفسه سفير موريتانيا الدائم في بيروت ، إذ يتجه إلى الموريتانيين قائلاً : « أنا هو سفيركم الأدبي في المشرق قبل أن تفكروا في إنشاء السفارات ، أنا هو سفيركم الدائم في بيروت بلا سفارة . وبيروت معناها الشرق كله ، والغرب كله ، وأشياء عظيمة عديدة أخرى » .

وإذا كانت الحياة الأدبية في موريتانيا تدين لهذا الكتاب بما أرخ لها ، وسجل من آثارها ، وأبرز من ملامحها ؛ فإن هذا الكتاب قد أتيح له من مؤلفه ما جعله ـ كما قلنا ـ فريداً في بابه . وأول ذلك ـ كما نستطيع أن نراه واضحاً في كتابه هذا الذي بين أيدينا ـ أنه من ذلك الطراز الذي يجمع إلى العلم الذي يمثل الاطلاع الواسع والروح العلمية والأدب والمزاج الأدبي . ومن أول فنون العلم المتصلة بموضوع كتابه فن التاريخ ، وتاريخ المغرب خاصة ، والحياة الثقافية فيه ، وفيما عالجه في الشطر الأول من كتابه ما يدل على هذا الجانب من جانبي شخصيته .

وقد بنى هذا الشطر على موضوعات خمسة . جعل لكل موضوع منها فصلاً خاصاً به ، وهي : في مدار التاريخ ، وفي مدار اللغة وعبقريتها وانتشارها في آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وفي مدار الشعر ، وهجرة الأدب العربي إلى إسبانيا والمغرب وموريتانيا ، والمجتمع القبلي في موريتانيا . ومعالجته لهذه الموضوعات تدل أولاً على روحه العلمية التي دفعت به إلى استقصاء مصادرها . والحرص على ألا يفوته شيء منها . والتهدي في رجوعه إليها وصدوره عنها ، فجاءت واضحة الدلالة على ما أصاب من إحاطة بجوانبها ، ومن بصيرة نافذة في الاستنتاج والتصوير .

ويبدو أن هذه الصفة العلمية غلبت عليه غلبة زحزحته إلى ما قد يعتبر من المآخذ التي تؤخذ على كتابه ، إذ أسلمته إلى غير قليل من المسائل ، يعرض لها ويأخذ في بحثها ويقلب وجوه الرأي فيها ، دون أن تكون وثيقة الصلة بالموضوع الأساسي الذي بني عليه كتابه .

وأما صبغته الأدبية ، بما تتضمن من رؤ ية واضحة لتفصيلات ما يقع تحت ناظره وإحساس دقيق به ، وتعبير صاف عنه ، يتسم بالموسيقية والدقة جميعاً ، فذلك ما نراه في كثير من مواضع كتابه ، نثراً فنياً أو شعراً ، يجمع إلى الرقة والأناقة الوثاقة والجزالة . وسنرى من نثره الفني ما يمثل هذه الخصائص تمثيلاً بارعاً ، في بعض حديثة عن أصحابه ، وبعض مشاهد حياتهم .

أما الشعر فقد رأينا نموذجاً منه يدل على طواعيته له في الأبيات التي أوردناها من قصيدته التي قدم بها كتابه . وقد أورد بعد من هذه القصيدة أبياتاً أخرى منها في سياق شكواه من السياسة التي أفسدت عليه « هواء الصحراء العربية الموريتانية الطيب » ، وقرن إيراده لها بأنه قالها منذ سبعة عشر عاماً ، أي سنة خمس وأربعين . وكان قد شارف ، فيما نقدر ، الخامسة والثلاثين من عمره .

بل إن له قصيدة أخرى وصفها بأنها طويلة ، أورد في هذا الكتاب ثلاثين بيتاً منها ، وقال عنها أنه قالها من نحو خمس وعشرين سنة ، وكان

إذ ذاك قريب عهد بالهجرة إلى غرب أفريقية ، فانعكس فيها شيء من مشاعره وهو يصف بها القطار . يقول فيما يتحدث به عن اتجاهه فيها : « ولا ريب في أن ذلك يرجع ـ عندي ـ إلى عنصر الحنين ، كإنسان مهاجر طرى الذكريات » .

ومن هذا القبيل قصيدته التي جعلها في موضوع (البريد الجوي) ، وقد قال عنها وعن سابقتها أن شاعريته التقت فيهما ـ مصادفة ـ مع شاعرية المختار الحامد .

فهو إذن شاعر مطبوع على الشعر يستجيب لدواعيه النفسية ، مؤمن به مغال بقيمته ، كما يدل على ذلك ما يذكره به في غير موضع من كتابه ، كالذي يقوله فيما يقدمه به :

« إن الأدب كان ، ولا يزال ، في ماضي البشرية وحاضرها ، عنصر بناء عظيم الخير في إسعاد الإنسانية التي طالما أشقتها السياسة في القديم والحديث شقاء ما بعده من شقاء .

إني ، في الحقيقة ، لا أنسجم مع نفسي وروحي ، ولا أشعر بسعادة لا حد لها ، إلا حين أتعاطى الأدب وحده . وإني إذ أجدني أخاطبه كشخص معنوي ، ليسعدني كذلك أن يكون لسان حالي معه ـ في مخاطبته ـ كلسان ذلك الذي قال لحبيبته :

فليت الذي بيني وبينك عامر   وبيني وبين العالمين خراب »

وهذه النزعة الأدبية القوية التي لا بد أن تكون قد نشأت عنده وتمت ، وهو بعد في مواطنه الأصلي ، جبل عامل ، قبل أن يتخذ طريقه مهاجراً إلى غرب أفريقية ، كما هاجر الكثيرون من أبناء الشام إليه ، وقد حملها في أطوائه معه ، كانت هي التي لفتته في ذلك الأفق الجديد من آفاق العالم الإسلامي إلى ذلك الجو الأدبي ، وكانت هي التي أقبلت به على تلك الحياة الأدبية يتنسم أريجها في ذلك الوسط الذي جعلت أعماله التي يمارسها هنالك تنتقل به بين أرجائه .

ولعل هذه السمة التي يمتاز بها ذلك العالم كانت أمراً جديداً بالقياس إليه ، فلم تكن الصفة الأدبية ، بل ولا اللسان العربي ، مما يذكر به ، أو مما هو شائع بين عامة المثقفين من أمره . فلا جرم كان ما لقيه فيه من ذلك مما زاده اغتباطاً به ، إذ وجد في هذه البيئة الجديدة التي هاجر إليها ما يتجاوب مع تلك النوازع التي تفيض بها نفسه . وبقدر ذلك كان سكونها إليها واسترواحه بها .

ونستطيع أن نتبين شيئاً مما كان يجول في نفسه إذا نحن تأملنا ما يقوله ، وهو يتحدث عن نفسه ، في سياق الفصل الذي عقده للمقارنة بين الشعر اللبناني والشعر الموريتاني :

« . . . فأنا ـ إلى حد ما ـ شاعر بيئة فلاحين جبلية ، هي جبل عامل التي تشبه حياتها القروية ، من وجوه عديدة ، حياة البيئة الموريتانية . لذلك غلب على معظم شعري ، وخاصة شعر الصبا ، طابع الصورة المحلية التي لا يتذوق جمالها ويدرك محاسنها إلا من عرف بيئتي حق المعرفة ، كما هي الحال مثلاً مع أي شاعر موريتاني لم ينطلق من أفقه المحلي » .

وإذا كانت جمهرة المهاجرين قد وجدوا في مثل هذا الشبه بين مواطنهم الذي نشأوا فيه ومهاجرهم الذي تحولوا إليه ما هو جدير أن ينشر السكينة عليهم ، ويبعث الطمأنينة في قلوبهم ، ويسددهم في طرائق حياتهم ، فإن شاعرنا وجد ـ إلى جانب ذلك ـ في ذلك الجو الأدبي الذي يعبق به ذلك الأفق ، ما يجتذبه إليه ، ويملأ قلبه روحاً به .

وكان ذلك الأفق يتمثل في موريتانيا والسنغال ، وهما ، في حقيقة الأمر ، وحدة واحدة ، وإن كان لكل منهما اسمه وإدارته المحلية ، يفصل بينهما نهر السنغال . وإذا كانت هجرته قد اتجهت أول ما اتجهت إلى السنغال ، فاتخذ من بودور التي تقع على نهر السنغال مقر عمله ، فإن طبيعة أعماله كانت تقتضي أن يكون دائم الترحال والسفر بين السنغال

والسودان وموريتانيا ، وأن يكون كثير التنقل بين بودور وروسو وسان لويس ، وقد أتاحت له هذه الرحلات والتنقلات أن يظفر لنوازعه الأدبية بما يتجاوب معها ، وخاصة عند هؤلاء الشعراء الموريتانيين الذين كانوا هم أيضاً يتنقلون بين موريتانيا والأقاليم المتاخمة لها . وكان ظفره بهذا يقع منه موقع الحاجة التي جعل يتشوق إليها ، كما كان يجد فيه ما يخفف شيئاً من لواعج الحنين التي كان يضطرب بها صدره .

ولا ريب أن هذه الحاجة قد اشتد الحاحها عليه ، بعد أن نشبت الحرب العالمية الثانية ، وضاقت عليه وعلى سائر الناس الأرض بما رحبت ، وكان لا بد لرجل مثله أن يستحدث لنفسه عالماً نفسياً يلجأ إليه ويجول فيه ويتسع به ، فكانت هذه الصلات الأدبية ، يستجيب بها إلى نوازعه ، ويجد فيها منطلقا للدوافع الفنية التي يموج بها صدره .

ولعل من أقوى هذه الصلات التي أتيح له أن يعقدها في هذه الفترة ، وأبقاها ، صلته بالمختار الحامد الذي كان يطلق عليه في بلاده ـ كما يقول ـ لقب (ابن خلدون الثاني) . وقد تحدث عن أول اتصاله به حديثاً شائقاً يؤدي إلينا صورة من جو هذه الصلات وملابساتها ، وصورة من بعض جوانب الحياة في موريتانيا والسنغال ، إلى جانب ما يعرض لنا من خصائص أسلوب الأستاذ مقلد في نثره الفني ، مما أشرنا إليه ووعدنا أن نستوفيه هنا . ومن ذلك كله لا نرى بأساً في أن نورد هنا هذا الحديث برمته . قال :

« كنت في سان لويس سنة ١٩٤٢ . وذات يوم ، بينما كنت أجتاز شارع هنري لوبرن ، إذ حانت مني التفاتة إلى حانوت بيضاني كان لي معه سابق معرفة في بودور ، فأتيته مسلماً ، وإذا بجماعة من الأخوان الموريتانيين متحلقين على الأرض ، حول عدة الشاي ـ الآتاي ، كما يسمونها ، يأكلون التمر والتشتار (لحم مقدد) ، ويشربون الآتاي ، ويتناشدون الأشعار .

في ذلك الحانوت الصغير (الندوة) الذي كانت تفوح منه رائحة السمك المقدد والمنيجة (التبغ) ، وتتراكم فيه النعال على النعال ، وأجربة الجلد (المزاود) . أجل في ذلك الحانوت الموصوف الذي تختلط فيه الأشياء والحياة اختلاطاً فوضوياً عجيباً جلست . . أستمع إلى شعرهم وحكاياتهم ، وألاحظ حياتهم البادية ـ نسبة إلى البادية ـ الأنيسة » .

صورة دقيقة بارعة لأحد المجتمعات الموريتانية ، تمثل وجهاً من وجوه حياة الموريتانيين حين يجتمع بعضهم إلى بعض ، وقد جاءوا إلى سان لويس في السنغال لبعض ما يدعوهم إليه فيها ، فلم ينسوا ندوة الشعر والشاي ، تمثيلاً واضح الخطوط والملامح قوي التعبير دافق الحيوية ، لا يلبث أن يداخل مشاعر القارىء ويتصل بنفسه اتصالاً مباشراً .

ثم تجيء بعد هذه الصورة صورة المختار الحامد ، كما اتجهت للمؤلف أول مرة :

« في تلك الجلسة التقيت ، لأول مرة ، بالمختار الحامد ، عالم البيضان وأديبهم المعروف . بدوي . . . هزيل ، ضعيف البنية ، يبدو على وجهه الشحوب من أثر السفر والسهر والإجهاد والاكباب على الكتابة والكتب . يضاف إلى ذلك كله سوء التغذية ، بل الجوع . فالزمان ـ ١٩٤٢ ـ زمان حرب وضائقة وغلاء معيشة ، يوصف بالغلاء الأسود . وقل من يجد الحيلة أو السبيل للحصول على الحاجة ، وعلى ما يقوم بأوده من طعام مقنن أشد التقنين .

ذو لحية مستديرة كثة ، قد تنفشت ونفذ بعضها على بعض في غير رعاية . . عمرها ما عرفت مقصاً ولا مشطاً ولا موسى ، ورأس منفوش (مكزبر) الشعر ، ووجه أشعث أغبر ، كأنه هو الذي عناه ابن أبي ربيعة بقوله . كان هذا هو المختار الحامد الأديب الكبير ، والعالم الشهير في تلك الأصقاع » .

وبعد هاتين الصورتين البارعتين : صورة ذلك المجلس الشعري في

حانوت البيضاني ، وصورة المختار الحامد ، تجيء صورة الاتصال الأول للمؤلف به . يقول :

« جلست أتأمله ، وقد خلع البصارات (النظارات) عن عينيه ، وانصرف إلي بجماع نفسه . يحدثني بلسان عربي مبين .

علمت منه في تلك الجلسة (البيضانية) أنه معنى منذ أربع سنوات بتأليف كتاب جامع عن موريتانيا . فسألته : إن كان يحمله معه . أقصد الاطلاع على طريقتهم في الكتابة والتأليف ، فنهض ومضى غير بعيد ، وأتى بجراب .

قلت : أريد الكتاب . فما هذا ؟ قال : نعم . سمعت ذلك . فانتظر حتى ترى ما في الجراب .

ما كان أحوجني ، ساعتئذ ، إلى رسام ماهر يرسم المختار الحامد ، والجراب ، وما حوي الجراب .

إن له قفلاً لا كالأقفال ، طويلاً ذا لسانين ، يدخل أحدهما في ثقوب متجاورة عند قم الجراب ، فتشده ، ككيس جندي الحرب ، ومفتاح أصفر طويل لا يفتح إلا به .

لله ما حوى الجراب ! هي ذي جهود سنوات طوال من الأسفار والاطلاع والكتابة ، مئات من الصفحات المسودة ، تتضمن كل شاردة وواردة ، قديمة وحديثة ، عن بلاد شنقيط . . وها هو ذا ياقوت ثان يظهر في أرض المغرب الأفريقي » .

ذلك هو اللقاء الأول الذي أتيح للأستاذ مقلد مع المختار الحامد ، بقيت صورته بدقائقها ماثلة في نفسه ، مؤثرة في وجدانه ، حتى أداها ذلك الأداء البارع ، وهو يكتب كتابه . وقد يكون لهذا دلالته على مبلغ تأثره بهذا اللقاء . فلا علينا أن نزعم أنه كان مبدأ لما أخذ فيه ، وأنه كان يمثل الشرارة التي لم تكد تتصل به حتى فجرت ذخائر الكيان الأدبي الكامن في نفسه .

وربما كان من آثار ذلك أن امتدت صلته به وتعمقت ، وتعددت اللقاءات الأدبية بينه وبينه ، واستيقظت شاعريته ونشطت في المساجلات التي كانت تصبغ لقاءاتهما بصبغتها الفنية المفتنة . وقد حكى بعضها فيما عرض له من المقارنة بين الشعر اللبناني والشعر الموريتاني ، في الفصل الخامس من فصول كتابه . وهو فصل له قيمته فيما نحن فيه ، وذلك بما يشتمل عليه من شعر المؤلف في أوائل عهده بأرض المهجر ، وما يصور مثل هذا الشعر من مشاعر وأحاسيس تحلق على هذه الفترة ، ثم بما كان يصدر عن هذه اللقاءات في ذلك العام ، من ذلك الشعر الذي ساقه في معرض المقارنة ، ونرى فيه نحن صورة من مشاعر شاب هاجر من وطنه ، وقاوم الحنين الذي ما زال يلذعه ويهيج ذكرياته .

على أن أول ما يعنينا ، ونحن نتحدث عن (شعراء موريتانيا) ومؤلفه الأستاذ مقلد ، ونحاول أن نتبين أولياته ، أن ذلك اللقاء الأول مع المختار الحامد كان الذي أثار الجانب العلمي في شخصيته ، بقدر ما هاج شاعريته والجانب الأدبي عنده . فكما أنه « صاحب قريحة مواتية ينظم الشعر بالسرعة التي يكتب بها النثر » ، كما يقول في صفته ، كذلك هو عالم « له مؤلفات تاريخية وجغرافية عديدة ، أهمها (تاريخ وجغرافية موريتانيا الحديثة) ، وهو موسوعة كبيرة شهدها المؤلف مخطوطة سنة ١٩٤٢ تملأ جراباً كبيراً . ولعلها هي التي تحدث عنها في حديثه عن ذلك المجلس الأول ، والذي أوردناه عنه منذ قليل .

فلا جرم كان هذا الكتاب الذي شاقه أن يراه في ذلك المجلس ، وإن يكن « يقصد الاطلاع على طريقتهم في الكتابة والتأليف » ، مما نشط به إلى جمع مادته ، والتهيؤ لوضعه . وربما كانت فكرة مثل هذا الكتاب قد نشأت عنده من قبل ، بحكم تكوينه الأدبي الذي كان عنده في المكان الأول ، وقد أثارت دهشته هذه السمة البارزة من سمات الحياة في موريتانيا . ولكن هذه الفكرة لم تتبلور في ضميره ، ولم تأخذ سبيلها إلى التنفيذ إلا بعد مجلسه مع المختار الحامد ، وحديثه معه عن كتابه الذي

جمع فيه كل شاردة وواردة ، قديمة وحديثة ، عن شنقيط ، فلم يلبث ذلك أن بعث الحياة في هذه الفكرة ، وحركها من مكمنها ، ليتناول بها الحياة الأدبية في هذا الإقليم من أقاليم العروبة .

وليس هذا الذي نذهب إليه استظهاراً منا فحسب ، ولكنه قد صرح بقريب منه ، وهو يتحدث عن ذلك اللقاء في سان لويس ، إذ يقول :

« كانت تلك الجلسة سبباً عظيماً لرسوخ فكرة وضع كتاب أدبي ، كهذا الكتاب ، عن القوم عندي .

ومنذ تلك الساعة المسائية السانلويسية التاريخية من خريف سنة ١٩٤٢ شرعت في تنفيذ الفكرة ، وبدأت بتعميق اتصالاتي وتوسيعها ، ما أمكنني الحال ، بحياة أولئك الأخوان العرب المجهولين عندنا . كما أن داري في (بودور) السنغال أصبحت من تلك الأمسية فندقاً لجميع طبقات القوم من نخبة وعلية ودون ذلك ، ينزلون بها على الرحب والسعة . ولا عاش كل بخيل » .

هكذا نشأت لدى مؤلف (شعراء موريتانيا) فكرة كتابه هذا جنيناً في أعماقه ، ترددها خواطره ، وهكذا أتاحت لها تلك الجلسة السانلويسية أن تخرج من عالم الغيب إلى عالم الشهود ، وهكذا جعلت مادته تجتمع لديه بمن كان يستضيفهم في داره ببودور ، إلى جانب ما كان يتاح له منها في تنقلاته وجولاته ورحلاته ولقاءاته . وفكرة الكتاب ما تزال نصب عينيه وملء خاطره ، إلى أن اجتمع له ـ كما هو نص كلامه ـ « من شعر القوم ما صار مادة لكتاب اسميته في بادىء الأمر (مسارح الأذهان ، فيما جادت به قرائح البيضان) . » . . . « وبقي هذا الكتاب في سريرة الزمن مجرد أوراق محفوظة سجلت فيها ، إلى جانب القصائد ، بعض الخواطر العاجلة . ولما عدت إلى لبنان في ربيع سنة ١٩٥٠ شرعت أبني منها المقالات الأدبية عن شعراء موريتانيا في عدد من صحف بيروت ودمشق » .

وإذن فقد عاد الأستاذ مقلد ذلك العام إلى لبنان من مهاجره ، بعد أن

طال اغترابه ، وألح الحنين عليه ، واستصحب في عودته ذلك القدر من الشعر الذي اجتمع له . أو ـ كما يقول ـ « غير أن الغربة طالت ، ودعت الحاجة ـ الظمأ إلى الأدب يومئذ ـ إلى أكثر من قربة واحدة لاطفاء الحريق الرائع ، فملأت عدة قرب ، وأتيت بها لبنان لأسقي منها من يحب » . وكانت وسيلته إلى (السقي) هو هذه المجلات الأدبية ، كمجلة العرفان في صيدا ، وقد أرسل إليها لتنشر بها قصيدة بن أحمديّ أحد كبار الشعراء المعاصرين ، سنة ١٩٥٢ ، ومجلة العلوم البيروتية فيما بين سنتي ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ ، ومجلة الجندي الدمشقية سنة ١٩٥٦ .

وفي هذه الأثناء كانت الأوضاع السياسية في غرب أفريقية آخذة في التغير ، وما إن جاء عام ١٩٥٨ حتى كانت موريتانيا دولة مستقلة ، لها حكومتها من أبنائها ، ودستورها الخاص بها . وكأن مشاعر الأستاذ مقلد قد اهتزت لذلك ، ومضت تطلعاته تجوب العصور التاريخية ، فإذا هي تمثل له « كأنها استئناف جديد لدولة المرابطين في القرن الخامس » ، على حد قوله . وكأنما تمثل له ما كانت تعني هذه الدولة من قوة بأس وسعة سلطان وحدت أقطار المغرب ، أو هذه المنطقة خاصة .

ومنذ لاح ذلك في الأفق برز في خاطره حلم قديم ، لعله نشأ لديه منذ رأى كتاب صاحبه المختار الحامد (تاريخ وجغرافية موريتانيا الحديثة) وظل موضع اهتمامه ، أن يجعل من موريتانيا الحديثة موضوع كتاب خاص ، يصنعه بأسلوبه ، ويودعه خواطره وآراءه وتطلعاته المنبعثة من الصورة المجيدة لدولة المرابطين القديمة ، غير ملق بالاً إلى ما أثار قيام دولة موريتانيا من تيارات سياسية مختلفة . وإنما هي تلك الصورة الرائعة التي تطل عليه من وراء القرون فتبهره ، وفكرة الوحدة التي تتجاوب بها الدعوات العربية فتهز مشاعره . ومن ذلك جاء هذا الكتاب على غير ما كان يقدره ، فلم يكد يصدر سنة ١٩٦٠ حتى أثار عليه من الأعاصير والعواصف ما ضاقت به نفسه ، مما نرى أصداءه مترددة في غير موضع من كتابه هذا الذي بين أيدينا : شعراء موريتانيا ، إذ يقول مثلاً :

« . . . أما هناك ، في كتاب (موريتانيا الحديثة) ، فقد قدمتها صورة سياسية ، كان لغيري غنمها وعلي غرمها ، صورة ذات ملامح عديدة : بشرية وتاريخية ومصيرية ، نغصت علي هناءة العيش ، ونفرت عني قلوب الأخوان الذين عرفتهم وأحببتهم ، بمن فيهم الذين خدمتهم والذين أغضبتهم على السواء . كل ذلك في سبيل ما أردت إبرازه مخلصاً عن الشخصية الموريتانية والحقيقة الموريتانية التي شقيت بسببها ردحاً طويلاً من الزمن » .

ومع هذا فلا يزال عنده أن كتاب (موريتانيا الحديثة) ، بما تضمنه من تلك الملامح العديدة : بشرية وتاريخية ومصيرية ، ضروري لمن أراد أن يعرف ذلك الإقليم معرفة حقة ، وذلك إذ يقول فيما يعرف به كتابه (شعراء موريتانيا) : أنه « من الناحية الموضوعية شقيق كتاب موريتانيا الحديثة ، أو الجزء الثاني من الموضوع إذا شئت . فالقارىء الذي يهمه أن يعرف موريتانيا والموريتانيين معرفة تامة لا بد له من الاطلاع على الكتابين معاً ، وإلا ظل علمه عن البلاد وأهلها ناقصاً » . ثم يعقب على ذلك بقوله ، دالا على ما تعرض له الكتاب : « ونصيحتي الأخوية إلى الذين حرموا قراءة الكتاب الأول في موريتانيا أن ييسروها لمن أرادها اليوم . فالحرية لا تخيف غير الضعفاء ، وعهدي بهم شجعان » .

ومهما يكن من أمر فإن أول ما يعنينا في هذا الفصل هو كتاب (شعراء موريتانيا) الذي رأينا أنه شرع في جمع مادته سنة ١٩٤٢ ، متخذاً من انشغاله به ، ما يدفع عنه مضاضة الغربة ، وقد جعل يتوسل بكل سبب يتاح له لإكماله ، سواء قبل أن يقطع هجرته ويعود إلى لبنان أم بعد ذلك . من ذلك ما يدل عليه قوله في حديثه عن محمد بن حميدة المشهور بـ (ولّ ابنو) : « وهو شاعر رقيق ظريف مشهور ، لم نوفق بالعثور على شعره الكثير المشتت في أذهان الرواة » ، وما يذكره ، وهو يورد أبياتاً سائرة يهجو بها تاجراً لبنانياً : « وقد تطلبت هذه القصيدة كاملة في محاولات عديدة ، فلم أعثر على من يرويها لي كلها ، ثم علمت قبل عودتي إلى

لبنان سنة ١٩٥٠ أن الشاعر توفي بعد نظم القصيدة المشار إليها بقليل ، رحمه الله » .

أما بعد عودته إلى لبنان فمما يدل على مبلغ ما كان حريصاً عليه من أن يكون كتابه صورة قريبة من الكمال ما يقوله في التقديم لما أورد من شعر المختار الحامد ، وأنه ليس إلا غيضاً من فيض :

« وكنا نود الحصول على شعر ثلاثة من فحول شعرائهم المعاصرين ، هم . . . وغيرهم . ولكن الرسالة التي طلبنا فيها هذا الطلب المستعجل من السيد محمد عبدالله ولد الحسن ، المستشار السياسي للحكومة ، رجعت بعد شهرين من وصولها إلى نواكشوط ، وعليها ختم بريد العاصمة بالفرنسية أنها ناقصة العنوان . وفي هذه الأثناء كان الكتاب قد انتهى تبييضه وأصبح في المطبعة » .

ولعل مثل هذا الذي لقيه من بعض المسؤولين في موريتانيا كان مما عناه ، وهو يعبر عن أسفه في موضع من كتابه لإغفال من كان يستمدهم العون لمشروع كتابه أن يمدوه ويرفدوه ، وذلك إذ يقول :

« نسجل بالغ أسفنا لتقصير الجهات الأدبية والحكومية بموريتانيا في تقديم العون الأدبي لنا ، وهي العليمة بما نقوم به منذ عقد ونيف من السنين في هذا الصدد المجيد . إن هذا الكتاب على غزارة مادته هو مجرد مجهود شخصي ، كان من الممكن أن يكون أوفى وأكثر إحاطة ودقة ، لو أن الجهات الموريتانية المعنية اشتركت معنا فيه نحوا من الاشتراك » .

ولعل هذا الذي كان يتطلع إليه ويعمل كل وسيلة للحصول عليه ، هو الذي أجل إخراجه ، إلى أن كان صيف سنة ١٩٦١ ، وقدم فيمن قدم للاصطياف في لبنان أحد شبانها الذين اغتربوا عنها إلى المغرب الأقصى ، واتخذ له في الدار البيضاء مكتبة أطلق عليها اسم مكتبة الوحدة العربية ، وذلك هو السيد أحمد عيسى . يقول الأستاذ مقلد : « فشجعني على إتمام الكتاب وتقديمه للمطبعة قبل حلول العام الجديد (١٩٦٢) ، وحينئذ

جرى اقتراح اسم آخر له ، فكان اسمه الحالي : « شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون) . » . وبذلك جاء كتاباً ضخماً ، استطاع أن يمسح به الندوب التي أحدثها كتابه الأول ، وأن يبشر فيه بكتاب يعقبه ، بجعله دراسة لبعض شعرائه . لا ندري إن كان تم له أم لا .

وبعد ، فها هي ذي قصة كتاب (شعراء موريتانيا) حرصنا على أن نقتصها ، ونستجمع اطرافها ، مما هو منثور في الكتاب عنها ، ومتفرق في مواضع مختلفة منه .

وكأنما دفعنا إلى ذلك دفعاً خفياً لنجري بمثل هذه القصة عن أن نسلك في التعريف بالكتاب ذلك المسلك المألوف ، من مسايرته ، وتتبع فصوله وموضوعاته . ففيها نستطيع أن نتبين كبرى خطوطه وملامحه ، مشتبكاً ذلك بتبين ملامح مؤلفه وخطوط شخصيته وملابسات حياته ، وخاصة ما كان منها وشيج العروق بفكرة هذا الكتاب ، منذ نشأت في أطواء ضميره ، خفية الركز ، إلى أن جعلت تشعره بنفسها وتطل أحياناً برأسها ، وتراود أحلامه وخواطره حيناً بعد حين ، إلى أن فرضت إرادتها ، فإذا هو آخذ في جمع مادة الكتاب والتنسيق بينها ، ورسم أبوابه وفصوله ، إلى أن أتيح له أخيراً أن يكون كائناً حياً مكتمل الشخصية ، بما نميزه عن غيره ، يتحدث إلى قرائه ويتحدثون إليه ، ويفضي إليهم بسرائره ، ويفضون إليه بما أمتعهم به .

وفي خلال ذلك تستطيع هذه القصة أن تشف عن بعض صور تلك الهجرة التي اتجه بها بعض أبناء الشام إلى غرب أفريقية ، وكانت هي الأصل في هذا الكتاب ، وذلك بما يتفق في سياق حديث المؤلف هنا وهنا عن بعض سلوكه فيها ، أو الأحداث التي عرضت له ، أو عن بعض أصحابه ومعارفه ، حديث الأديب الواضح الرؤية الدقيق النظرة والصادق التعبير . فتفيدنا من ذلك بما تفتقده ، فما أحوج هذه الهجرة إلى من يفرغ للتعريف بها ، فيكشف اللثام عن بواعثها وملابساتها ، وما جعل يداخلها

في شتى مراحلها وجميع وجوهها ، وما كان لها من أثر في وجوه الحياة المختلفة .

وإذا كان هذا الكتاب يعتبر - في حقيقته - أثراً من آثارها الأدبية ، لولاها لم نكن لنظفر به . فما أشد حاجة القارىء العربي إلى ما يصنع أمام عقله ووجدانه صورة تحيط بجوانبها المختلفة ، وتعرض لآثارها المختلفة في شتى جوانب الحياة ، كما أتيح له أن يعرف غير قليل ، عن حركة الهجرة إلى أمريكا والبرازيل .

وليت هذه الدعوة تجد من يستجيب لها ، قبل أن تنصل معالم هذه الحركة أو تندثر .

محتويات الكتاب